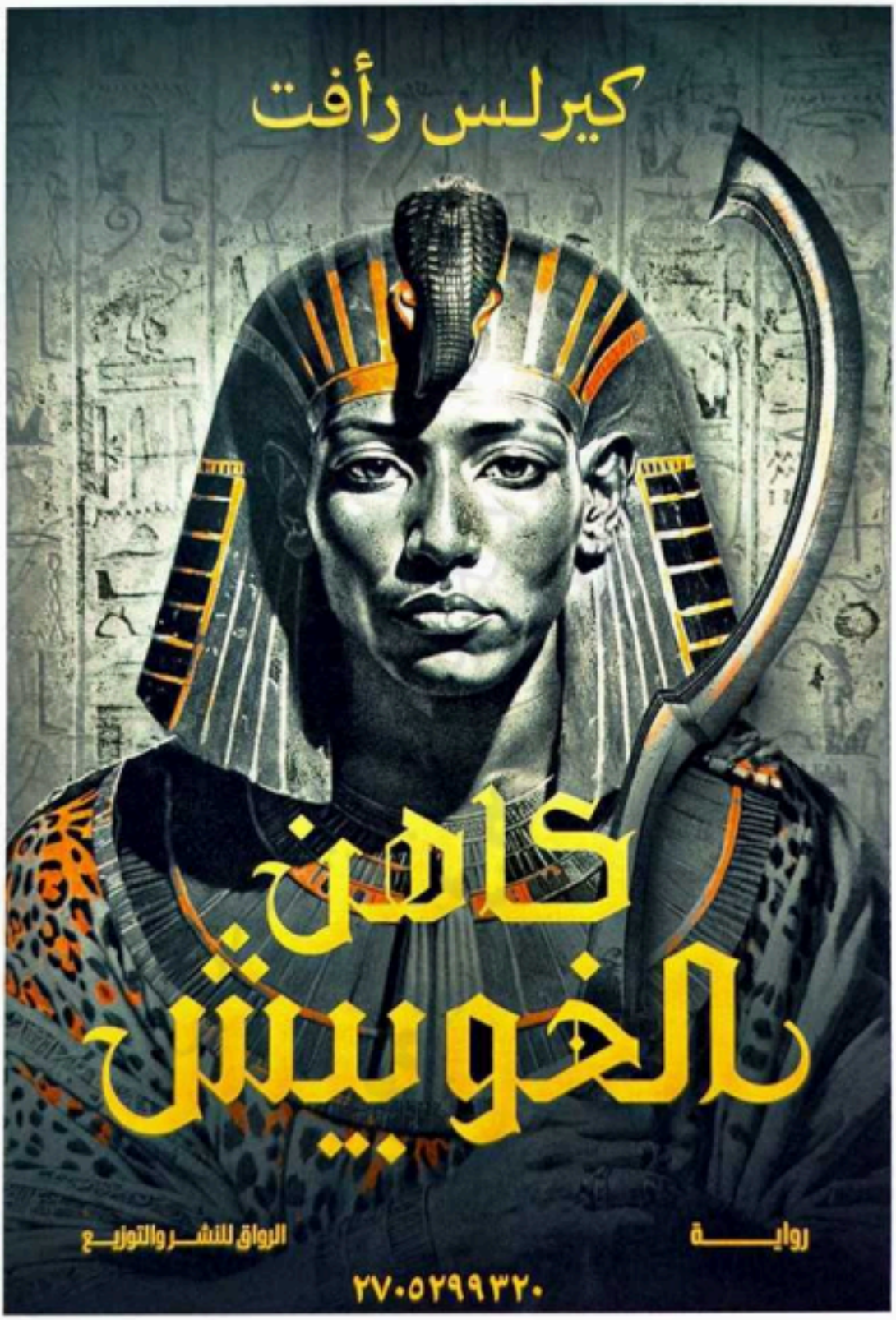
كيرلس رأفت
كاهن الخويش
رواية
الرواق للنشر والتوزيع
٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠

كاهن الخوبيش

كيرلس رأفت

الطبعة الأولى: يناير 2025

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

186 عمارات امتداد رمسيس 2
مدينة نصر - القاهرة - مصر
هاتف: 20220812006+
rewaq2011@gmail.com
www.alrewaqpublishing.com

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
الإخراج الفني: محمد عبد القوي مصيلحي
التدقيق اللغوي: منة سويد

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 824 - 259 - 1
رقم الإيداع: 31256 / 2024

٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠

Page 2 / 166

إهداء

إلى روح والدي العزيز، شكرًا على كل شيء، تمنيت أن تقرأ ما أكتب، أعلم أنك تشعر.

إلى روح الفنان شادي عبد السلام، شكرًا لأنك أضأت شمعة ببدن الظلام.

إلى د. أميمة الشال، شكرًا لأنك أثرت لنا آفاق سحرية لدراسة التاريخ.

إلى الصديق العزيز محمد محي، شكرًا على دعمك غير المحدود.

حصريا على روايات وكتب عربية عالمية
https://t.me/rwayat2025

شجرة العائلة الملكية في الجزء الأول من الأسرة الثامنة عشر عصر الإمبراطورية (الدولة الحديثة)

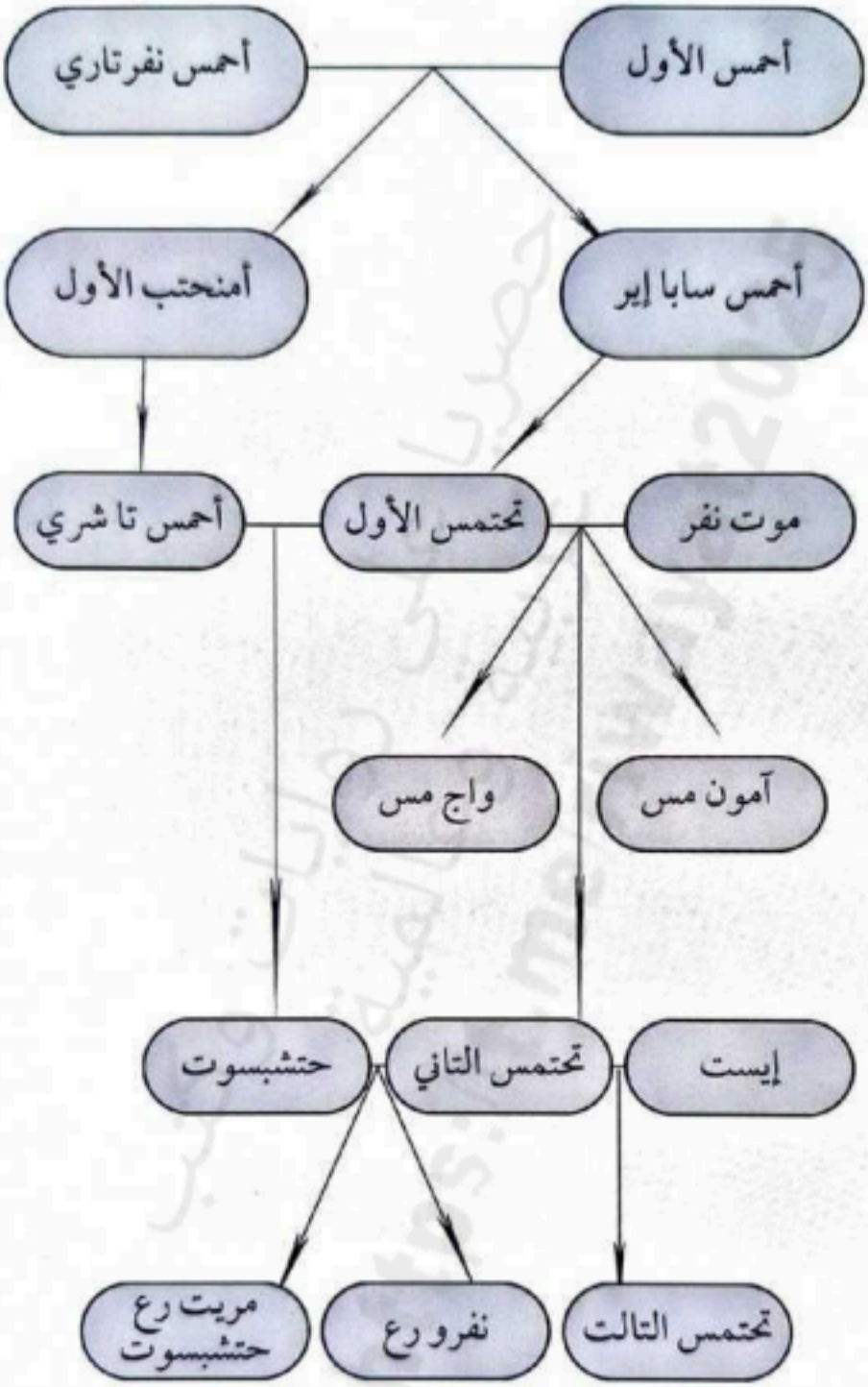

ما قبل البداية

ارتفع النترو(1) إلى السماء، وتُركت الأرض للبشر. إلا أن الاتصال بين العالمين لم ينقطع قط حتى الآن، فيحرك رئيس النترو آمون رع الأحداث بين الحين والآخر. آخر وأهم الأحداث هو طرد الحقاو خاسوت(2) على يد أعح مس(3) العظيم، الذي ترك عالم الأحياء منذ أقل من نصف قرن.

أما الآن بعيدًا في السماء، تلم الأجواء المهيبة عن حدثٍ جلل. فقد انهمك خنوم -رب الفيضان ومسؤول الخلق- في عمله، صانعًا الطفل تحتمس الثالث، الذي ولاه رئيس النترو آمون رع كل اهتمام. وجب على خنوم استحضار كل قوته، حتى يتمكن من إنجاز ذلك العمل العظيم، لذا اتخذ شكله السحري كجسم إنسان برأس كبش، فلكل نتر حيوان أو أكثر يمثل قوته وتواجده على الأرض في العالم المحسوس، ليخلق النتر مع رمزه المخصص مجالًا للاتصال من خلال ال "كا(4)".

أمر آمون رع بخلق طفلٍ مميزٍ، فاندمج خنوم بخلق بذرة تساهم بشكل كبير في تكوين شخصيته، لكن تبقى خيارات الطفل اللاحقة العامل الأساسي لتحديد مستقبله.

في أثناء ذلك، أشرف آمون رع على عمل خنوم، معتمرًا تاجه العظيم ذي ريشتي النعام الذهبيتين الطويلتين، عاقدًا يديه على صدره، مثبتًا نظره على الطفل، للتأكد أن عمل رأس الكبش يتم بمنتهى الدقة، فلا مجال للخطأ. عمت الأجواء قوى سحرية عظيمة، كاد يستشعرها البشر والنترو جميعهم. وبينما اقترب الموعد، تناثرت أطراف تلك القوى على كمت، مثيرة أجواء غريبة أيقظت الريبة في قلب الجميع. آن الأوان ليدخل أنف الطفل الحياة، وينبض قلبه للمرة الأولى خارج الرحم، ولاح الموعد في الأفق القريب. وضع آمون رع رهانًا كبيرًا على الطفل، فظروف حياته لا يمكن أن تسمى –عادية- لمن هو في مكانه.

اقتحمت ماعت، ربة النظام والتوازن الكوني، محل عمل خنوم في نوبة غضب، محاولة كبح جماح غيظها. كزّت على أسنانها لتتحدث بطريقة لائقة مع رئيسها، فقالت: "ها أنت تكرر الخطأ نفسه يا سيد آمون رع، يلزم أن يكون الطفل ابن الملك والملكة، لا ابن زوجة ثانوية ما، أم يجب علي تذكيرك بالمشاكل التي واجهت أباه لنفس السبب؟".

لم يلتقط آمون رع الطعم، ولم يستحثه تعليقها على خوض الحوار، فقد بلغ السأم منه مبلغه في محاولاته السابقة لتبسيط خططه العبقرية لباقي النترو دون طائل، فضلًا عن كونه رئيس الجميع بعد تلقي ترقية مثيرة للدهشة، من الرئيس السابق رع رب الشمس، منذ أكثر من خمسة قرون، بعد تفرُّغ الأخير لمهمته الجليلة؛ الإشراق كل فجر بعد الإبحار ليلًا بمركبته الشمسية في أهوال رهيبة ببدن السماء.

أجل آمون رع رده، وتصنع عدم الإنصات، فثبّت عينيه باهتمام على الطفل الجاري تشكيله بكبرياء مغلف بلا مبالاة، دفع ماعت لتفقد رزانتها المصطنعة، فصاحت مقاطعة لعمل سيد النترو: "عبثك بالقدر، واستمتاعك بإفساد الخطط، وكسر النظام، واللعب بمصائر البشر كلعبة سنت(5) قد يسبب كارثة. وترجمتك لوظيفة رئيس النترو كصلاحية للعب بالنظام خطأ كبير، خصوصًا بعد سلسلة المشاكل الكارثية التي لطالما أحاطت بالعرش".

ظهر الإحباط على وجه آمون رع، فاقترب منها ورد: "ماعت، أنت أداة عظيمة للنظام، منذ ملايين السنين وحتى الآن، استطعتِ المحافظة على الكون ونظامه المعقد في السجامه السرمدي، بالإضافة إلى دورك العظيم في وزن قلوب المتوفيين، مهامٌ عظيمةٌ وخطيرة تقومين بها على أكمل وجه. لكن كونك أداة للنظام الجامد لآلاف السنين، أفقدك إحساس الإبداع والمتعة، وتحولتِ لموظف نموذجي، محاط بقوانين وهمية. أعرف أنكِ لا تخرجين عن الحدود المرسومة، وإلا سيتدمر الكون كله، لكن حفاظكِ القاتل على النظام قتل الإبداع فيكِ".

"وما الإبداع في ذلك؟" سألت ماعت مشيرةً بيديها إلى عمل خنوم.

"ليس لدي أي مانع من التفسير، ولكنكِ لن تفهمي أي شيء خارج حدود معرفتكِ، لذلك لن تدركي الأمر.

دعك مني واستمري بدورك العظيم في الحفاظ على نظام الأجرام السماوية، وخط سير المجموعات النجمية، هناك عوالم متوازية بانتظارك، أما أنا فلدي خطة جاهزة للتنفيذ".

لم تحتمل سخريته المتكررة فقالت: "آه، خطةٌ عظيمةٌ بالطبع، كخطتك العظيمة التي أوصلت تحتمس الثاني للحكم؟ أو تقصد تلك الخطة الأعظم، التي انتهت بمجموعة من العامو يحكمون كمت؟!".

بشيءٍ من الإحباط والتململ أجابها: "رغم مناقشتنا لذلك الأمر سابقًا، وسخريتك الواضحة، لكن.. كلامك الساخر هو الحقيقة بعينها، كلها خطط عظيمة".

انتظرت ماعت التوضيح من سيد النترو، إلا أنه شغل عنها، وعاد إلى متابعة عمل خنوم..

بنفاد صبر صرخت: "اشرح لي، لم؟ ما خطتك العظيمة؟ وبم استفادت كمت من احتلال العامو؟ غير أنهم حكموا تحت راية صديقك اللدود ست فأصبح رئيسًا لنا؟ أغلقت المعابد، ولم يعد هناك من يشهد بالحق. لقد حذرتك منذ البدء عندما وفدت قبائلهم بأعداد كبيرة في زيادة مطردة، واستمرت هجرتهم غير المحسوبة لكمت، إلى أن تمكنوا من تشكيل مجتمعات مغلقة لهم. بلّغتك بنيتهم وخطورة وجودهم، بينما قابلت كل تحذيراتي كالعادة باستهتار. لا يمكنك حقًا التفرقة بين الإدارة والعبث.. يعرف الناس أنك غامض، لكن يجب أن يدعوك الجميع بالساخر، لأنها صفتك الأساسية، أتظنك ستظل رئيسًا للنترو لو عرف البشر مدى استهتارك بحياتهم وأقدارهم؟".

أجاب آمون رع: "الأمر ليس بيد البشر يا ماعت. وحاولي إظهار احترام أكثر وغيرة أقل، ولا تجعلي رفقي بكم وتسامحي معكم مبررًا لتعدي حدودك".

قاطعهم ست -الذي اقتحم المكان لتوه- قائلًا: "مع أنك ربة النظام، لكن لا يمكنك الإذعان للعدل، الذي جعل الأعظم منك يرأسك، ثورتك علي من قبل، أو على آمون الآن ليست إلا غيرة، ولا يمكنك حتى إخفاءها، ألا تعرفين يا ماعت أن البشر كلهم متساوون؟ لماذا تظنين أن شعب كمت أفضل من غيرهم؟ وأنه لا يمكن للعامو الآسيويين الوصول للحكم؟".

أثار دخوله التوتر. باستحقار واستنكار شديدين ردت ماعت، محاولة استعادة هدوئها: "البشر كلهم متساوون؟! يقوم النظام الكوني على الاختلاف، وليس من أحد في الكون مساويًا لغيره، لكل نفر شخصيته وحياته وظروفه وإمكانياته المختلفة عن البقية، إن تساوى الناس كلهم سيخرب العالم. لكل ذرة في الكون مهمتها، وأنت تعلم ذلك، لكنك تحب التغافل. ثم إني لم أفترض أفضليتهم لمجرد أنهم شعبنا، لكن لأنهم حققوا ماعت واستقروا بالأرضين، زرعوا وحصدوا، وطوروا الحضارة التي أعطيناهم، في حين يعيش أغلب شعوب العالم على القتل والإغارة والقوانين البدائية. استهانتك بالقوانين لن تكسبك إلا الحسرة وخيبة الأمل، حاول إعادة ترتيب أفكارك. الأفضل لك الاهتمام بمهمتك في حكم الصحراء الضخمة التي تكونت منذ أكثر من ستة آلاف عام، لأن كل محاولاتك لحكم كمت ومجمع النترو غلفها الغباء الشديد، فحتى بعد خيانتك لأخيك أوزير وقتله، لم تحكم".

"ومع ذلك، عبدني العامو فتمكنوا من حكم كمت لأكثر من قرن. لو كنت شديد الغباء كما تقولين، واستطعت وحدي الانتصار عليكم، فما مستوى غبائكم؟".

أثار الحوار مع ست حفيظة آمون رع فقال: "أنت أقرب للجنون من الذكاء يا ست، ولست حكيمًا كما تظن أو يظن أتباعك. قدراتك محدودة، وشبقك للحكم يُفسد كل تحركاتك، ورغم كل الخطط والخدع والمحاكم في مواجهة الطفل حور، تمكن من الانتصار عليك، وعدت أنت لحكم الصحراء. وحتى عندما حكمت كمت بعد أن عبدك العامو الأغراب، نفّذت خطتي بحذافيرها".

قال ست: "بل خسرت معركتك بسبب استهتارك، ضحيت بشعبك لقرن ونصف حتى نسيك الناس، أغلقت معابدك ولم تقدم لك أي قرابين، وتُسمي هذا خطتك؟! يمكنك خداع البشر الفانين بكلامك الغريب، لكن في

مجلس النترو، يجب أن تجد حجة أفضل لتبرير فشلك. الحرب يا صاحبي غالب ومغلوب، ما زالت بيننا ملايين السنين، مكسب معركة واحدة ليس نهاية الحرب، وإذا كان قدري من البداية هو أن ترفضني الأرض السوداء، وأن أحكم الصحراء، فحسنًا. سأريكم ماذا سأفعل بحكمي لها، ربما ربحت بالفعل معركةً ضدي يا سيد النترو، لكنني أتعلّم من أخطائي. والآن، ألن تشرح لنا كيف كان حكم العامو لأرضك وطردهم لنفوذك جزءًا من خطتك!".

رد آمون رع: "رغم أنّكم لترو يقدّم لكم الناس القرابين، لكن قدراتكم محدودة، لا يمكنكم رؤية ما هو أبعد من أنوفكم، لا يوجد بينكم من يمتلك البصيرة، لذا لم يستحق الترقية من رع إلاي. إن لم يحتل العامو كمت، لظلّت البلد نفسه، بنفس الحدود والموارد والإمكانيات والفلسفة. صحيح أنها كانت دولة قوية ومتحضرة، لكن ما زال هناك آفاق أعظم لم يختبروها بعد. تجربة الاحتلال القاسية هي ما حولت أعينهم للعالم الأكبر، عرفوا أن الأرض أكبر من حدودهم، لذلك فكل ما مضى على المملكة أمر، بينما القادم أمر مختلف تمامًا، أنا رب الحرب، يمكنني إدارة آلاف المعارك بنفس الوقت، ودائمًا هناك خطة".

قالت ماعت: "وماذا عن تحتمس الثاني؟ ماذا كانت خطتك العظيمة؟ فاقد الشيء لا يعطيه يا قائد، كيف يربي شاب متأخر العقل ملكًا عظيمًا، أين القدوة؟ على الأقل لو وُلد الطفل من رحم حتشبسوت، لكان هناك أمل. لكن في تلك الظروف ستطغى عليها مشاعرها البشرية، ولن تتمكن من حب ابن امرأة أخرى، فما بالك بتجهيزه للحكم!".

"ماعت ألا يمكنك أبدًا التفكير خارج جدران القوانين المحيطة بك؟ ألا تعرفين أن لكل قاعدة شواذ، جهلك يدهشني حقًا، هناك قوانين وُضعت خصيصًا لتكسر".

ردت ماعت بحنق: "ليس من قانون وضع ليكسر، هذا مخالف للسبب الذي وضعت القوانين من أجله بالأساس".

وهنا تدخل ست: "عجيبة يا ماعت، تختارين لنفسك جانبًا مع أنك ربة العدل! كيف تأمرين قضاة البشر بعدم المحاباة، بينما تقعين أنت فيها؟".

"أي محاباة أقع بها؟!".

أجاب ست: "لقد اتخذت صف عزيزتك حتشبسوت، آخر من أتوقع منه ذلك، ربما لهذا لا يتحقق العدل أبدًا، لأن النظام نفسه ظالم وفاسد ومدعٍ للفضيلة. على الأقل أنا شريف وصادق مع نفسي ومع الجميع، بينما أنتم.. يسهل عليكم إظهار عكس الحقيقة، وهو ما يجعلني مكروهًا بينكم، مؤكد أن رع فخور بميراثه، ترك المسؤولية في يد الساخر، والعدل في يد الظالم".

"لقد أعمى الفساد عينيك يا ست، فلم تعد تفرق بين الحق والضلال. ترى الفساد في الجميع، لأن قلبك الشرير مصدر أفكارك، يسهل عليك الخوض في شرف الكل واتهامهم، لأنك لا ترى غير انعكاس روحك المريضة"، قالت ماعت.

قطع الحوار وصول تحوت، رب الحكمة وكاتب المحكمة المقدسة، متخذًا شكل طائر الأيبس -أحد رموزه الأرضية- بحجم أكبر كثيرًا، حاملًا العديد من لفائف البردي المقدسة بفمه، وما إن حط على الأرض حتى اتخذ شكله شبه البشري، مع احتفاظه برأس الطائر. صاح ست: "هكذا اكتملنا، تعال يا أبو قردان، لتزرع حكمتك العظيمة في الطفل قبل ولادته، حتى لا يصير متأخرًا كأبيه.. أم أنك وضعت حكمة مهولة في قلب تحتمس الثاني قبل ميلاده، فلم يتحملها المسكين، لذا خفُت إدراكه؟!".

تلقى تحوت استهزاء ست بهدوء كما ينبغي لحكيم، ورد: "لا تنبت بذرة الحكمة في أرض بور، أنا مسؤول عن الغرس فقط، لكن خصوبة الأرض وجودة الوعاء، فهما خارج حدود مسؤوليتي".

نظر الجميع إلى خنوم ليروا تأثير الإهانة، إلا أن الأخير بدا منهمكًا بعمله، وعلى الأرجح لم يفهم تلميح تحوت. لم يفوت ست الفرصة، فصاح حتى يسمعهم خنوم: "ما أسهل إلقاء اللوم على الغير، أرى أن خنوم قد أحسن بتشكيل تحتمس الثاني، فصحته ممتازة وجسمه قوي، العيب عيبك يا جحوتي، لكنك تتهم زملاءك بالتقصير، رب حكمة بحق!".

التفت خنوم إلى الحوار الدائر، بعد أن تنبه للإهانة الموجهة إليه، فترك عمله وهدر: "ألا يمكنكم أن تروا من يعطي الأوامر هنا أيها الأغبياء؟! أنا أشكّل الطفل حسب الطلب، إن كان منكم من لا يعجبه عملي، فليتخذه لنفسه، ويعلمنا كيف يعمل ملايين الأطفال. أو اتهموا آمون رع بالفشل، فكلها إرشاداته".

قال ست: "أخيرًا أحد النترو في مكانه الحقيقي، من حقك أن تكون رب الفيضان فعلًا يا خنوم، تملك قوة وشجاعة كبيرتين، لكن ينقصك خفة الدم، حيوه لو سمحتم، أخيرًا نتر في مكانه المناسب".

أشار آمون رع بملامح جامدة إلى خنوم، فعاد الأخير إلى عمله مقتضبًا، متمتمًا بكلمات لم يفهمها أحد، ترجت ماعت قائلة: "فكر مرة أخرى يا آمون، ما تخطط له خطير، من الممكن أن تضيع المملكة جراء ذلك، اجعل وريث العرش ابنًا للملك والملكة، أنعم على المملكة ببعض السلام والهدوء، دعهم يحصدون نتيجة انتصارهم في الحرب التي قضت على احتلال طويل، أرجوك! أنت تعلم أفضل مني، لكن رجاءً لا تعقد الأوضاع بتلك الطريقة".

أجابها آمون رع ببعض اللين: "افهمي يا ماعت، لو لم يُثبت الطفل استحقاقه للعرش فلن يتربع عليه، ولن نعرف الحقيقة إلا تحت اختبار صعب، ولو لم ترب حتشبسوت الطفل تربية مناسبة، وتتغلب على رغباتها الشخصية، فلن تستحق المملكة. مهمتي أن أضعهم تحت الاختبار، إما أن يخسروا، أو يقووا جراء ذلك، هو اختيارهم، على أساسه يحاسبون، أنا قراري نهائي، تفضلوا".

أمر آمون رع الجميع بالمغادرة، وأشار إلى تحوت ببدء عمله، لزراعة بذرة الحكمة بالطفل، فقد اقترب الموعد.

بعد عدة ساعات سيخرج للحياة طفلٌ، قُدّر له من قبل ميلاده حكم أغلب العالم المعروف، إلا أن الطريق محفوفٌ بالمخاطر، ولكن كل شيء مدروس، فهناك خطة...

https://t.me/

الفصل الأول

اليوم السابع من الشهر الثاني من فصل الفيضان -آخت- من العام الثالث من حكم تحتمس الثاني، ارتفع قرص الشمس، وانسلت أشعته في خطوط ذهبية حارقة، مرقت بين ستائر القصر العظيم برعا في عاصمة كمت، مدينة واست(6)، بالأرض العليا.

على بوابة البرعا وقف حارسان، تملّكت أحدهما السعادة، بينما طفح الضجر على ملامح رفيقه.

"أنا مونتمس، ما اسمك؟"، قالها الجندي السعيد بسذاجة، ومسح عرقه بيده مرتابًا.

"سنب" بكلمة واحدة رد الآخر.

أسهب مونتمس: "لا أصدق أني قُبلت في الحراسة الملكية، رغم تشجيع كل الضباط وتأكيدهم على إمكانية التحاقي بفرقة شجعان الملك إن رافقت جلالته بالحرب"، صدّقت عضلاته المفتولة على كلامه.

قال سنب والضجر باديًا بنبراته: "لم يشترك جلالته في أي حرب".

"لم؟ أهو مريض؟ أ. جلالته".

"عندما تقابل جلالته، اسأله".

لم يجد مونتمس مبررًا لعبوس رفيقه هذا، فمن الغريب أن يكون -رغم منصبه- بهذا التجهم، عاد مونتمس للحديث غير مبالٍ: "رغم خوف أمي، لكنها ملأت الدنيا زغاريد عندما عرفت بقبولي بالجيش، وفرح أبي لبقاء قطعة الأرض بحوزتنا، لكنه نفسه لم يتوقع دخولي للحرس الملكي، أعرف أن فرصة الترقي هنا أفضل بكثير".

"هذا لو تمكنت من الاستمرار في الحراسة الملكية، قد ينتهي أي خطأ صغير بك في السجن"، بذات الضجر أجابه سنب.

بابتسامة بلهاء قال مونتمس: "أوصتني أمي أن أثبت كفاءتي من اليوم الأول في الحراسة، وإني متفائلٌ بك".

صمت سنب وأشاح عينه بالنظر إلى السراب خلف الأفق، ثابت الملامح، فمن الممنوع التحدث أو التحرك في أثناء الخدمة، لم يبدُ أن رفيقه الجديد الثرثار ذلك يروقه، فغالبًا سيجلب العقاب لكليهما، لذا لم يرد سنب على حديثه لعله يتوقف عن الكلام.

طاف شعور سيئ بأعماق سنب، جاعلًا مزاجه أسوأ ما يكون، وذلك بعد رؤيته صباحًا لإوز ميت اتخذه كعلامة شؤم، فالإوز أحد رموز النتر آمون، ومشاهدته ميتًا في الصباح ليس أفضل شيء يبدأ به المرء يومه. فجأة، لاح الاضطراب بالأفق، وشاهد الحارسان حركة غريبة تدب بالقصر، دقائق طويلة مرت ولم تهدأ الجلبة.

"ماذا حدث؟" سأل مونتمس، ولم يتلق أي رد، ثبّت رفيقه عينيه المرتعدتين تجاه باب القصر لعله يلتقط إجابة ما، حتى بزغ منه أحد الحراس راكضًا.

"ماذا حدث؟"، بلهفة سأل مونتمس الحارس.

"وقع جلالته من على العرش"، أجاب الحارس لاهثًا، لم يكن هناك وقت للمزيد من الأسئلة، فعليه إبلاغ الخبر.

تساءل مونتمس مرة أخرى: "لم؟ أكان مريضًا؟".

"لا، لم يظهر على جلالته أي مرض، خدمت بالأمس على باب القاعة ورأيت جلالته، هذا اليوم شؤم".

"أتظن أن جلالته مات!"، تساءل مونتمس في رعب.

"اسكت"، نهره سنب، ثم أضاف: "يبدو أنك نحسا".

ما هي إلا لحظات حتى تحرك البشر من كل مكان تجاه القصر، مصابين بالهلع. علت همهمتهم، فقد انتشر الخبر لتوه: طار الصقر للسماء، فوقعت كآبة على المدينة كلها. مات الملك! تباعًا حضر جمع من المسؤولين، وملأت العجلات الفخمة الساحة أمام القاعة الكبرى، وخلال دقائق حضرت مجموعة كبيرة من الكهنة على عجالة.

***

انبثق البخور من غرفة الملك، المسجى للمرة الأخيرة على سريره، مزدانة جانبيه بأسدين خشبيين مذهبين، ألقت عليهما التعاويذ لحمايته من الشرور. لقد سكت قلبه فجأة رغم عدم إتمامه العقد الثالث! وتحررت روحه وقرينه للمرة الأولى، بعيدًا عن الجسد الذي سكناه. سيحضر المحنطون للقيام بواجبهم تجاه ملكهم، الذي لحق بأبيه تحتمس الأول، الراحل منذ ثلاث سنوات، تاركًا إياه وزوجته الملكية حتشبسوت في سدة الحكم، لكن لم يضاهِ الفقيد تحتمس الثاني هذا ما لوالده من عظمة.

لم يفسد الخبر الشؤم رياطة جأش الزوجة المقدسة، ليس بسبب علاقتهما الفاترة، بل لاعتيادها على فتك الأقدار بخططها، مهما بذلت من تحضير، وتفكير، واجتهاد، وتضحية.

تخطت العشرين منذ ستة أعوام، مرسومٌ على وجهها كل آيات الفلك والجمال، خمرية، ممشوقة القوام، اتقدت عيناها اللوزيتان حالكتا السواد بالذكاء منذ الصغر، وانتصف وجهها أنف صغير معقوف قليلًا، كعلامة لأسرتهم الملكية. نظرت إلى فقيدها، ترتسم على وجهه ابتسامة حمقاء تناسب حياته، هل عرفت الحياة أخيرًا بعدم جدوى وجوده فأنهت مهلته؟

كوت ألسنة اللهب أحشائها بمجرد رؤيته نائما مستريحا مبتسمًا، رغم انتظارها لتلك اللحظة منذ البدء، ولا تعلم لمَ! ضربت أصوات النائحات رأسها بعدما اخترقت جدران الغرفة، حيث نظرت حتشبسوت بوجه خالٍ من التعابير ليكتمل المشهد، تأرجحت مشاعرها بين السخرية والصدمة والكآبة منذ عرفت الخبر، عادت عشرات الأسئلة تفترس عقلها، كتماسيح جشعة القطّت على جيفة فرس نهر جبان، أثار رعبهم ما حيا فنهشوا لحمه فقط بدافع الانتقام! فكرت أن ابتسامته سخرية منها، كرسالة أوصته أمه العقرباء الراحلة بإيصالها. حياته بحد ذاتها سخرية، وأتم موته المزحة وأربحه الرهان.

لم ينجب الملك تحتمس الأول أميرًا ذكرًا من زوجته الملكية أحمس تاشري، لذا وقع الاختيار على الأميرة حتشبسوت، للاشتراك مع والدها في الحكم منذ صغرها، فأتقنت اللعبة واستمتعت بممارستها. قُدر للأميرة الزواج بقائد عسكري نبيل المنشأ، يتمتع بالقوة والحكمة والنفوذ، حتى تستكين لهما الأرضان، فتقوم هي بأعمال الحكم الداخلية، كخير نسل لنسوة النخبة الحاكمة، اللاتي انتمت إليهن، ويخرج زوجها على رأس الحملات العسكرية لإخضاع الشمال والجنوب تحت أمر ملك النترو آمون رع.

لكن السخرية من البشر هي عادة الأقدار، فجعلت من أخيها الأصغر تحتمس ملكًا وزوجًا بلا استحقاق، لأن التقاليد -في حالة عدم إنجاب الملكة لذكرٍ- تحتم زواج الأميرة الكبرى لابن الملك من زوجة ثانوية، إن وجد، فلا يوجد أبدًا من هو أعلى منه نسبًا ليستحق الجائزة العظمى، لذا وقع الاختيار على ابن الملك من زوجته الثانوية موت نفرت رغم تأخره العقلي.

أحقًا ذنبها أن تدر الخلق خنوم الفخراني أخطأ بعمله عضوًا أنثويًا لها! لمَ بأي حال لم تحكم كمت وحدها، كما وعدها وأعدّها أبوها الراحل؟ وهل مجرد قضيب يجعل ذلك التحتمس أجدر منها بالحكم؟

اندلعت آلاف الأسئلة برأسها بعد ظنها بدفنهم بمكان ما، لكن موت الملك المفاجئ أصلى النار من تحت الرماد، تاركًا إياها كورقة جافة في مهب العاصفة، حتى شعرت أن دماغها سيسيل الآن من أنفها، فيسهل من عمل المحنطين، ويشيع الشعب جنازتي الملكين معًا.

اقترب خيال صغير من غرفة الملك المتوفى، اتضح أنه الطفل تحتمس الثالث الذي حصل للتو على كرسي العرش، ابن إيست زوجة الملك الثانوية. بالحديث عن غير المؤهلين للحكم، ها هي مأساة حتشبسوت تتكرر، فلم تنجب ابنًا ذكرًا للملك، بل فتاتين، لذا يتوجب على الأميرة الكبرى نفرو رع ابنة حتشبسوت الزواج بتحتمس الصغير حتى يحكما معًا.

دخل الطفل، الذي لم يكمل عقده الأول، غرفة أبيه بحذر، ومن خلفه مرضعته نفرعح، والحزن باد على محياها النبيل. سار الطفل عاريًا تمامًا كعادة الأطفال في كمت، ميزته خصلة شعر متضافرة، سالت من أحد جانبي رأسه كعلامة للطفولة التي سيتنازل عنها عما قريب. ها هو سؤال يتحرك؛ لم يسخر النترو من حتشبسوت حتى يهذروا ابن الملك برحم امرأة أخرى؟

قال رئيس خدم القصر: "بعد إذن جنابك، وصل الكهنة المحنطون لخدمة جلالته"، فأذنت لهم واستعد الموكب الملكي الجنائزي، عادت إلى الواقع من أفكارها الشعواء لتجد القصر خارج غرفة الملك مكتظًا بالناس!

دخل الكهنة حليقي الرؤوس لخدمة جسد الملك المتوفى، مع رئيسهم حابو سنب الكاهن الأول لآمون، الذي امتاز بملامحه الذكية النبيلة، ووجه شديد الوسامة، فما من شعر لديه إلا بحاجبيه، فقال: "سلام لجناب الزوجة المقدسة حتشبسوت، ولجلالة الملك المبرر صادق الصوت تحتمس عا خبر إن رع". ارتدى حابو سنب جلد الفهد الطقسي المميز لكبير الكهنة. ألقى الكاهن الأكبر بعض التعاويذ بصوت خافت، ثم أمر بحمل الجسد الطاهر، على محفة محاطة بتماثيل ورموز النترو المقدسة، احتوت على تابوت خشبي مذهب، مصنوع على شكل الملك نفسه، بدأ إعداده من أول أيامه الملكية، حمله الكهنة للغرفة الأخيرة بالقصر قبل المخرج، حيث انتظر عدد غفير من نخبة رجال العاصمة، كسا الحزن الشديد وجوههم. وغاصت أرواحهم في بركة من شعور داكن اللون، لزج، شديد الكثافة. لم ترحم شمس الأصيل الحارقة رؤوس الجمع، ولم تقدر ما هم فيه من حزن على فقيدهم الأعظم، وراحت ترسل حرارتها التي تضاعفت بفعل الازدحام.

بدأ كهنة وعب المطهّرون عملهم، رشوا الأرض بطول الطريق حتى الميناء بالماء وملح النطرون للتطهير. أفسح جنود الحرس الملكي، مثيرو الرهبة طريق الموكب المهيب. اكتست الأوجه بالكرب والخوف، فإذا أمكن وصف أهل كمت بصفة واحدة فهي قطعًا العاطفية، يبالغ الكمتيون دائمًا في مشاعرهم من الفرح والحزن والفخر وغيره؛ إذ هذبت حضارتهم على مر الأجيال نفوسهم، بدا ذلك جليًا على وجوه الشعب الخارج لوداع الملك للمرة قبل الأخيرة، فالمرة التالية ستكون عند خروج مومياءه من المعبد -بعد انتهاء عملية التحنيط- لمثواها الأخير بالمقبرة في الجبانة الملكية الحديثة.

لمعت سماء الصيف، وحملت الرياح الساخنة إحساسًا بالوحشة تملك الجميع، وكأن الطبيعة ترسل تهديدًا من الجحيم، لما قد يؤدي إليه فراغ كرسي العرش.

حمل الكهنة المحفة الذهبية حيث رقدت جثة الملك المتوفي، تقدمهم الكاهن الأكبر باعثًا للبخور، زُينت مقصورة النعش بباقات الزهور، أهمها زهرة اللوتس التي شاهدها الأقدمون تغلق زهورها، وتغطس في الماء في المساء، ثم تعود لتحيا فوق السطح بعد شروق الشمس، فاكتسبت رمزية البعث بعد الموت المرتبط بالعقيدة الشمسية. حملت المقصورة على محفة جرتها الثيران المطهرة، وفي تلك المرحلة، وجبت مصاحبة وريث الملك للموكب للقيام بالطقوس. فحسب التقاليد، من يشيع يرث، إلا أن حتشبسوت بدأت بنقش نعش تقاليد الأقدمين، وقامت بدور المرافق.

تقدم الحراس المقصورة حاملين الرايات، المشتملة على التميمة الأعظم شنو، دائرة مغلقة استطالت بعض الشيء لتحوي اسم الملك، حلقة متصلة بلا بداية أو نهاية، مغلقة لحفظ أهم اسم في المملكة، فيحيا اسمه في ذكرى البشر حتى نهاية الزمن، ليظل محفوزًا في ذاكرة التاريخ، ولكن الأجدر لحفظ اسم الملك ارتباطه بأعظم الإنجازات، التي لم يكن لتحتمس الثاني حظًا وافرًا منها.

انضم المرتلون للموكب، رتلوا الألحان الحزينة مع الصلوات والتعاويذ لمساعدة الملك في العبور مع النتر أنبو(7)، الذي اتخذ من حيوان ابن آوى رمزا له، وأرشد الناس خلال مرورهم في الاثنتي عشرة ساعة الليلية بعد الموت. اندمجت الألحان المهيبة والصلوات مع الطبيعة، وتقدمت النائحات موكب الكهنة، شاركن المرتلين في ألحانهم، وحملن تراب الأرض لرؤوسهم كعلامة على شدة الكرب، شققن ملابسهن وسرن مكشوفات الصدور من فرط الحزن. أما خلف الموكب فسارت مجموعة من الكهنة القارئين، المسؤولين عن تلاوة القراءات والصلوات الخاصة في أثناء إقامة الطقوس، بوشاح متقاطع من الكتف للفخذ، حملوا البرديات الثمينة المحتوية على المعرفة الغامضة المقدسة من إرث النترو على الأرض.

وصل الموكب للميناء الملكي بالقرب من البرعا، حيث انتظرت السفن الجنائزية، تقدم من نال الشرف العظيم من الكهنة لحمل التابوت، لوضعه بخشوع في مقصورته بالسفينة الرئيسية الضخمة، وسط خليط من الصرخات والبكاء والألحان الجنائزية المهيبة. ركب الحرس الملكي مع التابوت، وشغلت الأرملتين مقدمة السفينة ومؤخرتها، كتقليد للربتين النائحتين ايست وبت حوت، وشرع الجنود في سحب السفينة الضخمة بقوارب التجديف في تناغم مثير للاحترام.

نظم الكاتب الملكي كشوفات مسبقة لتنظيم الأفراد على المراكب الحكومية، كل حسب وضعه بالهرم الوظيفي وقربه للبلاط الملكي، بينما انتشر عدد ضخم من المراكب الخاصة بجوار الميناء، تحرك على متنها أبناء العاصمة مشيعين الملك الفقيد، مر الموكب الجنائزي من البر الشرقي لعالم الأحياء للبر الغربي الخاص بعالم الموتى، نزل الجميع من مراكبهم واتجهوا إلى المعبد حيث يتم التحنيط. وهناك بدأت الطقوس فور دخول الكهنة لفناء المعبد، بتلاوة الصلوات الغامضة، بينما حمل الملك إلى إحدى الغرف الداخلية، حتى انتهاء الصلوات والبدء بالعمل في الجثة.

أستهلكت كمية كبيرة من المواد النادرة باهظة الثمن، للحصول على أفضل نتيجة، فمن الضروري الحفاظ على الجسد لبعث المتوفى، لذا حرص الجميع على عمل مقابر رائعة، أخفوها لتوفير الحماية، ذكروا بها كل أعمالهم الطيبة، ورسموا عليها تفاصيل حياتهم اليومية، لينعم عليهم النترو بالحياة الأبدية في حقول الأيارو المقدسة، انعكاس كمت في بعد آخر، بحقولها الذهبية ونهرها العظيم، وكما أن الليل انعكاس النهار، أرض الموتى بالبر الغربي هي انعكاس لأرض الأحياء شرق النهر.

أودعت الجثة في إحدى غرف المعبد فوق منضدة مرمرية، نُحت رأسا أسدين على قوائمها، بدأ المحنطون بغسل الجسد، بعد إزالة ملابسه بالماء والمواد العطرية لإزالة غبار الطريق، ثم هموا بتفريغ محتويات الجثة بحرفية فائقة. فتح المحنطون بحرص مؤخرة الجمجمة، ومن خلال الثقب، أدخلت أداة حادة لتفتيت المخ، وتفريغ كل ما في الجمجمة. فتح آخرون جانب البطن، حيث فرغ الكبد والرئتين والمعدة والأمعاء، لوضعها بآنيتها الخاصة، تحت حماية أبناء حور الأربعة. وضعت الجثة في ملح النطرون الطاهر لأربعين يومًا، ريثما يتشرب الملح سوائل الجسد، ستنجو المومياء طالما بقيت جافة.

في غضون ذلك، بدأت فترة الحداد في الدولة، ونكست الأعلام، وأطلق الرجال لحاهم حزنًا على الفقيد. بدأ الصناع والحرفيون سباق مع الزمن، للانتهاء من عمل الأغراض الجنائزية اللازمة للمتوفي، كالأثاث الجنائزي، والعديد من التمائم والتعاويذ التي يحتاجها في العالم الآخر، كعدة نسخ من تماثيل المجيبين الصغيرة، الذين سيعملون بدلًا منه في العالم الآخر، لتكتب له الراحة الأبدية. والكثير من الجعارين الحجرية، تميمة القلب الأهم على الإطلاق، لتعين قلب المتوفي في محكمة أوزير المرعبة، حيث يمتثل في محكمة يرأسها أوزير ويعاونه اثنان وأربعون قاضيًا، يوضع قلب المتوفى على إحدى كفتي الميزان وريشة العدالة على الكفة الأخرى، فإن أثقلت قلبَ المتوفى الخطايا، يلتهمه وحش فوزًا، وإن كان قلبه أخف من ريشة ماعت، كُتبت له النجاة. فضلًا عن الطعام المجفف ونسخة من كتاب "إمي دوات(8)."

عادت الملكة إلى قصرها منكوبة مكتئبة الروح، بعد إيداع الجثة بالمعبد. أبحرت الشمس للضفة الأخرى

مصطحبة ملكًا جديدًا، أضيف لمن سبقوه بالمجد والفخر على درب العظماء. أحست بوحشة شديدة لمجرد دخولها البرعا، وهاجمت مختلف المشاعر قلبها الرقيق، ضاق نفسها، وأغشى المكان ظلام غريب، لا شأن له بوحشة الليل، فبعض الليالي السعيدة أضاءت وهج نور أكثر بهجة من أضواء الصباح.

***

استدعي إلى العاصمة مربي الملكة، المحارب الأسطوري أحمس بن نخبت، أحد أشهر المحاربين على مر تاريخ كمت، الذي أتم عقده السابع منذ بضع سنوات، مع احتفاظه بلمحة قوية من ماضيه. زاده تحرير البلاد من الحقاو خاسوت(9) بريقًا، فلم يجد تحتمس الأكبر أجدر منه لتعليم وتربية الأميرة حتشبسوت.

جمعت المحارب العظيم بفراشة القصر علاقة أبوية، أحبت حتشبسوت حكاياته عن معاركه وشجاعته وتفاصيل بلاد الأعداء، بينما لاحظ الأخير اتقاد عيني الطفلة بالذكاء، وحب استطلاعهما الشديد، وأسئلتها اللانهائية.

بعد انتهاء خدمة المحارب أحمس في الجيش والبرعا، عاد إلى بلدته نخن(10) ليراعي أملاكه العظيمة التي أنعم بها عليه آمون رع، واقتصر ذهابه إلى العاصمة على الأحداث الرسمية. وصل خلال وقت قصير من موت الملك، ولم تنزل الشمس عن سمائها حتى بدأ الرجل عمله، فرغم تقاعده، وذلك البطن الكبير -نسبيًا- الذي انتفخ تحت عضلات صدره القوية، لم ينس يومًا كونه أحد أكفأ قادة كمت العسكريين، أتاح وجهه تخيل المعارك التي خاضها، وقد خطت بملامحه الكثير، تارة بالتجاعيد التي حاصرت عينيه الشرستين، ولم تطفئ ظمأهما للقتال، وتارة بخطوط كانت يومًا جراحًا غائرة. بطريقة ما وجدت الفراشة ذلك الوحش مسليًا لأقصى درجة، والآن تحتاج الفراشة إلى معلمها أكثر حتى من ذي قبل.

بحلول المساء، توجه أحمس لمقابلة صديقه القديم أنيني، البناء الأعظم ومستشار الملكة، الذي أدهش أمر صداقتهم الجميع، فنظرة إلى كليهما تُظهر تقريبًا كل التناقضات، بداية من أصولهما، فقد انحدرت جذور المهندس أنيني من أسرة نبيلة، بينما ولد أحمس لأبوين من عامة الشعب، وشق طريقه بذراعه وعقله وشجاعته، امتلك القائد جثة ضخمة فُتِلت عضلاتها بقوة، وضع رأسه بين كتفين مستديرين فوق صدر كالحجر. بادٍ هو التصميم على ملامحه القاسية، قوي حتى في مشيته، فهي أقرب ما يكون للركض بالخطوة العسكرية. أما أنيني فقصير القامة نحيف كعود من القصب الجاف، ارتسم السلام على ملامحه الهادئة، للنباتات بقلبه عشق خاص، فيفضل قضاء أغلب أوقاته في حديقته الغناء، صمم حديقة مماثلة لها بقصر صديقه الملك تحتمس الأكبر. لذا لا يمكن لأحد أن يتخيل كيف راق أحدهما للآخر، وفيما كانا يتسامران في سهراتهما الكثيرة بمعسكرات جيش جلالة الملك تحتمس الأكبر.

أرسل الخدم أحد الصبية لإبلاغ المهندس بوصول الضيف، الذي راح يتأمل إحدى الأشجار.

"أتذكر حين تنبأت بموتها؟" بطرافته المعتادة تساءل أنيني، فتح الأخير ذراعيه ليعانق صديقه في ترحاب حار، وكعادة أحمس، كسر ثلاثة ضلوع لأنيني، ولخلخ آخر إثر العناق.

"خبرتي في الحرب والمعارك، لكن الأشجار والورود فتعرفها أنت أفضل مني".

ابتسم أنيني الذي غطى الأبيض شعره تمامًا، واكتسى أسفل لغده برقعة كبيرة من الزغب، "سأعطيك هدية، شجرة صغيرة من نفس النوع، لتزرعها عندك فتذكرك بخسارتك للرهان".

بلهجة مرحة أجاب أحمس: "تعال لتزرعها بنفسك وتشرف على الأراضي التي أملكها، ولك أجر مناسب".

أطلق أنيني ضحكة لفتت انتباه الخدام، أضاف القائد: "لديك قدرة غريبة، حتى قطعة الخشب ستنبت إذا زرعتها بيديك".

"أما أنت فيمكنك القتل باستخدام الخشبة نفسها التي يمكنني زراعتها، هذا قدرنا، هناك من يغرس الحياة،

وآخر يحصدها".

"يمكنني القتل حتى بيدي العاريتين، ولولا الحصاد الذي حصدت، لن يكون لك فرصة لتزرع حديقتك وتستمتع بها، أنا كاهن حرب، أقدم القرابين لآمون رع".

"يسهل عليك إيجاد مبرر للعيش مرتاحًا مع كل هذا العنف والقتل".

"أهذا ما تقنع به نفسك؟ أتعلم أنك الوحيد الذي صاحب الجنود في الحرب، لجمع الزروع لحديقتك؟".

"لكل منا هدف في الحياة، كلنا نخدم، لكن لكل واحد طريقته". لن يفيد حوارهما بجديد، أراد أنيني تغيير الموضوع فأضاف: "متى وصلت؟".

"حالًا، الوضع خطير".

"لم يكن الموت سهلًا قط، لكن كل شيء مستقر تمامًا".

"أتحدث عن المملكة، ليس عن حديقتك".

"تعلمت الملكة حتشبسوت بما يكفي، وتدربت كثيرًا على الحكم".

"أنا أكثر من يعرف تعليمها وقدرتها، لكنها ليست الملك".

"لكن هناك ملك"، قالها أنيني بثقة.

"عمره أربع سنوات، وتخنق المشاكل عرشه قبل موت أبيه".

"ستسيطر الملكة عليها".

"لن تتمكن من ذلك وحدها"، قصد أحمس شيئًا خلف كلماته تلك.

"سنموت الذي رشحته أنت للبلاط، زادت سلطته بشكل مدهش".

بضيق أجاب أحمس: "لكنه ما زال موظفًا صغيرًا، ليس له من سلطة مناسبة ليؤثر بما فيه الكفاية". ذهش أنيني من إجابته، فكيف يعرف إلى أي مدى وصل نفوذ سنموت!

"أتظنني نسيت القيادة منذ تقاعدت؟ كان بإمكاني معرفة كل ما يدور بالمعسكر في أثناء نومي بخيمتي، عيوني في كل مكان، لكن يمكنك الاطمئنان من ناحيتي، لن أطالب الزوجة الملكية بالعرش".

أجاب أنيني بابتسامة مطمئنة، واصطحب صديقه للمكتب في الدور العلوي.

***

في اليوم التالي للجنازة بدأ البروتوكول المعتاد للمرة الأولى دون وجود الملك تحتمس الثاني، ولكن بوجود الملك الطفل، الذي لم يكن العرش من اهتماماته، فما كاد يلمسه حتى ملّه، وسارع بمحاولاته العنيدة للابتعاد، فأمرت حتشبسوت المربية نفرعح بالخروج مع الطفل. لم يشكل غيابه فرقًا، تمامًا كأبيه، راجعت هي كل التقارير، وأشرفت على عمل كبار الموظفين كعادتها.

عليها التعامل مع الكثير بعد وفاة الملك، فالأقدار تتحرك في اتجاه مخالف لمصالح العرش بقسوة، تلوح الأقدار بالحلم من بعيد حتى يظن الفرد أن لحظات تفرق بينهما، ثم تتحطم سفينة الأمل فوق صخرة المفاجأة.

على الملكة مواجهة أقاليم كمت الوسطى، فلن يشفع اتحادهم الأخير بمعارك التحرير من الحقاو خاسوت، مقابل ما جمعهم من معارك وحروب وبغض لقرون طويلة سابقة. ومع وجود مناطق كبيرة بوسط كمت لم تُفرَض السيطرة عليها بعد إعدام أمرائها وتبديد نسلهم، عقابًا لما اقترفوه من معاونة الأجانب الأخساء، فأي حراك عسكري يهدد حالة الاستقرار الهشة، لتدخل البلاد في حالة من الفوضى تستمر لسنوات، خاصة مع

الخطر المحدق من جهة بلاد العامو، فما زالت فلولهم تهدد الشمال الشرقي، وأفضل فرصة لعودتهم، حرب داخلية تُهلك جيش البلاد وتشتت وحدة الأرضين!

حضر أنيني وأحمس للبرعا، انتظر القائد بإحدى الغرف بينما طلب أنيني لقاء ابنه سمنخ، أحد المسؤولين عن البرعا. أقبلت سات رع عند معرفتها بحضور القائد، يتذكر أحمس جيدًا تلك الأونة حينما اصطحب القائد فراشة القصر ومربيتها سات رع، قبل عدة أشهر من تتويج أبيها تحتمس الأول لمسقط رأسه مدينة نخن، لتكمل بضع مراحل تعليمها في المدينة المقدسة.

من اليوم الأول حصدت سات رع مربية الأميرة إعجاب العيون، كما فعلت في العاصمة، حين اختيرت كمرضعة لحتشبسوت، كانت شابة متزوجة حديثًا من أحد القضاة، نال كلاهما مرتبة عظيمة عندما أصبحت مرضعة أهم طفلة في المملكة. لها قوام ممشوق غاية في المرونة، ذات عقل راجح ونهدين عامرين، جعلا من وظيفتها شيئًا مستحقًا، حتى لأشفق من يراها على الأطفال الذين لم يحصلوا على مصدر غذاء مناسب. الآن وبعد مرور ما يقرب من عقدين، ورغم اكتسابها بعض الوزن وخصلة من الشعر الأبيض، تطل أحيانًا تحت شعرها المستعار الضخم، إلا أنها ما زالت على قدر كبير من الجمال والمرح، تمكنا من إنقاص عقد كامل من عمرها الحقيقي في عيون الرائين.

"الوقت مناسب لدرس جديد"، قالتها سات رع، فعادةً ما استمعت لدروس القائد، رغم معرفتها وثقافتها، لكن ثقافة القائد بعمق بئر دفن في مقبرة لم تزر مالكها، وأما خبراته الشخصية فحكاية أخرى.

"لدي دائمًا دروس جديدة"، بابتسامة مهذبة أجاب القائد.

أمرت سات رع الخدم بإحضار النبيذ المريوطي المميز للقائد، شرب الأخير قدحه الأولى في جرعة واحدة، ومد يده بالقدح الأزرق الفارغ لإعادة ملئه، أشارت سات رع إلى الخدم بالخروج، وصبت بنفسها النبيذ للقائد قائلة: "أستظل حتى الجنازة، أم لا؟".

"لم أقرر بعد.. في الغالب لن أعود إلى نخن الآن.. لدينا الكثير من العمل"، خرجت الكلمات برزانة بين جرعات نبيذه.

"أستربي الملك الجديد؟".

صمت القائد لوهلة وفكر قليلًا، وقد بدأ مفعول النبيذ يسري على ملامحه مساعدًا على الاسترخاء.

"لا، كبرتُ على تلك المهمات، بالتأكيد هناك مرشحون أفضل مني".

أجابت سات رع بسرعة: "ظننتك جئت لاصطحاب الملك الصغير لنخن، ليكون في أمان".

أثارت لهجتها حيرة القائد فسأل: "أمان أكثر من البرعا؟".

"يعلم حضرة القائد بصعوبة تلك الفترة، ستظهر العديد من المؤامرات، خصوصًا مع الوضع الحالي في وسط كمت".

ليس خفيًا على أحد ازدياد قوة ونفوذ باختي حاكم مدينة كيس بوسط كمت، مما يجعله المرشح الأقوى للاضطرابات، قال أحمس بحذر: "ولو قضت المؤامرات على الملك الصغير، تستأثر الملكة بالحكم".

لأظهرت المربية دهشة وفزعًا أقل، إن أخبرها القائد أن رع غرق بمركبه وخسر حربه مع الوحوش الظلامية في الليلة السابقة، أجابت سات رع بحدة لا تتناسب مع أدب التحدث مع حضرته: "كيف تظن هذا؟ أنت من ربيتها وتعلم جيدًا كيف هي، إنها تربي الملك الصغير تمامًا كابنتها الأميرة". خرجت الجملة الأخيرة مع رجفة في أوتارها، أوشت بكذبة، يمكنه معرفة الكذبة من وسط ألف حقيقة.

أجاب القائد في هدوء: "لا أتحدث عن الملكة، بل عن أي نبيل طموح، غبي كفاية ليقدم خدمة للملكة، حينها

يفرغ العرش، وهي فرصة عظيمة لأمراء كثيرين".

صمتت المربية بعد أن أوقعها القائد بفخ لتبوح بما تظنه، أجابت: "يعرف حضرة القائد أكثر مني أهمية وجود الملك، لاستمرار وجود عزيزتنا حتشبسوت على العرش، تُوج الملك الصغير بمعجزة في أثناء حياة والده المبرر، ووصل لكل الأقاليم مرسوم رسمي بذلك، فيسد وجوده الطريق على كل من يحاول".

أجابها الرجل بنظرة ساخرة، استهلكت ما تبقى من قدحه فأعاد ملئه، استعدادًا لحوار عميق مع الملكة، التي دخلت للغرفة بصحبة أنيني والوزير عميتو وسنموت، سجد لها القائد والمربية فوزًا، ما إن وقفا حتى احتضنت الملكة مربيها، كما كانت تفعل عند حصولها على مكافأة في أثناء دراستها، أشارت سات رع فأغلق الحرس الباب، حينها صرّحت الملكة: "تدمرت كل الخطط".

أسرعت المربية بالرد: "كما كان لديك من الحكمة للخطة الأولى، ستضعين غيرها، لن يتركك آمون رع".

أضاف الوزير: "حكمت جنابك منذ عصر والدك المبرر تحتمس صادق الصوت، أتقنت اللعبة وأخضعت كمت بسلام، وكلنا تحت أمر جنابك، سنبذل كل ما يمكننا لتثبيت قدميك على الأرضين".

أجابت الملكة بصوت خنقه الواقع: "لم يكف آمون سخريته قبل ولادتي، من جعلي بنتا، وقتل ولي العهد آمون مس، واضطرني إلى الزواج بأخيه الأصغر، وجعل ولي العهد الجديد من أنثى غيري، وأخيرًا مات تحتمس البديل بعد ما تعلق به القدر، فماذا بعد؟".

تبادل أنيني وأحمس نظرة ذات معنى، لاحظتها الملكة فقالت: "نحتاج إلى خطة جديدة".

قال سنموت: "جلالتك ابنة النتر آمون، ولا يلزمك الزواج بأي شخص، الملك التالي موجود بالفعل".

قالت الملكة: "ما زال تحتمس طفلًا ذا أربع سنوات، ومتوقع أن يرفع أي من النبلاء دعواه للمطالبة بالعرش، مستحيل أن أسمح بذلك، لن نتمكن من رد كل المطالبات بالزواج".

وجّه أحمس نظراته الثاقبة إلى سنموت، فقد أظهرت جليًا نظراته ونبراته مع الملكة أي مشاعر يكنها لها، أو يحاول أن يبديها، علّ ذلك يكون في صالح موقفه الشخصي، تناثرت بالفعل بعض الكلمات حول سنموت، لكن القائد يرى الآن بعينيه.

قالت سات رع: "ولم لا تتزوجين؟ ما زلت شابة جميلة ويمكنك الزواج".

أجاب سنموت من فوره: "لأن كل الملكات السابقات حكمن لفترة ضئيلة، ريثما تنتقل السلطة من الزوج السابق إلى الزوج الحالي، فإن فعلت الملكة ذلك ستُذكر كمرحلة انتقالية، ولا يجدر ذلك بسليلة العظماء، كما أن الملك الصغير سيقف عقبة أمام الزوج التالي، ولن يأمن حينها من غدر الأقدار، تلك مخاطرة كبيرة".

ردت الملكة: "لن أسمح بأن تكون فترة حكمي سنتين أو ثلاثة، يتنقل فيهم الحكم من أسرة لأخرى كأي ملكة سابقة، أنا ابنة العظيم تحتمس الأول، سليلة العظيم أحمس صادق الصوت، أعددت للحكم منذ طفولتي". معرفتها الجيدة بالتاريخ لم تبشرها بأي خير، فصحيح أن بعض النسوة حكمن كمت من قبل، إلا أن فترة حكمهن لم تطل، بل كان الأمر مجرد زواج سياسي بين الملكة وأكثر شخص مؤهل للحكم من خارج أسرتها، وهو كابوس بالنسبة لحتشبسوت، لا تود تكراره.

سألت سات رع: "ولم لا تتأكد الملكة من كل شيء قبل الموافقة؟".

أجابها أحمس مركزًا نظره إلى سنموت: "لأن أي رجل سيقسم على الولاء، ويقطع كل الوعود، لكن بمجرد أن يتذوق طعم السلطة، لن يكتفي أبدًا، وحينها يصبح كل شيء عرضة للخطر".

لاحظ الوزير نظراتهم ولم يرتح للأمر، لأنه يتبع الفريق الأكثر جمودًا، حزب المحافظين، والذي لم يمرر كل الأفكار الجديدة ببساطة كالفريق الآخر.

أوضح سنموت كلامه قائلًا: "مولاتي! جلالتك غير ملزمة بالزواج لأنك قمت برحلة حج مع والدك المبرر لكل معابد كمت الكبرى حتى الشمال، وصدّق الجميع على ولايتك للعرش".

أجاب أنيني: "هذا لوجودها بجوار الملك السابق، ابن الملك، وأقرب ما يكون للدم الملكي، والذي يمكن لها أن تحكم من خلاله، أما الآن فالوضع مختلف".

قالت سات رع: "تُوِّج الملك الصغير في عهد والده، بنبوءة من النتر آمون رع، حيث اختاره التمثال وأمر بتتويجه".

قال أحمس: "ذلك في عهد والده، لتثبيت حكمه. أما الآن، ومع فراغ العرش من الملك، لن تقوم الأسطورة بدورها كاملًا".

استغرقت حتشبسوت في التفكير، لقد خذلها كل الرجال منذ البدء؛ خذلها آمون رع عندما خلقها أنثى، وخذلها والدها تحتمس الأكبر عندما زوجها من تحتمس هذا، وخذلها تحتمس عندما أنجب الذكر من أخرى، حتى تحتمس الطفل، هو أصغر من أن يجلس على العرش، ومع ذلك له شرعية عنها، لأنه ذكرا ابن الملك الذي اختاره النترو، لم عليها الخضوع للرجال؟ لقد أفسدوا كل الخطط، ولم يقم أيهم بدوره الحقيقي حتى النهاية.

قاطعت حتشبسوت حوارهم قائلة: "كما فعلنا من قبل، يجب علينا الحصول على تأييد النترو".

أجابها عميتو: "لا أظن يا مولاتي أن الأمر بتلك البساطة، أن تتكرر نفس النبوءة من معبد إيبت سوت، فيخرج الموكب المقدس، ليقف تمثال آمون رع أمامك ويختارك، لأنه سبق أن اختار ملكًا بالفعل، ولن يصح اختيار أي شخص آخر، فسيبدو ذلك كتضارب في قرارات النترو".

قالت: "لن يكون الأمر كذلك يا سيد عميتو، الأمر أعظم من ذلك، وليست هي السابقة الأولى، لكن دعنا لا نسبق الأحداث، غدًا يا سنموت تحضر جميع نبوءات الملوك المتصلة بالنترو، فنكتب نبوءة تخرج من معبد إيبت سوت، تثبت أقدام حتشبسوت على العرش".

أجابها سنموت "تحت أمر مولاتي".

انصرف الجميع على أن تعاد الجلسة بعد الاطلاع على الوثائق، خارج غرفة الملكة كان عميتو بالانتظار، لم يتفاجأ أحمس بذلك، فقال: "أهناك شيء يا حضرة الوزير؟".

أجاب عميتو بحزم: "دعك من المراوغة يا أحمس، أنت تعلم جيدًا لم أنتظرك".

"أظن ذلك".

"أتحاول سحب البساط من تحت الجميع لصالح فتاك المدلل؟".

"كلنا نعمل من أجل المملكة يا جناب الوزير".

"أحقًا! ألم تلاحظ جنابك لصالح من يعمل سنموت؟ أتقول يا حضرة القائد العظيم إنك لا تعلم نواياه؟ أولم تلحظ نظراته للزوجة الملكية، ورنة صوته الفارقة في الهيام؟ حسنًا.. لا أظن أن أيًا منا بعمر مناسب ليكون زوجًا لائقًا. لكن سنموت هذا! أنا فقط أخشى أن تلوث مسيرتك بدعم ذلك التعبان، بم ستجيب حينما يوضع قلبك على كفة الميزان؟ أتظن أنه سيقل وزنًا عن ريشة العدالة؟ أترغب حقًا بإنهاء حياتك بذلك العمل الشائن؟ أوضع مؤخرة ابن العامة هذا على العرش هو عمل لائق؟".

"عم تتحدث يا رجل! هل جننت؟! أتظن أنني قد أقوم فعلًا بذلك، هل خفّ عقلك وآن الأوان ليحل وسر آمون مكانك أم ماذا؟".

"أهذه لعبة أخرى؟"، سأل الوزير مرتابًا، فقد شك بشدة أن يدعم أحمس بن نخبت حصول وسر آمون ابن الوزير عميتو على منصب والده لاحقًا.

أجاب أحمس: "لا تنس أني رجل دولة، لقد شققت الصعاب بيدي من أجل تراب هذه الأرض المقدسة، إياك أن تشكك بنزاهتي مرة أخرى، لك كلمتي، سيتقلد ابنك منصبك من بعدك، لكن زمن حدوث هذا متوقف عليك، إن استمريت بالخرف يا رجل ستعجل بنفسك من حفل تنصيبه، رغم ظني أن بإمكانك العمل لبضع سنوات أخرى".

تساءل الوزير متشككا: "وما يثبت لي كلامك؟".

أجاب القائد: "لو سألني أي شخص آخر هذا السؤال، لكان السؤال الأخير بحياته. لكن من أجل طبيعتك المتشككة سأعطيك عربون صداقة، ألم ينجب ابنك الكاهن ولدًا بعمر الملك الصغير؟ ما اسم حفيدك هذا؟".

"رخمي رع"، أجاب الوزير.

قال القائد مطمئنًا: "سيبدأ الملك الصغير التعلم قريبًا بالمعبد، وسيلتحق به رخمي رع، ليكون رفيق الملك، وسيشرف صديقك حابو سنب على نشأتهما، لذلك سيتوقف مستقبل الجيل الأخير من أسرتك على صديقك، قل لي، أتثق به بما فيه الكفاية؟".

"يعمل ابني نفرو بين تحت إدارته بالمعبد، ولا يختلف على نبل الرجل اثنان".

"حسنا، سأتحدث معه غدًا، بعدها تعلن أنت حصول سنموت على اللقب، ولا تغضبني ثانية يا رجل، لأن لك مكانة كبيرة عندي"، قالها وانصرف، لكن أثار حديث الوزير بقلبه بعض القلق.

في اليوم التالي بعد إنهاء العمل بالقاعة الكبرى، أحضر سنموت للملكة من البر عنخ(11) كل الوثائق اللازمة. بغرفتها الخاصة، راجعت الملكة كل كلمة، وفكرت كيف يمكنها استغلال الأمر، صارعتها الأفكار حتى وقت متأخر من الليل، طالعت كل ورقة أكثر من مرة على ضوء الشموع حتى احمرت عيناها، لم تتمكن من النوم إلا قبل شروق الشمس بعدة دقائق، لذلك في اليوم التالي بدا عليها الإنهاك تمامًا، لكن في النهاية وصلت لفكرة، لم تكن أي أنثى لتفكر بها على الإطلاق.

اجتمع الفريق بأمرها مرة أخرى لمناقشة أمر النبوءة، قالت حتشبسوت: "أفضل النبوءات هي تلك الخاصة بأبناء رع".

أجاب سنموت: "تلك فكرة عظيمة يا سيدتي، فمستحيل أن تتعدى الصراعات البشرية على النترو، سنصنع نبوءة كنبوءة أبناء رع".

تساءل أحمس ولم تنزل عيناه الثاقبتان عن عيني سنموت: "وما نبوءة أبناء رع؟".

أجاب الوزير: "لم يكن ملوك الأسرة الخامسة بشرًا، لكنهم أولاد رع، أنجبهم من والدتهم زوجة كاهن رع في مدينة أيونو".

أضاف سنموت: "لكن في حالة جلالتك ستكون النبوءة أفضل، لأن جلالتك وريثة حقيقية للعرش، شاهدك أهل كمت كلهم في رحلة الحج للشمال مع والدك صادق الصوت، بقي فقط تغليف الواقع بغلاف من القداسة".

رد أحمس: "كانت النبوءة السابقة لملوك وليس لملكات".

أجاب الوزير محاولًا تدارك الأمر: "لكن لم يكن أولئك الملوك من نسل من سبقوهم، أما جلالتك فابنة الملك تحتمس الأول، حفيدة المحرر أحمس العظيم، وقد رآك الجميع بصحبة والدك المبرر في أثناء رحلة الحج للشمال، وقبل الجميع أمر توليك الحكم بخضوع وسعادة، ولست الملكة الأولى التي تحكم كمت".

قالت حتشبسوت: "لكن تلك النبوءة ستختلف قليلًا، فلن يكون الأمر غامضًا ومختصرًا ومقتضبًا كنبوءة أبناء رع، بل سيكون كاملًا مفعمًا بالتفاصيل، فآمون رع يا سادة قد حل بجسد والدي تحتمس الأعظم، وهو تجسيد لملك النترو، لذلك سنوضح الأمر للشعب، أن ولادتي من الملكة أحمس تاشري كانت عن طريق زواج

ملك النترو آمون رع منها".

تبادل الجميع النظرات لثوان، فيبدو أن المرحلة القادمة سيتغير بها كل شيء، لم يحدث قط أن قامت زوجة ملكية بتنفيذ نبوءة كهذه، سيحتوي المستقبل على أمور مخالفة تمامًا لما ترسخت به جدران الأجداد. تكلم سنموت أولًا وقال: "ستكون هذه النبوءة أعظم كثيرًا من مجرد أمر من النترو لتثبيت الحكم، ستكون غنية بالتفاصيل، تكتب جلوس جلالتك على العرش لعمر طويل، لكني أحتاج إلى صلاحية أكبر حتى أتمكن من تجهيزها".

نظر إليه أحمس بن نخبت في شك، يختلف أمره عن مجرد موظف مجتهد، أو موظف متملق، فدائمًا ما يدعمها، ويؤيد كل ما تفعل، حتى إنه لم يحتج أكثر من بضع لحظات حتى يتفق مع الملكة في أمر كهذا.

تساءلت الملكة: "كيف؟".

أجاب أنيني وكأنه مستعد للسؤال: "المشرف الأعلى على كافة طقوس النترو!".

ذهش أحمس بشدة: "لم أسمع بذلك اللقب من قبل!".

أسهب الرجل في شرحه: "لقب عتيق. طالما خططنا لتغيير النظام التاريخي، يجب كذلك استعادة سلطة قديمة، حتى تصير النبوءة حقيقة". قالها أنيني وكأنه يحكي عن أسطورة ما. ولم يضيّع سنموت أي وقت وقال: "ستكون النبوءة جاهزة قبل الجنازة إن بدأت حالًا".

أمرت الملكة: "غدًا يعلن الوزير عميتو عن تقلد سنموت لقب المشرف الأعلى على كافة طقوس النترو".

لكن الوزير أجاب بقلق: "لكن الأولى بهذا اللقب هو كاهن من معبد إيبت سوت، طالما أنه لقب كهنوتي بالمقام الأول، وإن كان هذا اللقب بتلك الأهمية فهو من حق حابو سنب إذا، ولا أظن أنها فكرة سديدة، إغضاب رجل يكنّ للملكة كل الولاء".

قالت حتشبسوت بثقة: "لن يتمكن أي شخص من المعبد من إبداع التفاصيل العميقة التي يمكن لسنموت رسمها بدقة، حتى يكاد يراها المرء من فرط واقعيتها".

أجاب سنموت: "تحت أمر مولاتي، سأنفذ تفاصيل غير مسبوقة بأمر جلالتك".

نظر أحمس بن نخبت إلى سنموت، ثم للملكة نظرة ذات معنى وقال: "بعد إذن مولاتي، ليس غدًا، سأقابل الكاهن الأعلى حابو سنب أولًا". فهمت الملكة إيماءته، فأمرت الجميع بالانصراف إلا أحمس.

سألت: "ما يقلقك من حابو سنب؟".

شرح أحمس: "ابني خع مواست كاهن تابع لحابو سنب، حدثني عنه كثيرًا، الرجل متدين وتقليدي، لديه جمود كصخرة، يحافظ على النظام بصرامة، يستحيل أن يسمح بأمر كهذا دون مقاومة، وذلك ليس في صالح المملكة". أنهى الرجل كلماته وكأنه يخطب بجنوده قبل المعركة.

أجابت حتشبسوت بإيماءة قلقة: "كل شيء على المحك، بغض النظر عن كل الاستعدادات، يعود كل شيء في لحظة إلى نقطة الصفر، أو حتى أسوأ".

"إن لم تبشر الأمور بخير، هناك حل أخير يمكنك تقديمه، لن يخيب أبدًا". قالتها الملكة بغموض، ثم أعطت لأحمس وثيقة مطوية، قرأ أحمس محتواها وفهم ما تعنيه، يبدو أنها استعدت لذلك الأمر جيدًا.

انصرف أحمس على أن يعاود الجميع الحضور مساء الغد. وبعدها اصطحبت سات رع الملكة لغرفتها، أشعلت الشموع، وقالت: "أنا أثق بك، وأعلم أنك ستروضين كل الصعوبات".

أنهت سات رع جملتها وقبّلت جبين حتشبسوت، محاولة نقل بعض السلام إلى نفسها المضطربة. بقيت إلى

جانب الملكة حتى احتل النوم ملامحها، وبعدها انصرفت، إلا أن الأفكار ظلت تصارع الملكة التي راحت تتذكر الماضي..

في أثناء خروج أحمس من البرعا، قال له عميتو: "لم يا ترى تجد سنموت أول الداعمين للملكة، وأول المصدقين على كلامها؟ أنت من بين الجميع من يجب أن تعلم جيدًا مثلي يا أحمس، لا يستقام العرش بالموافقة المستمرة من جميع من حوله، ألا تظن أنه يسعى لنفسه؟".

"لا أظن يا جناب الوزير، بل إني أعلم مدى إخلاصه".

"أهذا ما ستقوله في المحكمة الأوزيرية؟ لا يهم مدى صدقك أمامي، بل هناك بحضرة الاثنين وأربعين قاضيًا"، قالها عميتو وانصرف.

اتجه أحمس إلى خارج القصر، وقف أنيني وسنموت بانتظاره خارج البوابة ببضع خطوات، قال أحمس: "سنموت، هل لي بكلمة؟". وقف الآخر بخضوع، ونظر إلى أنيني الذي قال: "حسنا يا صديقي، سأنتظرك ببيتي، سآمر الخدم بتجهيز العشاء فلا تتأخر، هناك أمور علينا مناقشتها"، ثم انصرف.

صمت أحمس لبضع لحظات حتى ابتعدت خطوات أنيني، ثم قال لسنموت: "حين نظرت بك الذكاء والدهاء، رشحتك بنفسي لجلالة الملك المبرر تحتمس الأول، ورأيت أن ذلك في صالح كمت، فوجود موظف كفؤ مثلك بجوار الملك أمر هام، بغض النظر عن أصلك، فلا يلزم المرء رفعة الأصل حتى يصبح عظيمًا، كما ترى أني أيضا لست كريم المولد، لكني شققت مصاعب الحياة بذراعي العارية، ورافقت الملك العظيم المبرر أحمس، وزوجته الملكية المقدسة أحمس نفرتاري بحروب التحرير، اكتسبت بعض الثروة جراء ذلك، وصعدت على السلم الاجتماعي بضع درجات".

قال سنموت في تواضع واضح: "مسيرة حضرتك فخر ونموذج لنا جميعًا، من بكمت لا يعلم تاريخ القائد العظيم أحمس بن نخبت وأمجاده ذائعة الصيت"، يشبه صوته عنزة صغيرة، بالإضافة لرأسه الأصلع الذي يخفيه عادة بشعره المستعار الرسمي، وذقنه الأفطس ولغده المتدلي، لم يكن الرجل مثالًا لتفاصيل المدرسة المثالية للفن.

أجاب القائد بصوته الهادر كألف حجر يقع من أعلى الجبل: "صحيح بدأت مسيرتي في عصر ملوك آخرين، لكن أعظم ما وصلت إليه في عصر صادق الصوت تحتمس الأول، تسلقت السلم كله، حظيت بالأراضي والأطيان، تمكنت من عمل مقبرة جميلة لحياتي الأخرى، بل ووصلت لشرف تربية ابنة الملك، أصبحت والدها الثاني، جعلني جلالته أقرب الأقربين، لذلك فجميل تلك الأسرة كجبل أحمله على عنقي، وأنا على أتم استعداد بالتضحية بحياتي وكل أملاكي من أجلهم، ومن أجل سليلتهم حتشبسوت".

عقّب سنموت: "لا يقدر أي امرئ على التشكيك بولاء حضرتك، فأنت خير مثال للرجل الصالح".

أضاف أحمس بلهجة هجومية: "لذلك يجب عليك الحذر يا سنموت، فكما سبق ووضعتك بطريق الملكة يمكنني إزالتك الآن بسهولة، وإن اتضح لي بأي وقت أنك تسعى لأن تضع مؤخرتك الوضيعة على ذلك العرش، سأدق عنقك بيدي العاريتين. مهما تعقدت الأمور ومهما وصلت لمكانة، ومهما وثقت بك الملكة الشابة الجميلة، لقد ربيتها بنفسي وأعلم كم هي عظيمة الشخصية، لكنها أنثى بكل الأحوال، سترغب يومًا في يدي رجل تضمانها، لذلك إن أصبحت تلك اليدان لك، سأقطعهما عنك".

قال سنموت: "لا يجب..."، قاطعه أحمس: "أحذرك لأني أحبك، فقد كنت مساعدًا متميزًا، وأنا بنفسي من أوصلك لذلك المكان، لكني لا أحب الندم على أفعالي، فلا تجعل مني أحمقًا، لأن في ذلك حياتك".

"لا أصل لشكوك حضرتك على الإطلاق، فلا يمكنني..."، قاطعه أحمس: "فقط عدني أنك ستتذكر حديثي هذا جيدًا، كلما حاولت الانتصاب بحضور الملكة"، قالها ناهيًا حوارهما، ولم يدع أي مجال للنقاش.

"أعدك بكل صدق"، أجابه سنموت..

***

بغرفتها بعد رحيل الجميع، تذكرت حتشبسوت الأمير آمون مس، وكيف نبض جسده بالحياة وتكتلت عليه العضلات، أضافت عليه الحياة العسكرية بالعاصمة الشمالية منفر صرامة غير معهودة. وجالت بخاطرها إحدى أجمل ذكرياتها، حينما عاد الأمير من الشمال ليحضر احتفالات عيد أوبت، تغير كثيرًا عن الطفل الذي كانه، بعد بلوغه ستة عشر ربيعًا وحصوله على لقب قائد عسكري، بعدما اجتاز فترة التدريب العسكري الشاق، وتفوق في تدريبات الأسلحة كلها.

ما إن اختلى بمحبوبته حتشبسوت، إلا وبدت على ملامحه ابتسامة جميلة كشفته عن الحديث، قرأت الفتاة معنى ابتسامته رغم صغر سنها، فقد أتمت عقدًا منذ أربع سنوات، لكن لها -بشهادة الجميع- ذكاء ملكة متوجة.

حكى لها لاحقًا عن إنجازاته بالمدرسة العسكرية، فهناك وصل للياقة البدنية المناسبة، التي سمحت له بالالتحاق بقوة الجيش الضاربة -شجعان الملك- ففرت حتشبسوت فاها الصغير من الدهشة، وتخيلت كيف ستكون حياتهم فيما بعد، سيكون آمون مس قائدًا عسكريًا عظيمًا، وفاتحًا جبارًا، يسطر في صفحات تاريخ كمت المجيدة حكايات عظمته، وستحكم حتشبسوت أرضها الطاهرة، وستنعم بالاستقرار وتشهد نهضة اقتصادية وعلمية ومعمارية، فترمم معابد الأجداد وتغرس المسلات في الأنحاء كلها.

فاجأها الأمير بقبلة رقيقة، وأحاط كتفيها بذراعيه، فذاب قلبها في بدنها ولم تشعر إلا بيديها تحيط جذعه القوي، شعرت به ينفث القوة في روحها، سبحت يداه بين موجات ثناياها، وضعت يديها الرقيقتين على عضلات صدره القوية، ولم تستطع الحديث.

راح يحكي لها الأمير عن كل ما ينتظرهما في المستقبل القريب، وعن كل حملات الشمال والجنوب التي ينبغي عليه القيام بها للحفاظ على إرثهما المجيد، بينما كل ما أرادت حتشبسوت فعله أن تعده بأسر حبه لقلبها إلى نهاية العمر، وحتى يسيرا معًا للعالم الآخر، حينما تُكلل جهودهم بالنجاح، فيعبران بسجل حافل بالإنجازات. لن يفرق بينهما حتى الموت، فسيعبر معهما العشق للبر الغربي، صرحت الفتاة بكل ما جال بقلبها فقط بعينيها، فكانتا كفريق شرب من النهر حتى الثمالة ولم يرتو.

اقتربت سات رع ولم تكف عن النداء بلهجة سعيدة، فقد أضاف حضور الأمير البهجة على العاصمة، رغب الملك تحتمس الأب في رؤيتهما معًا، فكم أسعده رؤية ابنه قائدًا، مناسبًا ليشغل مكانه الفعد بجوار ابنته حتشبسوت.

تُرك المجال لاحقًا بغرفة العرش، لآمون مس لاستعراض قدراته وإنجازاته، بينما نظر إليه الملك بفخر واطمأن قلبه على عرش كمت. فعادة ما هددت العرش المصائب، مثلما حدث مع جلالة الملك تحتمس نفسه، الذي فقد العرش بعد وفاة والده ولي العرش، في أثناء حياة العاهل أحمس الأعظم، ثم لعبت الأقدار لصالحه حينما تزوج بابنة الملك أمنحتب -عمه- الوحيدة ليصبح وريث العرش مرة أخرى.

ما زالت أحقية الملك تحتمس بالحكم تحت الاختبار، فضلًا عن أن ابنه آمون مس من زوجة ثانوية، فلم تنجب الزوجة الملكية أحمس تا شري إلا فتاتين توفيت أصغرهما وتبقت حتشبسوت.

خطط تحتمس مع معاونيه الأكثر ثقة للسيطرة على الأمور داخليًا وخارجيًا، ووجد أن الأمر سيتطلب ترتيب حملة للجنوب في أقرب وقت، إلا أن نجاح خطته بثّ الاطمئنان في جوفه، فأشير على الملك إرسال ولي العهد إلى الشمال، لضرب أكثر من عصفور بحجر.

سيتولى ولي العرش أمر التجهيز العسكري المناسب لقيادة الجيش، فيخضع الأجانب لسيطرة الأرضين، ومن ناحية أخرى سيرضي غرور حكام أقاليم الشمال، خصوصًا رجال منفر. سيُرسل ولي العهد إليهم لتوثيق

صداقته مع حكام الشمال المستقبليين، كحلفاء أقوياء مواليين حينما يأتي الموعد ويجلس على عرش كمت.

وها هي الخطة أتت بثمارها، فأكدت المراسلات بين الشمال والجنوب ما وصل إليه الأمير من قوة، وأكدت ذلك عيون الملك بالشمال أيضًا، توقع الملك جانبًا من المبالغة رغم ذلك، إلا أن الدليل يسير أمام عينيه. تقدم آمون مس بصفته الرسمية كقائد عسكري، في جلال واضح وبثقة غير متناهية، تمنى للملك تحتمس دوام الصحة والحياة والسعادة، ثم قدم التقارير الرسمية الخاصة بالجيش الشمالي، وحالة الاستعداد وموقف الإمدادات العسكرية. فتك الأمير بكبرياء الجميع، وبين سطور تقاريره، أوضح أنه الملك القادم، استرسل بحديثه كأنه يخطب بعد نجاح معركة، بلغ الرضا على وجه الملك مبلغًا شديدًا ولاحت الراحة بين جنبات شفتيه في ابتسامة وقورة، بينما قفزت قطرات العشق من عين حتشبسوت، ونما حبها فجأة من مرحلة الطفولة لشريكها في التعليم واللعب، إلى قائد القوات، ولي العهد المبجل. لم ترض الملكة أحمس تا شري عن الأمر، لكن ليس هناك حل آخر، على الأقل لحمد النتر آمون أن تلك الحمقاء موت نفرت أنجبت ولذا سليقا بين ابنيها واج مس وتحتمس، فكيف سيكون الأمر إن اضطرت حتشبسوت من الزواج بأحدهما للحفاظ على العرش.

بانتهاء آمون مس من إلقاء تقاريره، بات الجميع صرعى بهائه، استأذن وزير الشمال بتاح مس للتحدث فأذن له، أثنى الأخير على ولي العهد، وأقر أن النتر بتاح رب منتفر حباه حكمة وعقلًا متميزًا، فضلًا عن قوته البدنية ومهارته القتالية هبة النتر آمون، وأنه استحق نيل لقب قائد عسكري بعد اجتياز جميع الاختبارات البدنية والعقلية شديدة الصعوبة، بغير محاباة، وبالعدل الذي يُرضي الربة ماعت، وتقدم بتاح مس باقتراح، أن يتوج الأمير آمون مس، ويوضع اسمه في الرمز الملكي شن، كمكافأة وتأكيد على حكمه القادم بعد عمر مديد للملك تحتمس. حبس الجميع أنفاسهم، كيف له أن يتقدم بمثل هذا الاقتراح أمام الجميع. خلال ثوانٍ مرت كدهر، لمست ابتسامة وجنتي الملك، فاكتست وجوه الجميع بالسلام مرة أخرى، وارتفع الهتاف باسم الملك وولي العهد في غرفة العرش. أشار الملك بيده إلى آمون مس فتقدم الأخير ووقف في وسط القاعة، مرتفقًا عنقه للسماء بفخر شديد، ناظرًا للملك. مد يده للأميرة حتشبسوت، التي تقدمت في سعادة جمة والمرح بادٍ على مشيتها الرشيقة، فضم آمون مس يدها وركعا معًا أمام جلالته وسط هتاف الجميع.

وقف الملك فعم الصمت المكان، بهيًا عظيمًا بتاجه المزدوج، لابسًا حلة بيضاء من الكتان، تسلقت كوبرا ذهبية عضلات ذراعه الأيسر، واستقرت الخواتم الذهبية على أصابع يديه، كان جلالته محاربًا قويًا، مد يديه لابنيه فنهضا، وأشار إليهم ليلتفتا فينظرا إلى الحضور، ومن خلفهم على درجة أعلى وضع الملك يديه عليهما وقال "أعلن اليوم قبل بداية الاحتفال بعيد أوبت، عن أمر جلالتي بعمل لوحة، تحت إشراف وزير الشمال المبجل بتاح مس، يكتب بها اسم آمون مس في الإطار الملكي شنو، غدا في الاحتفال تكتمل مراسم بداية الحكم المشترك لجلالتي وآمون مس، الأمير الملكي والقائد الأعلى لقوات كمت، وحتشبسوت المتقدمة على الأميرات، محبوبة آمون". صاح الجميع، وهتف الحضور باسم الملك وولي عهده والابنة الملكية، وغمرت القاعة روح الحماسة، نجحت الخطة!

قرر وزير الشمال استعجال الأمر الذي استشفه، فوجده الملك ملائمًا لرغباته، لا يمكن لأمراء كمت الوسطى الانشقاق بين طوقي الشمال والجنوب، وحان وقت الالتفات للأخطار الخارجية، فبعد الانتهاء من الاحتفال بعيد الأوبت سيُجَهِّز لحملة قوية للجنوب، لإخضاع شعب كرما المتمردين، وتأمين طرق التجارة.

تاهت الملكة بين لمحات الماضي وألم الحاضر، لم تخلد للنوم بسهولة، بعدما أصابتها ذكرى آمون مس ببقعة رطبة طردت النوم من عينيها، وضجرت مضجعها لفترة طويلة.

***

في اليوم التالي وقف الكاهن الأكبر فجرًا متوشحًا جلد الفهد، ترددت أصداء الألحان المقدسة بين جدران المعبد، وتلقى حابو سنب التطهير بيد نفرو بين، ابن صديقه الوزير النبيل عميتو، أصبح نفرو بين كاهن وعب

-مطهر- رغم أنها رتبة منخفضة بين الكهنة، إلا أن الكاهن الأكبر وعد صديقه بترقية نفرو بين الشاب ليصبح كبير مطهري المعبد. أنهى الكاهن المطهر عمله، ومن ثم توجّه الكاهن الأكبر إلى غرفة قدس الأقداس، حيث يرقد تمثال رئيس النترو آمون رع، بارتفاع قدم، مصنوع من الذهب الخالص، يدخل الكاهن الأكبر لخدمة التمثال ثلاث مرات يوميًا، بعد التطهر وتقديم القرابين على المائدة المرمرية الضخمة، يتطهر الكاهن ثانية، يحرق البخور ويكسر قفل الشمع الذي وضعه بعد إنهاء الخدمة السابقة، يفتح الباب الطاهر بخشوع ويقول: "لقد حضرت هنا بالنيابة عن جلالته".

فالملك هو الوحيد المخول له الدخول لقدس الأقداس، هو ممثل النترو على الأرض، لذلك يكون حضور الكاهن الأكبر فقط بتفويض مباشر من جلالته، يشعل البخور الطاهرة، ويبدل ملابس التمثال، يقيم الصلوات السرية بخشوع، ويحافظ بشدة على التفاصيل كلها، للمكان طاقة شديدة القوة، لا يقدر على تحملها إلا الشخص الأطهر، بعد الملك مباشرة، وهذا الشخص هو حابو سنب، الذي اختاره النترو خصيصًا لتلك المهمة الطاهرة، كما أن الكاهن الأكبر هو من يشرف على كل ثروات المعبد وهباته، يتحكم في مئات الموظفين وعشرات الكهنة، هو حاكم فعلي لمدينة صغيرة، مدينة مقدسة.

بعد انتهاء خدمة الصباح، وقف القائد أحمس بانتظار كبير الكهنة خارج الباب الجانبي لمعبد إيبت سوت، مرت دقائق قليلة حتى برز رأس الكاهن الحليق لتلبية الدعوة، بصوت يكاد يكون مسموعًا قال حابو سنب: "أهلًا بالقائد".

ليس هناك شك في تصارع حزبين في المملكة، يحلّق أحدهم في سماء الإبداع ويترأسه سنموت، تميل كفة الملكة إليه، ودعمه أنيني وأحمس بن نخبت بشدة. وفي مواجهته حزب المحافظين بقيادة الوزير عميتو والكاهن الأول حابو سنب، الذي مثّل قلعة التقاليد والعادات والنظام، خلق ذلك معضلة شديدة الصعوبة، ميزان إحدى كفتيه النظام والتكرار والصرامة، بينما احتوت كفته الأخرى على الإبداع والتجديد، وها هما رأسا الحزبين المتعارضين، يحكان عقبيهما بالأرض الترابية بجوار المعبد استعدادًا للمعمعة.

لم يبدأ القائد بالحرب، بل حاول اكتشاف أرض المعركة، فراح يتحدث عن حادثة موت الملك الشاب المفاجئة، وما تليها من مشاكل تظهر على السطح، تمشى الرجلان واقتربا من ضفة النهر، سارا في حذاها مبتعدين عن الأعين والآذان، وما إن لاح صمت الطبيعة حتى سدد ضربته الأولى قائلًا: "سيجهز سنموت نبوءة تثبت عرش الملكة، وستقر أنت أنها حقيقة، خرجت من معبد إيبت سوت بأمر النتر آمون".

"ليس لسنموت السلطة ولا القدرة على عمل نبوءة، ولا تنس يا حضرة القائد أن النبوءات السابقة الداعمة لحكم الملكة، ومن بعدها الملك تحتمس منخبر رع -الثالث- أوحي بها لكهنة الوحي في المعبد، فهم فقط من يتحدث النتر من خلالهم، وسنموت ليس أحدهم، حتى إن دعمه حضرة القائد"، يبدو أن حابو سنب تحضر للحرب جيدًا.

"ألم يخبرك صديقك الوزير عميتو بتسلم سنموت لقب المشرف الأعلى على كافة طقوس آمون".

"عميتو قال.. سنموت.. ماذا؟! يستحيل أن يسمح المعبد بتعيينه بذلك المنصب.. ويجب..".

"يجب أن تعرف أن معارضة أمر الملك خيانة، ويجب أن تعرف أن النبوءة ستخرج من المعبد لا محالة".

"ليس من المناسب يا حضرة القائد تحدي النترو ولا رجالهم".

قالها الكاهن بعد أن حاول تمالك نفسه، ورسم شكلًا من القوة لم يملكه حقًا، لكن إن أعلن القائد الحرب فسيحارب الكاهن للحفاظ على منصبه. يبدو أنه استخف بسنموت هذا أكثر من اللازم، أو وثق برفيقه عميتو فوق ما يجب..

"مؤكد أن جناب القائد يعلم أنني تحت أمر الملك، لكن يقلقني أن يصل للكهنة بباقي المعابد أن السلطة لا

تحترم النترو، وهو شيء خطير قد يسبب ذلك خوفهم أو ضيقهم، والوضع لا يسمح بذلك الآن".

لن يخضع بسهولة، بكل الأحوال لم يتوقع أحمس أن يكون الأمر سهلًا، لذلك أجّل آخر ضرباته حتى يكشف الكاهن ما لديه، وأصبحت الفرصة مواتية.

بنبرة أكثر هدوءًا قال أحمس: "غريب تهديدك للملك والعرش هكذا، رغم رغبتي في تقديم يد لتشارك في المستقبل".

"لم أتخيل أن حضرة القائد يظنني غبيًا لتلك الدرجة، أتضعني تحت أمر سنموت وتخبرني أنني سأشارك؟".

"لقد تسرعت ولم تسمع عرض الملكة، وبدأت هجومًا لا مبرر له".

"وما عرض الملكة؟".

"سيعيد سنموت قطعة الأرض الكبيرة في شمال المقاطعة، التي أهديت له باسم الملك الصغير، ويضمها لأملاك آمون وتكون تحت إشرافك، وستصبح المشرف على تفاصيل النبوءة وصيغتها"، قال أحمس جملته الأخيرة، وبخبرة القائد علم أن المعركة حسمت.

"سيعيد سنموت الأرض كلها؟".

"ويكتب بذلك مرسومًا، كما أنك ستكون الفعلم الفعلي للملك الصغير، وتشرف على نشأته كلية، سيكون الصغير كاهنًا ينمو في القداسة تحت عينيك، أي شرف أعظم من هذا!".

لاحت الموافقة في الأفق، كان الأمر أيسر مما توقع القائد، وبقي فقط التنفيذ. "سيبدأ معك سنموت من الغد لتجهيز النبوءة، أمامكما أكثر من شهرين حتى الجنازة"، قال القائد جملته الأخيرة آمرًا كما اعتاد لعشرات السنوات، ورحل تاركًا الكاهن صريع معركة حسمت بسهولة.

خلال ما يقارب سبعين يومًا لاحقة، استمرت اللقاءات بين سنموت وحابو سنب، لإنجاز نبوءة قوية، متقنة التفاصيل، لحماية العرش من المخاطر، لم تنقص الكاهن المعرفة ولا الاطلاع، فذلك كله من نطاق عمله، إنما أصعب ما واجهاه، أكثر حتى من سحابة البغض الداكنة، التناقض الشديد في فكريهما، فكلما حلّق سنموت بجموح في أفق الخيال، اصطدم بجبل جمود حابو سنب المحافظ العتيد، على كل حال لم يتوقع أحد سهولة الأمر، لكن اتضحت حينها رؤية حتشبسوت لاختيار سنموت كصانع للنبوءة، فلم يكن غيره بقادر على صنع تلك التفاصيل المتقنة. وخلال أكثر من شهر من الاجتماعات المكثفة، تمكنا أخيرًا من صياغة النبوءة الإعجازية، وبقي فقط دمج تفاصيلها المتماسكة، لتشكل فارقًا مميزًا في تاريخ الديانة بكمت، لكن المرحلة الأخيرة هي الأسهل على الإطلاق.

***

كما تُسن تقاليد الأجداد، من يشيع يرث، لذلك وجب على حتشبسوت التأكد من كل تفاصيل الجنازة ودفن الملك، فلن يتمكن الصبي الصغير من ذلك، لذلك توجهت بصحبة بعض الحراس وسنموت فقط إلى البر الغربي، للإشراف على العمل بالمومياء. وُضعت المومياء بالمعبد الجنائزي للملك الراحل تحتمس الأول، لأن تحتمس الثاني لم يكن قد خطط بعد لعمل معبد جنائزي، تحيا فيه ذكراه بعد وفاته، فلم يستعد للموت في ذلك الوقت، لذلك وُضعت مومياؤه بمعبد والده، وأشرف عليها كهنة النتر آنوب، رب التحنيط والطب، مرشد الأرواح في العالم الآخر. ألقت الملكة ومساعدها نظرة على العمل، وتركت حتشبسوت وحيدة للرثاء على المتوفى كما تنص التقاليد، ثم خرجا من المعبد بوقت الأصيل.

قالت حتشبسوت: "أود زيارة معبد الملك مونتوحتب نب حبت رع صادق الصوت".

بكل تاريخ كمت حتى الآن، هناك ثلاثة موحدين، كُتبت أسماؤهم على برديات التاريخ من الذهب، أولهم هو

الملك نعرمر، والثاني هو مونتوحتب نب حبت رع، والثالث هو الجد العظيم أحمس.

خرج الموكب الملكي المصغر من المعبد الجنائزي لتحتمس الأول متوجهًا إلى معبد مونتوحتب، مؤسس الأسرة الحادية عشر، بعد عدة دقائق اقتربت العربة الملكية التي قادها سنموت للمعبد، رفرفت الأعلام المقدسة أمامه، وخرج خدام المعبد قليلو العدد لاستقبال الموكب المعظم، فخرّوا ساجدين.

قالت حتشبسوت: "أقام المبرر أمنحتب الترميمات بمعابد الأجداد، واستمر بها والدي العظيم، وما زلنا على العهد نرمم ما تركه السلف ونبني المعابد لأنفسنا، لكن من بين كل المعابد لم يخلب نظري إلا هذا".

رغم كثرة المعابد والتصاميم، إلا أن تصميم ذلك المعبد الباقي من آثار الأسرة الحادية عشر خلب لب الملكة، منذ اصطحبتها المربية سات رع في صغرها، لرؤية الأعمال القائم على ترميمها العمال بأمر والدها، أبهرها ذلك التصميم الفريد لمعبد جميل من دورين، يحتوي طابقه الأعلى على هرم، يحتضنه الجبل مظهرًا طبيعتهما الصارمة.

قال سنموت: "لقد تمكن ملوك الأسرة الحادية عشر من إعادة ماعت بعد الفوضى، وتمكن مهندسو المبرر مونتوحتب من ابتكار ذلك التصميم البديع رغم خشونته الواضحة".

سألت حتشبسوت: "أي خشونة تقصد؟".

"كان من الواجب على المهندسين تصميم أعمدة أكثر رشاقة، ومناظير أكثر تناسبًا"، أجاب سنموت.

"أتعلم يا سنموت كم قاسى ذلك الملك المبرر، واجتهد حتى ينهي فترة الصراع، بعد ما ارتكبه الملوك السابقون عندما انفصلت الأرضان مرة أخرى؟ حتى تعاليم المبجل إيبو ور، تلقي نظرة عما وصل إليه الحال، كانت فترة قاسية، أتظن أن بإمكاننا الحفاظ على الاستقرار؟".

"إني أرى في جلالتك خير سليلة لخير النساء، كل من نفخن في نار الحماس الوطني حتى تحررت البلاد من العامو، تتي شري وأعح حتب وأحمس نفرتاري".

"شتان الفرق بين أحمس نفرتاري وبيني، فقد شاركت هي زوجها في الحرب، وقادت الجنود بالمعركة، وحصلت بشجاعتها على وسام الذبابات الذهبية الثلاث، لقد أرتني إياها بطفولتي، ولكم تمنيت أن أصير مثلها. لكنني ها هنا أرملة وحيدة في مهب الريح، تحمي العرش لطفل ليس من بدنها".

"يمكنني يا سيدتي ملاحظة رسائل النترو، وأرى أنهم اختاروا شخصك المبجل للجلوس على العرش، منذ كان والدك الصادق نبيلًا ذا دم ملكي، قبل أن يتم اختياره وتتويجه من أحمس نفرتاري للجلوس على العرش، بل إني أؤمن أن النترو وضعوه على العرش -رغم عظمته- من أجل جلالتك".

"أنت تبالغ يا سنموت، أنا أرى كل أحلامي تتحطم، منذ كنت طفلة حتى الآن، لم يكتمل حلم واحد. أتعلم كم سأواجه من المشكلات والعراقيل، سيرى جميع حكام الأقاليم من أنفسهم ندًا لي، وسيتصارع الجميع للفوز بالعرش، ولا نعلم أي قدر من المشاكل يخبئ لي القدر، لن أترك التاريخ يكتب عني كزوجة ملكية حكمت البلاد لفترة انتقالية، حتى ينتقل الحكم من أسرة لغيرها".

"لن يحدث ذلك أبدًا يا مولاتي، يمكنك دائمًا الاعتماد على خادمك المتواضع، سأسحق نفسي وروحي من أجل تثبيت قدمي جلالتك على العرش، وأفني حياتي بخدمة جلالتك، وأشرف بنفسي على عمل معبد مناسب لجلالتك، لتدوم به ذكراك لملايين السنين".

ضحكت الملكة ضحكة ساخرة حزينة رغمًا عنها: "معبد جنائزي! هذا أبعد من الخيال يا سنموت، كل ما يمكنني تمنيه هو الجلوس على كرسي العرش، حتى يتمكن الصغير من الوصول إليه".

"بل على العكس يا مولاتي، هو في الأصل كرسيك، لقد اختارك النترو منذ البدء".

نظرت حتشبسوت بحسرة على معبد مونتوحتب البرر، ثم أمرت بالرحيل.

***

أصبحت المومياء الملكية جاهزة بعد انتهاء عملية التصبير، خلال أربعين يومًا وضعت بها الجثة بالملح، ثم عوملت بعد ذلك بمختلف صموغ الراتنجات النباتية والعسل والعطور والزيوت، في اليوم الأخير بدأت المراسم الجنائزية النهائية داخل المعبد، حيث وثق المحنطون المومياء بالكتان بكل عناية، حتى مثلت لفائف الكتان لوحة فنية بحد ذاتها، بكل وقار استخدم بعض الكهنة القارئين مقاطع من كتاب الخروج للنهار في أثناء لف المومياء الملكية، فلُفت كل طبقة مع الكثير من الصلوات والتعاويذ والتمائم، أهمهم على الإطلاق تميمة القلب، فهو محرك الإنسان وبه تكمن مشاعره، وعلى أساسه يُحاكم المتوفى في العالم الآخر، لذا وجبت حماية القلب قدر المستطاع، فأضيفت تميمة جعران كبير، كتعويذة للقلب لحمايته ورجائه لنجدة المتوفى وتثبيته عند المحكمة، ولا يوجد أفضل من جعران لذلك الهدف، فتلك الحشرة ترمز للأبدية، وهي غاية ما يرنو إليه المتوفى.

خارج المعبد الجنائزي للملك تحتمس الأول احتشد كثيرون، على رأسهم العائلة الملكية وكبار الموظفين، بالإضافة إلى عدد ضخم من عامة الشعب، لحضور رحلة الملك الأخيرة لمثواه الأبدي. عند باب المعبد حضر الكهنة والجزارين والذبائح، لم يخلف الملك وريثًا بالغًا ليقوم بالطقوس التالية، وهي طقوس فتح الفم، فقام الكاهن حابو سنب بذلك الدور مرتديًا جلد الفهد، ومن خلفه وقفت حتشبسوت، ثم الطفل الملك.

تقدم الكاهن بخطوات واثقة بينما شُغل باله بأحداثه الأخيرة مع سنموت، سحب اللعين البساط من تحت قدميه، واستولى على السلطة كلها، واستحق بذلك ربح عداوته، فإن كان هناك من هو جدير بلقب المشرف العام على الطقوس، فهو حابو سنب رئيس الكهنة سليل الكهنة، أشعل سليل الحثالة حربًا لن تنتهي حتى بموتهما، حينما قرر اعتراض مصالح أحد أقوى رجال المملكة، صحيح لم يقاوم الكاهن حينما عرض أحمس بن نخبت عرضه، لكن ذلك لا يعني أنه رضي بالأمر الواقع، وإن حصل سنموت على ما لا يستحق في هذه الحياة، فسيتأكد الكاهن أن غريمه لن يعبر بذلك للعالم الآخر، سيكون موته نهاية لكل شيء خص ذلك المغتصب.

بدأ طقس فتح الفم بالتطهير، رش حابو سنب بعض الماء ثم ملح النطرون، وقفت مومياء الملك على الرمل، ومن خلفها أقيمت مقصورة للنتر أوزير حاكم العالم الآخر بلحم أخضر كرمز للخصوبة، ومن ثم بدأ التبخير في أثناء تلاوة بعض الصلوات في صمت ثم صرخ حابو موجهًا كلامه للنحاتين: "من سيصنع لي تمثالًا يشبهه؟"، فتقدم بعض الخدم حاملين تمثالا لكا(12) الملك باللون الأسود كرمز للموت. احتوت المجموعة الجنائزية للملك على عدد ضخم من الأدوات والتماثيل، أهمها تماثيل أوشابتي(13) مجموعة يزيد عددها عن أيام السنة، لُحت أكثرها من الخشب، وبعضها من القيشاني على شكل الملك وهيئته بحجم صغير، ليعمل كل واحد منهم يومًا في الجنة بدلًا عن المتوفى.

لمس الكاهن فم التمثال والمومياء بإصبعه الأصغر، كما تفعل الأم لرضيعها حتى تلقمه ثديها، كرمز لعودة الحياة، ليتمكن الملك من الأكل والشرب فتدب الحياة في أوصاله، أعلن بعد ذلك للجمع أن التمثال جاهز، حينئذ تقدم الجزارون للثور الضخم ذي القرون العظيمة المجهز للذبح، وبمهارة أحكموا وثاق قدميه وبخفة قُطِع فخذ الحيوان بينما صرخ الكاهن: "أتيث بعدوك ليُذبح بين قدميك" كإشارة إلى التحكم بالشر، لضمان هزيمة الملك للوحوش المخيفة المنتظرة بعالم الأموات.

مسك حابو سنب بفخذ الثور ولمس بها فم وأنف الملك، حتى ينقل إليه قوة الحيوان الضخم، مع تلاوة بعض الصلوات دون صوت، استمرت طقوس فتح الفم لفترة طويلة بين أجزاء مسرحية مثلها الكهنة، مع تلاوة الصلوات المسموعة والسرية مع التبخير والتطهير عدة مرات، بعد ساعات انتهت الطقوس، وشحبت المحفة التي تجر التابوت، ومن خلفها تلوى في الممرات بين الجبال صف طويل من الخدم والجنود، حاملين الأثاث

الجنائزي للملك وكل متعلقاته، كتعبان طويل يسعى بحزن لغايته الكئيبة، استمر العمل في نقل الأمتعة للمقبرة حتى ساعة متأخرة من الليل.

سلمت الزوجة الملكية ما تبقى من طقوس للكاهن، وانصرفت لقصر أبيها للمرة الأولى منذ زواجها بعد أن أمرت بإعادة تجهيزه، فلم تطق حتشبسوت العودة إلى القصر نفسه الذي عاشت فيه مع زوجها الراحل، أرادت بذلك أن تطوي صفحة من حياتها قُدر لها النهاية وكأنها لم تكن، بغض النظر عن كل ما ترتب عليها من أحداث مؤسفة.

للمرة الثانية، جالت بخاطر حتشبسوت ذكرى آمون مس، لكن في تلك الليلة تذكرت أشد الذكريات حزنًا، بعد انتهاء الاحتفال بالعيد عاد آمون مس للعاصمة الشمالية، يحمل أحلام عروسه وطموحات أبيه وأمل أمه وفخر شباب العاصمة كلهم، واكتنفت الأميرة حتشبسوت سعادة غمرت روحها، ترى بأحلامها زوجها البطل عائدًا من الحرب منتصرًا، يذوب الزوجان في الحب احتفالًا بالنصر، بينما ترتفع من حولهم المسلات العظيمة قربانًا للشمس، سيكون الزوجان تتمة أعظم قصة حب وبطولة مرت على تاريخ كمت.

جاء الخبر للملك والأميرة في معيته بالقاعة الكبرى، القاعة نفسها التي احتفل بها الملك بتتويج ابنه منذ بضعة أشهر، جاء مرسال الشؤم ليخبر الملك أن آمون مس، ولي عهده، سقط في أثناء أحد التدريبات وفارقته الحياة!

غُرس سكين ثلم في قلب الأميرة حينما سمعت الخبر، ذرفت الدم من عينيها حزنًا على الفقيد، وتحمل قلبها الصغير السعيد حزنًا أكثر مما تتحمل قلوب أهل واست كلهم، شاخ قلب الأميرة خلال الانتظار الكريه، يا للقدر البذيء، كيف لم يمهل آمون مس ليجلس على عرشه، ويحقق الأحلام والخطط، كان كل شيء مثاليًا بشكل غريب، كيف للنترو أن يسخروا من ملوك كمت بهذا السخف، ألا يبالي بهم آمون رع؟ ألا يحب الملك وابنته حتى يخذلهما بتلك القسوة! وجب ذبح النترو لتجميع دمائهم الذهبية فيصاغ منها تابوت مقدس لآمون مس، فبكل قسوتهم وسذاجتهم يستحقون القتل جراء غدرهم بالأمير.

اكتست العاصمة بالسواد والحداد ونكست الرايات، قيل إن وقوع البلاء خير من انتظاره، لكن البلاء وقع وها هم بانتظاره، لزم تحنيط الأمير في الشمال حتى تنجو الجثة من الفساد، نبحت سكين الخبر الملك العظيم وظل النزيف مستمرًا طالما انتظروا.

بيوم كئيب بعد مرور ما يقارب ثلاثة أشهر من انتشار الخبر، حضرت المركب الملكية التي غادر بها الأمير للشمال، مع موكب مهيب ضخم من المراكب المرافقة، حملت العديد من الموظفين الشماليين، أهمهم الوزير بتاح مس الذي خضب الدمع لحيته. وما إن رأت حتشبسوت تابوت حبيبها حتى أغشي عليها، بصعوبة بالغة وقف الملك الجبار تحتمس الأكبر تغشاه الدهشة الممزوجة بالحزن وخيبة الأمل، بقلب محترق في أتون الغدر وعينين داميتين، رأى تابوتا يحمل فلذة قلبه وكل خططه وأحلامه، ليس للملك أن ينهار، فآلاف الأرواح تعتمد على صموده، أي قسوة تملكت قلوب النترو حتى يُحرم الملك من الرثاء على أغلى ما امتلك! حُرم الملك من حق الأب في الرثاء أمام جثة ابنه الحبيب، فآلاف الآباء والأبناء على كتفيه المجهدين، كم هي ثقيلة أعباء الملكية، هان الفلك بعيني جلالته في تلك اللحظة، لم تكن نعمة من آمون رع قط أن عادت له الملكية بعد رحيل والده، بل هي عقاب بلا حدود، قيل إن الرجل يشيخ فجأة بدفن أبيه، فكيف له أن يدفن ابنه!

ضغطت الذكرى بالدموع على قلب الملكة على سريرها تنتظر النوم، ثقلت الجثة لمقبرة صغيرة أعدت لموت نفرت، ليت العقرباء وأبناءها ماتوا جميعًا بدلًا من آمون مس خير شباب كمت، ولو أمهله القدر الخسيس لكان خير ملوك الأرض السوداء، في ضربة واحدة دمرت كل الأحلام، شاب الملك بعد موت ابنه ولم يفارق قصره إلا قليلًا، ذلك القصر الذي عادت إليه حتشبسوت وكأنها تستحضر ذكرى حبيبها المتوفى، نامت كل يوم في غرفتها وهي تحلم بعودته. ويوم زيجتهما، أيقظها الواقع من حلمها الجميل، بين يدي تحتمس، النسخة البلهاء من حبيبها، ظنت حتشبسوت أنها سامحته على أنه تزوجها، لكن شعورها بالغضب الدفين تحت حزنها أثار

حنقها بشدة في تلك الليلة.

أقسمت الملكة أنها لن تسمح للرجال بتقرير مصيرها مرة أخرى، فخذلها حبيبها حينما مات وأبوها حينما زوجها من تحتمس، وتحتمس ذلك نفسه خذلها بكل نفس تنفسه، بكل ليلة ضمها إليه وذرف حبه سيئ الأداء في عدة ثوان وخلد للنوم.

إن سخر آمون منها فقد انتهى الأمر الآن، فسيرى العالم كيف ستحكم خير سليلة لأقوى نساء الأرض، الملكة حتشبسوت، التي اختارت لنفسها اسمًا ملكيًا ماعت كا رع في تحدٍ لعالم الرجال..

***

العام الأول من حكم الملك تحتمس من خبر رع، بعد التحاق تحتمس الثاني بالنترو ببضعة أشهر، بدأ البروتوكول اليومي كالعادة باستلام الوزير عميتو التقارير، لكن في ذلك اليوم كان الأمر مريبًا، قرأ الوزير تقرير القائد الأعلى لحاميات سمنة وقمنة قائلًا:

"ابن الشمس تحوت مس والزوجة الملكية حتشبسوت لهما الحياة والقوة والثبات، يكتب خادمكم سا سنب: غارت قبائل الجنوب الخسيسة على بعضهم البعض، مما أدى إلى التشار الفوضى بين أراضي الجنوب، ولم تتمكن قبائل النحسو من الالتزام بالجزية السنوية".

قالت حتشبسوت بضيق: "وها قد بدأت الاضطرابات، ما إن وصل للأخساء خبر انتقال الملك حتى انتشرت الفوضى".

"ليس هذا بالأمر الجلل يا سيدتي، فلم تخل صفحات تاريخهم من الاضطرابات"، أجاب الوزير.

فعقب سنموت: "لا أظن أن هذا الأمر هو ما قد يقلق جنابك الآن، بل إني أرى أن تقارير حكام الأقاليم تحمل الكثير من القلق".

سألت حتشبسوت: "وما بها؟".

"لا شيء جديد يا مولاتي، فالأمر معتاد ألا يتمكن حكام الأقاليم من الوفاء دائمًا بالتزاماتهم من الضرائب"، أجاب الوزير مطمئنًا. لكن سنموت أضاف: "ليس كل هذا العدد من الحكام في المرة الواحدة يا جناب الوزير".

أضافت حتشبسوت: "يبدأ الاضطراب بشرارة صغيرة، لم أكد أجلس على العرش حتى تقاعس النبلاء عن واجباتهم".

"لا تعطي الأمر بالًا يا سيدتي، فلا شيء يثير القلق هنا، هو أمر معتاد، يحدث أيضًا مع الملوك، ويعفي الملوك الأقوياء حكام المقاطعات المتعثرين، حتى تمر أزماتهم".

"أولم يلفت انتباه سيدي الوزير تعثر كل أولئك النبلاء في آن واحد مباشرة بعد وفاة الملك؟"، سأل سنموت.

لم تعط الملكة للوزير فرصة للإجابة وقالت: "حسنًا، استدع الحكام كلهم الذين لم يوفوا بالتزاماتهم".

قال سنموت: "أرجو يا مولاتي أن تستثني باختي حاكم كيس من ذلك الاستدعاء الآن، ليكن ذلك لاحقًا بعد الاطمئنان على حالة باقي المقاطعات وحكامها". نظر بعدها سنموت إلى الملكة نظرة ذات مغزى، لكن الوزير جادل قائلًا: "إذا استدعت الزوجة الملكية حكام الأقاليم، فيجب أن يكون باختي أولهم، لأنه يشرف على منطقة ضخمة، وما زالت تمر منطقته باضطرابات شديدة، وأرى أن الرجل يقوم بدور هام في السيطرة على الفوضى".

أجابت الملكة: "لنستثنِ باختي مؤقتًا من الاستدعاء، حتى يتم استجواب باقي الحكام في شؤون مقاطعاتهم".

أنهت حتشبسوت الجلسة وسمحت للرجال بالانصراف، لكن لم تسمح لها عائلات النمل التي تجري تحت جمجمتها بالراحة، ما زالت جالسة على العرش تفكر، ماذا كانت أحمس نفرتاري لتفعل إزاء أمر كهذا، واجهت السيدة عشرات العراقيل، كان زمنها أصعب كثيرًا من زمن حتشبسوت، لكنها استحقت مكانتها بجدارة، كم أثرت تلك السيدة فيها منذ كانت طفلة صغيرة.

يبني الملوك معابد لأنفسهم، ليتذكرهم الناس لملايين السنين عندما يرحلون عن عالم الأحياء، بينما بدأت عبادة الملكة المعظمة أحمس نفرتاري وهي ما زالت تعيش بهذا العالم، قبل التحاقها الفعلي بالنترو، واجهت الملكة الراحلة العامو الأخساء مع زوجها الشاب منذ كانت فتاة صغيرة، تدربت بالجيش، قاتلت في الصفوف الأولى، قادت الجنود بالمعركة، صاحت في وجه الاحتلال حتى الزاح عن الأرض المقدسة. وبعد انتهاء الحرب استمر دورها العظيم بالبلاد، واستمرت سيطرتها على العباد، حتى عصر تحتمس الأكبر، فهي من ساعدته على الجلوس على العرش ومواجهة القلاقل، أما حتشبسوت فبحاجة إلى جيش من الرجال لتثبيت حكمها.

استكانت الأرضان لحتشبسوت، ورحبتا بها في أثناء رحلة الحج للشمال، تتذكر حينها كيف استقبلتها البلاد بالورود في احتفالات عظيمة، في أثناء زيارتها لمعابد كمت العظمى، وكيف دعمها كهنة رع الرائون بمدينة أيونو، إحدى أعظم مدن كمت، منذ عصر حكم النترو للأرض، ظنت حتشبسوت حينها أنها امتلكت العالم وما به، خاصة بعد زيارة مدينة منف، وكيف استقبل موكبهم حينها الأمير أمون مس بزيه الرسمي المهيب، كم بدا العالم جميلًا، لكن كل شيء اختلف الآن، عليها مواجهة الأحداث، وقيادة الرجال المتنافرين، حتى تنعم البلاد بالسلام، أترغب هي بذلك فعلًا؟ أم كانت تلك رغبة والدها بالأساس؟

أعليها دفن حتشبسوت الأنثى لتحيا حتشبسوت الملكة؟

من الصعب عليها التفكير الآن مع كل تلك الوحوش الهائجة بجمجمتها، لنرى بم سيجيب حكام الأقاليم، وماذا يجب عليها أن تفعل مع باختي هذا.

***

بعد عشرة أيام وُضع موعد استدعاء الحكام المتقاعسين عن تقديم ضرائبهم للعاصمة، حضر الجميع استجابة لأمر مقتضب من البرعا، ليقدم كل منهم دعواه. حضر كانفر حاكم مدينة آبو عاصمة الإقليم الأول، وسامين حاكم مدينة جبتيو عاصمة الإقليم الخامس، حتب حر عن مدينة أيونت الإقليم السادس، وأنبو نخت عن مدينة وادجيت الإقليم العاشر.

انتظر الجميع وقوفًا خارج قاعة الحكم حتى انتهاء البروتوكول اليومي، الذي يستمر لساعات، كانت تلك نصيحة الوزير الصارم عميتو، رغم اختلافه مع الفكرة منذ البدء وتيقنه من عدم جدواها، إلا أنه إن وجب عليهم تنفيذها فيلزم أن تصل الرسالة واضحة، غير مسموح بالعبث في عهد وصاية الزوجة الملكية على عرش الملك الصغير.

في أثناء انتظارهم الممتد تساءل سامين: "أظنكم هنا كلكم للسبب نفسه". سامين هو الأكبر عمرًا بينهم، والأكثر دهاءً أيضًا، تخطى الستين من عمره، وحضر معارك التحرير عندما كان صبيًا.

أجاب حتب حر: "يمكنك يا سيدي ذكر السبب الذي حضرت من أجله، حينها سنعلم جميعًا أهو نفس السبب أم لا". جمعت والد حتب حر وسامين العديد من المشاكل على الأراضي الحدودية، التي انتهت لصالح والد حتب حر الراحل، لذلك انتقلت بالتبعية الضغينة لولده ناحية الحاكم المكار الطاعن بالسن، لقد انتهى الثعبان من بناء مقبرته وتزيينها منذ زمن، لكنه لم ينته من الحياة بعد.

"تمامًا كأبيك، لم يعرف الراحل كيف يمكنه العيش بسلام، فافتعل المشاكل مع الجيران جميعهم"، رد سامين.

فأجابه حتب حر: "ألم تكف عن البكاء يا سيدي حتى الآن؟ كُتبت لنا الأرض بعهد الملك المبرر تحتمس الأول بالفعل، وما زلت لم تتخط الأمر حتى الآن، أرجو ألا تكون قد نسيت توثيق ذلك على جدران مقبرتك الجميلة، حتى تعلم روحك عند عودتها أنك فقدت الأرض التي حاولت الاستيلاء عليها".

قال أنبو نخت: "لم أظن أن حضوري للعاصمة سيكون بذلك المرح، كفاكما عبثا يا سادة، كلنا هنا للسبب نفسه، لم نتمكن هذا العام من الإيفاء بالتزامنا، وذلك يتكرر من آن لآخر، لكن لا نستذغى للعاصمة من أجل ذلك".

تكلم كا نفر للمرة الأولى قائلًا: "يجب عليك اختيار كلمات أفضل إن أردت الاستمرار على كرسيك يا سيدي، ليس هناك إلا معنى واحد لاستدعائنا، تحاول الزوجة الملكية إثبات قوتها وتمكنها من إدارة البلاد ولن تسمح بأي تهاون، كل ما عليكم فعله هو ابتلاع تعنيفها وإشعارها بأنها تملك بالفعل القوة الكافية، حتى لا تزيد الأمور سوءًا، أفعل ذلك دائما مع زوجتي وهي طريقة نافعة".

ضحك الجميع بصوت خفيض، ثم قال العجوز الداهية: "لم تعيشوا كلكم بما يكفي يا سادة لتتعلموا كيفية إدارة الأمور مثلي، إن أظهرتم خنوعكم ستقوى قبضة السيدة أكثر، وتزداد الضرائب، وتقل الصلاحيات، بل على العكس، يجب تذكيرها أن هناك نظامًا يجب اتباعه". رد حتب حر فورًا: "نعم بالفعل، كل ما يجب علينا عمله هو تعلم الإدارة منك".

استمر الجدال طيلة وقت الانتظار، حتى فُتح الباب الخشبي المغطى بالبرونز والمطعم بالفيروز، وقف سنموت بين مصرعي الباب، وسمح للحكام بالمثول. سجد الحضور للزوجة الملكية، امتد الأمر طويلًا حتى أذنت لهم بالوقوف، جلست على العرش بملامح ثابتة، لا تنبئ بأي شيء. أشارت حتشبسوت إلى الوزير، فقال: "ليس هذا هو الترحيب المناسب يا سادة، لاستقبال حكم الملك تحتمس منخبر رع والزوجة الملكية حتشبسوت، فالتهاون بجمع المحاصيل وتقديم الضرائب الملزمة من كل إقليم حدث خطير، يهدد وجود كل حاكم إقليم على كرسيه".

قالت حينها: "لا أظنكم يا سادة تعتقدون حقًا أن قبضتي على الحكم ستكون أكثر هوانًا من ذي قبل، قد عرفتم جميعا أني شاركت والدي المبرر في الحكم، وجلست على العرش بأمره، ومن بعده مع زوجي صادق الصوت تحتمس الثاني، والآن مع جلالة الملك الصغير، لذلك لم يختلف أي شيء، فلا أعلم حقًا لم كانت محاولتكم لتجربة التقاعس عن أداء مهامكم!".

"أتسمح لي جناب الزوجة الملكية بالحديث".

أجابت: "تكلم يا سيد حتب حر".

"لقد حضرت بعصر والدي الراحل وجود جنابك في سدة الحكم، وقد امتازت كل قراراتك بحكمة عظيمة، وقوة مهيبة، وقد تكررت أحداث كتلك أكثر من مرة منذ عهد الملكين المبررين، هو أمر مؤسف، لكنه يتكرر من حين لآخر، وقد أوردت في تقريري كل أسباب عدم تمكني من الإيفاء بالتزامات الإقليم، فإن فعلت لتضور أهل الإقليم جوعًا، وقد عهدنا بجنابك رحيمة رغم قدرتك، تهتمين بمخلوقات الأرض كلهم، فأرجو ألا تعتبر جنابك ذلك الأمر تجاوزًا مني ومن السادة الآخرين، بل هي الظروف المحيطة التي قد تقيد أفعال الرجال، وعلينا كما تأمرين جنابك دائمًا مراعاة كل احتياجات أهل الإقليم".

"إذا سمحت جلالتك"، قال سامين فأشارت إليه بالسماح، فأكمل قائلا: "لا أتفق بالطبع مع تشكيك السيد حتب حر بحكمة جلالتك، بل إنني أعتذر عني وعن بقية السادة الحضور، وأعد جلالتك أن هذا الأمر لن يتكرر أبدًا، فمن نحن لنتحدى أفعال ذات الدم الطاهر، الزوجة الملكية حتشبسوت محبوبة آمون". ارتفعت الهمهمات بعد حديث الثعبان، الذي قال منذ دقائق أن عليهم تحدي أمر الملكة!

أراد حتب حر الحديث لكن حتشبسوت رفعت يدها: "أعلم نواياكم جيدًا يا سادة، فكلكم نسل رجال بذلوا

كل شيء من أجل تحرير البلاد من قبضة الأخساء، لكن يجب أن تعلموا أنه لا تهاون بعد الآن، فإن سمحت سابقًا ببعض التجاوزات، فلن يتكرر ذلك، علينا جميعًا العمل بكد من أجل بناء وطننا، ورفعة اسم آمون رع سيد عروش الأرضين، وتحتمس منخبر رع، لذلك لا أنتظر منكم أي تهاون مجددًا، لن يمر الأمر دون عواقب، سيكون عليكم تسديد الضرائب المقررة عليكم بمقدار مرة ونصف المرة، يمكنكم الانصراف".

انصرف حكام الأقاليم فقال عميتو: "أكدت لجنابك من البداية على عدم جدوى هذا الأمر، فهو أمر معتاد من حين لآخر، وقد بدا عليهم الخضوع لجنابك".

"قد تسبب شرارة صغيرة نارًا شعواء تحرق كل شيء، رغم أنه شيء معتاد، إلا أنه سيصبح أكثر اعتياذا إن لم يحضروا إلى هنا، ليعرفوا أن الملكة لن تتهاون مع العبث بالعرش أو متطلباته"، قال سنموت.

"هو أمر كان علينا قضاؤه، لنرى ماذا بعد، ما زال هناك اضطرابات الجنوب، وباختي، وحكام الشمال، يجب أن أتعامل مع كل شيء"، قالت حتشبسوت بضجر، ثم أضافت: "ومتى علينا نشر النبوءة؟ لقد اكتملت بالفعل منذ عدة أشهر".

أجاب الوزير: "ما زال الأمر مبكرًا يا مولاتي، لا نعرف حقًا رد فعل الجميع على النبوءة، لذلك علينا تثبيت أقدام جنابك أكثر والتأكد من مرور كل شيء بسلام، وأنه ليس ثمة خطر يهدد حياة الملك الصغير".

قالت حتشبسوت: "إن هدف النبوءة في الأصل هو تثبيتي على العرش، فلم نحتاج التثبيت على العرش أولًا لنشر النبوءة؟".

أجاب سنموت: "هي نسبة وتناسب يا سيدتي، عند حد معين يمكننا نشر الأسطورة، بعدما تفرس قدماك بثبات في الأرض، حينها تنشر النبوءة، فتعلو مكانتك فوزًا إلى السماء".

تساءلت: "أتظن صادقة الصوت أحمس نفرتاري قد تفعل ذلك؟ تقف مكتوفة اليدين بانتظار شهور، وربما سنوات لنشر نبوءة بنوتها لآمون رع، لم ينتظر الناس حتى وفاتها لتلتحق بالنترو وتبدأ عبادتها، بل بدأت في تلقي القرابين وهي ما زالت في عالم الأحياء، كيف يمكنني أن أزعم أنني من نسلها ومن نسل آمون بينما لا يمكنني البوح بذلك علانية".

قال الوزير: "التريث مطلوب يا مولاتي، يجب علينا اختبار الأرض جيدًا قبل البناء، لنتمكن من عمل صرح ضخم يستمر وجوده ملايين السنين".

"هل أرسلتم لباختي أمر لامتثاله بالعاصمة؟".

"ليس بعد يا مولاتي، فهو الرجل الأخطر الآن على الإطلاق، يجب أولًا التأكد من الجميع قبل مثوله"، أجاب سنموت.

أنهت الملكة الجلسة وانصرفت لحجرتها بمزاج عكر، حكت كل ما حدث لسات رع، فقالت الأخيرة: "لا أرى أي سبب واضح لضجرك يا حبيبتي، فحضور حكام الأقاليم وخضوعهم لأوامرك، هي علامة جيدة بالفعل، بل إني أرى أنك تقدرين الواقع أسوأ مما هو عليه، وتخشين البلاء قبل وقوعه، يجب عليك الوثوق بنفسك أكثر من ذلك".

"ليست نفسي من لا أثق بها يا سات، بل الأقدار، فلعبتها السخرية، وعادتها العبث بمقدراتي".

"لكني أراك تخرجين من كل أزمة أقوى، ومن كل لعبة أجدر بالحكم من ذي قبل".

"هذا لأنك تحبينني، إنما في الحقيقة أخرج من كل أزمة أكثر استياء، إنها لعنة".

"تذكري كلماتي جيدًا يا عزيزتي، منذ اصطحبتك في السابعة من عمرك بأرجاء واست، ورأيت ذكاءك وفطنتك، تيقنت أنك ستغيرين من العالم، وستكون بصمتك عظيمة في صفحات التاريخ".

ربتت المربية على رأس ابنتها، وساعدتها على النوم، أما بخصوص المملكة، فسيكشف المستقبل كل شيء.

***

على مسافة حوالي أربعمائة كيلومتر شمال العاصمة واست، يقع الإقليم الرابع عشر من أقاليم كمت العليا، وعاصمته كيس(14) العريقة ذات الكرامة والشرف، لم يكن تاريخ المدينة دائمًا على وفاق مع العاصمة واست، ففي أثناء الفوضى التي تلت عصر المملكة القديمة، انتشرت نيران الحرب بين مدن كمت، حاول حينها حكام الأقاليم كلهم الاستيلاء على أكبر سلطة ممكنة، مما أفقد الحكومة المركزية سيطرتها، راح كل حاكم يحلم بكرسي العرش على البلاد جميعها، عانى الشعب لزمن تحت نير الفوضى، حتى بزغ بعد عشرات السنوات من بين أمواج الاضطراب بيتان قويان، تمكنا من ضم حلفاء وموالين من الأقاليم المجاورة، وبات الصدام بينهما حتميًا، أيّد أمراء كيس الأقوياء ملوك حنن نسوت(15) بوسط كمت في مواجهة ملوك واست، تأرجحت كفة الغلبة بين البيتين بعنف واضطراب، وما كادت تهنأ الأمور لبيت حنن نسوت، إلا ومالت بالنهاية لبيت واست القوي، وتمكن ملوكها من إخضاع الأرضين مرة أخرى، على يد جلالة الملك المبرر صادق الصوت منتو حتب نب حبت رع.

خارج قصر باختي حاكم الإقليم ببضعة كيلو مترات، انطلقت عجلته الحربية، إلى جوارها انطلقت عجلة مينا حاكم مير، امتدت علاقتهما القوية لآلاف السنوات، ربط بينهم الدم وصلات الرحم، مما ساعد على توثيق أواصر صداقة المدينتين الدائمة. داخل قصر الحاكم باختي كان الاستعداد على أهبته، لاستقبال صديقه مينا حاكم مير، أقرب ما يكون لصديقه في الصفات والعمر وحتى الملامح، اعتبر كلاهما الآخر أخًا منذ صباهما، وساعدت نشأتهما معًا ومعاناتهما في التدريب مع الجنود على وسم علاقتهما القوية بلون الذهب، فلم تكن مسافة ساعة بالدابة لتفصل بينهما، ولم يكن مينا مجرد تابع لباختي بل أخًا وصديقًا ورفيق درب.

انطلق الصديقان على عجلتيهما لتمشيط للمنطقة، استغرق الأمر منهما عدة ساعات، حتى عادا إلى قصر حاكم كيس، أمر باختي قائلًا: "اخرجوا المجرمين". اندفع رئيس خدم القصر لتمرير الأمر، فقال مينا: "لو كان لدينا عدد أكبر من العجلات لانتهت الفوضى".

أجابه باختي: "نعم يا صديقي، لكن الأمر ليس بتلك السهولة، من حسن الحظ أن البر عا سمح لحكام الأقاليم بامتلاك عجلاتهم الخاصة، فالواحدة تكلف ثروة، وتمنح صاحبها قوة ضخمة، لذلك من الجيد أن لدينا هاتين العجلتين".

"لذلك ما زلنا نطارد الملاعين والمجرمين وقطاع الطرق، لن تكفي أبدًا عجلتانا لملاحقة الجميع، إنهم ينتشرون كالجراد".

"هذا هو الأمر الواقع، تأقلم معه حتى يتغير".

"إن كان عليك الحفاظ على كل تلك المنطقة، يجب أن يسمح البر عا لك بالعتاد المناسب"

تساءل باختي: "ومن بالبر عا الآن ليسمح بذلك؟".

أراد مينا قول شيء ما، لكن الجنود أقبلوا للفناء أمام القصر، بيديهم أكثر من عشرين فردًا، بدا على ملامحهم الضعف، وعلى أجسادهم التعذيب، أشار باختي إلى الحرس فأخضعوا الرجال الموثقين على ركبهم، مسك باختي بيده هراوة ضخمة ومر بجوارهم، رفع يمناه عاليًا بالهراوة ونزل بها بقوة فهشم جمجمة كل منهم بضربة واحدة. أشار باختي إلى الخدم فأحضروا عربتين، نقلوا عليهما كل القتلى ثم ابتعدوا بهم تجاه الصحراء.

تساءل مينا: "كم أعدمت من المجرمين؟".

أجاب باختي: "أكثر من مئة حتى الآن، وما زال الكثير منهم يعيثون فسادًا".

تقدم رئيس خدم القصر لباختي، وأعطاه لفافة وهمس في أذنه، صرفه الرجل وفض البردية وقرأ ما فيها، ثم قال لصديقه: "استدعاء للبرعا".

***

خلال شهر حضر بقية حكام الأقاليم، والقائد الأعلى لحصني الجنوب لتقديم تقاريرهم وتبرير تقصيرهم، وتبقى فقط لقاء باختي. حضر أخيرًا، مثل الرجل بين يدي حتشبسوت ثم قام من سجوده، لطلته شعور مختلف، بعمر قارب الأربعة عقود، محارب قوي فارع الطول، مسيطر على أحد أقوى مراكز كمت العسكرية، اشتهر أهل بلدته بحبهم الشديد لرياضات القوة ورعايتها، خصوصًا المصارعة والتحطيب، ويعتبر أحد أبرع الرجال في الرياضتين، مارس منذ صباه التحطيب لساعات تحت أشعة الشمس مع أقرانه، فطهى رع بشرته، واشتد عوده وقويت كتفاه.

قال الوزير عميتو: "مرحبا بالسيد باختي حاكم الإقليم الرابع عشر، حضرت للعاصمة لإبداء موقف إقليمك وما يجاوره من اضطرابات".

أجاب الرجل: "فلتحيا الزوجة الملكية حتشبسوت، لها دوام الحياة والقوة والثبات، وجلالة الملك تحتمس. بعد طرد الملك أحمس العامو الخاسئين، والقضاء على من حالفهم من بيوت حكام الأقاليم، وقع وسط كمت بحالة كبيرة من الفوضى، بعد أن ثبت أن الحكام الحاليين للأقاليم المجاورة غير قادرين على السيطرة على أراضيهم المكتسبة، لذلك يقوم خادمكم المخلص بعمل عشرة أمراء، ليس عليك القلق من طرف إقليمنا يا سيدتي، فرجال كيس مخلصون لجنابك ولأسرتك المقدسة، نسل الملك العظيم أحمس".

رغم قوة نبراته ووضوح حديثه، إلا أنه قال بعينيه أكثر مما قال بفمه، ولاحظ الجميع بالفعل كيف أنه وضع اسم الزوجة الملكية أولًا، مما أرسى خطًا واضحًا لما تكون عليه الأمور بالنسبة له، فهو يعترف فقط بالملكة الحاكمة الحقيقية.

قال الوزير: "لا يُقلق جناب الزوجة الملكية أي شيء يا سيد باختي، بل على العكس يجب أن يكون القلق من طرفك، فبكلمة واحدة تخرج من فم الزوجة الملكية يُعزل حكام ويضعون، يموت الناس ويحيون. جنابها تحكم كوصية على عرش الملك تحتمس منخبر رع سليل المحرر الأعظم، من نسل أسرة ملكية عظيمة أزاحت القذارة عن الأرضين المقدستين، ويجب ألا يكون ضمن الرجال الذين يحظون بثقتيهما أي متخاذلين".

"تكلمت بالحق أيها المبجل عميتو، فجنابها من نسل أعظم نترو حكموا الأرض، وبحكمتها تستكين الأرضين، وكان أهل كيس خير سند لجلالة الملك المبرر أحمس، ومن قبله الملك كامس ومن قبله والدهما العظيم سقنن رع، فقد دربنا الأسطول ومددنا الحاكم الشرعي بالمحاربين، وبذلنا الدم والروح من أجل قضيتنا القومية، وهذه شيمة أهل كيس وميز، الولاء حتى آخر قطرة بدمنا، وما زلنا على عهدنا من الولاء. أسيطر يا سيدي بمفردي على منطقة شاسعة تجوبها الاضطرابات، أحكم على الفوضى بأمر مولاتي بقبضة من الجرانيت الصلد، حتى يتسنى لسيدتنا الاطمئنان على أراضيها وأمنها واستقرارها"، قال باختي بثقة لا تتكرر.

لفت انتباه حتشبسوت كيف يتحدث الرجل بثقة أمام حضرتها، ليس الأمر بتلك البساطة، فحياة الناس كلهم هي شيء مستعار من النترو والملك، يمكنهم استردادها في أي وقت، أي إيماءة خاطئة في القاعة الكبرى قد تكون بمثابة حكم إعدام، فكم اهتزت أصوات الرجال واختنقت عند حضورهم لقاعة الحكم. لكن ليس هذا الرجل، فقد وقف بثبات وتكلم بقوة وأثبت اختلافه عن الجميع، كما وصل لها أيضا كيف أنه يهتم بها فقط في حديثه، ويتحدث فقط عنها، لزمن طويل لم تر هي من هم مثله، لزمن طويل تساقطت قامة الرجال من حولها، فبعد وفاة آمون مس لم يتبق حولها من الرجال إلا من طعنوا بالسن كأحمس بن نخبت، وعميتو، أو من كان مجرد ظل لرجل، خُلق ليوضع بمكانة مساعد، كما يبدو سنموت، كحابو سنب أو غيره، أما باختي فمختلف، للمرة الأولى منذ سنوات ترى رجلًا كهذا.

لم يش وجه حتشبسوت بأي مما دار بخلدها، أنهت الزيارة الرسمية كالمعتاد مع بعض التحذير من التخاذل، والحث على العمل الجاد، حتى يتحقق الاستقرار والثبات لأرض كمت المقدسة، إلا أن الصياد العتيد التقط إشارة أنثوية لا يمكن تجاهلها، فتحت الملابس الرسمية تكمن أنثى كاملة، وضعتها الحياة بغير موضعها الحق، وارتفعت بعد ذلك اللقاء سماء توقعاته.

خلال بضعة أيام ورد طلب رسمي من سامين حاكم كفت لزيارة البرعا، فمنحت الداهية الموافقة، وحدد الموعد. حضر الرجل للبر عا مع ابنه، بعد السجود والديباجة الرسمية المعتادة، تحدث الرجل قائلًا: "أقدم لجناب الزوجة المقدسة ابني خع ماخت، سليل الإقليم الخامس، حصل ابني على التعليم اللائق، ونما تحت أشعة رع التي طهرته من الضعف البشري المعتاد، تدرب على القتال منذ نعومة أظافره، وامتدت به القوة حتى تفوق على جميع رجال الإقليم في المبارزة بالسيف والتحطيب".

"سيكون ولي عهدك خع ماخت خير سلف لأبيه بعد عمر طويل يا سيد سا مين"، قاطعته حتشبسوت، فمن المفهوم أن يقدم حكام الأقاليم وذوو المناصب أبناءهم للبرعا، حتى يحصل أولئك على ما لأهلهم من وظائف أو مناصب، وظنت أنها إن تركت الرجل يتحدث عن ابنه، الذي تبدو عليه بعض البلاهة، فلن ينتهي حديثه أبدًا.

قال الوزير: "يجب يا سيد سامين ألا تخطئ تقدير طيبة قلب الزوجة الملكية حتشبسوت، وعليك إثبات أداء أفضل من ذلك في حكم إقليمكم، حتى يتسنى لك توريث منصبك لابنك النبيل خع ماخت".

أضاف الرجل: "لكن يا جناب الزوجة المقدسة نحن هنا من أجل أمر آخر". أشار الرجل إلى ابنه، ففتح الأخير صندوقًا من الخشب، وأخرج منه قلادة ذهبية بديعة الجمال، يفرد بها جعران ذهبي أجنحته، المطعمة بالياقوت والفيروز، هدية كهذه تعتبر ثروة في حد ذاتها، خاصة بالنسبة لحاكم إقليم، يبدو أن الرجل يخشى تبديد منصبه بشدة، لذلك أحضر تلك الهدية الفريدة لكسب ود الملكة. حمل الشاب الهدية وسجد أمام حتشبسوت، فقالت: "ما طلبك يا سيد خع ماخت؟".

وقف الشاب وقال: "خلقت سيدة البشر حتشبسوت لتنعم بالسلام، وتطأ قدماها المقدستان نعيم الأيارو، بينما خلق الرجال للعمل الشديد، والمعارك، والبذل والتضحية، لذلك يا سيدتي حضرت لأطلب الزواج بجنابك، حتى تستريح الزوجة المقدسة من أعباء الحكم، وتنعم بالسلام والاستقرار، وتجد رجلًا يخرج على رأس جيش جلالته، يفتح البلاد ويُخضع الأخساء. لذلك إن تفضلت بقبول طلبي، سأبذل روحي من أجل سعادتك مدى الحياة، حتى يصل جلالة الملك تحتمس منخبر رع له دوام الصحة والحياة للعمر المناسب للجلوس على عرش كمت المقدسة".

نظرت حتشبسوت للشاب الواقف بسذاجة، وتطاير الشرر من عينيها، ظنت أن والده الأحمق سياسي داهية، إلا أنها تأكدت الآن من غبائه، كيف وصلت الجرأة بذلك المعتوه لتلك الدرجة!

صاح سنموت بغضب: "ماذا أصابك يا سيد سامين حتى تتجرأ بذلك الطلب! أتظن أن هناك من على هذه الأرض من يستحق تلك المكانة!".

أجاب الرجل: "الأمر يا سيدتي..".

"الأمر أنك تعديت حدودك بالفعل يا سيد سامين، وعرضت نفسك وبيتك للعقاب، عندما تجرأت وظننت أنه يمكنك القيام بفعل شائن كهذا"، أجاب سنموت بسخط.

سجد سامين على الأرض وتبعه ابنه، وقال ساجدًا: "نحن تحت أمر الزوجة المقدسة وجلالة الملك تحتمس منخبر رع، وفي خدمتهما، أنا وبيتي كله".

نظر الوزير مليا إلى سنموت، ثم أشارت إليه الملكة فقال: "انتظرا خارجًا يا سادة حتى تقرر الزوجة الملكية أمركما".

خرج الرجلان للانتظار خارج القاعة، فقال عميتو: "يجب التروي قليلًا يا سيدتي، فعقاب أولئك المغفلين سيجلب المتاعب".

صاح سنموت: "يجب أن يكونا عبرة لأي شخص يتجرأ هكذا مجددًا، جريمتهما تستحق العقاب الرادع".

جادل الوزير: "لا ندع مشاعرنا تتحكم في أفعالنا يا سيد سنموت، فقد يضر ذلك بمصلحة العرش أشد الضرر".

فقط حينها لاحظ سنموت أنه تمادى في إظهار غضبه، بينما تحركت عينا الملكة بينهما بعدما تحرر الغضب البادي على ملامحها الجميلة. قالت حتشبسوت بتروٍ: "لن يكون عزل الرجل من منصبه لائقًا".

أضاف الوزير بعدما نظر إلى سنموت نظرة حملت معها سخرية واضحة: "بالطبع يا مولاتي، قد يهيج ذلك حكام الأقاليم على العرش، فجنابك الزوجة الملكية، وهناك ملك فعلي للبلاد، سيوجه فعل كهذا نظر الجميع ليظنوا أن جنابك تودين الاستئثار بالحكم".

قالت حتشبسوت: "لكن لا يمكن أن تذهب فعلتهم بغير رد".

رد سنموت مسرعًا: "إن ذهبت بلا رد ستجدين كل يوم صفًا من الأمراء والنبلاء وحكام الأقاليم، يتقدمون بالطلب نفسه، يجب أن تكون لفعلتهم عاقبة".

قالت حتشبسوت: "فتح هذان الأحمقان لتوهما بابًا من الجحيم علينا، ادخلاهما".

دخل الرجلان حانين رأسيهما، وسجدا طويلًا إلى أن أمرتهما الملكة بالوقوف ثم قالت: "وجب عليك يا سيد سامين قبل أن ترفع رأسك للسماء حيث تود أن تكون، أن تنظر جيدًا للأرض حيث تقف قدماك لئلا تنزلق للهاوية، تود وضع يديك على العرش لتحكم الأرضين، بينما قصرت يداك في حكم الإقليم الذي ورثته عن والدك المبرر. وقفت في هذه القاعة منذ بضعة أيام تطلب السماح على إخفاقك في إدارة إقليمك، فحصلت عليه بسبب رحمتنا، أما وقد استهنتم برفقة العرش بكم، وتعديتم على مكانة ملك الأرضين تحتمس منخبر رع، فستقدم يا سيد سامين ضريبة إقليمك المتبقية ثلاث مرات، من أرضك الخاصة، فيبدو أن بيت حاكم الإقليم الخامس يحوي الكثير من الكنوز التي تسمح له بالإيفاء بما عليه، كما أنه إن أخفقت مجددًا في إدارة إقليمك الذي ائتمنك عليه ملك النترو آمون رع، سأنزع عنك كل أملاكك، وينتقل حكم الإقليم لمن هو أجدر منك بذلك، أما ولدك النبيل فتمت ترقيته للتو، سيصبح مساعدًا لقائد حرس الحدود الغربية، سينتظر الآن خارج القاعة حتى يحصل على الوثيقة الملكية ويغادر فورًا".

وقعت الصدمة بالشاب موقعها، حتى دمعت عيناه، فتلك الترقية هي عقاب في غاية القسوة، لم تمهل الفتى حتى الفرصة لتوديع والدته، أو جمع بعض حاجاته، أشارت الملكة بعينيها فسجد الرجلان وخرجا بصمت.

وصل بعدهما الكاهن الأكبر، تلوح معه مشكلة أخرى، سجد الرجل بين يدي الملكة: "فليعط سيد عروش الأرضين آمون رع الزوجة الملكية والملك تحتمس منخبر رع الحياة والثبات والقوة، على المحك أمر خطير يا سيدتي، فالمواد المقدسة المستخدمة في الطقوس اليومية لسيد النترو تقل بنسبة ملحوظة، وإن استمر الأمر كذلك قد نصل للحظة يشح فيها البخور والعطور والتقدمات المقدسة حتى الفناء، وهو أمر يهدد العرش يا مولاتي، فضمان استمرار الخدمة المقدسة هو واجب مباشر على البرعا، حتى يضمن ملك النترو الثبات والاستقرار للبلاد، فإن لم تستمر الخدمة المقدسة، ينال ذلك من سمعة العرش بشدة".

فكرت الملكة لبضع لحظات بصمت، وبدا على ملامحها سنة من الهم واضحة، بلسان ثقيل أجابت: "سينظر البرعا في ذلك الأمر يا جناب الكاهن الأكبر".

سجد الرجل لتوه وخرج، تاركا الملكة بمزيد من الهم، توقعت حتشبسوت أن تحيط المشاكل بالعرش بعد

وفاة الملك الواجهة، لكنها لم تتوقع أن يكون الأمر هكذا، سألت: "ماذا الآن؟".

أجاب سنموت: "على الكاهن الأكبر الانتظار ريثما تمر البلاد بتلك الفترة العصيبة، أظن أن بإمكانه تدبر أمره حتى تستقر الأمور في الجنوب، وتعود التجارة لنصابها".

"أرى تلميحًا يشكك بنزاهة الكاهن الأكبر بكلامك يا سيد سنموت، وهو أمر لا يليق، تحدث الرجل بالحق، فبدلًا من إلحاق التهم به يجب أن نفكر في حل لتلك الأزمة، أتود أن تنتشر الأقاويل عن جناب الزوجة الملكية، التي لا يمكنها الإيفاء بالتزامات المعبد؟"، أجاب عميتو.

جادل سنموت: "الأمر ليس تقصيرًا من البرعا يا حضرة الوزير، فبعد أن أنهى جلالة الملك تحتمس الأول صادق الصوت على كل حضارة كرما، انخفض بشدة سيل البضائع التي تحضر من الجنوب، فتلك القبائل الخاسئة كانت مسؤولة عن التجارة الجنوبية، وبعد تمردهم قاتلهم المبرر تحتمس الأول حتى أفناهم على بكرة أبيهم، وتولت التجارة بعدها قبائل أخرى، ولم تتمكن من الإيفاء بالالتزامات الضخمة التي أوردتها قبائل كرما، وأما الآن والوضع بالفعل مضطرب في الجنوب بعد اشتعال القتال بينهم، فتوقفت البضائع تمامًا".

نظر الوزير إلى سنموت ساخرًا، وقال: "نعلم جيدًا ما السبب يا سيد سنموت، السؤال هو؛ ما العمل؟ ولا أظن أن إلقاء الاتهامات يفي بالغرض". فكرت الملكة بينما تحدث الرجلان، ماذا كانت لتفعل أحمس نفرتاري؟ تلك السيدة العظيمة التي قادت الرجال بمعركة التحرير، وفجأة قاطعت حديث الرجلين قائلة: "يجب التحضير لحملة على الجنوب". أجاب الوزير: "هذا قرار صائب يا سيدتي، فعندما تزيد الفترة بين الحملة والأخرى، وما أن يستشعر أولئك الجنوبيون بارتخاء قبضة البرعا إلا ويبدأ تمردهم".

أضافت حتشبسوت: "وسأخرج أنا على رأس الحملة".

قال سنموت: "ليس من اللازم يا مولاتي خروج جنابك للحملة، فعندما تكون الحملة للجنوب القريب، لا يضطر الملك بنفسه القيام على رأسها، بل يترك الأمر لأحد القادة العسكريين".

"أتشكك في قدرة جناب الزوجة الملكية؟"، سأل الوزير بمكر.

أجاب سنموت: "بل أخشى على تحمل جنابك لمشاق الحملة العسكرية بلا داع، فالأمر أبسط من خروج سليلة العظماء حتشبسوت بنفسها لتلك الأرض البدائية".

أجابت حتشبسوت: "هذا قرار نهائي يا سنموت، فليستعد الجنود".

أستدفن حتشبسوت الأنثى لتسيطر حتشبسوت الملك؟

***

أنهت حتشبسوت جلسة اليوم، وتوجهت فورًا لمسكن السيدة إيست، الزوجة الثانوية وأم الملك الحالي تحتمس منخبر رع. دخلت للمسكن فسجد الجميع، وقفت فتاة تمشط شعر السيدة إيست، وأخرى تحمل ملعقة من الخشب على شكل فتاة تحمل بيدها بطة، فتح جناحاها عن مسحوق أحمر، تضع منه الفتاة للسيدة إيست، بينما تلاعب نفرعح الملك الطفل. وقف الأخير عاريًا تميزه خصلة الشعر الجانبية، وسطعت عيناه المكحلتان بقوة، سألت حتشبسوت عن حال الملك الصغير، فأجابت إيست: "كلنا في أفضل حال بأمر جناب الزوجة الملكية". نظرت إليها حتشبسوت شذرًا، فقد فعلت ما لم تفعله الملكة، وأنجبت الملك القادم، كيف لم يضع النترو بذرة ذلك الطفل برحمها؟ بم تفيدهم تلك الحماقة؟ لماذا فقط لا يسير كل شيء كما خطط له؟

وجهت نظرها إلى الطفل، ومسحت رأسه بيدها وربتت على كتفه ثم انصرفت. بغرفتها فكرت كم سخرت منها الحياة، وكيف كان عليها الرضوخ كل مرة لرجل، أقل من سابقه.

بدأ الأمر مع والدها العظيم تحتمس عا خبر كا رع، جلس الرجل على العرش بعمر الأربعين، بعد أن كان قائدًا

عسكريًا عظيمًا، وأميرًا ورائيًا يجري الدم الملكي بعروقه، ورثت هي منه العظمة والشموخ والعرش، وضعت الأقدار بطريقها آمون مس، الشاب الشجاع القوي، أحبته حينما كانت فتاة ساذجة، كان عليها التخلي عن الكثير من أجله، من أجل أن تكون فقط زوجته، وكانت على أتم استعداد لفعل ذلك، بينما حينما وضع تحتمس زوجها الراحل في طريقها، كان ذلك ظلمًا بينًا، انقسم قلبها حينها لقسمين متصارعين، فرضي نصف قلبها بذلك تمام الرضا، النصف النهاري من قلبها، حيث أصبحت حتشبسوت حينها الحاكم الفعلي للبلاد، تأمر والكل يجيب، فأرضت غريزة الحكم حينها كاملة، بينما خارج قاعة الحكم صرخ دائمًا الجزء الأنثوي منها، واستحضر صورة آمون مس آلاف المرات، نظرت بعد الغروب لنفسها في المرآة، لتجد فتاة جميلة في ريعان شبابها بلا حبيب. لكن الآن عبثت معها الأقدار بما لا يوصف، فبات الطفل تحتمس منخبر رع الحاكم الرسمي للبلاد، بينما عليها أن تحكم فقط باسمه، ما أقسى النترو!

لكن الجزء الملكي منها يقنعها أن الأقدار تلعب تمامًا لمصلحتها، فأزيح من طريقها الرجال كلهم بعدما أنهى كل منهم مهمته، فأورثها تحتمس الأول كل ما يجب أن ترثه، وسرق آمون مس قلبها، حتى لا تتمكن من الفرق بحب غيره، فتكون كأي فتاة ولدت لتتزوج وتعول أطفالها، وأعطاها تحتمس زوجها ابنتين، فأتم مهمته ورحل، وها هو تحتمس الصغير، يمارس دوره الذي أعد من أجله، يسير عاريًا مبررًا قضيبه الصغير للجميع، ها هو يا سادة الملك القادم، فحتى يتم الأخير مهلته، تجلس حتشبسوت على العرش، تحكم البلاد كما أعد لها النترو خطتهم، وتقود ملايين الرجال، الذين لم يُخلق من بينهم ند لها.

تتأرجح مشاعرها لتحتمس الصغير بين كل شيء، الحب والكره، والغضب والسعادة، والحزن والفرح، والاهتمام والتجاهل، وغيرها الكثير، المشاعر كلها حرفيًا، أوجب على النترو خلق الولد برحم أخرى؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي لم تجد له إجابة، أو لم يتمكن الجزء الملكي منها بخداعها فيما يخص أمر الملك الصغير، لما لم يكن ابنها، فتنتهي المعضلة فورًا.

فكرت حتشبسوت من وقت لآخر أتستحق فعلًا عرش الأرضين وتاجهما المزدوج؟ أم هي فقط ماكرة ماهرة، تمكنت من خداع الجميع حتى تصل للعرش، أستتمكن من القيام بحملة عسكرية عظيمة، تخضع بها البلاد الجنوبية، وتثبت أقدامها بالعرش، وتستمر أسرتها الملكية في الحكم لعشرات القرون، أم ينتهي بها الأمر زوجة لأحد الأمراء الوراثيين، وتكتب على يدها نهاية أسرتها؟

لقد ربط النترو مستقبلها بذلك الطفل إلى الأبد، يتوقف نجاحها في التاريخ على وصول الصغير للحكم، وإلا تكون حتشبسوت قد أخفقت في مهمتها، لكن الأمر ليس بتلك السهولة، رغم ممارستها لألاعيب السياسة منذ عصر والدها، إلا أن العرش الآن قد اتسع فجأة، وتضافرت الظروف لتقويض وصايتها التي بدأت تؤا.

ما عليها إلا أن تستمر في الاحتيال، ولأجل ذلك ستخرج حتشبسوت على رأس الجيش في حملته الجنوبية، بل ومن الآن ستصنع التماثيل للملكة بهيئة ذكورية، حتى يقنع الرجال بحكمها، ويتوقف الجميع عن النظر إليها كفتاة، كل دورها الجلوس إلى جانب رجل يلبس التاج المزدوج، تدفعها الظروف كلها لتدفن حتشبسوت الأنثى.

***

خلال شهرين، خطُر للحملة العسكرية، على مشارف العام الجديد وبداية فصل الآخت -الأفق- تيمنا بشروق الشمس في الأفق، فتبدأ السنة الشمسية التي نظم تقويمها الأجداد منذ آلاف السنين بذلك الفصل، بعد الاستبشار بالشروق الاحتراقي لنجمة سوبدت(16) وإنبات شجرة البرساء المقدسة لثمارها، يستمر الفيضان ليغمر الأرض بالماء والطمي والخصوبة، يتجدد عهد النترو مع البشر، كل عام مع الفيضان مثلما يتجدد كل فجر مع الشمس، يهدي فيه النترو عامًا جديدًا خصيبًا، ويرتفع منسوب مياه النهر لتغمر الأراضي المجاورة، حينها يغطي مستوى الماء الجنادل في النهر بالطريق للجنوب، ورغم اضطرار السفن إلى التحرك ضد التيار الجارف، إلا أنه وقت مناسب للإبحار، استغله دائمًا الكمتيون، وعندهم بالفعل الخبرة الكافية لذلك.

عند الميناء الملكي بمدينة واست وقف الجنود حاملين الأعلام، تحركت حتشبسوت مع أحمس بن نخبت في موكب مهيب، حتى وصلت للسفينة الملكية، وقف جمع من كبار رجال الدولة مودعين، أهمهم الوزير عميتو وسنموت. وقف الكاهن الأكبر حابو سنب يقيم الصلوات ويحرق البخور، قُدمت الذبائح لآمون رع حتى يلقي بظل رعايته على القافلة الملكية، وتكلل جهودهم بالنصر.

خلال فترة التحضير للحملة قدم سنموت كل المعونة اللازمة التي أوكلتها له حتشبسوت، ظن في البداية أنه سيصحب الملكة للجنوب، إلا أنه فوجئ حين قالت الملكة: "ستبقى أنت في العاصمة يا سنموت".

أجاب: "اعذريني يا سيدتي لكني سأتبع خطاك، لن أتمكن من فعل أي شيء بعيدًا عن جلالتك، لن يفيد بقائي بأي شيء على كل حال، فإذا لم تشرقي بجلالتك على عبدك لن تكون لي أي حياة".

أذابت كلماته قلبها، تلاحظ دائما تصرفاته تجاهها، لكن شيئا ما بقلبها يخبرها أنه خارج الصراع المحموم على السلطة الملكية، نظراته مختلفة، تشعر بالأمان إلى جواره، لأنها لا تشعر أنه يسعى للحكم، لذلك لا يغلف وجوده إلى جوارها أي حذر، أجابته بلهجة رقيقة: "في هذا الوقت العصيب، والمشاكل تحيط بالعرش لن أطمئن إلا بوجودك في البرعا، نيابة عني، أنا أثق بالوزير عميتو بالطبع، لكني أثق بتصرفك أكثر، ستظل هنا حتى عودتي، هذا أمر"، قالتها بابتسامة لا توحي بأنه أمر، لكن سنموت أذعن لها كما يفعل دائمًا.

وقف سنموت يوم التحرك مع المودعين، والهم باد على ملامحه، والقلق على ملامحها، رغم محاولتها ألا تظهر أي مشاعر، ما إن دخل الموكب الملكي للسفينة الملكية إلا وأعطى أحمس الأمر، فردده قائد السفينة، فُك وثاقها ودفعتها القوارب الصغيرة لمجرى النهر، رفعت الأشرعة مع قرع الطبول المهيب، أثار الحماس الجميع، وبطء ابتعدت السفن صاعدة للجنوب ضد التيار، أوليس هذا ما تفعله حتشبسوت دائمًا؟ السباحة ضد التيار، ها قد وصل بها الأمر لترأس حملة عسكرية، ماذا ينقصها بعد حتى تصل لمكانة أحمس نفرتاري؟ ها هي مثلها تقود الرجال ذاهبة إلى المعركة، ماذا يا ترى؟

تحركت الحملة حتى تخطت الجندل الأول، وصلت للجندل الثاني حيث يقع حصنا سمنة وقمنة، اللذان شيدا منذ خمسة قرون، تقدم القائد سا سنب لتحية حتشبسوت، وقال: "لا يكف الأخساء عن محاولتهم لتتسلل يا سيدتي، لذلك شيد صادق الصوت سنوسرت خع كا رع الحصون في تلك المنطقة، وحتى بعد أن قام المبرر تحتمس الأول بحملته، وأعاد إعمار تلك الحصون ونحن بخدمة المملكة، لا ينفك الملاعين عن إثارة المشاكل، حتى بعد القضاء على كل حضارة كرما. الاضطرابات الحالية أثرت بشدة في حركة التجارة الجنوبية، هؤلاء الملاعين ينقضون على القوافل الجنوبية قبل وصولها، فلا نتمكن من حمايتها، ولا يمكن للحامية المغادرة من الحصن، ولم تكف كل الحملات الصغيرة التي حاولنا إرسالها لتتبع القلاقل".

أجاب أحمس بن نخبت: "ستقضي جلالتها بعض الوقت بالقلعة". وتقدم فورًا للداخل حاملًا لواء آمون رع، على شكل عصا طويل يعلوها رأس كبش، تبعته الملكة مع مجموعة صغيرة من شجعان الملك.

داخل القلعة أعدت مأدبة لحتشبسوت، بمنتصف المائدة رقد غزال صغير مشوي، مع بعض البصل واللفت، والخبز والجعة، وفتحت جرة نبيذ القائد، الذي لم تكن جودته بنصف ما تتجرعه حتشبسوت بالبرعا، طلبت حتشبسوت أن يلتحق الضباط بالمأدبة، فجلس الضباط المرافقون للحملة مع ضباط الحصن في غرفة لا تكاد تسعهم، علقت عليها أعلام حملت اسم الملك الصغير تحتمس منخبر رع، بينما وقفت سخمت على رسم في مقابلة المائدة، بعينين حمراوين، كسيدة الحرب والدمار، وأمامها صور آمون رع رب المملكة.

إلى جوار الملكة جلس أحمس بن نخبت، الذي قال بينما يأكل الجميع: "ثبت سيد النترو آمون رع السلام في الأرضين، بجهود الأسرة الملكية العظيمة، بيت حكام واست الأشداء، وأنعم على المملكة بالملك تحتمس منخبر رع، سلف الملك المبرر تحتمس الثاني، فلا تهدد الفوضى عالمنا طالما يجلس الملك على العرش، وبفضل حكمة الزوجة الملكية حتشبسوت، تهدأ الأرضان بحكمها حتى يصل الملك لسن الرشد ويتسلم الحكم، واجب

العسكرية الكمتية الحفاظ على الاستقرار، حيث يحمي جيش كمت الحدود، يرسي السلام، ويفرض النظام على الطبيعة الفوضوية، وينفذ أوامر البر عا بكل إخلاص". صاح الجميع تحية للقائد وللزوجة الملكية بعد خطابه الحماسي، أضافت حتشبسوت بصوت أنثوي: "جنود كمت البواسل، خرجنا جميعًا بأمر آمون رع، وأمر الملك تحتمس منخبر رع، ليعلم الملاعين أن الصقر في العش يحكم كل أراضي آمون، وليخضع الأعداء لقبضة كمت، ولتهدأ الأراضي الخاسئة تحت قدمي سيد الأرضين من خبر رع، ويعلو اسم آمون رع فوق الجميع. يكتب لنا آمون رع النصر، على القبائل المتمردة الخاسئة، وتتدفق البضائع الجنوبية مرة أخرى، وتعاد الخدمة اليومية لآمون حتى يرضى".

تحمس الرجال لخطاب القائد، أكلوا وشربوا وقضوا ليلتهم بحماس، حتى تحركت الحملة صباحًا، ظلت حتشبسوت بالحصن مع مجموعة صغيرة من الحامية والحرس الملكي، أحبت المشي أعلى السور ومشاهدة النهر في شدة تدفقه، فكرت كيف يدفع خنوم المياه من الجنوب، نازلة للشمال حتى البحر الأخضر العظيم، طبعه مندفع كطبع الرجال، يدفعهم الغضب كما يدفع الفيضان الجارف كل شيء، قضى والدها على حضارة كرما تمامًا حتى انقطعت سبل التجارة الجنوبية، في حملة طويلة دامت لأكثر من ستة أشهر، ودفع آمون مس بنفسه قتيلًا في المدرسة العسكرية، ودفع أحمس بن نخبت لتوه الرجال للقتال ببضع كلمات صارمة، وها هي تقف محتالة، تشيد لها التماثيل على شكل رجل، هل وصلت لما وصلت إليه أحمس نفرتاري؟ بالطبع لا، فالأخيرة قادت الرجال خلال المعركة، وحصلت على وسام الشجاعة، أما حتشبسوت فصحبت الحملة حتى القلعة، وظلت في رفاهية بين جدرانها، بينما يدفع الرجال أنفسهم للموت، ربما كان كل اندفاعهم عبارة عن فشل في السياسة، لو كان لديهم ما لديها من الحكمة لما وصلت الأمور دائمًا لحد القتال وفقدان الأرواح، هي لا تحب المعارك الدامية بأي حال، لكن وجب عليها أن تتقدم الرجال بالحملة، حتى يتوقف سيل الاندفاع من كل الرجال الزاحفين للعرش، هي ليست محتالة، بل أذكى من الجميع، تقوم بما سيثني عليه الرجال، ومع ذلك لم تضطر إلى الخروج والقتال مع أولئك المندفعين، ستعود أيضًا على رأس الحملة لواست مع الغنائم، فتعود الخدمة المقدسة لآمون رع، وتثبت حتشبسوت أنها أجدر حتى من الرجال بالحكم، واحد فقط من بين الرجال غير مندفع، يجيد لعبة السياسة، ويتقن كل شيء، إنه سنموت، تشعر ببعض الفراغ من دونه، لكنها ما زالت لم تحسم أمرها منه.

عادت الحملة خلال بضعة أيام، محملة بالغنائم، من جلود وعاج وأخشاب وأحجار كريمة وذهب، تحركت المركب الملكية شمالا لواست، وانطلقت الأبواق تعلن عودة حتشبسوت، دقت الماكرة وتذا، يشد وثاق عرش أسرتها الكريمة. سينشر خبر الحملة بجميع الأقاليم، فيكف الملاعين عن محاولة خطبة الزوجة الملكية، ستصنع من نفسها ذكرًا، يقود الرجال بالمعارك، يقف كملك بالذقن الملكية، ستنتهي تلك الفوضى قريبًا، وتتفرغ حتشبسوت للبناء والتعمير، ستعود طرق التجارة إلى سالف عهدها بعد هذه الحملة، يبدو أن الأمور بخير، وليس عليها دفن الأنثى أكثر من ذلك.

الفصل الثاني

أحد أيام العام السابع من حكم الملك تحتمس منخبر رع، بالقاعة الكبرى في البر عا، جلست حتشبسوت على العرش وإلى جوارها وقفت الأميرة نفرو رع، بعمر الثانية عشر، تبوح عيناها اللوزيتان السوداوان بالكثير من الذكاء وحب الاستطلاع، قدّم الوزير وسر آمون نجل الوزير السابق عميتو تقاريره لرئيس الخزانة سنموت، الذي قدمها بدوره للزوجة الملكية، قالت حتشبسوت: "اللعنة على أولئك الهمج، ألن نرتاح أبدًا من تلك الاضطرابات الجنوبية؟".

أجاب سنموت: "هذه عادتهم يا سيدتي، لذلك ترك لنا الملك المبرر سنوسرت خع كاو رع لوحته الخالدة عند القلعة الجنوبية، عندما مد حدود كمت لهذا الحد، وذكر أن من يحافظ على تلك الحدود هو الملك الحقيقي من صلبه، ولذلك قمتِ جلالتك بالحملة حتى تلك الحدود، لتنفيذ وصيته وتثبيت حكم جلالتك وإثبات جدارتك للأجداد".

"وما النتيجة يا سيد سنموت؟ ها هم الملاعين يكررون تمردهم، ولم تفد الحملة العسكرية والقتال والدماء بشيء"، قالت حتشبسوت.

جادل سنموت قائلًا: "لكن يا سيدتي رغم أن البشر يأكلون، إلا أن الجوع ينهشهم مرة أخرى بعدها، وإن لم يعودوا ليأكلوا مجددًا يموتون، ليس معنى تكرار الأمر عدم جدواه، بل لو لم تقومي جلالتك بتلك الحملة، لما تمكنت قلاع الجنوب من مباشرة إرسال البضائع الجنوبية، وقد جاءت الحملة بنتيجة مرضية لعدة سنوات".

"ثم ماذا يا سنموت؟".

"ثم آن أوان تكرارها يا سيدتي، لكن ليس من اللازم أن ترهقي نفسك بقيادتها، فهي حملة بسيطة لا تتطلب خروج جلالتك، واختيار جلالتك لنحسي ليقود الحملة اختيار صائب".

"لا أرغب في ممارسة تلك اللعبة البلهاء على أي حال، فالقتال حيلة من ليس له حيلة، يجب أن تكون هناك طريقة أخرى لضمان تدفق البضائع الجنوبية، يجب ألا يعتمد مستقبل العبادة بمعبد إيبت سوت واحتياجات البر عا من البضائع على أمزجة تلك القبائل البربرية".

"هذا هو الأمر منذ عصر التترو يا سيدتي، يتاجر الجنوبيون بين الشمال والجنوب، بالإضافة للجزية السنوية".

قالت نفرو رع: "كنت لأرغب بشدة في رؤية جلالتك ترأسين حملة عسكرية".

ردت حتشبسوت: "ليس بالأمر أي شيء جميل أيتها الأميرة، مسيرة على سفينة لعدة أيام، تغيير في الروتين، مغادرة الوطن، رؤية القبائل البدائية، كلها أمور غير مستحبة".

قالت الأميرة: "لكن جلالتك قمت بالأمر بمهارة شديدة، كأنك ولدتي لذلك الغرض" أجابتها حتشبسوت بابتسامة. وصلت الأميرة لعمر الثانية عشر، لكنها تسبق عمرها كثيرًا، ورثت من والدتها الذكاء، وشحذ سنموت قرينها بالمعرفة اللازمة، وأبدت الفتاة استعدادًا كبيرًا للنمو، وها هي تجني ثمارها، ستكون نفرو رع وريثة والدتها، لكن سيختلف تحتمس الصغير عن والده الراحل، لأن حتشبسوت بنفسها تشرف على تربيته.

***

في هذا اليوم بالمعبد، بعد رصد نجم الصباح الذي يسبق شروق الشمس، غمرت عندلة الكاهن حوري نسيم الصباح، معلنة بدء الخدمة ليوم جديد، فقرص الشمس على وشك الميلاد في أفق السماء الداكن، رغم حب تحتمس منخبر رع للموسيقى والأغاني التي تغشى البرعا، وتركها لأثر كبير في نفسه من تهذيب الروح ورقة المشاعر، إلا أن ما أشبع روحه بحق هي الألحان المقدسة التي تردد صداها بين جدران المعبد من الكهنة

المرتلين. فهي حكاية أخرى من إبداع حتحور ربة الجمال والموسيقى، بإمكان الكاهن المرتل حوري بصوته الرخيم انتزاع قلب المرء بجذوره وإلقائه في نهر العشق، ليغرق في عمق الجمال غير مبال بحدود العالم المادي من حوله، ومع ذلك لا يرتوي.

أنبتت ترانيم المعبد القديمة مشاعر ملأت روحه بالسكينة، لذا جل ما أراده تحتمس -بعد نضجه بما يكفي- هو الطواف بين ثنايا عالم النترو المقدس في معابدهم المهيبة. لقد جعلته الفترة التي قضاها في المعبد، يتمنى لو أنه مجرد أخ أصغر لولي العهد، فيتمكن من قضاء كل عمره في الخدمة المحببة، ليرتوي طالما عاش من فيض العشق للنترو المبجلين، وسيدهم آمون رع.

عمت المعبد حركة كثيفة كخلية نحل عادت ملكتها للتو من طوافها، ظهَرَ الكهنة أولًا قبل الشروع بأي مهمة، وكالعادة استغرق تحتمس وقتًا أطول من الجميع بسبب إعادته لعملية التطهير أكثر من مرة، فالنتر يكره الشخص غير النقي. انتهى الفتى وصديقه رخمي رع من تطهيرهما، وبصوت لم يزل النعاس مؤثرًا فيه قال الأخير: "يحسدنا أصحابنا كل يوم بالتأكيد".

فأجابه تحتمس: "سينالون الترقية أيضا ليصبحوا كهنة قارئين". برغم النعاس وعدم الاكتراث البادي على نبراته، لكنه يرى أن من الظلم ألا يلتحق بهم سننفري برتبة قارئ. قال رخمي رع مجادلًا: "لكن سننفري نجيب مثلنا، وجب أن يلحقنا". بعمر العاشرة يشبه أباه وجده في ملامحهما، لكنه لم يرث منهما عراضة الصدر والتفاف الكتفين.

"مؤكد أن جناب الكاهن حابو سنب لن يتركه كاهن وعب(17)"، ثم أضاف: "قد يظل تنتيو كاهن وعب كل حياته"، قالها تحتمس ببعض السخرية، وما لبث أن تدارك خطأه فقال: "لكنه قد يترقى مع الوقت ليصبح كبير الوعب، كجناب الكاهن نفرو بين والدك، حينها يمكنه الافتخار بمنصبه".

رد رخمي رع: "لن يكون تنتيو إلا جنديًا". فأجابه تحتمس: "بغبائه هذا صعب حتى أن يصبح جنديًا".

ضحك رخمي رع رغمًا عنه، وبتزامن نادر الحدوث سمع الصديقان صوت ارتطام، فنظرا ليجدا تنتيو يحتضن الأرض، بعد تعثره في مشيته نصف النائمة، مما أثار ضحك الجميع تقريبًا، لفتت الضحكات انتباه كبير الكهنة حابو سنب، الذي أطلقت عينيه أسهمًا نارية، أغلقت أفواه الجميع في ثوانٍ، فعاد كل واحد إلى عمله بهدوء، ساعد آمون محاب صديقه الفارق في خيبته بصمت، ليكملا عملهما.

بعد انتهاء طقوس الخدمة اليومية اغتسل تحتمس مرة ثانية، ثم اجتمع مع أقرانه لحضور الدرس. نظر إلى الأرض بطريق العودة كعادته، وتذكر حواره مع معلمه المزعوم منذ بضعة أيام بينما كانوا ينتظرون المعلم.

"الناس العاديون فقط ينظرون تحت أقدامهم"، قالها سنموت عندما لاحظ أن تحتمس ينظر إلى الأرض تحت قدميه في شرود، فرفع رأسه وانتبه إليه. يحسد الفتى نفرو رع لأنها تلتقي بسنموت كل يوم، وتتلقى منه المعرفة، ويفخر الأخير كثيرًا بذلك، بينما لا تتعدى دروسه مع تحتمس بضعة دروس كل عدة أشهر.

أكمل سنموت: "يهتمون فقط بالخطوة القادمة..

يودون أن يعرفوا هل يكفي الفيضان الموسم القادم أم لا؟ أيكفيهم طعامهم أم لا؟

بينما ينظر الملك إلى الأمام، بحسب عشر خطوات، يسبق الأحداث ويسيطر على المفاجآت".

سأله الملك الطفل: "أتعني أنك تنظر إلى الأمام؟".

أجاب سنموت بابتسامة: "أنا أنظر إلى الأعلى، أحاول قراءة رسائل النترو وكلامهم من خلال النجوم، أندمج في مكان وزمان مختلفين، أعيش في عالم آخر غير بقية البشر، يتميز كل واحد باختلافه، ويجب أن تتميز أنت كملك".

شرد تحتمس قليلًا، ثم سأل مرة أخرى: "أيرسل النترو رسائلهم إليك وحدك؟".

أجاب سنموت في ورع ملحوظ: "تملأ رسائل النترو الكون، علامات في كل مكان، في النهر والسماء والزرع والصحراء والنجوم، لكن لا يقدر الناس كلهم على قراءتها؛ لأنها سرية غير واضحة، يجب أن يحصل الإنسان على علم كبير، ويمتلك كا(18) قويًا، حتى يلاحظ الرسائل ويقرأها ويفهمها".

"أتمنى أن أكون مثلك، أفسر رسائل النترو في الكون".

أجاب سنموت: "ستكون جلالتك أفضل مني، لأنك ابني، ودوري أن أجهزك، فيلزمك أن تتعلم تفسير كل شيء في الكون، لتسخره لخدمتك".

تلا الصمت جملة سنموت الأخيرة، فعلى الرغم من كون تحتمس ملكًا، إلا أن مربيه يهتم بطفل آخر ويفخر بذلك كثيرًا، نفرو رع الأميرة الملكية! حصل سنموت بالفعل على أكثر من تمثال وهو يحمل الأميرة، بينما لا يرى تحتمس في الواقع، ولا يجمعهما الحوار إلا نادرًا.

كسر سنموت الصمت مضيفًا: "شكّل خنوم الناس كلهم من الطين على عجلة الفخراني، لكن يختلف كل شخص عن الآخر، تكوين الفلاح غير الكاهن غير القائد غير الفنان غير الجندي، لكل واحد مكانه المناسب ومهمته المحددة، ويجب أن ينجح بها، هذا هو مفهوم ماعت، يجب أن نعرف مكاننا في الكون ونتفاعل معه بطريقة مناسبة، للحفاظ على ماعت؛ لأنها إن اختفت، فسيهدد الخطر النظام الكوني كله، فتسيطر الفوضى إيسفت، ويدمر خطأ واحد صغير كل شيء".

تزاحمت بخلده آلاف الأسئلة، تلخصت كلها في سؤال واحد هام؛ كيف يمكنه أن يكون ملكًا جيدًا؟ عرف سنموت ما يدور بعقل الطفل، فحاول بث بعض الطمأنينة في قلبه: "لا تقلق، فإنك لست الملك الأول في الحياة، وذلك لحسن حظك، لديك ما يكفي من تاريخ ودروس يمكنك تعلمها لتسهل مسيرتك، وما زال لديك الوقت لتستعد. دورك الحفاظ على الحضارة التي بناها الملوك السابقين، فتتذكرهم وترد لهم الجميل، ستحافظ الملكة حتشبسوت على إرثك حتى الوقت المناسب، عليك أن تبذل قصارى جهدك. وتذكّر أن الخطر موجود دائمًا، منتظرًا غفوة صغيرة، إياك أن تسمح بها، ما مهمتك الآن؟".

"أن أستعد"، بتردد أجاب تحتمس، فهو لا يعرف حتى الآن كيف عليه الاستعداد ليتحمل كل تلك الأخطار أصابه الهاجس باضطراب شديد، حتى اشتعلت بأمعائه معركة، أمكن سماع امتعاضها من على بعد خطوات.

سأل تحتمس بتردد: "أتظن أن بإمكاني ذلك.. أن أصبح ملكًا حقيقيًا عظيمًا؟".

أجابه سنموت: "لديك تاريخ ضخم ممتلئ بأمثلة عظيمة لملوك تفتخر بهم الأرضان، أنت أيضًا ستحقق معجزاتك الخاصة، سيتذكرك الناس ويتحدثون عنك لملايين السنين، عندما يحل الوقت المناسب". عادة ما يؤكد سنموت على "الوقت المناسب" الذي لم يعرف الفتى موعده، وكيف له أن يعرف؟

نظر الطفل إلى سنموت والشك ينهش قلبه، فهو لا يعلم أسيخلّد التاريخ اسمه كملك عظيم، أم ينتهي به الأمر لمجرد شخص ساعدته الصدفة على الجلوس على العرش؟

"أستحضرون الدروس معنا، حتى بعدما أصبحتما قارئين؟" تساءل سننفري قاطعًا أفكار تحتمس. "ستظل دراستنا مجمعة إلى النهاية، وأنت أول من سيلحقنا كما قال بومرع"، أجابه رخمي رع.

لم يخفِ أي طفل من مجموعتهم الحسد الواضح لما وصل إليه تحتمس وصديقه رخمي رع، فقد حصلا للتو على رتبة كاهن قارئ، وتميزا بزيهما الجديد والوشاح الأبيض المتقاطع من الكتف إلى الخصر، الذي أبهر كل من لاحظ الطفلين مع رتبتهما الجديدة.

"أنت سعيد لأنك أصبحت قارئًا، ولن تظل كاهن وعب طوال عمرك كأبيك"، وجه سننفري الاتهام إلى رخمي رع.

قال تحتمس لسننفري الغاضب :"أبوه ليس مجرد كاهن، بل هو كبير مطهرين معبد إيبت سوت، وهي مكانة عظيمة، لا يمكن لأي شخص الوصول إليها". ساد التوتر الجو العام فقال سننفري، محاولًا تهدئة موقفه وتغيير الحوار: "أمسموح لكم الآن دخول أي غرفة بالمعبد وقراءة كل البرديات؟".

بهدوء أجاب رخمي رع كدليل على عدم تلقيه الإهانة: "بالطبع لا، لا يمكننا دخول قدس الأقداس إلا حينما نصبح من خدم النتر".

انتهز آمون محاب فرصة عدم وجود رقابة من شخص بالغ، وبحث -كعادته- عن ضحية مناسبة، بجواره جلس سننفري، الذي لم يحالفه الحظ بسبب تأخر مدرس اليوم، فنال نصيبه، نكزه الأول بشدة حتى سقط على الأرض من جلسته، مما أثار سخرية الجميع.

آمون محاب هو أضخم طفل في المجموعة، وأكثرهم استثارةً للمشاكل، وأقلهم اهتمامًا بالدراسة، على العكس من سننفري، الذي أعثِرَ برغم صغر حجمه نده الوحيد لرشاقته وسرعته، فبإمكانه الركض أسرع من غزالة، أو تسلق شجرة أسرع من قرد بابون، مما جعله مثارًا لحسد الجميع. لكن مهارات سننفري لم تسعفه قط ضد آمون محاب في الأماكن المغلقة، فلا مجال للهرب والمناورة مع ذلك العجل الصغير الآن.

صاح سننفري بغضب: "لم تأخر الدرس اليوم؟"، سأل هربًا من سخرية الرفاق.

"بومرع في الطريق، قال إنه سيعلمنا درس اليوم"، أجاب تحتمس.

بضيق صاح تنتيو: "يوه! أليس بومرع كبيرًا على أن يكون مدرسًا مساعدًا، أنا لا أحبه".

أجاب رخمي رع: "لأنه أخو تحتمس بالرضاعة، ومجموعتنا هي أهم مجموعة في المملكة، ولا يمكن لأي كان تعليمنا"، لم تخلُ جملته هذه من تفاخر.

سأل تنتيو شاكيًا: "أتركت كل المرضعات، ولم ترضع إلا من أمه؟".

أثار تساؤل تنتيو ضحك الجميع، حتى فوجئوا بدخول بومرع، الذي يكبر تحتمس بست سنوات كاملة، وقف بومرع لفترة موجهًا بصره إلى تنتيو، فتحول لون الأخير للأحمر، وغلبَ الصبية بسماعه لذلك الأحمق، مما سيعرضهم للعقاب، فبإمكان المساعد أيضا معاقبة التلاميذ بالضرب تمامًا كالأستاذ، وهو ما حدث، ضرب بومرع جميع الأطفال ما عدا تحتمس كالعادة.

"تأخرت عليكم اليوم لأني كنت أتحدث مع جناب الكاهن حابو سنب، بخصوص استلامي للعمل بساحة ماعت".

أثارت عبارته تلك دهشة الأطفال، فمعنى عمل شخص ما بساحة ماعت أنه من صفوة موهوبي مدينة واست، وأنه سيتمكن من الانتقال إلى حي نخبة الفنانين والنحاتين والمهندسين، ففهم الأطفال أن بومرع نجح في جميع الاختبارات اللازمة لذلك بتفوق.

أضاف بومرع متسائلًا: "من سيقرأ درس اليوم؟" وأخرج من جعبته ورقةً من البردي، فرد أنجب التلاميذ رخمي رع بأنا، فسمح له.

"من نص الحكيم إيبو ور: أنظر.. ما عاد أحد يبحر إلى جبيل، فما الذي سنفعله بأخشاب الأرز التي اعتدنا أن نصنع منها توابيتنا! والزيوت التي يحتفظ بها الأمراء وكانت تأتي من هناك، ومن مجاورات كفتيو(19)، ما عاد يأتي من ذلك شيء، حتى أصبح مجيء أهل الواحات بمنتجاتهم البسيطة شيئًا ذا بال.

أنظر ما الذي جعل الأرض الحمراء -الصحراء- تنتشر في طول البلاد وعرضها، خربت الأقاليم، وجاءت قبائل قواسة غريبة إلى كمت، ومنذ أن وصلوا لم يستقر الكمتيون في مكان، وأصبح الأجانب كمتيين في كل مكان، وأولئك الذين كانوا كمتيين أصبحوا غرباء وأهملوا جانبًا.

ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت، حتى ألقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه، فالويل لي، لأن البؤس عم في ذلك الزمان".

أثنى بومرع على رخمي رع قائلًا: "قريبًا سيكون لك مكان في ساحة ماعت وستعمل معي".

سأل آمون محاب: "ماذا يعني أصبح الأجانب كمتيين، والكمتيون أجانب؟".

أجاب بومرع: "لم تبدأ أزمة العامو(20) منذ احتلالهم كمت، ولكن قبل ذلك بعشرات السنوات. مشكلتهم الحقيقية بدأت منذ أن توطنوا، في مجموعات كبيرة، في مدن قريبة من الأرض الخصبة بالشمال، كبرت مجموعاتهم وقبائلهم، وأحضروا أقاربهم ومعارفهم. أجيال ماتت، وعاشت بعدها أجيال على أرضنا، يأكلون من زرعنا، يشربون من نهرنا، يحيون في أمانا. لكن ولاءهم لأنفسهم وقبائلهم، فمرّت عشرات السنين، وتعاقبت أجيال وأجيال، ولم ينتموا للأرض السوداء. مع الوقت أصبحت المدن التي يسكنون بها ممنوعة على الكمتيين، فبتنا غرباء في أرضنا، وقبائل العامو الأجانب ظنوا أنفسهم أصحاب الأرض. حينما واتتهم الفرصة ودخلت البلاد في حالة ضعف، جمعوا رأيهم واتفقوا على تمليك أقوى قائد منهم، حينها ظهر وجههم الحقيقي، واغتصبوا الأرض التي أعطتهم هم وأجدادهم من خيرها، وأنتم تعلمون باقي القصة، هل فهمتم عما تحدث إيبو ور؟".

أجاب تحتمس بضيق: "نعم".

"قال لي بنيا من قبل، إنه لم يولد في كمت وحضر إلى هنا من بلد آخر"، تساءل رخمي رع. فأجابه بومرع: "بنيا وغيره من الأجانب حضروا إلى كمت وعاشوا فيها، واختاروا لأنفسهم اسمًا كمتيًا، وعبدوا نترو الأرض السوداء وقدموا لهم القرابين، وبنوا مقابرهم هنا لينعموا بحياتنا بعد الموت، أصبحوا جزءًا من شعبنا، ككل أبناء الكاب. هم أمراء حضروا لكمت كأسرى، لكنهم يعيشون كأمراء، يندمجون في المجتمع ويصبحون جزءًا منه، وهم مختلفون عن المجموعات التي عاشت في الشمال وهدفهم الشر، ولم يتذكروا الجميل الذي قدمته لهم هذه الأرض".

انتهى الدرس بذلك اليوم سريعًا وانصرف الصبية وتبقى فقط تحتمس ورخمي رع، أعاد تحتمس اغتساله للمرة الأخيرة قبل مغادرة المعبد، سارا معًا على غير عجالة، حتى وصلا إلى صالة الواجيت المقدسة، التي تتوج فيها الجد تحتمس الأول وابنه تحتمس الثاني وتحتمس الثالث منخبر رع أيضًا. انتشرت أمام أعمدتها تماثيل الملك الراحل تحتمس الأول، مُثِّل مدلَّزًا بعباءة أوزيرية، لعبادته بعد موته ككل الملوك. بذقن معقوفة مقدسة وقفت تماثيل الجد، فتوقف تحتمس قليلًا متأملًا كعادته، أراد إلقاء عشرات الأسئلة، لكنه يعلم أنه ليس ثمة إجابة بين أفواهها الحجرية، فلم تثرها آلاف الأسئلة سابقًا للإجابة.

تساءل رخمي رع: "لماذا لم تفرح لكلام بومرع، ووعده بأننا سنزوره في ساحة الحق؟"، فأجابه تحتمس: "فرحت بالطبع، لكن أمر آخر يشغلني"، صمت رخمي رع ونظر إلى صديقه كإشارة ليكمل حديثه.

"حينما بدأت دراستنا وعلمت أني الملك كنت فرحًا، ظننت أني سآمر والناس تلبي وتجيب، بمرور الوقت عرفت صعوبة الأمر، إن لم أحقق ماعت قد ينهار كل شيء، ألاحظت كلام الحكيم إيبو ور؟ كيف ندم في آخر حياته؟ أتظنني في النهاية سأكون نادمًا أم مرتاحًا ومستعدًا للموت؟".

حاول صديقه طمأنته: "أنت ذكي، وما زال أمامك الكثير من الوقت لتتعلم، وستساعدك الزوجة الملكية حتشبسوت حتى.."

"حتى الوقت المناسب، أعرف"

صمت تحتمس ووجم، كأن كلام صديقه لم يخفف عنه حمله الثقيل، أضاف رخمي رع: "لو لم تكن الشخص المناسب، لما اختارك النتر آمون رع".

أجابه تحتمس بضيق: "كم ملكًا سابقًا اختاره النترو ليفشل؟ لست مناسبًا لمجرد اختيارهم لي".

بالرغم من رد تحتمس، إلا أن ذكرى اختيار النتر آمون رع له أراحت قلبه، فقد مر على اختياره له أكثر من ست سنوات بالفعل، عندما كان أبوه على قيد الحياة.

تحتفل كمت بالكثير من الأعياد، بعضها محلي خاص بمدن بعينها، وآخر على مستوى البلاد كلها. بطبيعة الحال، نالت العاصمة واست حظًا أوفر فيما يخص الاحتفالات، تُوج عيد الأوبت الخاص بالنتر آمون رع على رأس كل الاحتفالات، فقد وصلت مدة الاحتفال به في عهد تحتمس الأول لسبعة أيام، أما الآن يُحتفل بالعيد لمدة أحد عشر يومًا، وللحظات نادرة تخرج قافلة مهيبة من الكهنة، حاملين الناووس من خشب الأبنوس المذهب المقدس، وبداخله تمثال النتر من الذهب الخالص. يُجر كل شيء على قارب رمزي مزين برموز رأس الكبش، أحد حيوانات آمون المقدسة، يملأ الهواء رائحة الاحتفال فيتجمع كل الشعب للاشتراك في المهرجان المبهر. يتحرك الموكب من معبد إيبت سوت شمالًا لبضعة كيلومترات، حتى يصل للمقاصير المقدسة إيبت رسيت(21)، فيجدد آمون رع خصوبته من صورته الأولى آمون كا موتف في الحرم الجنوبي، ثم يعود ليمكث بمعبده لعام آخر.

حمل الجمع الأمنيات، لنقلها للنتر آمون رع لعله يستجيب، فيغبق الموكب بالابتهالات. ويسبق كل ذلك تقديم الذبائح، من أفضل الحيوانات المسمنة ضمن ممتلكات المعبد، فقد سُمّنت وزُينت وعوملت بطريقة لائقة وجُهزت خصيصًا للاحتفال.

يبدأ الاحتفال الفعلي بدخول مجموعة الكهنة الذين حالفهم الحظ ليحملوا الحمل المقدس، فيعتني الكهنة بتمثال النتر منذ لحظات الفجر الأولى، متبعين الطقوس اليومية المعتادة. ويخرج الكهنة من قدس الأقداس، أكثر مناطق المعبد غموضًا، إلى الفناء حيث يُسمح فقط للكهنة بالتواجد. وأما المريدون من عامة الشعب، فينتظرون الموكب منذ الليلة السابقة خارج أسوار المعبد، ليضمنوا أفضل رؤية، فلا يتكرر هذا الحدث إلا مرة واحدة في السنة.

حينها، لم يكن الصبي تحتمس كاهنًا بعد، بل كان في بداية مراحله التعليمية، لذا انتظر في صالة الواجيت المقدسة، بصحبة أخيه في الرضاعة بومرع، وهي الصالة الصغيرة التالية للفناء الرئيسي حيث ينتظر صفار الكهنة وبعض علية القوم. أمسك بومرع يد الطفل، بينما جهّز الملك وكهنة النخبة التمثال والقارب المقدس للاحتفال، لا يذكر تحتمس الكثير من التفاصيل، فقط الهواء الخانق، وصخب الأصوات، وانتظاره الطويل. وفي لحظة، صمت جميع من بالمعبد، وسكتت التراتيل، وفجأة وجد الصبي أباه الملك تحتمس عا إن خبر رع واقفًا بجوار الموكب يحمل المبخرة، بينما مقدمة الموكب المقدس موجهة نحو الصبي، أشار بومرع إلى تحتمس باضطراب، فسجد الأخير أمام الموكب، وحل الوحي على الكاهن الأكبر حابو سنب، فتكلم بصوت النتر آمون رع، لكن الغلام يتذكر من كل الكلام جملة واحدة: "اخترتك يا جحوتي مس منخبر رع لتجلس على عرش كمت العظيم".

وفي الحال انفجرت الهتافات من كل من في الفناء، ووجد تحتمس الصبي منخبر رع يد أخيه بومرع تشده ليقف، خفق قلب الملك الصغير بشدة مع استمرار الهتاف. حملت بعض الأيدي الصبي على محفة، فخرج -مفتبظًا محمولًا على الأعناق- بفرحة عارمة سادت كل الحضور، ما إن رآه عامة الشعب إلا ورج صياحهم جدران المعبد وزلزل الأرض، فرح الجميع بالملك الصغير وغمرتهم الحماسة مع رؤية الموكب المقدس.

عاد تحتمس الملك الصغير منخبر رع مساء ذلك اليوم إلى البرعا، وسأل أمه: "أأصبحت ملكًا كأبي؟".

"أصبحت ملكًا أفضل من أبيك ومن أي ملك آخر".

"أيمكنني أن آمر نفرعح ألا تطعمني البيض مرة أخرى؟".

"يمكنك أن تأمر كل الناس بكل ما تريد"، وكانت كلمات والدته هي كل ما التصق بذهنه بشأن الملكية،

فأصبح كل ما يعلمه الطفل أنه الملك ويمكنه أن يأمر الجميع.

تمكن مع الوقت من التخلي عن فكرة الملكية تلك، حتى أن جُل ما أراده أن يصير كاهنًا. فعظمة الأجداد وضخامة التحديات ضغطت على ذهنه بقسوة، فلا يمكن أن تكون كل مدعاة المرء للافتخار أجدادًا روضوا المستحيل لأنفسهم، دون إضافة أي مخزون حضاري، ولا يكفي الانتماء للملوك السابقين بالدم، حتى يمتلك تحتمس حق الانتساب الفعلي لهم، فمهمته الحفاظ على تقدم الحضارة لأعظم مما وصل إليه السلف.

خارج أسوار المعبد افترق الصديقان كلٌ إلى وجهته. بجوار المسلتين العظيمتين اللتين أقامتهما حتشبسوت بعد وقت ليس بكثير من وفاة الملك تحتمس الثاني، انتظرت إيست، أم الملك الصغير كالعادة، بصحبتها الجندي مونتمس من الحرس الملكي، رغم أن القصر لا يبعد إلا خطوات قليلة عن المعبد، ورغم وجود الحارس الذي كلفته الملكة حتشبسوت بحراسة الملك الصغير، لكن أمه ما كانت لتدعه يذهب إلى المعبد أو يعود منه مرةً واحدةً دون رفقتها.

استقبلته بحضن دافئ وابتسامة وديعة وفيضان من القبلات، وضعت على رأسه غطاء لحمايته من الشمس، وأعدّت له بعض الفطائر في سلة حملها مونتمس، ضجر الصبي سريعًا كالعادة من أفعالها؛ فهو كبير الآن على ذلك، فرفض الطعام منها بغضب، لكنها مع ذلك، انهالت عليه بالأسئلة: "ماذا حدث اليوم؟

ماذا تعلمت؟

أضايقك أحد؟

لا تنس أنك الملك!".

إجاباته دائمًا مقتضبة، تذكره كل يوم أنه الملك، ويضع هذا عبئًا أكبر على كاهله، يحب أمه ولا يطيق أفعالها، خصوصًا تلك التي تشعره بأنه طفل مدلل؛ فهو لم يعد طفلًا، ولا يجب أن يكون مدللًا.

في طريق العودة لم تتوقف قبلاتها وأسئلتها وحديثها، لكنه انشغل عنها -كالعادة- بحواره مع الحارس قوي البنية مونتمس، الذي عينته الملكة حتشبسوت حارسًا شخصيًا للملك الصغير، فقد كان بشرى خير للملكة، فيوم بدأ عمله بالبرعا، تولت هي السلطة بموت تحتمس الثاني.

عند عودتهم، تقدم منخبر رع للاغتسال قبل الدخول إلى قاعة الحكم، حيث ما زال العمل اليومي مستمرًا، فالوزير وسر سلف والده الوزير السابق، يراجع التقارير ويتأكد من جودة كل شيء. أما بالقرب من العرش، فبخلاف الملكة، وقفت نفرو رع ومربيها سنموت، بالإضافة إلى نحسي أحد أهم موظفي المملكة.

دخل تحتمس القاعة بينما كانت نفرو رع تتحدث، فسجد الجميع فيما عدا حتشبسوت وابنتها الملكة المستقبلية، لم يشغله أمر الروتين الملكي، لكن ضايقه أن نفرو رع لم تسجد. تحظى الفتاة بالفعل بكل ما لا يمكنه نيله، فلا أحد يشركه في تفاصيل الحكم، يمكنه التدخل بالطبع، لكن لا يتطوع أي فرد لإخباره بأي شيء هام، كل ما يسمعه من الجميع أن عليه الاستعداد، لكنه لا يعرف كيف يفعل ذلك. هذا هو الفرق الأكبر بين بيت الملك وبيت النتر، في المعبد يتعلم تحتمس كل يوم، يتقدس ويقترب من الحكمة، يتدرج بالمناصب الكهنوتية، ويهتم به حابو سنب الكاهن الأكبر. وعلى العكس تمامًا كان البرعا، لا تراه حتشبسوت تقريبًا، ولا يلتفت له الموظفون إلا باحترام مزيف، يبتعد عنه العرش كل يوم أكثر من سابقه، كما أن سنموت المؤثر الأكبر بالحكومة يهتم فقط بنفرو رع تقريبًا، لذلك أضاف له البرعا كل يومٍ أطنانًا من الكآبة، بينما ترسخ المعبد في وجدانه.

انتهزت نفرو رع فرصة دخوله لتصيح بأقرب ما يكون لبراءة الأطفال: "يجب أن يقود تحتمس الحملة، ليعلم الجميع أن الملك أصبح قائدًا عسكريًا عظيمًا".

صعقت تلك الجملة الملك الصغير، فالحملة التي تتحدث عنها هي حملة عسكرية للجنوب، لإخضاع القبائل المتمردة على حكم كمت، فأجاب بانزعاج: "أنا لم أصبح قائدًا عسكريًا بعد لأتمكن من قيادة الحملة، ولا أعلم

شيئًا عن الجيش حتى الآن".

أجابت حتشبسوت: "لأنك يجب أن تتم مراحل تعليمك أولًا قبل التدرب على الجندية". ثم أضافت للجميع: "تحتمس ليس مستعدًا لقيادة الحملة، فالحملات العسكرية خطيرة، وليس من السهل أن يذهب جلالته على رأس حملة عسكرية الآن، سيكون أمامه الكثير من الحملات عندما يصبح مستعدًا، فلا يبدو أن الملاعين يكفون أبدًا عن تمردهم وهجماتهم على بعضهم البعض، حتى شحت الموارد الجنوبية ثانية، إنه كابوس لا ينتهي".

تنفس تحتمس الصعداء بعد رد الملكة، لكن سنموت باغته قائلًا: "لو تسمح لي مولاتي، ويسمح مولاي الملك".

سنموت الموظف هو من يكرهه تحتمس، لقد وضع اسم حتشبسوت قبل الملك! أكمل سنموت حديثه قبل أن يحصل على إذن الملكة الفعلي: "أعتقد لو ترأس الملك الحملة، سيقدم رسالة قوية أن جلالته يحكم، وأنه ليس مجرد صقر في العش".

انتبه الفتى لوجود نحسي عندما قال الأخير: "بعد إذن جلالتك، أنا متفق مع جناب رئيس الخزانة، إن قاد جلالة الملك تحتمس منخبر رع الحملة في هذا السن الصغير، سيرسل رسالة لكل أعدائنا في الداخل والخارج، وسأتأكد بنفسي من سلامته".

وقع الاختيار على نحسي، الأمير والمشرف على القصر الملكي، رئيس كل مناجم ذهب آمون رع، والمشرف على حقوله لقيادة حملة الجنوب، نظرًا لخبرته العسكرية. لم يرُق اتجاه الحديث لتحتمس، فكيف له أن يقود الجيش ويضع خططًا حربية بهذا العمر! لكن أكثر ما كرهه هو تملق جميع من بالقصر للملكة مثلما يحدث الآن، بل إنه لاحظ أنهم يعاملونه في المناسبات الرسمية باحترام جم على عكس معاملتهم له في الأيام العادية.

"سيكون تحتمس قائدًا عسكريًا عظيمًا، وأول من يرأس حملة بعمر عشر سنوات"، قالتها نفرو رع وتوسدت رأسه.

يزعجه أنها أطول منه بالفعل، أما غرورها الشديد فمسألة أخرى، ومعاملة الجميع لها وكأنها الملك القادم تصيبه بالجنون، يضايقه كل شيء بتلك الفتاة، لكنه اعتاد الصمت كرد مناسب على كل شيء، فمن الصعب الخروج من تحت مظلة تلك الزمرة. عادة ما يضجره ما عرفه عن أبيه، ولا يرغب الملك الصغير في تكرار تجربته مع نفرو رع، والتي يبدو أنها ورثت السيطرة من أمها، فماذا سيكتب عنه التاريخ؟

الملك الذي لم يحكم!

الملك الذي لم يكن!

الملك الذي حكمت زوجة أبيه وزوجته نيابة عنه!

بعينين مترقبتين، لمح تحتمس إشارة ارتياح لفكرة وجوده مع الجيش في عيني الملكة. أما بداخله، فهناك شعور طفيف بالرغبة في الذهاب للحرب، فيجب عليه اتخاذ خطوات جدية للظفر بكرسي العرش هذا، لكن الشعور الغالب هو الرعب!

"أكمل إجراءات تجهيز الحملة، وأنا سأفكر في أمر الملك"، سجد نحسي بين يدي حتشبسوت وخرج. ثم أضافت: "أنت متعب بالتأكيد، يمكنك الارتياح قليلًا، وستعزف لك نفرو رع الأغنية الجديدة التي حفظتها، لتدخل السعادة إلى قلبك".

لا يمكن لحتشبسوت إعطاء أمر مباشر للملك، لكنها تعرف منة طريقة مختلفة لتقوم بذلك، ولا يملك تحتمس الجرأة الكافية لمخالفتها، هو لا يحب الوجود كثيرًا بتلك القاعة المملة على أي حال، مسك يد الأميرة الصغيرة برقة، وخرجا دون أن ينبس ببنت شفة، والاضطراب بادٍ على ملامحه، في إثره خرج سنموت لدعوة بومرع إلى الدخول، فقد كان الأخير بالانتظار لفترة.

خارج قاعة الحكم، تمشى الملك الصغير مع أميرته نفرو رع في الحديقة، كثيرًا ما تخيل تحتمس ما كان ليحدث إن كانت الأميرة ذكرًا، كانت الأمور لتصبح أيسر كثيرًا، يمكنها أن تكون ملكًا مناسبًا، فبداخلها تكمن عزة نفس وغرور شديدين، لكن لا يمكن لأحد أن يزعم أن تلك الصفات لا تناسبها، فهي شديدة الذكاء قوية الشخصية، بل ربما ستفوق أمها حتى في قوتها، وهو ما مثل عبئًا شديدًا للملك الصغير، فعندما كبر بما فيه الكفاية ليسأل أسئلة عن والده لم ترقه مردودها. امتلكه الرعب من مواجهة نفس المصير، فلا يجب أن يكون الملك مجرد ظل لزوجته.

لم يكن من السهل تمرير الإجابات المناسبة للفتى عن أبيه، لكنه عرف الحقيقة بعد بحث مضنٍ وسط إجابات مقتضبة بشفاه مرتجفة، عرف أن والده لم يكن إلا صورة للملك، لكن الملك الحقيقي هو حتشبسوت، كيف عليه إذا انتزاع حقه من بين يدي زوجة أبيه؟ هناك وخز بقلبه يخبره أنها ستسلم السلطة إلى نفرو رع، بينما يتسلم هو صورة أبيه. فيومًا بعد يوم، ازدادت نفرو رع مجدًا، وفي المقابل نما بداخله خوف من مواجهة المصير ذاته، الذي عاشه الملك الراحل تحتمس الثاني.

"لا يجب عليك حمل هم الحملة بتلك الطريقة"، لاحظ تحتمس جبينه المقتضب بعد تنبيه نفرو رع له، فقال: "أتظنين الأمر بسيطًا، إنها حرب! يحكي لي مونتمس عادة عن الحروب والحكايات التي سمعها.."

"لم يشارك مونتمس نفسه بأي حرب"، تعرف الفتاة كيف تعلق تحتمس بحارسه الشخصي القوي، وأحب حكاياته عن شجاعته وقوته.

"لكن حكاياته عن الحرب حقيقية"، أجاب تحتمس بقلق.

لفّت نفرو رع ذراعيها حول رقبة تحتمس، فقد أرادت تسريب بعض الطمأنينة إليه، وبصوت حنون أضافت: "لو درست التاريخ جيدًا ستعرف أن حملات الجنوب كلها سهلة. ولم يخسر أي ملك أو حتى قائد معركة واحدة هناك. لكنني أعدك، عندما تعود منتصرًا ستثبت حكمك بسهولة على الأرض، لا تنس أن العرش دائمًا في خطر".

إنها حقًا بارعة، وما يقلق تحتمس أكثر من كل شيء معرفته بحبها له، بينما لا يقابل حبها في قلبه إلا جبل ضخم من حجر، يشعر أحيانًا ببعض الجاذبية تجاهها، لكن سرعان ما تغشى مشاعره تلك حالة من الخوف والحنق والبغض، لا يعلم هو نفسه لم! لكنه على كل حال، ارتاح قليلًا بين يديها الرقيقتن الملتفتين حوله. "عندما تنتهي دراستك ستسافر لمننفر، لتتدرب على الحياة العسكرية، وحينها تقود أنت الحملات الحربية بنفسك، وتنتصر على الأعداء، وسأكون بانتظارك استقبلك بالورود وأنت على السفينة الملكية". رسمت تلك الفكرة ابتسامة على وجهه، وارتاح لها قليلًا، فهذا كل ما يتمناه، أن يفوز بلقب الملك الحقيقي، ويعود من حملاته الرهيبة منتصرًا، ويخلد التاريخ اسمه كملك عظيم.

"تحتمس!" نادته مريت رع، الأميرة الصغيرة، ولوحت بيديها بفرحة ثم جرت إليه وعانقته طويلًا، ثم سألت: "لم تأخرت اليوم؟".

أجابها: "لم أتأخر".

ردت: "هيا لنلعب"، وشدته من يده، ثم صاحت: "تيتي!" منادية قطها الأرقط الذي لا يعيرها انتباهًا، قالت لها نفرو رع: "لا تنسي أن تغسلي يديك".

"هذا لا يخصك"، أجابت مريت رع.

"سأنتظرك بالداخل"، قالت نفرو رع موجهة حديثها إلى تحتمس، أجاب الأخير بإيماءة ضجرة، ثم ذهب مع الأميرة الصغيرة التي سحبته من يده باتجاه تيتي، قالت: "أتمنى أن تموت نفرو رع لنعيش أنا وأنت في سلام".

كم رغب تحتمس أن يشغل مكان الأميرة، أن تكون أمه إيست هي الملكة وليست حتشبسوت، أن يكون هو

الوريث الحقيقي للملك بالدم الملكي وليست نفرو رع، لكنه قطعًا لا يتمنى موتها.

مدّ تحتمس يده ومسك القط، الذي أحاط عنقه إطار من القيشاني الأزرق الكمتي الجميل، ضنع خصيصًا له، مسكه تحتمس وجلس مع الصغيرة بالحديقة، تمسّح القط به، وفركت مريت جلد رقبته، قال تحتمس: "نفرو رع أختك الشقيقة، ويجب أن تحبيها".

أجابت: "هي لا تحبني وأنا لا أحبها، أنت فقط أخي، أحبك أنت فقط، كل من بالقصر يسألني لماذا لست كنفرو رع، أنا أكرهها".

لم يستطع تحتمس التفوه بالكذب، فهو أيضًا يعلم كيف يتساءل الجميع لم هو ليس كنفرو رع، إنه أمر في غاية البؤس أن تُقارن دائمًا بمن هو أفضل منك. لكنه يعلم الإجابة، لأن حتشبسوت ليست والدته، لأن سنموت ليس معلمه الحقيقي، لأنه لا يُسمح له بالتواجد بالقاعة الملكية مثلها، لذلك يصاب بالضيق كلما رآها.

قالت مريت: "أتذكر حين وجدتني ألعب بالزرع في الطين؟ لم تخبر أحدًا، بينما أخبرت هي الجميع بمجرد أن رأتني، وعوقبت اليوم التالي كله بعدم الخروج، هي تكرهني لذلك أكرهها، هي تأخذ كل شيء لنفسها، لكني لا أريد إلا أن نلعب معًا".

"أنا أيضا أحب قضاء الوقت معك، لكني أقضي الكثير من الوقت بالمعبد".

بعد وقت قليل تركها تحتمس وتوجه إلى الداخل حيث انتظرت نفرو رع، سألته: "أيقلقك شيء غير الحملة؟".

بسرعة أجابها: "لا".

لن يمكنه أن يناقش ما يقلقه الآن معها، فلن تتمكن من استيعاب أمر الختان، ولم يرغب في تلقي النصائح منها أكثر من ذلك. ابتسمت الفتاة وصحبته حيث قبعت قيثارة ضخمة، تعدت بارتفاعها طول نفرو رع، نُحِتَ على قاعدتها رأس سيدة بأذني بقرة وقرنيها، بينهما شكل دائري مثل قرص الشمس، رمز إلى حتحور ربة الجمال والفن والموسيقى.

وهناك أُعدت مائدة طعام للملك الصغير، كالعادة احتوت المائدة على لحم مطبوخ مع البصل في إناء من الفخار، وبطة مشوية، وخبز وفجل، قضم تحتمس بضع قطع من ورك البطة مع ربع رغيف من الخبز، وغسل يديه قبل أن تبدأ نفرو رع حتى في العزف.

لمست جسم القيثارة من أعلى نزولًا بعشق واضح، وقف تحتمس بجوارها وشاهد باهتمام، فلعبت الفتاة على أوتار القيثارة بينما احتضنتها ورفعت قدمها اليمنى قليلًا، وراحت تضرب كعبها على الأرض في دقات متتابعة ساعدت على ضبط إيقاعها، لحظات وبدأت في الغناء بصوت جميل وأداء متقن، تلك الفتاة مثالية!

***

داخل القاعة الكبرى بعدما حيا بومرع الملكة، قال سنموت: "ساعدني بومرع في تنفيذ تصميم المعبد، واقترح اسمًا أظنه مناسبًا".

أشارت الملكة إلى بومرع فقال: "تسبح الأرض كلها للخالق، وتمجده الأنفس جميعها، أرض كمت مقدسة بأكملها، كأنها معبد كبير وسط الكون. وكل من هو على هذه الأرض، هو كاهن في المعبد العظيم كمت. لذلك، ما رأي جلالتك أن يكون اسمه جسر جسرو؟ لأنه سيكون أقدس مكان في المملكة كلها". انبهرت الملكة بفكرة بومرع، فيا لها من فكرة غاية في الجرأة، تتناسب مع اتجاه حتشبسوت العام، بعدما ضربت روح التجديد الكثير من التقاليد البالية، وأصبح ذلك العهد ساحة مناسبة للتطوير والإبداع.

جسر جسرو.. قدس الأقداس!

فكرة مبهرة متناسبة مع فكر حتشبسوت، المخالف لذلك الجمود الفني والصرامة. أحضر سنموت التصميم النهائي للمعبد، فراح المهندسان لوقتٍ طويلٍ يشرحان للملكة أدق التفاصيل، لاحت السعادة على روحها فأغشت ملامحها بفرحة وقورة، عبّرت عن رضاها عن مشروع الحياة الأبدية، فكل ملك يؤسس معبدًا أو أكثر لتقدم له فيه الصلوات والقرابين بعد موته، لكن لم يحدث قط أن تَبنّى وصية على الحكم معبدًا باسمها من قبل.

حضرتْ للغرفة سات رع مربية الملكة، تلبية لأمرها، فسألتها حتشبسوت: "أتذكرين ذلك المعبد الجميل، الذي أردت تشييد مثله لنفسي؟".

أجابت لفورها: "معبد الملك منتو حتب".

أشارت الملكة إلى سات رع لتنظر إلى البرديات على المكتب، ذُهلت الأخيرة عندما وقع بصرها على التصميم البديع، ولم تتمكن الكلمات المحشورة في قلبها من الخروج.

شرح لها سنموت قائلًا: "من الضروري أن يختلف معبد جلالة الملكة حتشبسوت عن كل ما سبقه، ليجسد تحفة معمارية وفنية، حتى إن استوحي تصميمه من معبد الملك صادق الصوت منتو حتب نب حبت رع، لكنه سيفوقه في التنفيذ. ومع أنه أضخم من المعبد السابق، لكن تصميمه الأنثوي دمج بين الضخامة والرقة. المعبد متناسق تمامًا مع خطوط الطبيعة المحفورة في الجبال من حوله في مرونة رشيقة، كأنهم يرسمون لوحة ضخمة تشهد على الجمال والعظمة..".

"والأنوثة!" أضافها بومرع، ثم اعتذر بعد أن أدرك خطأه، فلا يجوز التحدث أمام من هو أعلى منه دون إذن، ومن اللافت أن سنموت لم يلقِ بالًا لذلك الخطأ. بسعادة جمة أضافت حتشبسوت كأنها تحدث طيفًا غير مرئي: "المعبد ضخم، وعلى عكس معابد كمت كلها، يتكون من ثلاثة أدوار".

صمتت الملكة وأشارت إلى سنموت فتفنى الأخير بإنجازه: "على الرغم من التصميم الفريد لمعبد الملك منتو حتب نب حبت رع، إلا أن خطوطه والهرم فوقه لا يتناسبان مع الطبيعة، ويظهر فيه الجمود بشدة. لذلك سيكون معبد جلالتها هو نفسه الهرم، لتنسجم وتندمج أدواره الثلاثة مع الطبيعة. سيختلف مفهوم المعبد نفسه، من مكان غامض غريب لمكان مفتوح متاح للناس جميعهم. هذا بالإضافة إلى رشاقة أعمدة المعبد المعبرة عن اللمسة الأنثوية فيه، كأنه حجر كريم يحتضنه الجبل برفق، وهذا طبعًا غير الحديقة التي لن يكون لها مثيل".

تذكرت سات رع ابنتها بالرضاعة حتشبسوت، حينما سارتا معًا في البر الغربي تتفقدان أعمال الترميم التي أمر بها الملك تحتمس الأول، حينها أبدت الطفلة إعجابًا شديدًا بذلك المعبد الفريد من نوعه، المختلف في تصميمه عن المعابد كلها، كأن الملك منتو حتب نب حبت رع أراد بذلك المعبد أن يقول للجميع أنا موجود، أنا مختلف..

لمع في هذه الذكريات وجه الطفلة حين وعدتْ بتشييد معبد مماثل لتلك التحفة بالجبل، لكن أكبر وأعظم، ويحتوي على حديقة جميلة، تُجلَب نباتاتها وأشجارها العطرية من بلاد بونت في الجنوب، في ذلك اليوم صرّحت الفراشة بأحلامها لصديق أبيها المهندس أنيني، وطلبت منه تصميم حديقة جميلة، كتلك التي نفذها في قصر أبيها، ضحك الحكيم ووعد الطفلة بأنه سيفعل حينما تصبح ملكة، لكنه أوكل المهمة لمن هو أكثر شبابًا وجموحًا، إلى سنموت، فقد رحل الحكيم عن عالمنا منذ عام. لم تتمالك سات رع نفسها من الدهشة والانبهار، حينما رأت أحد أحلام طفولة الملكة يتحقق، فاحتوت المربية ابنتها بدفء.

بعدها طلب سنموت من الملكة مناقشة أمور أخرى، فصرفت الجميع لتستمع إلى تفاصيل باقي المشاريع، فقد أرسلت الملكة حملات لإعادة إعمار وترميم الكثير من المعابد، التي كان بعضها مهملًا منذ عصر الحقاو خاسوت! أما المشروع الأهم والأكثر سرية فهو المقبرة الملكية، فبعد مغادرتهم مباشرة أخرج سنموت بردية فائقة السرية بها تصميم مقبرة جديدة!

"حفرت المقبرة القديمة للزوجة الملكية ومن الصعب جدًا تعديلها، لذلك نفّذتُ تصميمًا جديدًا لمقبرة ثانية".

"مقبرة ثانية!"، أدهشت تلك الجملة الملكة.

أسهب سنموت: "صحيح أن أعظم مقابر ملوك كمت هي الأهرامات، لكنها لهبت، ولم تحمِ ملوكها. حتى عندما بنى ملوك ما بعد الثورة أهراماتهم، بكل متاهاتها وألغازها، ليرقدوا بمأمن من غدر المستقبل، تمكن لصوص العامو من حل ألغازها، لذلك اختار والدك المبرر واديًا مخفيًا في الجبل، ليحفر فيه مقبرته بسرية، لكن المشكلة أن معبده لم يتصل مع المقبرة".

أجابته حتشبسوت معترضة: "إن اتصل المعبد بالمقبرة سيكون علامة، فيعرف الناس مكانها ويُكشف المكان".

قال الرجل بدهاء: "لكن ماذا لو اتصل المعبد بالمقبرة بطريقة مشفرة؟".

"كيف؟".

"من خلال ممر في الجبل".

لا يعرف إبداعه حدودًا، لمع البريق في عيني الملكة بعد جملة سنموت وبشغف أشارت إليه ليشرح كيف ينوي أن يفعل ذلك.

"ستقع المقبرة الجديدة خلف الجبل مقابلة للمعبد تمامًا، في نقطة عاينتها بدقة، يستحيل أن يلاحظ الماشي على الأرض مدخلها، ستكون مبنية على محور متناسق مع محور المعبد، فيصل الممر المعبد بالمقبرة".

"ومع ذلك لن يُعرف مكانها!"، بدهشة شديدة قالتها حتشبسوت.

فهل حظي التاريخ بمن هو أكثر إبداعًا من سنموت! بالطبع لا، لا بد أن الرجل اتخذ حم إيونو المشرف الأعلى على مشروع هرم الملك خوفو، أو حتى إيمحوتب العظيم ذي الكرامات، مهندس الملك زوسر الراحل مثلًا أعلى، إلا أنه على ما يبدو تخطى إيمحتب في إبداعه، فاستحق تسلق سلمًا من المجد يمتد لأعلى السموات حتى يقطن وسط النترو، فلا بد أن بتاح الذي علمه الفن والهندسة، وتحوت الذي علمه الرياضيات والحكمة، قد أفسحا له مكانًا بينهما، فعلى الرغم من كل ما سلبه منها النترو، لكنهم قدموا لها الدعم المناسب حينما وضعوا سنموت في طريقها، إنه أثمن هدية حصلت الملكة عليها، ولذلك استحق مكانته العظيمة.

"قريبا سيكمل جلالة الملك تحتمس منخبر رع مراحل تعليمه، وترسلينه جلالتك إلى الشمال، يتدرب في الجيش ويصبح قائدًا عسكريًا، وحينها تكون الفترة الأخطر على العرش. فبالرغم من الأعمال المعمارية التي شيدتها جلالتك باسم الملك تحتمس منخبر رع، كالمقصورة المقدسة في ميعام، واستكمال أعمال الملك أحمس في جزيرة ساي، ومعبد حصن بوهن الذي تدمر منذ عصر الاحتلال، ومعابد سمنة وقمنة، وهذا طبقًا ساعد في زيادة الاستقرار وتثبيت اسم الملك تحتمس الثالث، لكن ما زال الخطر يحاوطه، لذلك أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب لإعلان النبوءة، وتتويج جلالتك، سيكون هذا هو الحل الأفضل لحماية الملك، فهكذا لن يكون هناك جدوى من عمل مؤامرات ضده، وحينها نحافظ على حياة جلالته، خصوصًا مع تنامي الاضطرابات في كمت الوسطى".

"ستظهر النبوءة أخيرا ويعرفها الجميع"، قالتها حتشبسوت والأمل يفعمها.

فأضاف سنموت: "لكنها ليست أسطورة جلالتك، هي الحقيقة".

صمتت حتشبسوت قليلًا وابتسامة عذبة ارتسمت على شفتيها الرقيقتان، ثم أضافت: "لكن تحتمس لن يذهب إلى الشمال".

بدهشة أجاب سنموت: "اعذريني!"

فأضافت: "لن يذهب تحتمس إلى الشمال، ولن يبتعد عن العاصمة، آخر أمير اتجه إلى الشمال عاد منه مومياء، ولن أسمح بتكرار ذلك".

جادل الرجل: "اعذريني يا مولاتي لكن لا أحد يمنع الموت، ولو كان الأمير آمون مس موجودًا في واست حينها لسافر للبر الغربي أيضًا".

أمرت الملكة معلنة: "سيتدرب تحتمس هنا، أمام عيني، ليصبح قائدًا عسكريًا، دون أن يذهب إلى الشمال".

أراد سنموت التحدث، لكن الملكة رفعت يدها فصمت عن ذلك، وعلم أن العرش سيواجه مشكلة ضخمة فيما بعد، لأن تحتمس ليس إلا مجرد كاهن، ولن يتمكن من النجاة على العرش مع كل ذلك السلام بداخله. لا تنقصه الحكمة وإنما القوة وشدة البأس، لكن الملكة لا تريد سماع كلمة أخرى عن إرسال الملك الصغير إلى الشمال!

رغم أن النبوءة من إنجاز سنموت، تقول إن بذرة حتشبسوت المقدسة أنبتت من صلب النتر آمون رع، حينما تجسد الأخير في شكل الملك تحتمس الأول، واضطجع مع الملكة أحمس تاشري والدة حتشبسوت، ومن ثم ولدت الطفلة من نسل النتر ذاته، لكن ما أعطى سنموت القدرة على إبداع تلك الأسطورة أنها ترسخت بقلبه منذ زمن طويل، فلا يمكن لتلك الملكة العظيمة إلا أن تكون ابنة لملك النترو آمون رع، بل وهي أفضل إنجازاته، وله أن يفخر مدى الحياة أنه صنع تلك المعجزة.

لم يقتنع سنموت قط، ولو لمرة واحدة، بفكرة أن أي إنسان بإمكانه أن يلمس الملكة، ناهيك عن أن ينجب منها بالطبع.كان النترو في غاية الحكمة حينما وضعوا الملك تحتمس السابق زوجًا لجلالتها، فلا يستحق أي رجل أن يكون إلى جوارها، حتى وإن كان أعظم رجل في العالم. لذا أعطيت المهمة لفحل ما، فقط لتنجب حتشبسوت ذرية من بدنها، ولذا بعدما أتم الملك الراحل مهمته، وافته المنية كما هو مقدر له. وأبدعت حتشبسوت حتى في نسلها، فالطفلة نفرو رع ورثت الجمال والذكاء والنبوغ وبنيتها الجميلة ورشاقتها من والدتها، وإن لم تكن الطفلة الصغرى نذًا لنسل النترو، فهي باهتة صامتة منطوية لكن لها كل الشرف أنها سكنت ذلك الرحم لبعض الوقت.

إن التحق الملوك بالنترو بعد الموت، فحتشبسوت تركت مكانها بينهم ونزلت إلى الأرض، إنها لا تعلم قدرها الحقيقي من العظمة رغم كل الثقة البادية في عينيها. يراها إن نظر للنجوم والأفلاك، على صفحة النهر يجدها تبرق بليونة على قطراته، كل ما أراده في الحياة الآخرة أن يلتحق بملكته، يظل بخدمتها، ويتمتع برؤيتها البهية، أراد أن تُصنع كل تماثيل الأوشابتي التي تخدم الملكة في العالم الآخر على شكله هو، حتى يتشرف بخدمتها إلى الأبد كل يوم. لذا حرص كل الحرص على إثبات وجوده بين خبايا أبواب معبدها، بل وأراد تحت مقبرته في الجبل متعامدة على محور معبد الملكة حتشبسوت، حتى يهنأ بعد موته بعبادتها ورؤيتها كل يوم، وحتى تطوف روحه حول معبدها طوافًا سرمديًا لعاشق متيم، لأفضل نسخة من أرقى الكائنات، التي داست يومًا قدماها المرمريتان على أرض كمت المقدسة فزادتها قداسة.

إن كان لسنموت مطلق الحرية، لوضع مقصورة عظيمة تحتوي على تمثال جلالتها في أقدس بقعة بمعبد إيبت سوت، وطاف حول قداستها كل يوم حتى فناء جسده، لتستمر روحه في طوافها بمعبد جسر جسرو، أعظم معبد لأعظم من حكم أرض كمت.

أراد سنموت تحقيق أمنية تأجلت لفترة طويلة: "فضل جلالتك على عبدك عظيم، نقلتني من عامة الشعب، لأعظم فرد في المملكة بعد عظمتك، وهبتني من القوة والسلطة والمال ما لم يحلم به أبي، لذلك عندي رجاء من جلالتك، لقد عاش والدي رعموسي في أرمنت، رغم إنعام جلالة الملك أمنحتب علينا، ومن بعده جلالة الملك تحتمس والدك، لكنه رحل وأنا ما زلت موظفًا صغيرًا تحت رعاية والدك صادق الصوت، والآن لحقت به أمي بعد خدمتها بكل فخر لجلالتك وللأميرتين الصغيرين، جلالتك أنعمت علي بفضل بناء مقبرة عظيمة تليق

بها، وأهديتها قناعًا ذهبيًا عظيمًا، أرجو من جلالتك أن تسمحي لي بنقل والدي، للمقبرة الجديدة التي تليق بيه، ليكون مع والدتي، بدلًا من مقبرته القديمة المتواضعة".

"لا يمكنني رفض طلبك، لأنه ليس طلبًا شخصيًا، إنك حتى لم تبدأ في بناء مقبرتك الشخصية بعد، أنت ابن بار لوالديك ويجب إكرامهما من أجلك، جهز التصريح وأنا سأختمه".

"سأنقل مومياء والدي وأبدأ العمل على مقبرتي فورًا، لقد جهزت التصميم واخترت مكانها، إذا سمحت جلالتك".

سألت الملكة: "أين؟".

أضاف الرجل بفخر: "مقابلة لمعبد چسر چسرو، لأتمتع بعد موتي بعبادة أعظم نترت وُجدت على الأرض السوداء المقدسة، وحتى تتمكن روحي من الطواف حول معبدك المقدس لملايين السنين. لقد اخترعت يا مولاتي نوعًا جديدًا من الكتابة بالشفرة، فكما تعلمين جلالتك يحسدني الكثيرون على النعم التي أنعمت جلالتك بها على عبدك، لذلك سأزين باسم جلالتك مقبرتي بالشفرة، كعلامة ملكية لتظل روحي محاطة باسمك العظيم"

"سنموت.."

"خادم جلالتك المتواضع".

أحبت الملكة تلقي العبادة من خادمها المقرب سنموت، رغم اعتيادها على ابتلاع الملق من الجميع، إلا أنه حظي باختلاف واضح، لقد رفعها الرجل بقلبه إلى مصاف النترو، فاستنشقت حتشبسوت من رحيق عشقه ما استطاعت، لم يعلم كلاهما بم تُسمى هذه العلاقة! هي علاقة فريدة، لم، وربما لن يتكرر أبدًا، وهل كان الأمر ليصبح أكثر سهولة إن كانت الملكة رجلًا؟

وكيف لها أن تحبه كل هذا الحب، ولا تراه في أحلامها يضمها لقلبه كما تشاهد آمون مس الراحل؟

كم مرة أغمضت عينيها تحت وطء تحتمس زوجها الراحل، لتزعم أنه أخوه القوي، وكم مرة جمعتها الخيالات بآمون مس بعد وفاة زوجها، ولم تجمعها من حينها بغيره، يرهقها أحيانا الجزء الأنثوي بعشرات الأسئلة والأحاسيس، بينما يظهر الجزء الملكي منها نهارًا في صرامة وشدة وحزم، فيسيطر قرينها الملكي على كل شيء. لكن ما إن يموت قرص الشمس، إلا وتخرج الوحوش تنهش جسدها البض، تذكرها أن بداخل تلك الملابس الذكورية، والذقن المعقوفة، تسكن أنثى تنهشها رغبة أخرى غير رغبة الحكم، وشهوة غير شهوة الملك، لا تنجح محاولتها المستميتة في دفن حتشبسوت الأنثى، لكنها نجحت على الأقل في تقسيم الوقت والمهام، فتقوم حتشبسوت الملكة نهارًا بالحكم والسيطرة على كل شيء، وتقوم حتشبسوت الأنثى ليلًا بتعذيبها وجعلها أحيانًا تندم على كل شيء.

ولم تكن تلك الأسئلة بمنأى عن قلوب المحيطين بها كلهم، لكنها توقفت عند ثرثرتهم وهمهمتهم المستترة، ونظرات أعينهم التي تتأرجح بين الاتهام والاستفهام.

أعليها الاكتراث بكل هذا؟ إن قلبها لا ينشغل إلا بالعمل على تحقيق المجد، فلا ينبغي لها الانشغال بالإجابة عن عيون الجبناء. وعلى الرغم من كل هذا، فإن الشيء الوحيد الذي عرفته الملكة على وجه اليقين، كان أن هذا الرجل لم يكرره التاريخ، ولن يفعل أبدًا.

"قل لي يا سنموت، أيمكنك إحضار كل تقارير الجنوب، كل البلاد والحملات والرحلات؟".

"بالطبع يا سيدتي، لكن أيمكنني أن أسأل عن الغرض؟".

"سنجهز حملة تجارية لأقصى الجنوب، لأرض النتر، لبلاد بونت!".

***

قاربت شمس المغيب على الموت، ذاهبة لحتفها، حتى يستقر بها الحال في جوف ربة السماء نوت، ليلقى رع الأهوال حتى يُولد مرة أخرى في شروق اليوم التالي، هائمًا على مركبه القوية صارعًا أعداءه. خضّب السماء لون أحمر دامٍ، وانتشر بين السحب، التي حلقت خلالها الجوارح رقصًا في طقس همجي، فرحين بالقربان البشري المقدم إليهم.

على الأرض لم يكن المنظر أقل رعبًا، حيث تراقص الموت على حواف أنصال الرجال الحادة، حاصدًا للأرواح باترًا للأوصال، يبتسم ساخرًا لصيده الثمين من أرواح البشر، فيتمّ في ذلك اليوم الأطفال، وثكلت الأمهات، وترملت الزوجات، إنها تلك القوات المتناحرة مجددًا.

انقشعت الغيوم قليلًا فاتضحت الرؤية أكثر، رغم الرعب المنتشر بين الجبال، وسط الجو الخانق وعاصفة التراب التي أثارتها الأقدام، يمكن تمييز فريقين من الجنود، فأولئك جنود كمت يحاربون الأعداء! عند اشتداد القتال ومع حالة الحماس وارتفاع الصياح والصراخ، تحول الرجال لآلات قتل، فقد سيطر عليهم وانتشر بدمائهم شعور طاغٍ.

استمر القتال لساعات طويلة حتى بدا الإنهاك على الجنود، ضرسوا الرمال وتذوقوا العرق والدماء على شفاههم، صرخوا لانتزاع بعض الطاقة، بعدما ثلمت الأسلحة من كثرة اصطكاكها.

تقدمت العجلات الكمتية بقيادة شاب جسور تبدو عليه الشجاعة، يقطع الهواء بخفة وسرعة، يناور مع مجموعته الصغيرة من العجلات. يعاود الكر والفر، وما يكاد يقترب من جنود مشاة الأعداء ويكبدهم الخسائر إلا ويرتد عنهم. مراوغٌ محترف رغم ميل كفة الغلبة للأعداء، فعدد مركبات كمت أقل من مركبات العدو، يعرف القائد المراوغ قدراته جيدًا، ولا يخاطر إلا مخاطرة محسوبة، فكل عجلة يقاتل جنوده بها، تكلفت جهدًا وثمنًا أكبر كثيرًا من نظيراتها من عجلات الأعداء، لذا فقد جيش كمت الميزة العددية، لكن الأعداد ليست كل شيء.

ورغم زيادة عدد عجلات العدو، إلا أنها فقدت ميزتها الأساسية لاحتضان الجبال للفرقة المصرية، وحسن تنظيمهم الشديد، فما إن يتلاحم الجنود إلا وتتمكن الفرق المصرية من التجمع بمجموعات يحميها الجبل، فلم تحقق عجلات الأعداء أي مكاسب حقيقية.

مهمة العجلات غير تصادمية، لكنها تراوغ لتوفير سرعة تزيد قليلًا عن ركض الرماة، مع توفير طاقة كبيرة يفقدها رماة المشاة عند الركض، فيصمد قادة العجلات لفترات أطول بأداء أفضل، تتقدم العجلات في خط سير نصف دائري، أو مثلث ناقص ضلع، لتمر قرب قوات الأعداء على مسافة كافية لرمي الأسهم، فيلقم قادة العجلات أسهمهم بطريقة محترفة شبه آلية، ويطلقونها بسرعة، لإرسال أكبر عدد من رسائل الموت إلى صدور الأعداء، ومن ثم يعودون أدراجهم ليعيدوا الكرة.

في لحظة وجدت نفسي أقود مجموعة العجلات بمهارة، يدق الحماس بقلبي طبول الحرب، طغى شعور الغضب والفخر على إحساس الخوف البارد الذي حاول التسلل إلى وجداني، فصرخت كأسد يزأر لضبع خسيس يهدد منطقة نفوذه.

بفخرٍ تحركت بمهارة وسط فرقتنا المتناغمة حركاتها، يغذي الفخر جسدي بالطاقة اللازمة للفتك بالأعداء. أعدنا الهجوم لمرات، تقدمت فرقة العجلات الصغيرة لعمق مناسب، شددت القوس بشدة، وأرسلت أول أسهمي، تلاه عشرات الأسهم في وابل من فرقة النخبة، وراح الرماة يرسلون رسائلهم مطلقين أسهمهم بالهواء، كصافرة إنذار تعلن اقتراب الموت.

عند الالتفاف للعودة كانت هناك مفاجأة، فقد تقدم أحد قادة العامو في سرعة وخفة، مع فرقة صغيرة من حاملي الرماح لإغلاق ممر الخروج، ومن خلفهم نفّذت عجلات الأعداء مناورة مفاجئة، وأمطرت السهام باتجاه العجلات المصرية، لم يكن الأمر خطيرًا جدًا، فاحتمال إصابة عربات متحركة من أخرى متحركة أيضًا ضئيل،

لكنهم حققوا النتيجة المرجوة، من إرباك فرقة العجلات الكمتية وتشتيتها.

خيار واحد فقط متاح؛ اختراق ذلك الممر بالتصادم، ضَرَبَت سياط قادة العجلات ظهور أحصنتها لإرسال رسالة. رفعت سيفي الخوبيش، وأطلقت صياحًا رج الجبال، فسادت شجاعتنا على جرأتهم، لن ينالوا منا بهذه السهولة، ردد القادة الزئير وانطلقت مجموعتنا للأمام بينما تقدمتهم جميعًا. صرخ قائد مجموعة العامو في تحد، فرفعوا رماحهم وانتظروا دهرًا، وعند الأمر أطلقوا، في لحظة مضطربة لم أتبين ما حدث، انقلبت عجلتي ووجدت خطًا دافئًا لزجًا يسيل على صدري، تحسست مكان الألم لأجد سهمًا ذفن بجسدي، ألهبني ألمه حين مسسته، كنت مطروحًا على الأرض، واقفًا تحت حطام عجلتي والحصان ملقى على قدمي، يخترق الألم كل بدني، للحظة حاولت التحرر ولم أتمكن..

من الخلف شدت ذراعي يد ما، صوت قال بداخلي إنهم شجعان الملك الذين لا يعرفون المستحيل، تقدموا وسط الجلبة لإنقاذ الملك، نظرت لأعلى فضرب شعاع الشمس الأخير عيني، اخترق الألم صدري مع ضربة بلطة، طحنت أسناني من شدة الألم، وانهالت على جسدي الضربات فوزًا وشعرت بالظلام يغشى المكان...

خسرنا المعركة!

هدأ الصراخ وخفتت الأصوات بالتدريج.

أشعر بالألم يهرس بدني، وما زال طعم العرق والدم والرمال بفمي، أضغط على أسناني بقسوة، والعرق يتصبب بغزارة.

ما زال الظلام مسيطرًا..

والضوضاء في خفوت..

سبح تحتمس في بركة صغيرة من العرق غمرت سريره، وما زالت الضوضاء تطلق طنينًا بأذنه، جعله ينظر من خلال الشباك ليعرف ماذا حدث بالفعل، بالتدريج عاد إلى وعيه ملاحظًا أن الظلام ما زال يكسو الغرفة، بينما لم يتمكن الملك الصغير من التأكد، هل كان ذلك حلمًا أم حقيقة؟ أم شيء ما بينهما لكن الألم ما زال حقيقيًا، فهو يشعر بالوخز يخترق خده، وصدره، وجبهته، وساقيه.

ظل الصبي راقدًا يستجمع قواه، يحاول تذكر أي شيء، بعدما اختلط الخيال بالواقع بغرابة، لم تكن تلك المرة الأولى التي يرى فيها نفس الحلم، إنها المعركة التي سقط فيها جده البطل العظيم سقنن رع، لكن الغريب هو أنه يرى الحلم وكأنه سقنن رع نفسه! يعاني ألمه وإرهاقه واضطراب قلبه، لم ينم تحتمس جيدًا تلك الليلة، تارة يصارع الأرق وتارة يترجاه بغير نتيجة، وما إن نام حتى وقع القتال. اعتاد الأرق في الفترة الأخيرة منذ تحدد الموعد، إلا أن الليلة لم يكد ينام بضع دقائق، حتى هاجت العفاريت بذهنه ولم تسمح له بسنة من الراحة، لذلك شعر بالنار تشتعل في مجمرتي عينيه بعدما استيقظ من غفوته القصيرة، شعر كأن كل البرغا سقط عليه في أثناء نومه، وما زالت آلام المعركة تنشر بدنه.

عرف تحتمس أن النوم غادر سريره الليلة، فقام يلتمس الطمأنينة في هواء فناء القصر. عند فتحه للباب، لاقاه النسيم البارد فارتعدت أوصاله، إلا أن حبه للشتاء جعل تأثير البرودة جميلًا في نفسه، نظر إلى سماء بلا قمر، ملاحظًا رقص إضاءة النيران على جدران القصر. رغم أن ظلام الليل جعل من أرواح الملوك السابقين المطلين من السماء مع النجوم المنظر ساحرًا. تمنى الفتى لو عرف الساعة عن طريق النجوم، إلا أن تلك وظيفة الكاهن الميقاتي، الذي تلزمه واجباته بملاحظة النجوم لضبط التقويم وميعاد الفيضان والأعياد، وكذلك الاتجاهات اللازمة لتحديد مساحة المعابد عند الشروع بالبناء، يقرأ رسائل السماء بمهارة يترتب عليها الكثير بكمت، لكن الفتى لن يحصل على تلك الرتبة، فهي تلازم صاحبها حتى مماته، ولا يمكن معها الالتزام بأي وظيفة أخرى، يكفي الفتى أنه سيصبح كاهنًا خادمًا للنتر بعد ساعات، وهي الفئة الأسمى على الإطلاق.

وقف الحارس مونتمس مستعدًا بالفناء يغلب عليه النعاس، ما إن رآه حتى جرى إليه وسجد أمامه قائلًا: "نهار جميل جلالتك".

رد عليه بإيماءة، فلم تسعفه قوته المهزولة على الحديث، يقول الجميع إن اليوم سيكون الأصعب بالنسبة إليه، سمع من قبل الكثير من حكايات ختان الرجال، فتلك الأشياء تلتصق بأصحابها تقريبًا طول العمر، يتذكر الجميع كيف تصرف كل فرد تقريبًا وقت ختانه، من بكى، ومن أغشي عليه، ومن حاول الهرب بينما يضحك الجميع!

اليوم هو الأصعب في حياته، ليس فقط لأن عليه أن يجتاز ذلك الألم، ولكن لأن عليه ألا يظهره من الأساس، فسيلاحظ الجميع كيف بكى الملك كالأطفال، ولن يكون ذلك مقبولًا، لحظات تفصل بين حياته كطفل وحياة أخرى كرجل بالغ، قال له حابو سنب سابقًا: "فكر جيدًا قبل أي عمل، كيف يتصرف الملك في هذا الأمر؟".

تساقط طرف رداء السماء الأسود من على كتفيها، وزحف الذهب الأحمر شبنًا ببزوغ الفجر، تسلل إلي سمع الفتى صياح الديكة، وصياح حيوانات البابون من المعبد، محتفلة بانتصار رع على أعدائه كعادته، تفاءل تحتمس بشروق ذلك اليوم، فلعلها بشرى من النتر، وسينتصر هو اليوم على مصاعبه المنتظرة، ردد متن صلاة الصبح قائلًا:

المجد لك يا رع

في كل شروق، تشرق في أفق السماء

بمدحه يشرق علينا رع

نمدحه في الصباح والمساء

فتخرج روح الأطهار معه في السماء

السلام عليك يا رع

جميل إشراقك في الأفق

تنير الشمال والجنوب

بشعاعك أنت يا ملك السماء

يستقبلك سكان العالم الآخر ويرون طلعتك البهية

أنا أيضا سأحضر لأرى نور قرصك الشمسي كل يوم

فاقبلني إليك.

هدأت الصلاة من روعه قليلًا، حاول أن يملأ صدره بنسيم الصباح، وتذكّر حينما كانت علامة الطفولة على رأسه، ضفيرة جانبية وحيدة تسيل من أحد جانبي رأسه الحليق، سيعبر الفتى اليوم من آخر مراحل الطفولة إلى مرحلة الرجولة، ولذلك يجب عليه التضحية بغرلته كما ضحى سابقًا بضفيرته، فأما عن الضفيرة فكان ذلك في غاية السهولة؛ لأنه كره ضفيرته السخيفة، وتطلع دائمًا إلى اليوم الذي يفقدها فيه، وأما عن غرلته فذلك ليس بتلك السهولة.

ربما وجب عليه الأخذ بنصيحة الكاهن، فيختن بطقوس سرية بغرفة مسقوفة بالمعبد غير متاحة للجميع، لكن أين التحدي في ذلك؟ كيف سيعرف الجميع أن الملك تحمل الألم قويًا غير مبالٍ بقطع لحمه بالسكين؟ يجب أن يراه الجميع.

رغم هزل جسد الملك الصغير، لكنه تميز برجاحة العقل، حاول سابقًا التدرب على هذا الطقس، وكيف سيمر بكل الخطوات، رسم على وجهه ملامح مقتضبة جادة تخفي بين ثناياها اضطرابه، وتدمدم الشك في قلوب الحضور بمدى قوته، أراد الفخر لأمه التي شغلها حصول الفتى على عرشه المستحق، لا يجب أن يجري تحتمس للاختباء والبكاء بحضنها، فهذا فعل الأطفال، أما هو فرجل، بل ملك، وقريبًا سيقود حملته الأولى!

سيقف تحتمس بكل ثقة كرجل شديد البأس متحملًا الألم، ولتكن أول أيام رجولته ملحمية، ليثبت للناس والنترو أنه الاختيار المناسب لعرش كمت. شعر بقدمين تقتربان من خلفه، التفت ليجد أمه إيست، لفت ذراعيها على رقبته، قرر ألا يسمح لها بذلك، لكنه لم يستطع ردها، نزلت على رأسه بوابل من القبلات والدموع، سألته: "ألم تستطع النوم؟".

فأجاب: "نمت جيدًا، لا تقلقي".

ردت بسرعة: "كل شيئًا قبل الذهاب إلى المعبد، هذا الكوشير(22) الذي تحبه".

"لست جائعًا".

لم يأكل عادة بالصباح، واليوم بالأحرى، فلا يريد أن يتقيأ في أرض المعبد الطاهرة بسبب تقلصات بطنه. وصل للمعبد سريعًا وبدأت تدب الحركة بين جدرانه الطاهرة، ظهر رع في الأفق بقرص أحمر يبعث على القوة والعظمة، فطهر الكاهن حوري الهواء بألحان مقدسة بصوته الجميل، وبدأ الكهنة المطهرون بعملهم في تطهير المعبد وكل أدواته، ودخل الكهنة خدم النتر، الذين سينتمي تحتمس إليهم بعد انتهاء الطقس، إلى قدس الأقداس لإتمام الطقوس اليومية لتمثال النتر آمون رع ملك النترو.

نظر تحتمس باضطراب إلى أسوار المعبد متسائلًا: هل ستكون أمه إيست بانتظاره اليوم؟ رغم معرفة الإجابة، فهي دائمًا ما تحضر لأجله. خرج زملاؤه أيضًا الى الفناء، وانهمك كل منهم في عمله، بعدما تبادلوا جميعًا نظرات خاطفة مرتعدة، لم تلق لها صدى عنده، تعلقت نظرات تحتمس اليوم بباب قدس الأقداس المغلق، وطلب من آمون رع المساعدة في التحدي القادم. تذكر أن عليه ارتداء وجه جامد، لا يمكنه التخلي عنه حتى انتهاء المراسم، شعر بقلبه يكاد ينخلع من أحشائه، لكنه تماسك وعاني حتى يقف على قدميه ثابتًا متزنًا. سيحقق اليوم انتصاره الأول، ويثير انبهار الجميع، سيكون سجل انتصاراته حافلًا، فيتذكره الناس لملايين السنين، بعدما يتحد بأوزير بعد انقضاء حياته.

خرج جميع رفاقه للفناء، بينما وقف تحتمس في أخر الصف بأمر من الكاهن حابو سنب، حتى يستجمع الطفل بعضًا من قواه، وقف أولًا آمون محاب الذي كان الأضخم بينهم، لكن وجهه امتلأ بالرعب عندما تقدم للكاهن، رغم ضحكاته منذ قليل حينما أراد إثبات شجاعته. تلى الكاهن بعض الصلوات بصوت خفيض، ثم بسرعة أمسك السكين وغرسه في لحم الفتى قاصدًا قطع غرلته، فصاح الأخير بغته بألم، مما أثار الرعب والاضطراب في كل الصف، لكن الكاهن أتم عمله بسرعة مع كل طفل، صرخ الجميع وانهاروا وبكوا، حتى أصبح رخمي رع السابق لتحتمس هو من يقف بين يدي الكاهن، تمالك رخمي رع نفسه بأكثر مما انتظر منه، فبث بعض الشجاعة والأمل بقلب تحتمس، نال الطفل نصيبه من الألم في وقار، فلم يتعد تعبيره عن الألم ملامح وجهه، ودموع قليلة صامتة هجرت عينيه. تقدم بعده تحتمس، واستبدل نصل حجر الصوان بحجر من الفضة، بما يليق مع مكانة الضحية.

أزال تحتمس لباسه بنفسه، فوقف أمام النترو والبشر متطهرًا عاريًا كيوم مولده، بينما ابتسم له حابو سنب الذي ردد بعض الكلمات، ثم غرس النصل في حشفته بسرعة، اخترق الألم أعضائه فانفرجت عيناه بشدة وأنّ من الألم، لكنه سيطر على نفسه أفضل حتى من صديقه رخمي رع، فنال استحسان كل الكهنة، فهتف الجميع باسم الملك منخبررع، له السعادة والصحة ودوام الحياة، هربت من بين عينيه دمعة، أقسم أنها ستكون الأخيرة، لأنه عبر الآن لمرحلة الرجولة بصورة رسمية، وبانتهاء ذلك الطقس أصبح كاهن حم نتر، وأصبح

بإمكانه الوصول لكل مكان بالمعبد، والاطلاع على كل العلم والأسرار المقدسة. وخلال أيام، سيقود تحتمس منخبررع حملته الأولى، ليحقق انتصارًا أعظم مما حققه الآن، افعمه الألم بالأمل، فهذا ما يجب عليه إتقانه؛ اعتناق الألم! هذه شيم الرجال، لا يجب على الرجل إظهار ألمه أبدًا، لذا بدأ تحتمس رجولته ببداية موفقة.

يبدو أن النترو أحسنوا الاختيار!

***

قدم للبر عا الحاكم باختي مرتديًا زيه العسكري، بعد أن حصل على إذن للمثول بالقاعة الكبرى، تقدم الرجل بضع خطوات، وقال: "السلام والقوة والحياة لجناب الزوجة المقدسة، لتكتب سشات اسمك على أوراق شجرة البرساء المقدسة، فتنعمي بملايين السنين من الحياة والسلام".

نظرت حتشبسوت ملبًا للرجل الواقف في ثبات، هناك شيء ما به يذكرها بالقائد أحمس بن نخبت: "مرحبًا بك في العاصمة واست يا سيد باختي، يمكنك التقدم بسؤالك"، قالت له.

أجاب الرجل: "تعلمين جلالتك كم من الصعاب يتحمل إقليمنا بوسط كمت، فخادمك يا سيدتي يسيطر على مناطق شاسعة غير مستقرة، أطوي الأراضي يوميًا بعجلتي لمطاردة الخارجين عن القانون وقطاع الطريق. أثبت لعدة سنوات أنني على قدر المسؤولية الضخمة الموكلة إلي، أنظم الرجال وأحقق الأمان، وأقضي على المخالفين والمجرمين، قمت يا سيدتي بما لا يمكن لأي من حكام الأقاليم أن يقوم به، ويشغل تفكيري أمر واحد في أثناء كل ذلك، كيف يمكن لسيدة كمت العظمى أن تحمل هم البلاد كلها وحدها، وتقوم على إدارة كل شيء بأفضل ما يمكن، لذلك استحققت الجلوس على كرسي أجدادك العظماء، لكن يا سيدتي لا يجب أن تُدفن حتشبسوت السيدة الجميلة الرقيقة تحت أقدام حتشبسوت الحاكمة العظيمة".

سأل سنموت بغضب: "ماذا تقصد؟".

قاطعته حتشبسوت برفع يدها فصمت فورًا، بينما ترقرق الدمع بعينيه، واحمر وجهه بشده، نظرت حتشبسوت بدهشة وبدا على قرينها التوتر، سألت: "بح بما لديك دون مواربة يا سيد باختي".

قال الرجل من فوره: "أطلب يا سيدتي أن تسمحي لنفسك بتلبية رغبات قلبك، فلجسدك وروحك ووجدانك كله عليك حق، مثلما للمملكة. إن سمحت سيدتي بقبول طلب زواجي بك، سأعمل جاهدًا على إسعادك كل يوم. لا يمكن لبشر التشكيك في قدرتك العظيمة على إدارة البلاد، لكنك يا سيدتي تتغافلين عن متطلبات نفسك، تتركين قرينك وحيدًا بلا قرين، وهذا يصيبني بالحزن، حينما أفكر أن سيدة البلاد تحرم نفسها من الحق الذي يتمتع به أقل عبادها شأنًا، اسمحي لي يا مولاتي بخدمة السيدة الجميلة حتشبسوت، كما أخدم الزوجة المقدسة والملكة".

استمر الصمت لفترة طويلة بالقاعة العظمى، سيطر الذهول على وجه وسر آمون، والانفعال الشديد على وجه سنموت، وحاولت حتشبسوت السيطرة على قرينها المتوتر، أما باختي فوقف بملامح هادئة، وعينين متواضعتين، وقلب ثابت.

أخيرا قالت حتشبسوت، بعد محاولتها للسيطرة على توترها: "سأضع عرضك في الاعتبار يا سيد باختي، لكن عليك الاحتفاظ بسرية طلبك، لئلا تجلب لنفسك المتاعب، حتى يصلك الرد من البر عا".

سجد الرجل للملكة وخرج من القاعة، صاح سنموت: "هذا ما عملت بجد حتى لا يتكرر يا سيدتي، يجب أن.. يتعرض هذا الرجل.. للتعنيف.. كما حدث لمن سبقه". هز وجه الملكة الحالم نبرات صوته، فيبدو أن الملكة تفكر فعليًا بعرضه، كان سنموت ليقول رأيه بحدة أكبر، إلا أنه ارتعب من رؤيتها في ذلك الوضع، إنها متوترة، تفكر في أمر ذلك المخبول.

قال الوزير: "لا أظن أن باختي شخص سهل يا سيدتي، فيجب التعامل مع الأمر بحذر".

قالت بنغمة رقيقة: "لم يبذ لي يا سادة أنه يسعى للحكم".

جادل سنموت: "بلى يا سيدتي، يسعى الرجال كلهم للحكم".

سألت الملكة: "أولست رجلًا يا سنموت لم لا تسعى إذن؟".

أجاب: "إن غايتي في الحياة هي رؤية إشراق وجهك المقدس علي، فتدب الحياة في أوصالي. فكما يبعث رع الحياة في جميع المخلوقات، تبعثينها أنتِ في يا سيدتي".

"ربما تكون هي ذاتها غايته".

"لم يكن ليطلب الزواج".

"للمرة الأولى لا يمكنني فهم ما تقول".

أراد سنموت قول شيء لكنه لم يستطع، فصمت.

"ليظل أمر تلك الزيارة سرًا"، قالتها وأنهت الجلسة. وبطريق خروجهما، سأل وسر آمون: "ما رأيك في الأمر يا سيد سنموت؟".

"أرى أن باختي هو أخطر شخص بالمملكة الآن".

"أتفق معك أنه رجل خطير، لذلك يجب إبعاده عن طريق الملكة".

"هذا ما يجب علينا العمل عليه".

***

كانت سات رع بغرفتها كالعادة، والدتها الثانية، أو ربما والدتها الحقيقية، التي أمكن لها دائما البوح أمامها بكل ما تفكر به، كل آمالها وأحلامها ومشاعرها. أشعلت سات رع البخور بغرفة الملكة وأخذت تمشط شعرها، بينما راحت إحدى الخادمات تزيل رداء حتشبسوت، وتدلكها بالزيوت العطرية، سألت حتشبسوت: "ماذا يريد مني النترو يا سات؟".

أجابتها: "لا أحد يعرف الإجابة أكثر منك، ماذا تظنين أنهم يريدون".

"عذابي".

"لا يتحكم النترو بمصير البشر يا عزيزتي، كل ما في الأمر أنهم يضعون الاختبار بعد الاختبار، واختياراتنا تحدد ما ستكون عليه حياتنا لاحقًا".

"لا أعلم حقًا ماذا علي أن أختار، هناك اختيار واحد ظننت أني استقررت عليه، وهو الحكم والملكية، بينما إن قررت اتباع قلبي الآن لن أعرف إلى أين سأصل".

"يجب أن يزن الإنسان كل أفعاله، على ميزان ماعت، حيث يوضع القلب أخيرًا على كفة العدالة، وتوزن أفعاله بريشة الحق، فيطفو القلب وينجو المرء".

صمتت حتشبسوت وتنفست بعمق، متى ينتهي عذابها ويستقر لها العرش؟

أم أنها من البداية تحارب في معركة لا تخصها؟

لحظات وغطت في النوم بعدما تسرب الاسترخاء لبدنها اللدن، غطتها سات رع وانصرفت، في نومها عاد لها حلم الحفلة التي تُوج فيها آمون مس، إلا أنها رأت باختي، مسك يدها بوسط الحفلة وخرج معها إلى الحديقة، أخبرها أنه يحبها وقبلها. لكن بعدها تصارع آمون مس وباختي أمام الجميع، بداخلها أرادت لباختي أن ينتصر، إلا أنها لم تتذكر من انتصر عندما استيقظت.

***

بمعبد إيبت سوت انتهت الخدمة الصباحية واليوم الدراسي بالبر عنخ، طلب تحتمس من الكاهن القارئ الأكبر بردية مجلس الحرب للملك كامس. جلس مع صديقه رخمي رع لمطالعة البردية، التي تحكي كيف تخاذل القادة المصاحبين لكامس عن الحرب، فقد نصحوا الملك بالابتعاد عن المشاكل، حيث يحكم هو الأرض الجنوبية العليا، بينما يتبع ملك الحقاو خاسوت بالشمال، ويسيطر ملك آخر في الجنوب على النوبة. لكن كامس رفض نصيحتهم، وسألهم كيف تدعولني ملكًا بينما هناك من يحكم بالشمال، وآخر يحكم بالجنوب؟! وقرر خوض الحرب. سأل رخمي رع: "ما الذي تعلمته من هذا الدرس يا جلالة الملك؟".

أجاب تحتمس: "يجب ألا يسمع الملك لمن حوله". ضحك كلاهما على جملته، وعلّق رخمي رع: "هذا صحيح، أحيانًا لا يجب على الملك السماع لمن حوله، لكن متى؟ وكيف له أن يعرف الصواب من الخطأ؟ وكيف يرفض رأي جميع من حوله ويقرر عكس ما ينصحونه؟".

"يجب أن يتمكن كا الملك من رؤية الحقيقة ومعرفة المستقبل"، ثم أضاف تحتمس: "لكن كيف؟".

قاطع حديثهما دخول سنموت للمعبد، حيث كان على موعد مع حابو سنب، ناداه تحتمس فتوقف، ركض إليه مع صديقه رخمي رع، سأل سنموت: "كيف حالك يا جلالة الملك؟".

أجاب: "محتار، قرأنا تؤا بردية مجلس الحرب للملك كامس، وكيف رفض نصيحة من حوله وفعل عكس ذلك، فكيف لي إذا أن أعرف الصواب من الخطأ، حتى إن نصحني الجميع بالخطأ؟".

قال سنموت: "كل ما تتعلمه يا تحتمس يترسخ بعقلك وقلبك، يضيء لك قلبك طريقًا لتسير عليه، يجب استشارة من حولك بالطبع، لكن عليك أيضًا أن تتبع حدسك، لا يمكنني الآن بالطبع أن أخبرك متى تسمع لمن حولك، ومتى تتخذ قرارًا مخالفًا، لكنك ستعرف حينها".

"سيد سنموت"، نادى حابو سنب على بعد خطوات منهم ولم يقترب، فتحرك له سنموت بينما انصرف تحتمس ورخمي رع للاغتسال.

"مرحبا يا سيد سنموت".

"مرحبًا جناب الكاهن الأكبر، وددت مناقشة أمر معك على انفراد"، تململ الكاهن ونظر حوله ببطء ثم قال: "تفضل إلى هناك". جلس الرجلان، فقال سنموت: "ماذا تظن يا جناب الكاهن، ألم يحن وقت نشر النبوءة؟".

"وما جعل السيد سنموت يأتي بنفسه إلى المعبد حتى يطرح هذا السؤال؟".

"الأمر يا سيدي أنك تعرف أن الملكة سيدة وحيدة، وطلبات الزواج بها لن تتوقف أبدًا".

"وهذا يهدد مصالحك الخاصة بالطبع".

"هذا يهدد مصالح المملكة يا جناب الكاهن، فلا مصلحة شخصية لي أكثر من خدمتي للملكة".

"وربما لم تنصب شباكك كاملة حتى الآن وتخشى أن يتفوق عليك أحد المرشحين".

"أظن أنه من الصعب عليك أن تفهم موقفي بصدق، طالما تراني بهذه الصورة، لكني يا جناب الكاهن الأكبر شخص صادق، لا أسعى للسلطة".

"يقول ذلك الشخص الثاني بالمملكة بعد الملك والملكة، هل تُذكِّرني يا سيد سنموت كيف ورثت وظيفتك الحالية عن والدك؟".

"لا يا سيدي، أنا لست رفيع النسب مثلك، وشققت طريقي بالحياة معتمدًا على ما وهبه آمون رع لي من مهارة وصدق، وبكد وصلت إلى ما أنا عليه، وأريدك أن تعرف أن اتهاماتك لي حتى الآن كفيلة بأن أزيحك تمامًا

عن طريقي، فأنا كما قلت الشخص الثاني بالمملكة".

"وما يمنعك؟".

"ذلك ليس في صالح المملكة، أعلم أنك رجل مخلص بغض النظر عن موقفينا المتعارضين والبغض بيننا، لذلك لن يكون مناسبًا التضحية بك بسبب وجهة نظرك بي، أو التفاهات التي تفوهت بها عني، أنا هنا كالعادة لأمد يد صداقة لك، أريدك منك طرح الأمر على الملكة، وتخبرها أن الأمور الآن مواتية تمامًا لنشر النبوءة".

"ألن تعارضني أمام الملكة، لتثبت أنك الشخص الوحيد الجدير بموقعك الحالي، وتكسب خطوة أخرى تجاه العرش؟".

"يمكنني تفهم مخاوفك يا جناب الكاهن، لذلك سأعرض عليك أمرًا يجعلك مطمئنًا أني لا أسعى للعرش".

"وما هو؟".

عاد تحتمس وصديقه من الاغتسال ورأوا أن سنموت ما زال يتحدث مع الكاهن الأكبر، تحدث كاهنان آخران ونظرا بسخرية إلى سنموت، وقالا شيئًا لم يلاحظه تحتمس، إلا أنهما قطعا حديثهما فجأة بمجرد رؤيته مقبلًا وانصرفا. لم تكن تلك المرة الأولى التي يلاحظ تحتمس فيها الهمس والسخرية المحاطة بسنموت أينما ذهب، ظن سابقًا أن ذلك بسبب أصله الوضيع، لكنه أيقن الاتهامات المستترة التي تشير إلى علاقته بالملكة، وضايقه هذا الأمر بشدة، كل هذا صعب عليه الأمر، وكل ما يدور حوله يشير إلى أنه سيلقى نفس مصير أبيه، ويحيا تحت مظلة هؤلاء النسوة ما حيا، وربما تناله الشائعات لاحقًا مع نفرو رع، كل هذا يقوده للجنون.

بدا أن سنموت أنهى حديثه مع الكاهن وقام لينصرف، ما هي إلا لحظات ونادى حابو سنب تحتمس، فلبى النداء، قال الكاهن: "ستقود يا تحتمس الحملة للجنوب، وتصبح ملكًا عظيمًا، لكن يجب عليك دائما الحرص من كل من حولك، فليس البر عا كالمعبد، هنا يطوف الجميع لخدمة النتر، بينما بالبر عا يطوف الجميع لخدمة مصالحهم الشخصية، عند عودتك من الحملة سيكون هناك أمر جلل، يجب أن تتأكد أني أفعل كل شيء من أجلك أنت، فأنا معلمك الحقيقي وأنت لي ابن، يوصيني آمون رع كل يوم بحسن تربيتك وتجهيزك للعرش".

"وأنا أعرف ذلك جيدًا يا جناب الكاهن الأكبر".

***

أحد أيام الشهر الأول فصل الآخت، بعد الاحتفال ببداية السنة، بدأ مستوى المياه بالارتفاع معلنًا عن بدء موسم الفيضان العظيم، حضر حاكم مير مع أسرته، للاحتفال مع أصدقائهم بمدينة كيس.

لباختي زوجة تشبهه كثيرًا ليس في الملامح، شخصيتها صلدة لا تعرف التهاون، رأى والد باختي أنها ستكون خير عون له في قيادة أحد أهم الأقاليم، وبالفعل كانت المرأة صديقةً معينةً لزوجها، لكنها لم تشبع قط شهيته القوية للنساء، وربما لم تكن أي امرأة على الإطلاق لتشبعها، فهو صياد ماهر للكائنات كلها، يستمتع بالملاحقة والقنص.

خارج بيته الفسيح قبل الغروب صاح الحرس، فخرج مسرعًا للقاء صديقه، جرى كايف بن مينا بسرعة لتحية باختي فاحتضنه الأخير بشدة، يكن باختي الكثير من الحب والفخر لابن صديقه، أتم الفتى عامه العشرين منذ بضعة أيام، على قدر كبير من القوة والذكاء كأبيه، وأحب كل أسرة باختي كأقارب دمه: "سنصيد ضبعًا هذه المرة؟"، سأل الفتى عمه، فأجابه باختي بثقة: "لن نعود من دونه"، بصوت كحظيرة هائجة من الثيران، مناسب لملامحه وشخصيته.

صاح مينا من الخلف: "طبعًا عنخ نب هو من سيصيده"، وأطلق قهقهة عالية، عنخ نب أخو مينا الأصغر، رد باختي: "طالما كنت متأكدًا، سأحصل أنا على كايف في فريقي، وأنت خذ عنخ نب".

أجابه مينا بمرح: "خذهما مقا وأرحني".

رد عنخ نب من الخلف بغرور: "يظن أخي أن الحكم بالذراع وليس بالعقل، دعني أبتعد لثلاثة أيام، ستجده يكد في البحث عني، لا يمكنه القيام بأي فعل دون مشورتي".

ضحك باختي بشدة، وأضاف لمينا: "إنه محق".

بالإضافة لكونه أخا مينا الأصغر، كان عنخ نب كاهن ماعت -قاضيًا- وكبير كهنة أنبو، ورئيس الشرطة، كما حمل العديد من الألقاب الأخرى، وهو الشخص الثاني في الأهمية بعد مينا، والعقل المدبر لإدارة منطقة مهمة من المقاطعة، ورغم مرحه الشديد إلا أنه ذو شخصية صامدة كالجبال، ويثير غضبه خوف الجميع، رغم جسده النحيف، وكرشه المنتفخ، ورأسه الأصلع، وصوته الأخنف السخيف، لكن لم يشك أي شخص قط بقدراته، فهو الداهية الكبرى.

دخل الجميع لفناء القصر وأمر باختي بتحضير المائدة، ساد الجو شعور جميل استحضر به الجميع الذكريات، وملأت ضحكاتهم المساء، خلدوا للنوم مبكرًا، فبانتظارهم صباحًا جدول مزدحم بالأعمال.

بدأ يومهما التالي منذ الفجر بسباق التجديف على قوارب صغيرة من البردي، حتى فازت فرقة باختي وكايف عند ارتفاع رع في كبد السماء، ومن ثم استبدل الأصدقاء قوارب البردي الصغيرة بقوارب أكبر قليلًا من الخشب. ورث أهل تلك المنطقة خبرتهم وشهرتهم بالإبحار منذ عشرات السنين، عندما كان لحاكم كيس أسطول ضخم مدرب، تمكن من هزيمة واست في الحرب بينهم، وقف الصديقان على متن مركب واحد، وتراهنا فيما بينهما عمن سيمتلك كومة سمك أكبر من صديقه، بينما ركب كايف وعنخ نب مركبًا آخر.

بدأ باختي الحديث قائلًا: "وصلت رسالة من العاصمة، تدعونا إلى حضور احتفال عودة حملة الملك تحتمس منخبررع على الجنوب بسلام".

ابتسم مينا لما قرأه بين السطور: "هذا هو الوقت المناسب".

كان باختي مرتابًا بما يكفي: "لكنني غير مرتاح".

رد مينا: "كفاك قلقًا، تناقشنا في التفاصيل أكثر من مرة، لن تجد الملكة بين المرشحين من هو أجدر منك للزواج".

لم يزل الارتياب عن نغماته: "إن كان هذا حقيقة لأرسلت تلميحًا".

بضجر رد مينا: "كفاك غباءً".

بثقة متناهية أضاف: "يستحيل أن تلمح لك بشيء، حتى لو اختارتك، يجب أن تحارب لتحصل على مكانتك بالقوة".

"قد يكون هناك مرشحون من العاصمة نفسها، يهمس كل الناس وتشير أصابع الاتهام إلى سنموت، وأنا شخصيًا أرى الأمر غريبًا، كيف لفرد من عامة الشعب أن يصل لتلك الدرجة!".

"أنت نموذجي يا باختي، لذلك لا يمكنك فهم حاجة الملكة لسنموت، ولدت في بيت حاكم أحد أعظم وأقوى الأقاليم، ذكيًا وقويًا من صغرك. أنت المثال النموذجي للرجل العظيم. يولد آخرون ضعفاء من بيوت قوية وعظيمة، غير مناسبين لمكانهم.. كالملك الصغير. وعلى العكس هناك من يحقق عظمته بنفسه، لكن في ظروف مختلفة، ويشق طريقه بيديه، وأنا أرى أن الملكة تصرفت بحكمة حين رقت سنموت هذا ليمسك السلطة، صحيح أن أصله وضيع لكنه في المكان المناسب، ويستحيل أن تتزوج الملكة بخادمها، وليست بهذا الغباء لتخسرك مقابل شخص مثله، بالعكس هذا ما يجعلني على يقين أن الفلك في يدك، لأن الملكة تضع كل فرد في مكانه المناسب، دون اعتبارات لأي شيء آخر، ولا أحد مناسب لهذا أكثر منك".

صمت باختي وما زال القلق يفتك بقلبه رغم ما بدا عليه من هدوء، حاول الاستمتاع بصيد السمك، وصاد تسع سمكات حتى آخر اليوم، بينما اصطاد مينا سمكة واحدة، وقال في نهاية اليوم بسخرية: "ليس اليوم يومي، الحظ لك أنت يا صاحبي"، ورد عليه باختي بالصمت القاتل مرة أخرى.

بسفر الشمس لغروبها، كان فناء القصر جاهزًا للاحتفال، فأعدت النيران والشموع وفاحت روائح الخبز والفطائر وشي البط وطهي الضأن، فُتحت براميل الجعة وجرار النبيذ، عاد الأصدقاء من رحلتهم النيلية، وحمل الخدم كل ما حصلت عليه المجموعة من السمك، جهزوه وتبلوه بالبصل والملح وزيت الزيتون وبعض الخضروات، ثم وضعوه في فروع صغيرة من الخشب وبدأوا في شيه. استعدت الفرقة الموسيقية لعزف الموسيقى، بينما راح المغني سنبي يلقي عليهم تعاويذه السحرية بصوته رائع الجمال، مع آخر ضوء أحمر أرسله رع على الأرض قبل موته، جلس الحضور بصفين، واحد للرجال والآخر للنساء، بينما مرت الخادمات، ليضعن قوالب صغيرة من الدهن العطري على رؤوس المدعوين، حتى تقطر على الرؤوس بينما تنصهر بفعل حرارة الصيف، وفاحت روائح العطر بالفناء، فكل رائحة سيئة هي شر لا بد من التخلص منه، ومع حرارة كمت وجفافها وجب على أهلها الاعتناء بنظافتهم وعطورهم ورائحتهم طوال اليوم.

أكل الجميع وشبعوا بين أنغام الموسيقى وعذوبة صوت سنبي، بسرعة أزال الخدم باقي الطعام الذي لم يؤكل حتى نصفه، وهو حظ سعيد للخدم، وأحضروا أطباقًا من التين والرمان والتمور أكلها الحضور مع تجرعهم للجعة والنبيذ، فاسترخت القلوب وتاهت في شعور السعادة بالتدريج، مضيفة حالة من الطرب طافية على سطح الهواء، مع أوتار القيثارة والمزمار والطبول، أول من فقد رشده في ذلك اليوم كان عنخ نب، فسقط من على كرسيه بين ضحكات الجميع وسخريتهم، بينما اعتلت ملامحه ابتسامة صافية غير مكترثة، واستمر القوم يحتفلون حتى ساعة متأخرة من الليل.

في صباح اليوم التالي، ومع صياح الديكة، جهّز الخدم العربات والأحصنة وكلاب الصيد، فالصيد اليوم بري، كان مينا جاهزًا بالفعل بينما لحق به باختي الذي تفقد الجمع بعينيه ثم سأل: "ألن يأتي عنخ نب؟".

"لا طبعًا، ألم تر كيف بدا بعد الحفل، لو انتظرناه يضيع اليوم كله، هيا بنا". بلهجة مرحة أجاب مينا، أشار باختي فصاح الرجال، ركب الرجلان عربتيهما السريعتين، ومن خلفهما صلصلت عجلات عربات المؤن التي تجرها البغال، انطلق الرجال غربًا للصحراء، وقعت كيس بالبر الغربي من النهر بخلاف أغلب المدن، عند ارتفاع منسوب النيل في أثناء الفيضان تتواجد الحيوانات البرية بكثرة بالقرب من المدن، مما يشكل فرصة ذهبية للصيد البري، كما هو الحال في الصيد النهري.

تحركت القافلة لحوالي ساعة، لتبتعد لمسافة مناسبة حتى وصلوا لمكان في عمق الجبل يسمح بإقامة المخيم، تحرك الخدم بسرعة لنصب الخيام وتجهيز الطعام، مكثت المجموعة قرب المخيم حتى انقضاء القيظ، ومن ثم بدأوا في التحرك بعمق الصحراء مع كلابهم، وجُهّزت الفخاخ والشرك، أول ما صادوه كان مجموعة من الطيور، وصل عنخ نب للمخيم عندما لاح بالأفق شعاع الشمس الأخير، اختبأ بعض الرجال دون إشعال أي نيران حتى لا يلفتوا الانتباه، وجلس الجميع بالانتظار، ربط غزال صغير على مقربة حتى يجذب لهم صيدًا ثمينًا، وتبادلوا أدوار المراقبة وهم على استعداد.

لم تشتد الحرارة تمامًا في الشهر الأول من فصل الآخت، خاصة في أثناء الليل، فحملت الريح الهادئة بعض لسعات البرد مثيرة للسعادة، في ركن بين الصخور على مقربة من الغزال جلس كايف وعنخ نب مع باختي بالانتظار، إلى جوارهما رقدت جرة الجعة، صب كايف قدحًا وأعطاه لباختي، فأخذ كايف قدحًا لنفسه وقال: "إنك مثلي الأعلى!".

ابتسم باختي وفرغ قدح جعته في جرعة واحدة وقال: "وأنا أتمنى أن يصبح ابني خيتي مثلك".

أضاف كايف: "يستحيل أن تجد الملكة شخص مناسب للعرش أكثر منك".

تبادل عنخ نب النظرات مع باختي، فلم يسمع الأخير نصيحة عقل مير المدبر بعد، تنفس عنخ نب بعمق ونظر إلى الأفق قائلًا: "تمر كمت الوسطى بمرحلة صعبة جدًا، الوضع خطير، يهدد قطاع الطرق الناس، وجود الأرض دون رقيب أخرج الأمور عن السيطرة، ومع ذلك لم تمر أي اضطرابات للجنوب، بسبب وجود أقوى حاكم بين الأقاليم كلها، هذا الوضع لن يستمر، والخطوة الأولى ليعم السلام هي وجود ملك قوي على العرش، لديه القدرة والسلطة المناسبة، يفرض سيطرته على الاضطرابات، يهدئ الأوضاع ويعيد المنطقة إلى مجدها، وتنطبق الصفات كلها على راجل واحد فقط".

لاح الصمت بعد كلمات عنخ نب، فما أشار إليه بين سطوره خطير جدًا، يعد خيانة في مجلس آخر، يفتك القلق بقلب الرجل، فالرهان شديد الخطورة، المكسب عظيم والخسارة قاتلة.

بدأ ولعه منذ رأى باختي الأميرة لأول مرة، في احتفال عيد الأوبت الذي حضره مع والده بالعاصمة، تخطى حينها عقده الثاني، بينما ناهزت الفراشة الخامسة عشر، لكنها كانت مزهرة تمامًا كامرأة ناضجة، رآها على سريره، تعاني ألم محبب تحت مهارة عزفه على أوتارها، فتئن بأغنية الحب والسعادة بينما يمتطي ثمارها الناضجة ويشبع من عصيرها، يجعلها للمرة الأولى تعرف كيف هي الحياة تحت كنف رجل حقيقي، بين الجموع تبادلا نظرة طويلة لم تبادله إياها أي امرأة أخرى، فلا يمكن لأي امرأة أن تصمد أمام أسهمه، إلاها. وحينها تأكد أن حتشبسوت ترجمت رسائل عينيه محترفتي الصيد، من ذلك الحين زادت المراسلات الرسمية بين كيس والبرعا، وقرأ باختي معانيها من بين السطور.

على غير المتوقع من كل أنصاره، لم يكن حبه للملكة جشعًا للسلطة ولا للنفوذ، فعادة ما يقول باختي: "إن امتلك الرجل نفسه امتلك كل الدنيا". لكنه أراد العيش متكئًا على خصرها الناضج، فلم تتمكن، من ذلك الحين، أي امرأة في إشباع رغبته النارية فيها...

حتشبسوت محبوبة آمون المقدمة على الأميرات!

مر أغلب الليل حتى باتت عودة رع من أرض الرعب الغامض وشيكة، لم يجذب الطعم أي حيوانات مفترسة، وصحب الصباح بعض خيبة الأمل، قال كايف: "سهرنا كل الليل بلا عائد، الأفضل أن نأكل نحن الغزال"، ابتسم باختي ورد: "اصبر، يحتاج الصيد إلى الصبر".

خلال اليوم نام الرجال أغلب الوقت، بينما شرع الخدم في شي بعض البط، استعدت الشمس للرحيل عن السماء، أصيبت بجرح دامٍ نثر قطراته على رداء نوت ربة السماء، استبدل الرجال الغزال بشاة شبع ثغاءه سكون الليل، مر الربع الأول من الليل وأصيب الرجال ببعض الملل، فكان مخزون الضجر لديهم كبيرًا منذ الليلة السابقة، بقي كايف بالكاد متيقظًا.

انتبهت المجموعة لصوت قهقهة عنيفة، تلاه زئير رج الجبال، تنبه الرجال بسرعة وحملوا الحراب والشباك، ثم انقضوا على الفرائس، سمح لهم ضوء أحدب القمر برؤية كافية، ليشمل نظرهم لبؤة صغيرة وضبعين، قامت بينهم معركة بجوار الفريسة، لحظات وأحاطتهم دائرة من الرجال، مع كلاليهم ذوات الأجسام الرشيقة والأقدام الطويلة السريعة. تحفز الجميع فنبحت الكلاب وشهر الرجال السيوف والحراب، وشدوا الشباك. لحظات ودارت المعركة، فانقضت الكلاب بأمر من مربيهم ينبحون حتى ضاقت الدائرة على الوحوش البرية، العملية برمتها شديدة الخطورة، فخطأ واحد ويُفقد أحد الرجال، أو تُفقد الفرائس الوحشية. لكن المجموعة المحترفة عالجت الأمر بحرص ريب خبرة عظيمة ومهارة، انكمشت دائرة الصيادين ببطء وحرص وتحفز، حتى صاح باختي بقوة، فانهالت الرماح والشباك على مركز الدائرة المضطرب، سقطت الضبعة الأكبر برمح اخترق بطنها فأنّت وقضي عليها، بينما وقع الضبع الآخر بالأسر، فراح يضحك ساخرًا من جماعتهم. قاومت اللبؤة بضراوة، فبعد شعورها بالخطر توجهت إليها كل الرماح والشباك وضُبطت الدائرة تمامًا، ضربت اللبؤة الهواء بمخالبها في اضطراب محذرة، تحين كايف لحظة مناسبة استغل فيها الشغال اللبؤة بتهديد الرجال، واستجمع شجاعته كلها وانقض على اللبؤة من الخلف، ممسكًا بطرف الشبكة، معرضًا حياته للخطر الشديد، حاولت اللبؤة التملص

من الشبكة وضرب كايف المتشبث بها، فبدا أنها تتحرر من قبضته.

صاح مينا بينما حاول ضربها برمحه، لكن الليل والحركات العنيفة المفاجأة من اللبؤة وكايف لم يمكناه من تسديد رميته، فأي رمية غير موفقة تعرض الفتى للقتل برمح والده. راقب باختي الأمر بهدوء متحفز، وتحين الفرصة، ثم رمي كل وزنه بقوة على اللبؤة المذعورة وأحاط رقبتها بذراعه، أعطى فعل باختي الإشارة المناسبة للرجال، فتوالت الشباك والحبال إلى أن ربطوها بما يكفي، عند انتهاء المعركة كان في الشباك ضبع صغير ولبؤة، بينما عانى كايف من جروح شديدة بذراعه.

صاح الرجال وأثارهم الجنون، واندفع الحماس مجرى الدم بعروقهم، فرحين بانتصارهم العظيم، لبؤة وضبع في معركة واحدة، سيسمن الضبع في منزل الحاكم ثم يؤكل، بينما تريض اللبؤة وتستأنس، التقط الرجال أنفاسهم ثم همس عنخ نب في أذن باختي: "مبارك، كسبت الملكة"، فقبعت ابتسامة فخورة على ملامح الأخير.

***

اليوم السادس عشر من الشهر الأول فصل الآخت، تزامنت عودة الملك الصغير من حملته على الجنوب مع تحضير واست لأهم أعيادها، بالإضافة إلى أحد أكثر الأحداث غرابة على مر تاريخ كمت كله. فكما هو مقرر، أقبل القائد أحمس بن نخبت لحضور الاحتفال، وكان هو أول من يراه الملك بعد نزوله من سفينته، سجد القائد للملك ثم ألقى عليه نظرة فاحصة سريعة لم يرتح لها الأخير، تحرك كبار موظفي الدولة لتجهيز كل شيء، حرص الوزير الشاب وسر آمون على متابعة عمل المسؤولين، فتولى مراجعة تقارير رئيس القضاة ورئيس ميناء واست ورئيس المدجاي.

توجه الملك فور وصوله إلى معبد إبت سوت كما دعت التقاليد، ليبتهل لآمون رع شكرًا وعرفانًا على رعايته، فيقدم له القرابين ويوقف الأوقاف. وزع الكاهن الأكبر بالمعبد القرابين التي وضعت لتمثال النتر، فأخذ الكهنة وموظفو المعبد نصيبهم مما قرر النتر، وما إن وطئت قدم الملك أرض الفناء الداخلي، إلا وأقبل عليه الجميع لتهنئته بالعودة سالمًا، تقدم نفرو بين كبير كهنة وعب مع أدوات التطهير، تطهر جلالته وتجهز للاحتفال، أغلق الكاهن حابو سنب باب قدس الأقداس، وابتهجت أساريره بعودة الملك ظافرًا، فرد ذراعيه واحتضن الملك الصغير لتسري الطمأنينة بقلبه المضطرب.

قال حابو سنب بغبطة: "نحمد ملك النترو آمون رع على عودة جلالتك بالسلامة، كيف مرت الحملة بقيادتك؟".

"تعلم حضرتك إني لم أقد الحملة"، لاح بعض الإحباط في كلام الملك.

همس الكاهن الأكبر: "تكلم ملك النترو آمون رع معي في خدمة الصباح، أخبرني بعودتك اليوم بعد نجاحك في حملتك الأولى". ثم بصوت أقرب للصياح أضاف: "وعدني آمون رع بأن جلالتك ستقود حملات ناجحة، وتوسع حدود كمت لأكثر مما ورثت عن أجدادك العظماء".

تلت جملة الكاهن الأخيرة الصيحات فرحًا واحتفالًا بالملك المظفر، بينما أجاب الأخير بابتسامة حملت تحت طياتها كآبة، أمر تحتمس منخبر رع بتقديم قرابين من فطائر ودقيق للنتر آمون رع، كان ذلك حينما دخلت الزوجة المقدسة حتشبسوت للمعبد، مرتدية زي الكاهنة الرسمي، واعتمرت تاجًا رشيقًا من الذهب، صيغ على شكل ريشتي نعام مرتفعتين، حملت ذلك التاج على مر الأسرات امرأة واحدة فقط من بين كل نساء كمت، هي زوجة الملك الرئيسية، ولها فقط الحق في توريثه، فتملك الوظيفة الكهنوتية فائقة العظمة والسلطة، كما أنها مصدر للثروة أيضًا. صاحت حتشبسوت بابتهاج: "ابني جلالة الملك منخبر رع، نحمد النتر العظيم آمون رع على رجوعك بالسلامة".

حسنًا، سعد تحتمس لرؤيتها بعد تلك الحملة، بل إنه على غير المتوقع شعر بالشوق حتى لنفرو رع، التي

ظهرت خلف أمها فسارعت إلى تحية الملك، وسجدت برشاقة غزال راقص، بينما تعلو محياها السعيد ابتسامة عذبة، ينقص ذلك المشهد إيست أم الملك، لكن لم يكن ليسمح لها بدخول المعبد، رغم اشتياقه الشديد لها، ارتاح جانب ما بداخله لعدم وجودها، فذلك كفيل بجعل المشهد في غاية الغرابة، بينما تنهال عليه بالقبلات والأحضان والدموع أمام الجميع، لذا فمن الأفضل تأجيل لقائهما فيما بعد، رغم رغبته الشديدة في رؤيتها.

صاح الكاهن حابو سنب في الكهنة الصغار بالحضور، سينال الفتية شرف حمل قارب النتر المقدس في أثناء الاحتفال، ربت رخمي رع على كتف الملك مباركًا، ثم تلاه سنفري ثم تنتيو وأحمس، وكان آخرهم آمون محاب، الذي نكز الملك بخفة في صدره قائلًا: "نحن فخورون أنك الملك، نحمد النترو على سلامتك"، ثم توجه مسرعًا لحابو سنب حتى يتجنب التوبيخ من الرجل المنتظر. تجهزت المجموعة وتدرب الفتية أكثر من مرة، حتى تأكد الكاهن أن الأمر سيمر بسلاسة، دون أي هامش مخاطرة، فلن يكون الاحتفال اليوم عاديًا أبدًا.

تقدم الملك الموكب المقدس مرتديًا تاج الاحتفالات والحروب الأزرق، بينما توشح بجلد الفهد، نظرًا لدوره الديني خلال الاحتفال، توجهت الزوجة الملكية مع ابنتها إلى قاعة الواجيت المقدسة، وانتظرت ريثما يصل الموكب المقدس إليها، تقدم الملك والكاهن الأكبر الموكب وانهمكا في تبخيرهما. بداخل المعبد، كان هناك حضور كثيف لكل رجل له مكانة بالمملكة، فيجب أن يوثق الأمر أكبر عدد من الشهود، فذلك حدث يمر في كمت للمرة الأولى على الإطلاق.

سبح القارب المقدس في نهر بشري مرتل حتى قاعة الواجيت، حيث انتظرت الزوجة الملكية، صمت الجميع فجأة بإشارة من الكاهن الأعظم الذي حلّت عليه روح النتر آمون رع، ما يعني أن النتر سيتحدث للجمع خلال الوحي على لسان الكاهن، فصاح حابو سنب بصوت عظيم: "تاج النمس!".

إنها الجملة الأولى التي ينطق بها النتر في مراسم تنصيب الملك!

أزالت حتشبسوت تاج الزوجة المقدسة، وأعطته لابنتها نفرو رع، بينما غرق الجميع عداها في ذهول تام، ألبسها الكاهن تاج النمس الذهبي الشهير، الذي توازت فيه الخطوط الذهبية بالتبادل مع خطوط زرقاء، ثم توالت التيجان المختلفة التي أعمر حابو سنب رأس الملكة بهم، حتى وصل عددهم لتسعة. كانت تتلى الصلوات والتوصيات من مختلف النترو، الذين حلوا بوحيهم على كبير الكهنة، آمرين بالعدل والعمل الجاد والحكمة وإقامة المنشآت. اختتم الكاهن التيجان بالتاج الأهم، التاج المزدوج العظيم قابض الأرضين؛ الجنوب والشمال، الذي صنعت نسخة خاصة منه للملكة حتشبسوت، فذلك التاج يورث من ملك لآخر، ولا يصنع إلا في حالة فقدان النسخة الحالية أو تدميرها، أما في ذلك الحدث الفريد، سيعتمر التاج المزدوج ملكان معًا للمرة الأولى في التاريخ، فهكذا أصبحت الزوجة المقدسة ملكًا ذا تاج مزدوج!

صاح حابو سنب بلسان النتر مسميًا حتشبسوت الأسماء الملكية الخمسة، وآخرهم اسم ابن الشمس: ماعت كا رع!

صاح الجمع فرحين ملقين عبارات الملق المعتادة، بينما تجنب الملك التقاط نظرات الدهشة والترقب من عيون البعض، والخوف والشفقة بعيون آخرين، أكمل الكاهن الأكبر حديث النتر آمون رع، قائلًا بصوت عظيم ولهجة فرحة:

"عليك أن تقيمي من أجلي المنشآت والمسلات.

وتملأي مساكن الفلال، وتمدي الهياكل بالمؤن.

وتحثي الكهنة على إقامة الشعائر والطقوس.

وتعملي على تنفيذ القانون بفاعلية.

وتضخيم موائد القرابين.

وتوسيع أماكن خزانتي التي تحوي النفائس.

وتنشيط حركة البناء والتشييد، ونحت التماثيل الجديدة وترميم القديمة.

عليك أن تتفوقي في إنجازاتك من أجلي على الملوك السابقين.

هذه أوامري لكِ!".

تدربت الملكة كثيرًا قبل ذلك اليوم لعدة أيام متتالية، وحفظت النص الواجب عليها إلقاؤه أمام الجمع، بصوت أنثوي صاحت الملكة:

"لا أجرؤ على نقض كلامك ولا تدمير قوانينك ولا إبطال تنبؤاتك".

عاد النتر آمون رع ليرد على لسان الكاهن الأكبر:

"يجب عليك تنظيم العمل بالمعبد وفقًا لإرادتي، إن الملك هو بمثابة جسر حجري وعليه مجابهة الفيضان وجمع المياه حيث يراد".

أضافت الملكة مقطعًا ليس من ضمن نصوص الأقدمين قائلةً:

"لم يحدث هذا الأمر قط للملوك السابقين منذ أيام الجيل الأول.

ولا يوجد ما يماثل ذلك في حوليات الأجداد.

ولا بالسير والأخبار الشفهية.

لكن ما حدث لي، كان لأنني مفضلة خالقي.

فعمل من أجلي منذ كنت بالعش!".

هلل الجميع فرحًا بمراسم تتويج حتشبسوت، واستمر الموكب خلف الملكة والملك الصغير يهتف، والكهنة أمامهم يبخرونهم، حتى وصلوا للبرعا. أعد كرسيان للعرش، قبعا داخل القاعة الكبرى، عادة ما كان يحدث ذلك عند اشتراك ملكين بالحكم، أحدهما ابن الآخر، حيث يكون ولي العهد تابعًا للملك الأب، أو ملك وزوجته، لكن للمرة الأولى يحدث أن يكون هناك ملك وملكة حاكمين يرتديان التاج المزدوج.

جلس الملكان على عرشيهما العظيمين الذهبيين، وقفت الأميرة الجميلة نفرو رع بينهما، وزادتها ابتسامتها الساحرة جمالًا بلون بدر، أضاء جوف ليلة صيف حارة رطبتها رياح لطيفة. تقدم المسؤولون كلهم تباعًا لتقديم التهنئة للملكين، مبالغين بملقهم بما يكفي لملكين معًا، فتقدم رئيس الخزانة المعظم سنموت وسجد طويلًا بين يدي الملكين، ثم وقف وقال بأدب جم: "أتمنى لجلالة الملكين العظيمين ملايين السنين من الرخاء والاستقرار، جلالة الملك حتشبسوت ماعت كا رع له دوام الحياة والصحة، وجلالة الملك تحتمس منخبررع له دام الحياة والصحة، لتكتب الربة سشات أسماءكم على شجرة الحياة، ويلقي عليكم تحوت من حكمته، ويهبكم ست قوته، وحور تاجه، وتظلل على جلالتكم سيدة الشمال وادجيت وتحمي جلالتكم سيدة الجنوب نخبت". لم يحول عينيه عن وجه الملكة رغم توجيه التهنئة لكليهما، ثم تقدم الوزير الشاب وسر آمون فقال بعد سجوده: "مبارك للملكين العظيمين جلالة الملك تحتمس منخبر رع له دوام الحياة والسرور، وجلالة الملك حتشبسوت ماعت كا رع لها دوام الحياة والسرور، ستتوسع في عهد جلالتكم حدود المملكة، وتستمر فترة حكمكم لآلاف السنين، تحافظون على آثار الأجداد وتقيمون لأنفسكم بدائع عظيمة، تعيش لملايين السنين". سبب أمر تتويج الملكة في صيغة ملك ذكر ربكة شديدة للجميع، فلم يعلم أحد إن كان عليه أن يحدث الملكة أو عنها بصيغة ذكر أو أنثى.

لم يزل الرجال يباركون ويهنئون الملكين، فبعد الوزير وسر آمون، تقدم حابو سنب الكاهن الأكبر ونحسي وغيرهم، إلى أن وصل دور باختي، الذي دعي بصفة شخصية للعاصمة، ظنها الرجل دعوة لعرض مسألته، لكن

تبين أنها دعوة لغرس سهم بقلبه، اخترق عظام صدره في ألم لم يعاينه من قبل، فتقدم في قوة مصطنعة يحمل كرامته الجريحة، قال باختي والذهول مسيطر على جوارحه: "أتمنى كل الصحة والعمر لملايين السنين للبرعا، وملكيه العظيمين مدى الحياة.." أراد أن يضيف شيئا ما، لكنه لم يستطع فصمت وانصرف بارتباك، ابتسمت الملكة ابتسامة نصر من أعلى عرشها، تمكنت الملكة لتوها من دفن حتشبسوت الزوجة الملكية تمامًا، وصنعت الآن حتشبسوت الملك ماعت كا رع، كتبت اسمها كملك من ضمن ملوك كمت، فعلت ما لم تقم أي ملكة أخرى بفعله قط، فلم تكتفي بأنها صنعت لنفسها تماثيل بشكل ذكوري، بل وجعلت من نفسها ملكًا حقيقيًا، ونشرت أسطورة بنوتها لملك النترو آمون رع، من يمكنه الآن تهديد العرش؟

لقد أذعنت لنصيحة سنموت بالتريث في الرد على باختي، الذي نصحها بطبخه على نار هادئة حتى النضج، وهكذا أشرف بنفسه على كل الرسائل من البرعا للإقليم الرابع عشر، ليصيد باختي في شباكه، حتى إذا ما ظعن بالحربة تخور قواه، فيتقهقر وتطوى صفحته إلى الأبد وهو ما حدث، فإن تلقى الرجل ردا لا يبغيه، فقد يثور ضد العرش، ويرفع مطالبته به، وقد يحالفه الحظ. لم يكن ممكنًا حينها تحديه، ولا موافقة ذلك الرجل في رغباته الجشعة، حتى حانت اللحظة المناسبة، فلن يتمكن أي شخص من تحدي ملك، ولد من ماء سيد النترو آمون رع.

فعل سنموت كل شيء حتى يبعد باختي ذلك عن الملكة، حتى إنه تعاون مع عدوه اللدود، وتحمل إهاناته وسخريته الظاهرة والمستترة، فكر الرجل في الفكرة الجهنمية لتتويج الملكة، فلتصبح ملكًا ذكرًا، وليتوقف للأبد سيل المطالبين بالزواج بها. لقد وضعها باختي في موضع حرج، فكان عليها الاختيار أن تعيش بجزء واحد للأبد، إما الملك، أو الفتاة، لن يتمكن كلاهما من العيش معًا بعد الآن، فإن ضحت هي بالملك من أجل رجل، سيتدخل في الحكم بأي حال، ويلبي الجميع أوامره ورغباته، بل وقد يهدد ذلك مستقبل تحتمس الصغير، أما إن أصبحت ملكًا، سيختفي للأبد الجزء الأنثوي منها، وتقتل بداخلها السيدة التي تئن ليلًا معذبة إياها، راجية الاستلقاء بين ذراعي رجل. وها هي حتشبسوت تختار للأبد أن تعيش باسم الملك ماعت كا رع.

توارى باختي في الظل بعد تتويج حتشبسوت، واختفت جرأته المعتادة من الرسائل الرسمية اللاحقة المقتضبة، رأى في نفسه نموذجا لسخرية الأقدار، كيف يمكن لعلامات الكون كلها الإشارة إليه كالملك المنتظر، ومع ذلك يخذله النترو! كيف لذلك الطفل الصغير والأنثى الساذجة أن يكونا أجدر منه بعرش كمت! ألا تعلم حتشبسوت أنها ضيعت من بين يديها رجلًا سيبذل الأرواح ويقتنص الرؤوس من أجلها، كان ليجعلها على قمة هرم عالمه، لتعرف للمرة الأولى في حياتها ما شعور العيش مع رجل حقيقي، لم ضحت تلك الأنثى بكل ذلك؟ أتتغلب شهوة الحكم على نشوة الحياة معه؟ أم لكثرة المغفلين والمتملقين حولها نست أنها فتاة، وظنت أنها ملك بالفعل، خلقت لتأدية ذلك الدورا

هل يجمع الحلفاء من حوله، ويقيم دعواه لأحقيته بالحكم! أم يجب عليه الانقضاض بجيشه على العاصمة والظفر بتلك الساذجة وعرشها، ومحاولة تنشئة الفتى الصغير ليصبح ملكًا؟ فلن تتمكن أي امرأة من تعويض الولد عن أب رجل قدوة، ويمكنه شغل هذا الدور بسهولة، هم يظنون أن الأمر مجرد سياسات غبية وبروتوكولات تافهة، لا يعلمون كيف هي الإدارة الحقيقية، أن يسيطر الرجل على الجموع بنظرة من عينه. لا بد أن لذلك السنموت موقفًا أكبر من ذلك الذي يشغله بالفعل، كيف لها أن تستبدل رجلًا كباختي بذلك المخنث وصوته شبيه ثغاء الماعز!

عاش لاحقًا بقلب كسير، وفقد أغلب شغفه بقنص النساء، اكتفى بقنص الحيوانات، وعبّر بالغضب عن كل شيء، لم يتمكن أي حدث لاحقًا من إسعاده، إلا الصيد الذي خلق من أجله.

وهكذا تمكن سنموت من تثبيت قدمي الملكة على أحد أخطر أقاليم كمت، وعلى رجل من أخطر رجالها، لن تتمكن حتشبسوت من توثيق ذلك النجاح، فكل ما تكتبه يؤكد على بنوتها لسيد النتر، وأنها لم تُخلق إلا للجلوس على ذلك العرش، لذلك لن تحمل الجدران حقيقة الصعوبات التي واجهتها، بل اكتفت فقط أن تشير أن شيئًا

عظيمًا حدث هنا.

توالت التهاني على البرعا حتى التهى النهار، حل المساء فاجتمع سنموت مع أحمس بن نخبت بانتظار الملكة، فدفع الواجب أحمس لتنبيه الملكة بأمر خطير.

تكلم ابن نخبت أولًا: "الحمد كله للنتر العظيم آمون رع، خطة جلالتك اكتملت، ويمكنك التفرغ لكل الأعمال العظيمة على الأرض المقدسة، والتجهيز لحملة الجنوب، لأن جلالتك الشخص الاستثنائي الوحيد الذي استحق أن يتغير النظام من أجله، سيعرف الناس بعد آلاف السنين كيف أنجبت كمت أعظم امرأة في الكون، سيظل أهلها فخورين بإنجازاتك التي ستملأ الأرض".

أضاف سنموت: "ما حققته جلالتك اليوم يستحيل أن يحلم به أحد، جلالتك غيرت التاريخ للأبد بعلامة قوية، وأثبت نسبك لملك النترو آمون رع".

اعتلت ابتسامة رضا وجه الملكة، رغم الإرهاق الشديد جراء أحداث اليوم، لكن نشوة النصر أغشت روحها، بعد أن أحكمت قبضتها على العرش، أمرت بنحت تماثيلها التالية في شكل ذكوري بالذقن الملكية، وأمرت كذلك بعمل ستة تماثيل بجسد أسد رابض، وأن تزين رأس الملكة الأنثوية بملامحها اللطيفة بذقن مستعار، إنه إنجاز لم ولن يتكرر أبدًا.

الآن، على ثلاثتهم مراجعة كل تفاصيل حملة بونت المدرجة على جدول الأعمال، يجب التحضير جيدًا لتلك الحملة الضخمة، لذا عمل سنموت على جمع كل ما يمكن أن تقع عليه عيناه من مصادر عن تلك البلاد البعيدة أو خط سير الحملات السابقة لها..

***

بحديقة البرعا في يوم التتويج سار تحتمس بغضب وانفعال، وأمر جميع الخدم بمغادرة الحديقة، ابتعد حلم الملكية أكثر فأكثر، صرخ تحتمس في خياله: "لا يمكنك فعل هذا، إنه تاجي أنا، وأنتِ مجرد وصية عليه". اعترضت حتشبسوت، فنزع التاج عنها وأمر بحبسها في مسكنها، وصاح: "أنا الملك، أنا الملك، أنا الملك".

"كلنا نعلم أنك الملك"، قالت مريت رع، فانتبه تحتمس بدهشة، لم يعلم أن قرينه الغاضب صاح حتى خرج الكلام من فمه، ظن أنه غير ملاحظ، إلا أن مريت رع كشفته.

سألت: "هل تضايقت لأن أمي أصبحت الملكة".

"لا"، أجابها.

"أنت تكذب، أنا أيضا تضايقت، فهذا هو مكانك أنت، رغم أني لا أود أن تصبح ملكًا فتصير مثلهم".

فكر تحتمس كيف أن كل شيء يتحرك إلى جواره ولا يحدث أي شيء مباشر معه، فقد ثُوجت حتشبسوت ولم يتكلم معه أي شخص، لم يُنتزع منه التاج، ولم تقل له حتشبسوت حتى أن هذا مكانها هي، كأنه غارق في بركة راكدة، تنمو بها الطحالب حتى تخنقه، ولا تدع له مجالًا للحركة.

عاد من حملته محبطًا، حيث كان كصنم لا يتحرك، عامله الجميع باحترام مصطنع، لكنه علم أن هذا ليس مكانه، فكيف يمكنه لاحقًا قيادة ذلك الجيش الذي لا يشعر بوجوده؟

"ألا تود أن ترى بذور الريحان التي زرعتها؟ لقد نمت قليلًا"، قالتها وأشارت بيدها إلى مكان النبات، لم ينظر حيث أشارت، يشغله العرش والحكم والسياسة والجيش والمعارك، ويشغلها فقط الزرع والطين، والطيور، والقطط، والكلاب.

"أنا ذاهب"، قالها واتجه إلى غرفته كئيبًا محبطًا، كأن جبلًا كاملًا يرقد على قلبه.

في اليوم التالي طاف تحتمس بالمعبد، بعد انتهاء دروسه اليومية فناداه الكاهن، قال الأخير: "لم نجتمع

منذ عودتك من الحملة".

فأجابه الملك الصغير بإحباط واضح: "أردت الحديث مع جنابك، لكن لم تأتِ الفرصة". اصطحب حابو سنب تحتمس للمقصورة البيضاء التي أقامها الملك سنوسرت الأول، وفي ظلها جلسا. عندما شُيدت المقصورة كانت خارج بناء المعبد الرئيسي في عصر المملكة الوسطى، أما الآن فتقع داخل مبنى المعبد الذي تضاعف حجمه.

قال الكاهن: "جلالتك حاليًا حاكم حقيقي، وخرجت على رأس حملة حربية".

"حتشبسوت هي الملك الآن، أخبرتني أن هناك مفاجأة عند العودة من الحملة، كيف يسعدني تتويج حتشبسوت كملك؟ هذا هو مكاني أنا. كما أني لا أنسب لنفسي ما لم أفعل، كان كل دوري في الحملة هو التنزه، أمر بين الجنود والقادة، لقد أظهروا احترامهم أمامي، لكنهم سخروا عندما ابتعدت، وقفت قبل أن تبدأ المعركة على العجلة الحربية بجوار نحسي، رأيت الفرق بيني وبينه، لا أرغب في أن أكون صورة، أريد أن أصبح ملكًا حقيقيًا، لو اختارني النتر آمون رع لأجلس على العرش، فيجب أن أستحقه".

"يجب أن تعرف أن المؤامرات دائمًا ما تهدد العرش، لذلك فتتويج الملكة يضمن لك أعوامًا من الاستقرار، وطالما تخاف المسؤولية ستنجح، لكن إياك أن يزيد خوفك عن اللازم، خسر ملوك كثيرون لأنهم لم يخافوا كما يجب، وثقوا بأنفسهم حتى لم يعودوا يسمعون إلا المديح، إذا تذكرت دائمًا خوفك ستنجح، بشرط ألا يسيطر عليك، ويجب أن تفهم كل ما يحدث من حولك وتتمكن من تفسيره".

"أخبرني سنموت أن النترو يرسلون رسائلهم للناس كلهم، لكن لا يستطيع الجميع قراءتهم، وأنا أرغب في قراءة رسائل النترو".

"صحيح أن النترو يرسلون الرسائل إلى البشر، لكن إن اهتممت فقط بقراءة رسائل النترو، ستعيش في عالم وهمي وتنعزل عن البشر، ربما يكون هذا مناسبًا لكاهن، لكنك الملك، يجب عليك قراءة رسائل البشر".

"وما رسائل البشر؟".

"الناس دائمًا خائفون أو محتاجون، يجب أن تعرف مما يخاف كل إنسان، أو ماذا يريد دون أن يتكلم..قل لي ما أهم خمسة مكونات للإنسان؟".

"الاسم رن، الجسد خت، الروح با، القرين كا، القلب إيب".

"وما الكا؟".

"الكا هو طاقة كل إنسان وهالة تحيط به، لا يراها أحد، وسيط بين الجسد والروح، يوصل بينهم بعد الموت".

"صحيح، يتواصل الكا مع القلب أفضل من الجسد، الكا خائن يفضح أسرار صاحبه، قلما يحاول الناس إخفاءه، لو تعلمت قراءة رسائل البشر، ستحكمهم وستتمكن من السيطرة على عالمهم، تنظر إليهم من أعلى كأنك صقر. الآن، حاول قراءة رسالة كا أي شخص في المعبد".

لم يكن مستعدًا لذلك الاختبار، ومع ذلك قرر خوض التجربة، لكن كيف له معرفة حاجة كل شخص دون بوح؟

ترددت نظراته بين الجميع محاولًا إيجاد رسالة ما، لكن لا شيء، لعدة دقائق من الصمت حاول، لكنه لم يفلح فأعلن هزيمته أخيرًا: "لم أتمكن".

صمت الكاهن للحظات ثم قال: "ماذا يريد أحمس برأيك؟" نظر الملك الصغير إلى رفيقه المرتل، بينما وجه حابو سنب نظره إلى الأفق وانتظر، لعدة ثوان حملق تحتمس محاولًا قراءة الرسالة المزعومة: "يريد إخبارك بشيء؟".

"جميل! استدعه". قالها حابو سنب فرحًا بالانتصار الصغير، نادى تحتمس لرفيقه، فهمس له حابو سنب: "يرغب أحمس في قراءة تراتيل الصباح غدًا".

نظر تحتمس بتركيز ولم ينبس ببنت شفة، أقبل أحمس إليهما، فأمره الكاهن الأكبر: "تعال إلى جواري". نفذ أحمس الأمر فوضع حابو سنب يده على كتف الفتى: "إلام وصلت في التراتيل؟".

أجاب أحمس بحماس: "أنهيتها، حفظت كل التراتيل ومستعد أن أرتل أي ترتيلة لجنابك، وعندي طلب!"، ابتسم تحتمس عندما سمع الجملة الأخيرة، فقد كان الكاهن محقًا، أكمل أحمس: "أتوافق جنابك على تلاوتي لحن الصباح غدًا". أجابه الكاهن بالإيجاب وأمره بالانصراف، فذهب والسعادة والفخر يغمرانه، قال تحتمس فوزًا: "فهمت".

أجابه الكاهن آمرًا: "من هذا النهار إلى آخر الشهر، مهمتك مراقبة الكاوات ومعرفة أسرارهم، وكشف ما بقلوبهم، وآخر الشهر تحكي لي عن كل ما عرفته". ابتسم تحتمس بسعادة، فتلك الهبة تفتح أبوابًا جديدة من المعرفة. أبدى الفتى اهتمامًا عظيمًا بتدريب الكاهن الأعظم، لذا زادته فترة التدريب صمتًا، وأنهك عقله في محاولات التنبؤ وقراءة رسائل الكاو. خلال عدة أيام قرأ ميل بومرع لحابو سنب رغم عمله مع سنموت، وأن سنموت نفسه يعلم ذلك، علم تحتمس أن مونتمس يكره قائده لشعور القائد بالغيرة بسبب قربه من الملك. وامتد الأمر لكل من حوله، فكان عليه فقط أن يصمت ويتعلم. فتح تحتمس عينيه بمساعدة الكاهن، وعلم أن لحتشبسوت كا شديد القوة، وعلم أن نفرو رع لم ترث موهبة أمها، ولا مريت رع بالطبع.

أثار انتباهه أيضا ملاحظة الجميع في أثناء تناولهم الطعام فهذا يكشف الكثير، لا يتعلق الأمر فقط بالطبقة الاجتماعية -رغم أهميتها- فيأكل البعض بهدوء وتعفف كما قال الحكيم كاجمني: "إذا جالست قومًا على مائدة، فتعفف عن الطعام ولو كنت تشتهيه، فإنها برهة قصيرة تقهر الرغبة فيه". وهناك من يأكل بشراهة كأنه يرى الطعام للمرة الأولى أو الأخيرة بحياته، مما يعطي انطباعًا مناسبًا عن القرائن.

بنهاية الشهر قدم تحتمس تقريرًا مميزًا لكبير الكهنة، أتقن اللعبة، إلا أن قراءة الكاو أثارت فضوله لتقديم أسئلة أكثر من تلك التي أجابوها، فما هو الدافع خلف كل تلك المشاعر والرغبات. أفعمه الشعور بالسيطرة جراء كشف رسائل كاوات البشر، تغيرت نظرة الملك الصغير لكل ما حوله كأن له عينًا ثالثة فتحت للمرة الأولى، أو كأنه امتلك حاسة جديدة، حلقت روحه بين عالم البشر والنترو، يفتش بين التفاصيل ويخترق ذكاؤه غموضها، حتى إنه بدأ يعيد التفكير بالكثير مما مر به، ليكتشف حقائق بغاية الوضوح لم يفهم رسائلها في حينها.

أشاد الكاهن بأدائه مؤكدًا أن مستقبلًا عظيمًا بانتظاره، فالفراسة أهم صفات القائد، غمرت تحتمس سعادة بعد اقترابه أكثر من الوقت المناسب! شعر بنمو شخص آخر بأعماقه يمكنه الرؤية من منظور أعلى، من خلف الجدران، أو فيما بعد الأفق، إنها موهبة عظيمة أن يرتقي الفكر حتى يدرك خبايا البشر. إلا أن حلم الحكم ابتعد أكثر فأكثر بعد تتويج حتشبسوت، يرى تحتمس كل يوم حلمه ويسعى إليه، لكنه كورقة بردي في مهب العاصفة، ما إن يقترب منها ويكاد يلتقطها، إلا ويسحبها الريح بعيدًا ليبدأ الركض من جديد. وها هي حتشبسوت تعقد الأمور أكثر، لا يعجبه ما يحدث، لكنه ككاهن مهذب جدًا لا يفقد رباطة جأشه على الجميع، فلا يجدر به أن يصرخ كطفل وينهاهم عن فعلهم، رغم أنه فعل ذلك آلاف المرات بخياله.

إزاء عودة تحتمس للبرعا تطلع لطلب آخر من متطلبات القيادة، فسأل حارسه: "كيف أصبحت قويًا هكذا ونمت لك كل تلك العضلات؟"، لاحظ الملك الصغير كفيره منذ اليوم الأول عضلات الحارس القوية، وتمنى امتلاك فقط نصف ما لديه.

أجابه الأخير: "رأيت في صغري كيف نظر الجميع إلى أبي بحسد، لأنه جندي قوي، تمنيت أن أصبح مثله، وهو لم يكذب خبزًا، علمني كل التدريبات والتحطيب ومبارزة السيوف ورمي السهم والرمح، صنع لي رمحًا صغيرًا، فرحت به جدًا، لوحت به لساعات، وضعته إلى جواري في أثناء النوم، إلى أن أصبح قطعة من جسدي.

مارست التمارين كل يوم، حتى تخطيت أبي في المدة وعدد المرات، شجعني على الالتحاق بالجيش، انضممت وترقيت ووصلت لأعلى مكانة، وصرت مع جلالتك".

تحمس الفتى لفكرة التدريبات وأغرته التجربة فأمر حارسه بتعليمه بعض التدريبات، على الفور نزل مونتمس بيديه على الأرض وعد بضع مرات لتمرين الضغط، ونصح الملك الصغير بممارسته كثيرًا، نظر تحتمس إلى ذراعي الحارس وكتفيه القويتين، وقارن بينهما وبين ما لديه، فشعر بخيبة كبيرة، فذراعاه تشبهان عود جاف من القصب مكسو بالجلد لا تفصل بينهما أية عضلات، لكنه صمم على البدء.

عاد إلى غرفته سريعًا وامتلكه الحماس، تذكر كيف أراه الحارس طريقة أداء التدريب. نزل الملك الصغير للأرض ووضع يديه النحيفتين بمستوى كتفه مثلما نصحه مونتمس وضغط للأسفل، حاول النهوض للأعلى وفرد ذراعيه مرة أخرى للحظات، لكنه لم يتمكن من رفع جسمه فوقع بوجهه على الأرض، حاول الفتى مرة أخرى لكنه فشل أيضًا، تملكته الخيبة الشديدة، إن لم يقدر على تنفيذ التدريب مرة واحدة كيف له أن يؤدي خمسين مرة كما نصحه مونتمس، هذا الأمر مستحيل.

حاول تحتمس بعد ذلك عدة مرات لكن انتهت جميعها بالفشل ولم يبد عليه أي تحسن، ضاق صدره بكآبة، فلا يكفي للملك في هذا العصر أن يكون حكيمًا، بل ينبغي أيضا أن يكون قويًا، طرأ على باله فكرة أن نفرو رع أقوى منه جسديًا، فازداد ضيقه ولم يعلم ماذا يفعل، قريبا سيكون عليه الخروج للحرب، فأي مصير ينتظره.

عند عودته من الحملة العسكرية ظافرًا، ولدى رؤيته للقائد أحمس بن لخبت قرأ استهانة الأخير بجسده الهزيل، فلاحظ كيف نظر إلى عضلاته غير الموجودة نظرة لم ترقه، بالإضافة لإثارة أحمس ذاك لرعبه دائمًا، فقسماته الحادة ونظرته الشرسة كانت كفيلة بإلقاء الرعب على جيش كامل. شعر الملك بالخوف منه، لكن لا يحبذ الناس الملك الجبان، هكذا قال تحتمس لنفسه وقرر أنه سيعرف الطريقة، ويلتزم بها تمامًا حتى يحقق المراد، لن يكتف بكونه ملكًا حكيمًا، بل يجب أن يصبح قويًا أيضًا.

خرج تحتمس لحديقة البرعا محملًا بالإحباط، ليجد مريت رع كالعادة ملوثة ثيابها بالطين، تلعب بالزروع مع تيتي، رأته فنادت: "تحتمس، تعال ساعدني".

أقبل إليها ببطء، صامت متجهم الملامح، سألته: "ما يحزنك".

"أني لست الملك".

"أنا أيضًا لست الملك، ولكني غير حزينة".

ضحك تحتمس رغمًا عنه، وسألها: "ماذا تفعلين؟".

أجابت: "أزرع الريحان".

"لا تنسي الاغتسال بعد انتهاءك".

"لا تتحدث مثلهم"، هذا هو ما جمعهم بالأساس، وقوعهم تحت نفس الضغط من الأسرة الملكية، قال: "تعلمين أني أحبك، لذلك أريدك دائمًا مهتمة بنظافتك".

"وأنا أحبك"، قالتها وحضنته بيديها الملوثتين، لذلك قام بعدها فورًا للاغتسال وتغيير ملابسه.

***

احتدت المناقشة بين سنموت والملكة والقائد بإحدى غرف البرعا وساد الضيق المكان، صرح أحمس: "مشكلة المصادر عن أي رحلة سابقة لبلاد بونت، أن بها مبالغة شديدة أو غموض شديد". فقد اطلع أحمس في وقت سابق على مصادر سنموت عن كل ما يخص بلاد بونت.

أضاف سنموت: "تقول المصادر كلها أن الحملة تتحرك للشرق في الوادي الضيق الموصل للمياه المالحة،

وهناك تتحرك السفن للجنوب، لكنها رحلة صعبة جدًا وبها مخاطرة كبيرة، والإمدادات لذلك العدد ليست قليلة، وهو ما يجعل الرحلة أصعب".

تابعت حتشبسوت حوارهما بصمت، بينما يضجرها القلق، فحلم تلك الحملة يوشك أن يتبدد، لا يمكنها إرسال بعثة ضخمة لتفقد في البحر، ولكنها حلمت بذلك الأمر منذ طفولتها عندما سمعت عن حكايات قبائل كرما الجنوبية، التي مارست التجارة بين كمت وبلاد بونت، فجلبوا النفائس والعجائب والمواد القيمة والبخور والعطور ومختلف الحيوانات الغريبة، لكن سبل التجارة تلك انقطعت بعد تمرد أهل كرما، فقام أبوها الراحل بحملته القوية للجنوب وخلال سبعة أشهر انتهت كرما تمامًا، أباد جلالته أهلها وكل ما يخصهم، ومنذ ذلك الوقت توقف سيل البضائع البونتية، ودائما ما أرادت حتشبسوت إعادة ربط الطريق الذي قطعه والدها، وخلق سبل للتجارة المباشرة، لكن كيف؟

صرحت حتشبسوت: "يجب أن تكون حملة ضخمة، لا تقل عن أربعة سفن كبار بكل حمولتهم، لكن لإرسال قافلة وبناء تلك السفن في الميناء على البحر، فسيستغرق الأمر شهورًا".

أجاب سنموت: "إذا شرعنا ببناء سفن جديدة عند الميناء، يمكننا نقل كمية كبيرة من إجمالي الإمدادات والرجال والحيوانات والأخشاب اللازمة، ثم نرسل حملة أخرى من الجنود وباقي الرجال المشاركين في الحملة للتحرك للجنوب".

استغرق القائد في التفكير بينما تقدم سنموت باقتراحه، سألت الملكة التي وجهت تفكيرها بناحية أخرى: "لدى رجال الأسطول خبرة كبيرة في خوض النهر إلى الجندل الرابع، أيمكن إرسال الحملة للجنوب من خلال النهر، فترسو السفن على ضفته، ثم تتحرك بعدها القافلة على الأرض إلى بونت؟" أجاب أحمس: "من الصعب تحرك القافلة التجارية على الأرض، لأنهم بعكس الحال بالمعارك، يلزمهم عربات وحيوانات بعدد ضخم للتحرك، لن يتمكنوا من حمل كل منتجاتنا ومن ثم العودة بمنتجات بونت". صمت القائد قليلًا ثم أضاف: "لم لا تتم الرحلة كلها من خلال النهر؟".

أجابه سنموت: "إذا نفذت الحملة بنفس خط السير المعتاد ستهددها أخطار مهولة، لكن إن اخترنا طريقًا جديدًا ستكون المهمة انتحارية".

بعناد أجاب القائد: "أنساك وجودك في البلاط قدرة الأسطول يا سنموت، لقد تمكن قائد الأسطول المبرر أحمس بن ابانا من تنفيذ مناورات في قمة الخطورة، ومر من كل جنادل النهر دون أي خسائر، شهدت ذلك بنفسي".

أحمس بن ابانا هو أفضل قادة الأسطول بكمت خلال كل تاريخها، لكن هناك مشكلة؛ أنه توفي منذ بضعة أعوام! أشارت الملكة إلى وفاة قائد الأسطول السابق، وأشارت كذلك إلى أن محاولة مرور الطريق بأكمله من خلال النهر ستكون مجازفة غير محسوبة، لكن أحمس بن نخبت وعد الملكة بتقصي أمر الأسطول بنفسه، والإفادة بتقرير عن إمكانية تنفيذ الرحلة من خلال النهر، اعترض سنموت بشدة على كلام القائد فقال: "تمر الحملات الجنوبية بجنادل شديدة الخطورة، ضخمة الأحجار، عصية المنحنيات، شديدة التيار، قد يكبدنا خطأ واحد خسارة الأسطول كله، حتى بعهد صادق الصوت تحتمس الأول وقفت السفن في آخر مكان مناسب، ثم تحرك الجنود في العمق على الأرض لئلا نجازف بتدمير الأسطول، للسفن الحربية قوام رشيق مناسب للمناورات، لكن السفن التجارية غير ذلك تمامًا".

لكن صاحت الملكة محدثة سنموت: "جهز تقارير الإمدادات والتموين لحملة من خمسة سفن، وجهز تقارير المرور من خلال النهر، إلى أن يتأكد جناب القائد من إمكانية التنفيذ". أطاع سنموت أمر الملكة، فسجد الرجلين وخرج القائد من الغرفة وأسدل الظلام ستائره وأشعل الخدم النيران بالفناء. لا تتوقف أحلامها الخرافية، أبدًا، بناء معبد جنائزي لنفسها، تتوج به حتشبسوت كملك، وتحكي به أسطورة ولادتها من ماء آمون

رع، والآن تشغل فكرة الحملة الجنوبية النيران بعقلها.

هل ستتمكن من تنفيذها؟

ترى ماذا يوجد بتلك البلاد من حيوانات غريبة؟

هل يمكن لرجال الحملة إحضار الحيوانات نفسها وهي ما زالت على قيد الحياة، وليس فقط جلودها؟

هل ستتمكن من زرع الأشجار العطرية بجذورها في المعبد، حتى لا تتوقف خدمتها ك "لترت" بعد موتها؟

آه يا حتشبسوت، متى تتوقف أحلامك وأمانيك، التي أعيت عقلك في التفكير، وموظفيك في التدبير، ألن يهدأ لحتشبسوت بال أبدًا؟

هل ترضيها تلك الحملة، أم سيضطرها عقلها إلى خوض تجربة جديدة مجنونة تمامًا وغير مسبوقة على الإطلاق؟

تضجرها كل تلك الأسئلة ولا تعلم لها إجابة، لكنها وقد دفنت حتشبسوت الزوجة الملكية في التابوت المعد لها، أمرت حتشبسوت بعمل تابوت جديد من حجر الكوارتز الأحمر الملكي بامتياز، على شكل تميمة شنو، يحمل اسم حتشبسوت الملك ماعت كا رع، وليس حتشبسوت الزوجة الملكية، وكأنها بالتابوت القديم دفنت حياة قديمة لتولد من جديد، كملك متوج على الأرضين.

***

مر أحمس بن نخبت بعد لقائه مع الملكة من ممر ضيق، ينتهي بفناء البرعا، امتدت يد صغيرة من الظلام، ومسكت رسغ القائد مع صوت نحيف قال بجدية "حضرة القائد".

التفت القائد أحمس وهو على وشك دق عنق ذلك الخادم الأحمق، إلا أنه تبين وجه الملك الصغير خلال الظلام "آه! مولاي!" بدهشة تساءل القائد، وغلبت دهشته غضبه، فقال الملك بجدية: "أحتاج إلى التحدث مع حضرتك". بريبة أجاب القائد: "تحت أمر جلالتك". بالفناء وقف القائد باحترام أكثر مما يليق بذلك الملك الصغير، تكلم الأخير بضيق: "باختصار، أعلم أني ضعيف، أرغب في التغيير، وأحتاج إلى نصيحتك، خصوصًا أن الملكة ترفض سفري لمننفر لأصبح قائدًا".

هذا الفتى ضعيف، لكنه ليس بساذج، كما أنه مهذب جدًا على ما يبدو. "أرجو جلالتك أن تحكي لي عن الحملة التي قدتها للجنوب". شعر تحتمس بالضيق من سخرية القائد: "من فضلك لا تقل جلالتك! فلا أحب تلك الكلمة!"

ربما لم يعجب أحمس تواضع الملك ذلك: "القائد المتواضع محبوب، قد يضحى جنوده بحياتهم من أجله، لكن لا يمكن أن يكون القائد المتواضع ضعيفًا، دعنا نتفق ألا تكون متواضعًا إلا بعدما تملك قدرًا مناسبًا من القوة، يسمح لك بذلك، احكِ لي عن الحملة". عاد تحتمس بالذاكرة، وقال بهدوء: "منذ اليوم الأول اتضح سير الحملة، أعطى نحسي الأوامر طوال الوقت، تعامل معي باحترام، لكنني فهمت أنه غير مقتنع بوجودي، أعد كل الخطط والمعارك بخيمتي، طلب مني الإذن، لكني لم أفهم شيئًا، وافقت مضطرًا. رغم بعدي عن البرعا، ومعيشتي في خيمة، لكن توفر بها كل شيء تقريبًا، رغم سوء مستوى النظافة بشكل عام. لاحظت سخط الجنود، عبروا دائمًا عن عدم كفاية الطعام، طلبت من نحسي التواجد قبل المعارك الخطرة والقتال، لكنه خصص مجموعة كاملة من الجنود لحراستي، في أبعد مكان ممكن لمتابعة المعركة".

"هذا طبيعي لصغر سنك، ونحسي موظف كبير، وكان مسؤولًا عن سلامتك خلال الحملة، لكن في الوقت المناسب ستقود الحملات بنفسك، وتصبح قائدًا ومحاربًا قويًا."

"أتظن أني سأصبح قائدًا قويًا؟".

"طبقًا، أتظن كل هؤلاء الجنود الأقوياء ولدوا هكذا؟".

"لكني لم أقدر حتى على أداء التدريبات الأساسية".

"تملك قوة كبيرة في قلبك، وأنت شجاع ومتواضع، إذا استمريت كذلك ستصبح قائدًا عظيمًا، احكِ لي عن أصحابك".

أثارت جملة القائد الأخيرة دهشة الملك الصغير، لم يريد القائد أن يحدثه عن أصدقائه؟ لكنه حكى عنهم في عجل، فقال القائد: "إذا قدت حملة عسكرية ضخمة، من منهم سيشاركك، ولم؟"، بغير تفكير قال الملك: "آمون محاب بالتأكيد؛ لأنه قوي وشجاع، سننفري أيضًا، شجاع ويمكنه مواجهة أي شخص دون خوف، حتى لو كان أقوى منه، وتنتيو كذلك، لكنه سيحتاج إلى تدريب كثير".

"حسنًا، ورخمي رع؟ ألم تقل إنه صاحبك المفضل؟".

"رخمي رع أكثر من أحب، لكنه غير مناسب في الجيش، سيكون مناسبًا أكثر في الحكومة".

ابتسم أحمس ابتسامة ذات مغزى، لمحها الملك فشمله بعض الرضا، يبدو أن كا القائد خانه وقرأ تحتمس رسالته، تحمس الرجل لدعم الملك! سجد القائد وقال بنبرة أعلى منبئًا بنهاية حديثهما: "سعدت بالكلام مع جلالتك، لك دوام الصحة والسعادة، دعني أرى ما يمكنني فعله". رد الملك الصغير بإيماءة من رأسه، لكن رد القائد الغامض لم يزده إلا قلقًا، فلم يعرف تحتمس ما يدور برأس أحمس العجوز، لكنه تفاءل على كل حال بحوارهما، فاختلفت نظرة كل منهما للآخر بنهاية ذلك الحديث.

انصرف القائد حاملًا مهمتين؛ واحدة للملكة وأخرى للملك، يعرف الرجل ما يجب عليه فعله، لكن يجب إنجاز مهمة الملكة أولًا وحينها يتطرق لمهمة الملك، غمر حوار القائد مع ملكه الصغير قلب الأول بالامتنان، فمنذ شاهد عودته من الحملة بدأت القوارض تحفر بقلبه جحرًا غائرًا، أثار ذلك الملك الهزيل خوفه من المستقبل، فكيف لذلك الصبي الصمود عندما يحين موعد الملكة، ربما اختلف الأمر في العصور الغابرة، ولم ينبغ حتمًا على الملك أن يكون قائدًا عسكريًا، عندما عزلت حدود كمت الطبيعية محيطها عن العالم، واعتبر الجنوب حديقة خاصة بالمملكة العظمى، أما الآن فتغيرت الظروف تمامًا، مع نمو العديد من الممالك والجيوش التي لم يتردد صداها سابقًا، بات لازمًا أن يكون للملك خبرة عسكرية وشخصية قوية، فلن تكفيه الحكمة التي يتعلمها في أروقة المعابد ليحافظ على عرش الأجداد.

لكن الأمر واضح، هذا الفتى الضئيل يعرف عيبه ويريد التغيير، فقط يجب إرساله إلى الشمال. أما عن نتيجة إرساله فهي مبهمة بالطبع، وحدها الأيام ستثبت أي ملك وُلِدَ هذا الفتى ليكونه، فالتصميم بعينيه لا يكفي للصمود أمام الضغط الهائل المنتظر بالمدرسة العسكرية، قد يفقد الفتى تصميمه ذلك بمرور الأيام ويمل الشقاء، ويعود إلى عاصمته مؤثرًا للسلام والفلسفة والصلوات بين جدران المعبد، أو لا تزيده المعاناة إلا تصميمًا على تصميمه، فالظروف القاهرة تلد أشد الرجال، تذكر القائد كيف كان ولي عهد تحتمس الأول الأمير آمون مس بغاية الشجاعة، وكأنه ولد بقلب أسد في جسد إنسان، زار آمون مس حتشبسوت كثيرًا في أثناء وجودهما في مدينة نخن بلدة القائد، تصرف الفتى دائمًا كناضج جاد مسؤول دائم الثقة بنفسه، جال بخاطر القائد فكرة، إن لم يتوفَ آمون مس صغيرًا، وقدر له الزواج بحتشبسوت، لأنجبا ذكرًا قويًا، ولتمكن الفتى الراحل من تنشئة الطفل تنشئة قوية صارمة، تؤهله ليصبح ملكًا عظيمًا، لكنها عادة الأقدار السخرية من البشر. صحيح أن رأي القائد تغير كثيرًا فيما يخص الملك الصغير، فكل ما ظنه أحمس من قبل أن تحتمس منخبر رع فتى مدللًا، زوّضه الكهنة وصبوا استكانتهم في أذنيه حتى ملأ الضعف والتخاذل روحه، ليس السلام البادي على وجه الملك بمشكلة، لكن إن كان السلام هو كل ما يمكن أن يوصف به الملك، فقد انتهى مجد كمت، وضاعت مملكة المحرر العظيم أحمس الأول.

لكن الفتى ليس غبيًا، صحيح أنه متواضع ومهذب أكثر مما يجب، لكن ذلك أمره سهل، يكفي مبدئيًا أن لديه

الحكمة ليعلم أنه ضعيف، ولديه الرغبة في الحصول على القوة، سيتغير واقعه بعد انتقاله من حياة المنافسة على حفظ تراتيل المعبد ومعرفة النصوص المقدسة، للمنافسة على قرع السيوف والحراب.

يعلم القائد أن القدر لن يمهله حتى يرى الملك الصغير قائدًا عسكريًا، فبلغ الرجل من العمر عتيه -رغم ما يتمتع به من قوة وصلادة- وفقد أغلب أقرانه، لكنه شعر بالسعادة لوضع مؤخرة جلالته الصغيرة على تراب المدرسة العسكرية بالشمال، بدلًا من مقاعد البرعا الوثيرة، وأرض المعبد المسالمة. سيستمر إرث العظماء من ملوك واست لأجيال مديدة، في حالة أبقى النتر آمون على حياة الملك الصغير، ليعود من الشمال جاهزًا للحكم والحرب، لكن إن سخر النترو من كمت مرة أخرى بالتضحية بالملك الصغير، فلن يكون هناك بديل، عادة ما يسخر النترو من أقدار البشر فقط ليتمتعوا بمعاناتهم، فإما أن ينتج من رحم المعاناة أبطالًا وقادة وعظماء، أو ينتج عن ذلك مسوخ كرد أسود على سخرية النترو اللاذعة، لكن هذا الأمر أبعد من أن يشغل بال القائد، كل ما عليه أن يضع الملك على الطريق الصحيح، ويدع ما يخص النترو للنترو.

***

بأحد الأيام، بعد خروج الملك الصغير من المعبد، وقف الحارس والسيدة إيست بالانتظار، حمل مونتمس كالعادة سبت به بعض الطعام، الذي يرفضه تحتمس كل مرة، لكن هذا لم يمنع والدته من تكرار الأمر يوميًا، عدة دقائق فقط تفصلهم عن البرعا، سأل تحتمس الحارس: "كم تظن أن علي التدريب حتى أصل لمستواك يا مونتمس؟".

أجابه: "هذا يختلف من شخص لآخر جلالتك، فقط يجب عليك التدرب كل يوم، وقد تصل لهذا المستوى خلال شهرين".

التقط كذبته بسهولة، يكذب الحارس حتى لا يحبط الملك الصغير، فعلم فورًا أن عليه التدريب أكثر من ذلك، أو ربما أنه لن يصل أبدًا لذلك الشكل. قبل البرعا ببضع مئات من الأمتار، أمر الحارس حدسه بالنظر إلى الخلف، ما إن فعل إلا ووجد شخصًا ملثمًا يركض إليهما، رفع الحارس سيفه بسرعة، إلا أن الملثم انقض على الحارس وطرحه أرضًا بسرعة، التفت الملثم للملك الصغير، إلا أنه تعثر قبل أن يصل للملك؛ لأن مونتمس أمسك قدمه كفكي تمساح، فسقط أرضًا، اندفع مونتمس بشراسة ناحيته، وهجم عليه.

صاحت إيست بشدة واحتضنت ولدها، لاحظها حراس البرعا، فاندفعت مجموعة من الحرس ناحيتهم، وجذبوا الرجل من بين يدي الحارس، الذي انهال عليه باللكمات حتى محيت ملامحه، واختفت تحت الدم السائل من كل وجهه، ضربه الحارس حتى أدمى قبضته، وأنقذه من بين يديه الحراس حتى يتمكن القائد من استجوابه، انطلق النفير ولقل الملك الصغير للبرعا، أصدرت حتشبسوت أمرًا بتفتيش العاصمة كلها والقبض على أي غريب فيها.

أسفرت الحملة الأمنية بالعاصمة، بعد القبض على العشرات واستجواب الجميع، عن رجلين ثالثهما الملثم، أحد قطاع الطرق من وسط كمت، الذين قبض عليهم سابقًا حاكم الإقليم الرابع عشر، قتل الرجل المجرمين الباقين أمام أعينهم بمقمعته الضخمة، لكنه عرض عليهم حينها عرضًا لم يمكنهم رفضه، سيعفو الرجل عنهم وعن أسرهم، بل ويمنحهم أرضًا شاسعة ليأكلوا من خيراتها، فيصبح أولئك الرعاع من كبار القوم، بعد أن كانوا من قطاع الطرق، وتحيا أسرهم في فيض من النعم بعد جوعهم وشقائهم، فقط إن خلصاه من الملك الصغير.

لم يكن باستطاعتهم الرفض حينها، حيث علقت المقمعة والجماجم المهشمة بذاكرتهم القصيرة، وافق ثلاثتهم تحت التهديد، هم ميتون على كل حال، لكن إن نجحت مهمتهم سيصبحون من علية القوم، وإن وصل بعدها باختي للحكم قد يحكمون بعض المقاطعات، لم يفكر الملاعين في العرض كثيرًا، واحتجز باختي أسرهم لضمان عدم هربهم أو خيانتهم.

بعد الحصول على اعترافهم أمرت الملكة باحتجازهم، واستدعي أحمس بن نخبت للعاصمة في اليوم نفسه،

وصل الرجل مع حلول الظلام، وقفت كتيبة طيبة بكاملها بانتظاره، في عتادهم الحربي، علم الرجل بالأمر، فرأس الكتيبة وانطلق بالسفينة الملكية للشمال، وصلت السفينة لميناء الإقليم الرابع عشر قبيل الفجر، حيث يقع قصر الحاكم، انقض رجال الكتيبة الملكية على الميناء، وقبضوا على كل من به من الحرس، تقدم أحمس بن نخبت الرجال حتى باب القصر، دفعه الرجال حتى سقط ليجدوا باختي واقفا خلفه في كبرياء، قُبض على الرجل فورًا، ودُفع للركوع على ركبه، صاح به أحمس: "هكذا ينتهي كل شيء يا باختي، وجب عليك الحفاظ على إرث أجدادك، لكنك لوثته، وأنهيت سيرتهم من على الأرض السوداء". قالها ولكمه بشدة دافقًا إياه على أرض قصره، فشده الرجال موثقًا.

توجه الجميع إلى الميناء بعض القبض على الرجل وأسرته وحرسه، سيتم استجواب الجميع بالعاصمة. كما أن البرعا أرسل خطاباً لاستدعاء مينا حاكم ميرمع كل أسرته للعاصمة، لم يكن الأمر هينًا بالطبع، فهذه مؤامرة على البرعا. اشتجوب الجميع لعدة أيام، وحُوكِموا، تراوحت العقوبات بين جدع الأنف والعمل في المحاجر، والإعدام على الخازوق لمن ثبت عليه جرم التخطيط أو التنفيذ.

أمرت حتشبسوت أن يُزال اسم باختي من كل مكان، حتى تنتهي كل صلة أسرته بهذا العالم، ويتبعه العقاب للعالم الآخر، فلن يكون هناك أي فرصة لعودتهم إلى الحياة، ولن يتذكر أي شخص اسمهم، ولن يُعثر على أي أثر لهم، وسيدفنون في جلد ماعز نجس، حتى تصحبهم اللعنة حتى بعد موتهم.

في اليوم المقرر للإعدام وقفت حتشبسوت على منصة شيدت أمام معبد إيبت سوت، إلى جوارها وقف سنموت ووسر آمون، قرأ الوزير التهم على المجرمين، أولهم باختي، المحكوم عليه بالإعدام لما اقترفه من خيانة عظمى، نزلت حتشبسوت من على المنصة وتوجهت إلى المذنبين، تقدمت لإعدام مجرم هدد حياة الملك، الملك ماعت كا رع، هدد حياته منذ اللحظة الأولى، خاطب الأنثى بداخله، حتى كادت ترضخ، حسنًا أنها لم تفعل، فلا يبدو هذا الرجل كمن يترك زمام الأمور لغيره، يحاول بكل ما استطاع انتزاع كل شيء لنفسه، لذا تقدم الملك ماعت كا رع بنفسه لإعدام آخر خيط يربطه بالزوجة المقدسة حتشبسوت، وقفت ممسكة لمقمعة من الخشب، برأس من المرمر، ركع باختي أمامها، رفعت المقمعة عاليًا ونقضت بها على رأس الضحية، التي تهشمت جراء الضربة، أعطت المقمعة لأحمس بن نخبت الذي مررها للضابط المسؤول عن الإعدام لإكمال الأمر، شهد ماعت كا رع العقاب حتى النهاية ثم انصرف، وقد انتهى أمر حتشبسوت الفتاة تمامًا.

عادت إلى قصرها واختلت بنفسها في غرفتها باليوم نفسه، متخيلة باختي يحل محل آمون مس، ها هو يا حتشبسوت من عذبتك الأنثى لتقبليه زوجًا، انتهى به الأمر متآمرًا ملعونًا، ضحت حتشبسوت بكل شيء من أجل ذلك العرش، ضحت حتى بحتشبسوت، لكنها الآن الملك ماعت كا رع، الذي يتلقى العبادة من جميع رعاياه، ولن يتمكن أيهم من الوصول إليه أبدًا.

الفصل الثالث

أحد أيام فصل الآخت، من العام الثامن من حكم الملك تحتمس منخبر رع والملك حتشبسوت ماعت كارع. بحديقتها في البرعا استراحت الملكة، فنفذت إلى روحها نسائم الزهور والرياحين، التي غرسها الحكيم الراحل أنيني، فانفرجت أساريرها مما روح عن نفسها وجوم الروح، فراحت تنهل كل ما يمكن لصدرها، من هواء الحديقة الزكي كعبير آمون رع.

وحين قاربت الشمس على المغيب، أقبل الحكيم أنيني من جهة الغرب، يكسو وجهه مزيج من الحزن والرعب، مما أثار دهشة الملكة التي قالت: "ما الأمر؟"

أجابها الحكيم بحزن: "لن نستطيع تنفيذ الحملة، لقد أكدت لنا التقارير، لن يتحقق حلم جلالتك".

أصابت الدهشة الملكة، فكل شيء حتى الآن على خير ما يكون، وأفاد تدفق المعلومات والتقارير من يد سنموت والوزير وسر آمون للملكة بأن كل شيء على أتم الاستعداد لقيام الحملة. صاحت الملكة في رجاء: "حسنًا، فلترسل الحملة بحرًا".

أجابها الحكيم: "للأسف لن نستطيع، فالتقارير غير كافية، وإن نفذت جلالتك الحملة من خلال النهر، فمصيرها الوحيد هو الفشل".

أصاب الملكة حزن وضيق شديد، فلم تكن مستعدة للتخلي عن حلم طفولتها بسهولة، لكنها لن تتحدى التقارير التي أصرت على فشل الحملة. فجأة سمعت الملكة نداء: "مولاتي... مولاتي... مولاتي".

أرادت أن تجيب لكنها لم تستطع، فقد اختنقت بحلقها الكلمات، وما زالت المربية تنادي: "مولاتي، مولاتي"

فتحت الملكة عينيها وقلبها يخفق بشدة، كان حلمًا!

لاحظت سات رع ضيق الملكة فأمهلتها قليلًا لتنهض، قالت حتشبسوت: "رأيت المبرر أنيني في الحلم، لقد جاء يحذرني من فشل الحملة".

أجابتها المربية بسرعة: "إنه مجرد حلم".

ناولتها كوبًا من الماء، ثم أضافت: "لكنه فأل جيد يا مولاتي، ومعناه نجاح الحملة".

كانت قد أعدت مائدة إفطار الملكة، تراصت عليها مجموعة من بيض الوز، جبن أصفر وأبيض، وجبن الملكة المفضل المصنوع باستخدام الحصير، لبن متخثر، عسل وفطير مشلتت وخبز شمسي، لكن شهيتها لم تتسع للإفطار، فقضمت الملكة قطعة من بيضة، وشربت مغلي عشب القرفة لتهدئتها وكمية كبيرة من الجعة، ثم بدأت فورًا أعمالها الملكية بالقاعة الكبرى.

انتهى الوزير وسر آمون ورئيس الخزانة سنموت من الأعمال اليومية، وتطرقا لتقارير الحملة، حضر للقاعة حابو سنب رئيس الكهنة وسيني نائب الملك في كوش الجنوبية، التي أصبحت رسميًا ضمن حدود كمت منذ عهد الملك أحمس المحرر، وميعي مدير الترسانة ورئيس ميناء واست، وحضر أيضًا المشرف على إدارة التموين، ورئيس الأطباء، وبعض الرسامين والنحاتين وكبير المهندسين. قدم الجميع تقاريرهم للوزير الذي قدمها بدوره لرئيس الخزانة سنموت، فراجعها الرجلان وأقرا بجاهزية كل شيء للحملة، وأعطيا الإشارة إلى البدء بالطقوس اللازمة لتكريسها، وإحضار تماثيل النتر آمون رع التي لُحتت خصيصًا لنقلها للبلاد الجنوبية البعيدة.

خرج الجميع لضفة النهر بجوار معبد إيبت سوت بالقرب من الميناء، حيث تُحمل البضائع على السفن بحرص شديد. توقف الجميع عند وصول الملكة، التي اصطحبت معها الملك الصغير وأختيه غير الشقيقتين، سجد الجميع للملكين، وقدموا التحية متمنين دوام الصحة والسعادة، وهتف القوم باسم الملكين حتى

أشارت إليهم الملكة فهدأت الجلبة.

صاحت حتشبسوت بصوت أنثوي حازم: "جنود كمت البواسل، أبناء واست العظيمة، رسل ملك النترو آمون رع، خلال يومين ستتحرك الحملة، وهذه هي المرة الأولى في التاريخ لتنفيذ حملة من كمت لبلاد بونت عن طريق النهر، ستحف الرحلة الصعوبات والمخاطر، لقد أمر النتر آمون رع بتنفيذها لنقدم الأشجار العطرية والزيوت لخدمته المقدسة. قديمًا، سيطرت قبائل كرما الخسيسة على طرق التجارة، لكن جلالة الملك صادق الصوت تحتمس الأول قضى عليهم، بعد تمردهم وطغيانهم وغدرهم، وهو ما قطع الطريق، وأدى إلى شح المواد المقدسة الخاصة بملك النترو آمون رع. الطريق صعب وطويل وخطير، فالنهر ينحدر بقوة للشمال بسبب الفيضان، وقد تهجم علينا الشعوب الجنوبية، لكنكم أهل لها، سيرعاكم النتر آمون رع إلى أن تصلوا لأرضه المقدسة في الجنوب، وتحضروا إليه النفائس التي أمر بها، يثق جلالة الملك تحتمس منخبر رع، وجلالة الملك حتشبسوت ماعت كا رع بعودتكم بالمجد، وستخلد رحلتكم على جدران معبد جسر جسرو".

أفعمت الرجال الحماسة وصاحوا بصوت عالٍ، فرسمهم على جدران المعبد يعني أن أرواحهم ستستفيد من كل الطقوس والتقدمات التي تحصل عليها الملكة. بدأت طقوس تكريس تماثيل الملكة، فأجرت حتشبسوت مع الملك الصغير طقوس فتح الفم لتمثالين من الجرانيت الوردي، أحدهما للنتر آمون رع والآخر للملكة حتشبسوت، ليكون مصير تلك التماثيل الحياة الأبدية، لتقبل القرابين كل يوم، على أرض بونت المقدسة، أرض النتر آمون رع في الجنوب، وتكون رسالة للجميع أن نفوذ الملكة العظيمة امتد ليشمل البلاد في أقاصي الجنوب بالسلم وليس الحرب.

ذبحت الثيران الضخمة المخصصة للمناسبة، وتمت خطوات طقس فتح الفم، ومن ثم حملت التماثيل بخشوع على السفن، التي أصبحت للتو سفنًا مقدسةً للنتر آمون رع، وبمثابة معبد سابح يشق الأرض مع النهر جنوبًا حتى يصل لمستقره.

بنهاية اليوم غمرت حتشبسوت السعادة رغم القلق والإرهاق، فخطت واثقةً نحو المستقبل. فعند عودة الحملة ستحقق الملكة ما يفوق التصديق. رغم الانتهاء من مناقشة كل تفاصيل وتقارير الحملة إلا أن سنموت وأحمس بن نخبت كانا بالانتظار لمناقشة أمر ما مع جلالتها، وكان بصحبتهم الكاهن الأكبر حابو سنب، قال أحمس: "بأمر آمون رع سيد النترو ستنجح الحملة، وتصل لأبعد مكان يصله أبناء كمت، جلالتك تغيرين التاريخ للأبد بمعجزات عظيمة".

تلقت الملكة الملق من القائد بصدر رحب، فأضاف الأخير بعد مقدمته: "لكن جلالتك قد رفعت سقف التحدي لكل الملوك اللاحقين بعد عمر طويل".

شد كلام القائد انتباه الملكة وفهمت ما يلمح إليه، فأجابت بتأنٍ: "سيتعلم تحتمس ونفرو رع جيدًا، ويتدربون على الملكية من صغرهم، ويحققون السلام والازدهار لكمت".

بسرعة قال سنموت: "لكن هذا غير كافٍ".

أضاف القائد: "لقد لاحظت الملك بعد عودته من الحملة، وأؤكد لجلالتك أن تعليمه في العاصمة لن يفي بالغرض، وأفضل نصيحة بخصوص تحتمس منخبر رع، هي نصيحة والدك المبرر تحتمس الأول".

دافعت الملكة قائلة: "يمكن لتحتمس أن يتدرب هنا في كتيبة واست، لكني لن أرسله للشمال بعيدًا عن عيني، تعرّض الفتى لمؤامرة هنا في العاصمة على بعد خطوات من البرعا، فما الذي قد يحدث هناك؟ كما أني لن أجعله يجازف في تدريبات قد تشكل خطورة على حياته، تأذت كمت كلها بسبب موت ولي العهد السابق، ولن أكرر التجربة نفسها. ثم إني ولا أثق كفاية بأهل العاصمة الشمالية، وقدرتهم على وأد المؤامرات، فما زال الوضع غير مستقر في كمت الوسطى، أتظنني قد أخاطر بوجوده على بعد مئات الكيلومترات؟"

أجابها حابو سنب بثقة: "هذه هي وظيفة الملك يا مولاتي، وضع مصلحة المملكة أعلى من كل شيء،

عندما فقد والدك المبرر ولي عهده، لم يفقده الرثاء على ابنه السيطرة على نفسه، وفي وسط حزنه خطط للحرب، وخرج على رأس الجيش، ونفذ إحدى أعظم حملات كمت، يجب ألا يفسد حبك للملك الصغير مستقبله ومستقبل المملكة، أنا المربي الفعلي للملك، وأؤكد لجلالتك أن لديه ما يكفي من الحكمة، لكن عليه أن يصبح قائدًا عسكريًا".

"لكن تحتمس الثاني لم يكن قائدًا عسكريًا"، في عناد أجابت الملكة.

"ولم يكن ملكًا"، رد سنموت، فسكتت الملكة.

أراد القائد تهدئة الحوار فقال: "جلالتك تحكمين منذ عصر والدك صادق الصوت، تدربت على يد أعظم الملوك، صحيح أن الأميرة نفرو رع قد ورثت الذكاء والعظمة من جلالتك، لكنها لن تحارب. لا يوجد إلا الملك لصد كل الأخطار الخارجية عن كمت، عصرنا مختلف عن الأسرات السابقة، بعد تجربة احتلال العامو، أصبح وجود ملك محارب على العرش أمر مفروغ منه. تشترك مجموعة من الأولاد مع تحتمس في الدراسة، أرسلي بعضهم معه، ستقوي ظروف الجندية الصعبة علاقتهم، وسيكون ولاؤهم له، ولاحقًا سيضحون بحياتهم من أجله".

"فكرة عظيمة"، بانبهار أجاب سنموت بينما صمتت الملكة، لاحت الموافقة على طرف عينيها، تبقت فقط دفعة بسيطة، لذلك قال حابو سنب بصوت النتر آمون رع: "لا أحد يمنع القدر جلالتك، وجود الملك الصغير بالعاصمة لا يعني أنك ستحمينه من مصيره، أخت جلالتك نفرو بيتي توفت في أثناء وجودها في البرعا، ولم يتمكن جلالة الملك العظيم والدك من حمايتها. عظمة جلالتك لن تقف على فترة حكمك، لكن ستستمر مع الملكين التاليين على العرش بعد عمر طويل، ويجب أن يكونا مناسبين لعظمة كمت وملكتها، أنا أكثر من سيحزن لفراقه لأنه ابني، لكني أقدم مصلحة الملك والمملكة على مشاعري ورغباتي".

أجابت الملكة المنهكة: "غدا سأصل لقرار".

سجد الرجال في وقار وعلموا أن الملك الصغير سيتوجه إلى الشمال قريبا.

***

اليوم السابق لانطلاق الحملة.

بحديقة البرعا بدا القلق واضحًا على الملك تحتمس منخير رع، والحزن على الأميرة مريت رع حتشبسوت، جلس كلاهما صامتين وكأنهما يلتقطان أنفاسهما، حتى إن مريت رع لم تلق بالًا لقطها الأرقط، الذي رفس يديها المحتضنتين، واندفع يلهو بكرته في الحديقة، كسرت مريت رع الصمت قائلة: "متى تعود إلى واست.. مرة أخرى؟"، عثر النحيب صوتها.

أجاب الفتى: "لا أعرف، لكن بالتأكيد سأحضر كثيرًا.. أكثر من مرة في السنة"، علم أن كاه خانه، فبدا الكذب واضحًا على جملته الأخيرة.

"لن يكون لي أحد هنا، ونحن أصلًا لا نتحدث كثيرًا كالسابق".

"ستظلين هنا مع الملكة ونفرو رع، أنا من سيسافر، وليس أنت".

"ألا يمكن أن تسافر نفرو رع، وتظل أنت معي؟"

ضحك تحتمس ساخرًا رغمًا عنه من أمنيتها، فأجابها: "لا، لا يمكن، أنا من سيحارب وليس هي، يجب أن أذهب أنا للجيش"، حسنًا هذا بالفعل ما لا يوده أبدًا؛ أن تضطر نفرو رع إلى قيادة الجيش للحرب بينما يبقى هو في البرعا مع المحظيات!

بعند طفلة ردت، وعادت الدموع إلى عينيها: "حسنًا، اذهب للجيش هنا في واست".

٢٧٠٥٢٦٩٣٢٠

أجابها: "يجب أن أسافر يا مريت.. أنتِ أكثر من سأشتاق إليه".

تعلقت الفتاة برقبته وانهمرت بالبكاء، حاول هو الظهور بمظهر قوي، فلم يدع الدموع تنساب من عينيه، في عجالة قدمت نفرو رع وارتسمت على ملامحها جدية نادرة الحضور، فلا يراها المرء إلا مبتسمة، شعر عند رؤيتها بشعور مختلف، شعر بإبرة حادة تنخزه بحرقة في قلبه، رآها اليوم أجمل من أي مرة أخرى، أجمل حتى من يوم تتويج حتشبسوت، أضافت إليها المسحة الجادة الحزينة روعةً وجمالًا، بديا على عينيها البنيتين الداكنتين شديدتي الجاذبية.

ابتسمت له الأميرة محاولة إخفاء ارتباك وشى به قرينها، ستكون نفرو رع خير عون له على قيادة مملكة واسعة الأرجاء عند عودته من الشمال، كانت مريت رع لتفارقهما فوزًا عند وصول أختها المثالية، أما اليوم لم تفلته الطفلة من بين يديها، ولم تكف عن البكاء، ربتت نفرو رع على كتفها برقة أثارت دهشتهما، فعادة ما تنهر نفرو رع الأميرة الصغيرة وتستمر بإعطائها الأوامر، شد تحتمس خصر نفرو رع واحتضنها بشدة، فجمع ثلاثتهم دفقات من الحب صعبت أمر الفراق بشدة.

لقد جاء أمر سفره فجأة من الملكة، فبالأمس توجهت جلالتها إلى جناح إقامته، وهو ما لم يحدث من قبل، طلبت الملكة خروج الجميع للتحدث معه منفردة، طرحت سؤالًا مباشرًا: "أتود السفر لمننفر؟"

أجابها الملك فوزًا: "نعم، لا يمكنني أن أصبح ملكًا إلا إن صرت محاربًا، وأفضل طريقة لذلك هي السفر إلى قاعدة الجيش الشمالية".

ابتسمت الملكة وسألته: "من سيذهب معك؟"

تغيرت تعابير الفتى تمامًا عندما فهم موافقة الملكة: "سآخذ تنتيو وآمون محاب وسننفر".

"ألن تأخذ الحارس معك؟"

"مونتمس؟ لا، دعيه هنا، سأذهب كأي شخص عادي، وأبدأ من أول الطريق".

"جهز نفسك لتتحرك بعد حملة بونت".

لم يعلم تحتمس أن الأمر سيكون بتلك السرعة، لكنه هز رأسه إيجابًا وخشرت الكلمات بحلقه، لكن ما أقدمت عليه الملكة أثار دهشته تمامًا، ففتحت ذراعيها لتحتضنه! اغتنم الفتى الفرصة ودخل بينهما بسرعة، حصل على حضنٍ دافئٍ من عمته وزوجة أبيه وشريكته في الحكم والوصية عليه، إن كانت العلاقات البشرية معقدة، فبالتأكيد علاقتهما أعقدهم على الإطلاق، لم يرهق فكره حينها بتحليل علاقته بالملكة، أو تفسير رسائل قرينها، إلا أنه التقط إشارة طيبة منه وعطفًا غير مسبوق، هل يحب الملكة أم يكرهها؟

يحبها جدًا!

قبلت الملكة جبينه وأضافت بصوت رقيق: "احترس ولا تتعرض لأي خطر". نظر الفتى إلى عيني عمته فصاد نظرة حانية صادقة، عادة ما حصدتها فقط نفرو رع، فعادة ما غلفت نظرات الملكة إليه هالة من الجفاء ذابت فجأة في حضنها الدافئ، وهو ما أنهكه.

رغم رسالة التشجيع التي أرادت الملكة إبلاغها، إلا أن حنانها الزائد المفاجئ أذاب قلبه، فشعر بالضعف الشديد، شعر بأن كل ما يريده هو أن يبقى بالعاصمة وسط أهله، الذين اكتشفهم لتوه على ما يبدو، صار الموقف أصعب آلاف المرات.

رحلت الملكة تاركة إياه بانفجار في المشاعر يجتاح صدره، للحظة استعاد رباطة جأشه، وحاول التفكير، كيف يجب عليه الاستعداد لتلك الرحلة، للحظة بدا أن آلاف المهمات واللقاءات تراكمت على كاهليه، فأراد تحتمس إبلاغ أصدقائه بنفسه، وتدبير لقاء مع حابو سنب، وآخر مع سنموت، وقضاء يومين مع مريت رع،

وعدة أيام مع أمه.

وما إن تذكر أن عليه إبلاغ إيست والدته بالأمر، إلا وجدها تقتحم غرفته بالدموع ملء عينيها والأحمر يتفجر بوجهها، احتضنته بشدة واستسلمت للعويل، قالت الكثير وسط بكائها، لم يفهم منه الفتى كلمةً واحدةً، لأن كا والدته كان غاطسًا في بركةٍ من الضيق، فارتبك بشدة وانهار في فوضى العويل، حسنا الآن يعلم كيف ستستقبل أمه جثته، إذا عاد إلى العاصمة في صورة مومياء كعمه الراحل آمون مس، فنحيبها الآن يكفي لرثائه ألف عام. استمر الأمير بالتهوين على والدته قائلًا: "لا تقلقي، ألا تعلمين أني سأصير أعظم ملك!"، لم يفهم تحتمس ما رددت به أمه، لكنه أدرك لفيها لطلبه بعدم القلق: "سأرسل إليك الرسائل من هناك لأطمئنك".

استغرق الأمر عدة ساعات ليتمكن الفتى بإقناع أمه بدبلوماسية أن عليها أن تفلته من حضنها، فلا يوجد متسع من الوقت للملك للاستعداد للرحيل، فغضبت والدته وأضاف هذا على حزنها حزنًا، كيف كانت لتفعل إن أرسلته الملكة للإعدام إذن!

أصابت الفتى الدهشة بعد لقائه مع الملكة ووالدته، فظن سابقًا أن لقاءه مع الملكة سيشجعه على الرحيل، بينما سيثبط لقاؤه مع والدته من عزيمته بكل بكائها، لكن ما حدث هو العكس! فاستجلب شعور والدته بالضعف الشديد والهلع شعورًا بالقوة والرغبة في الصمود داخله.

حل المساء، لكن الملك خرج من القصر مع مونتمس حارسه، وتوجه إلى بيت الكاهن نفرو بين والد صديقه المقرب رخمي رع، طلب الملك من صديقه أن يمضيا بعض الوقت عند ضفة النهر، خرج رخمي رع بعد الحصول على إذن والده على مضض، فقد انتشر خبر المؤامرة التي حيكت لقتل الملك بالفعل، لكن تحتمس وعد بإيصاله إلى منزله.

"سأسافر لمننفر غدًا"، قالها الملك وانتظر، فبدت الدهشة على وجه صديقه.

"متى تعود؟"

"لا أعلم، لكن ليس قريبًا، سأظل هناك لسنين حتى أصبح قائدًا عسكريًا".

"سأفخر بك عندما تعود إلينا ملكًا عظيمًا، وتوسع حدود مملكتنا، ستصبح كجدك العظيم أحمس صادق الصوت".

"كنت أتمنى أن تأتي معنا، لكن مكانك هنا، عند الوقت المناسب ستكون كاهن ماعت(23)".

رغم علم رخمي رع بما ينتظره من مستقبل عظيم، إلا أنه انتظر أن ينطقها الملك، تحمس للفكرة وسجد لملكه وقال: "أنا متأكد أنك ستصبح أحد أعظم ملوك كمت، لذا سأستعد لأكون الشخص المناسب، لأتمكن من الحفاظ على العدل في مملكتك الضخمة".

أضاف الملك: "سيرافقني تنتيو وآمون محاب وسننفري".

"سيصيرون قادة يمكنك الاعتماد عليهم، لو أمرتني لرافقتكم بكل سعادة.. كنت أتمنى مرافقتك!".

"وأنا أيضا، أنت تعلم أنك أكثر من أحب، لكن لكل إنسان مكانه، ستظل هنا لتستعد حتى الوقت المناسب".

إن تحتمس يترك نفسه القديمة، يترك الكاهن في العاصمة ليبدأ حياة العسكرية الشاقة، لذلك توجب عليه أيضًا ترك صديقه الأقرب، ورفيقه بالكهنوت. مشى الصديقان على ضفة النهر ومن خلفهم مونتمس واجمًا، سارا كثيرًا دون كلام، لم يُخمنا ما ينتظرهم كعادتهم، أو يستعيدون ذكريات مضحكة، بل مر ذلك الليل كئيبًا ثقيلًا.

عاد الصديقان إلى منزل نفرو بين، ودع تحتمس صديقه بحرارة، ليس وداعًا لصديق طفولته فحسب، بل لطفولته ذاتها، سيظل رخمي رع بالمعبد، ويعود تحتمس لاحقًا ليرى كيف كان ليصبح إن لم يغادر العاصمة، فصديقه المقرب هو مرآته، كم يتشابهان في كل شيء تقريبًا.

ملأ الفتى صدره من الهواء وقال لمونتمس: "لا أريد العودة الآن، تعال نتمشى".

"تحت أمر جلالتك".

سارا على ضفة النهر صامتين، أراد مونتمس التهوين على ملكه لكنه احترم الصمت القابع على روحه، سارا حتى غابت المدينة، على ضفة النهر جلس الملك وأمر حارسه بالراحة، لم يكن ثمة ما يمكن أن يهدد الملك في ظل ذلك الفراغ والزروع المحيطة بهم، لكن مونتمس لم يفقد حذره قط.

"أتظنني سأتمكن من أن أصير قائدًا عسكريًا؟"

"بالطبع، جلالتك متوجه إلى أعظم مدرسة للعسكرية، دائمًا ما أسمع عن مدرسة متنفر، ستعود منها شخصًا آخر".

"لقد حاولت أن أمارس تمرين الضغط ولم أتمكن، لا أعرف كيف أمارس التمارين وأكتسب عضلات".

"سيعلمونك في المدرسة، عندما ذهبت إلى الجيش، كان معنا ولد أضعف حتى من جلالتك، قلت لنفسي أنه لن يستمر لأكثر من يومين، لكني أخطأت، لأنه أصيب في اليوم نفسه، دفع فوقع، ولوّيت يده، لم يستطع تحريكها، لكنه خرج للتدرب كل فجر، ولم يرتح كما نصحه السونو، ضغط على نفسه، حتى حقق خمس أو ست عدات في التمارين التي أحقق بها خمسين عدة. وخلال سنة، اقترب مستواه مني، وفي تمارين أخرى تفوق علي، أتعلم جلالتك ما اسمه؟".

"ما اسمه؟".

"تحوتي!".

أفعمته قصة تحوتي بالحماس، وبددت ابتسامة خافتة الكثير من القلق باعثة بعض الأمل، عرف تحتمس أن الجميع يشجعونه، بغض النظر عن صدق كلامهم، لكن أكثر ما أثر به من كل ما سمعه كان تحوتي هذا، سكتا لفترة طويلة راقب فيها الفتى البدر الذي اعتلى كبد السماء، فظهر ضياؤه على صفحة المياه في خط أبيض متعرج، كل شيء بالعاصمة جميل، وقد أحبّ الملك خاصة رائحة الزروع والمشي بين الحقول.

لفت انتباه مونتمس شيء ما تحرك بين الأشجار، صحيح أن الحارس قوي البنية، إلا أنه ابتعد كثيرًا عن القصر ولن يتمكن من طلب الدعم، إن كان الأمر مدبرًا كالمؤامرة السابقة سيصبح بغاية الخطورة، اقترب الصوت منهما ببطء، ميز مونتمس الصوت، وأشهر سيفه مما جذب انتباه الفتى، إلا أن تحتمس وقف مطمئنًا، وقال لحارسه: "لا تقلق، هذا غالبًا كلب، لا يمكن أن يكون إنسانًا". هدأ الحارس قليلًا عندما فكر في كلام الصبي، لكنه ظل على تأهبه حتى اقترب منهما الصوت، أشار الملك إلى حارسه كي يخفض سلاحه، فعل الرجل كما أمر الملك، لحظات وخرج وَشق(24) ضخم أرقط تباينت ألوانه بين الأصفر والبني، اقترب منهم الوَشق ببطء شديد وثقة تامة، من غير المعتاد رؤية هذا الحيوان، فهو محب للعزلة، نادر الظهور، ظل تحتمس هادئًا بينما زاد توتر الحارس، اقترب الوشق منه حتى أصبح في مجال يده، رفع الملك يده ببطء شديد حتى اقتربت من فم الوشق، شمها الوشق ثم لحس أنامله برفق. ثوان، ودار الحيوان البري وانطلق إلى الحقول بخفة كما حضر، قال تحتمس: "الوشق هو أحد أشكال رع في حربه مع رب الفوضى عبب، المتجسد على شكل ثعبان ضخم، لا يسعى عبب إلا لخراب الكون ونشر الفوضى".

أجابه الحارس: "هذه بالتأكيد إشارة"، ابتسم الملك ونهض للرحيل، فاكتفى بكل ما حدث الليلة وعاد إلى البرعا بابتسامة هادئة.

***

فجر يوم الحملة وقفت الملكة على ضفة النهر، مرتدية لباسها الرسمي كاملًا، مع تاج الاحتفالات الأزرق، وتعلقت لحية ذهبية زائفة أسف وجهها الملكي الأربعيني الجميل، وغطى رداء شفاف عباءتها الكتانية ناصعة

البياض، وإلى جوارها وقف الملك الصغير تحتمس منخبر رع، يكاد طوله يطالها، معتمرًا التاج الأزرق واللحية الملكية الذهبية مثلها، خلفهم وقف وسر آمون بعباءة الوزير، التي غقدت من تحت صدره، وامتدت لتغطي كرشه الذي بدأ يكبر، بجانبه والكاهن الأكبر حابو سنب الذي يكتنفه جلد فهد قُتِل قريبًا، وسنموت رئيس الخزانة المشرف الأعلى على كل طقوس آمون. انتظر الجميع أمر النتر آمون رع الذي لم يتأخر كثيرًا، فصاح حابو سنب بعد أن حل عليه الوحي المقدس: "يجب أن تتحرك الحملة لتسلك طريقها". في الحال أطلق أحد الكهنة أربع حمامات، طويت برقابها رسائل للجهات الأربعة معلنة عن الحدث الجلل، فالآن تتحرك الحملة العظيمة لبلاد بونت.

أعطت الملكة الأمر، فأصدر نحسي قائد الحملة أمره من داخل مقصورته بمقدمة السفينة الأولى والرئيسية للتحرك، وبتناغم مثالي بدأت حركة المجدفين الستين مع صوت مشرفهم فتحركت السفينة، التي استقبل رؤياها الجمع بفرحة عارمة، وضنع منها خمس نسخ متماثلة، ناهز طول كل منها عشرين مترًا، خرجت السفن تباعًا بحمولتها العظيمة من الناس والبضائع والهدايا، فاحتوت كل منهما على مائة وخمسين بحارًا بالإضافة إلى كمية عظيمة من الطعام والتماثيل والمشغولات، خاصة مع قدر كبير من المشغولات الزجاجية التي برع الكمتيون في إنتاجها، وتهافت عليها كل أهل القارة السوداء، خصصت كهدايا قيمة لحاكم بونت، أودعت بالمقصورة الرئيسية بالسفينة الأولى مع نحسي وثوتي قادة الحملة.

حيا رجال أطقم السفن الملكة والملك، بينما عزفت الفرقة الموسيقية الملكية ألحانًا حماسية، مع قرع الطبول على ضفة النهر المقدس، واستمر حابو سنب بالصلاة حتى غابت القافلة عن الأنظار خلال دقائق، هرع الأطفال على ضفاف النهر لملاحقة السفن بسعادة ومرح.

وقف الملك الصغير بقامة مشدودة مشغول البال، ليس بحملة بونت، ولكن بالغيب المنتظر، فحياته على وشك الانقلاب رأسًا على عقب، ثَقُلَ قلبه الصغير بالمشاعر، غلب الحماس على جميعها بينما اشتملت أيضًا على الخوف، والقلق، والفضول.

رغم كل المؤشرات الإيجابية، إلا أن القلق ما زال ينخر بقلبها كشلال مياه ينحت الصخر، تبدو الآن فرصة مثالية للقوم الغادرين لنفث حقدهم الدفين، فتجهيز الحملة تجارية رغم احتوائها على مجموعة من الجنود، يمكن لهم الصمود أمام الهجمات العادية للصوص وما شابه، أما إذا كان هناك تحضير مسبق للتمرد فتكون تلك نهاية الحملة.

غابت الحملة عن الأنظار وما زالت الطبول تقرع، ودع أهل واست الحملة، مطلقين الدعوات للنتر الخالق لإعادة ذويهم محملين بالخيرات، وليكتنفهم آمون رع بحمايته، فذهابهم للمجهول امتثالًا لأوامره.

وقف الملك محملقًا في السراب تجاه السفن، لكن سفينته هي ما شغلت باله حقًا، سيتحرك غدًا على متن السفينة الملكية مع زمرة رفاقه لمستقبل مجهول، ستشهد حياتهم الجديدة ظلف عيش لم يعتده أيهم، فمهما كانت الحياة بكنف المعبد صارمة، لكنها بالتأكيد لا تقارن بحياة العسكرية. خلف الملك وقف الرفاق مشغولي البال جميعًا، كيف سيبلي كل منهم بالشمال في أقوى مركز عسكري بالأرض؟ هل سيجلبون الفخر لذويهم أم العار؟

هذه ليلتهم الأخيرة بالعاصمة، وسيبدأ تحركهم بالغد قبل أن يرسل رع شعاعه الأول، مضى يومهم الأخير في واست بسرعة البرق، بين وداع الأهل والأصحاب. وما إن بدأ النور باجتياح السماء حتى استعدت السفينة للإقلاع، سفينة ملكية ضخمة، أكبر من سفن حملة بونت، بالمقصورة الرئيسية جهزت غرفة الملك الصغير والوثائق اللازمة، وأرسلت الرسائل لكل محطات رحلتهم الرئيسية، حتى المحطة الأخيرة بمنتفر عاصمة الشمال القوية.

أبحرت السفينة بسرعة وما زال المجدفون يدقون النهر في نظام مثالي، الإبحار شمالًا أيسر كثيرًا من

التجديف بسفن حملة بونت للجنوب، رغم أنهم أقل حجمًا من سفينة الملك، التي اندفعت مع تيار الفيضان للشمال. لم يدخل الملك لمقصورته بل فضل استنشاق الهواء والشعور بأشعة الشمس على جسده، شعر بفراغ شديد في تجويف صدره بمكان شغله قلبه من قبل، لم يرد أن يبدو للجميع أن قلبه انتزع منه ليبقى في واست الحبيبة.

نظر الملك بشرود إلى سطح المياه، اخترقت نفرو رع ذاكرته بقوة، لم يتذكر الآن كم هي مثالية كالعادة، أو كيف يتعامل معها الجميع كأنها الملك القادم، لكنه تذكر الحضن الأخير الذي جمعهما، والنظرة الحزينة بعينيها، والدموع التي هربت منها عندما تحركت السفينة. لم يفهم تحتمس ما يحدث، عاش مع الفتاة عمره كله ولم يشعر تجاهها بالحب قط، رغم اقتناعها بزواجهما مستقبلًا، إلا أنه ظن دائمًا أن نظرتها للأمر منطقية فيما لا يتعدى الواجب، لم يعرف أنها تكن له تلك المشاعر! لقد أثارت مثاليتها دومًا حنقه وعناده، لكن شعوره بضعفها وحبها وحزنها على فراقه سحق قلبه تحت دموعها الثمينة، آه يا نفرو رع.

مرت ساعة وما زال الملك متكئًا على إطار السفينة، محدقًا بصورة نفرو رع على سطح المياه، إلى أن قاطعه سننفري قائلًا: "متى نصل لمننفر؟" قال دون أن يحول نظره: "شهر تقريبًا".

"أعلم أنك تحب الكلام مع رخمي رع أكثر من الجميع، لمَ لمْ تطلب من الملكة حتشبسوت إشراكه معنا؟"

"أنا من اختاركم وليس الملكة، واخترت أن يظل هو في واست".

"لماذا؟"

"مكانه ليس في الجيش، سيكون موظفًا في الحكومة، لكني أريدكم أنتم برفقتي عندما نتحرك للحرب، سنكون إمبراطورية عظيمة لآمون رع".

أثارت كلمات الملك الصغير فخر صديقه، فهو يعد التالي في المكانة عند تحتمس بعد رخمي رع المقرب، أفعم سننفري الارتباك الذي بدا واضحًا على كاه الفخور، فقال مرتجفًا: "أعد جلالتك أنني سأبذل مجهودًا كبيرًا، لاستحق المكان الذي أعطيتني إياه". وضع تحتمس ساعده على كتف صديقه وطلب منه ألا يخاطبه بتلك الطريقة الرسمية.

اقترب إليهما فتى بعمرهما تقريبًا، رغم فرق الحجم الواضح لصالح الفتى الغريب، سجد للملك إلى أن أشار الأخير إليه، فقال الفتى بجدية شديدة: "بعد إذن مولاي، عبدك مين ابن السيد بَجري حاكم نِخن، لقد أمر جناب القائد أحمس بن نخبت لأحضر مع جلالتك للتدرب في الشمال".

أثار فعل القائد دهشة تحتمس، فنخن تفتخر بقاعدتها العسكرية العظيمة منذ عصر الأسرات الأولى وما قبلها، وتسيطر كتيبتها على طرق الواحات الصحراوية، ويقوم على رأسها فخر رجال الجندية. كما أن بَجري والد الفتى مين هو حفيد قائد الأسطول العظيم الراحل أحمس بن إبانا، الذي شق طريق فخره بمجهوده الخاص، مما أدى إلى اختياره لقيادة أسطول كمت، بحرب التحرير من الحقاو خاسوت، كان الرجل أسطورة لن تتكرر، لذلك لم يفهم الملك حاجة القائد أحمس بن نخبت لإرسال ذلك الفتى سليل العظماء إلى الشمال، خاصة بكل ما يتميز به من جسد ضخم متكور العضلات، أكثر حتى من آمون محاب، وهو ما لفت انتباه الصديقين منذ النظرة الأولى، وفضحت قرائنهما حالة الحسد التي شملا بها مين، إلا أنه ليس هناك ضرر من وجوده، بل على العكس رحب به الملك الصغير بكلمات دافئة، فمن الجيد أن يكسب الفتى أصدقاء ذوي قوة مثل مين.

تبقت أيام قلائل لوصول الحملة لمبتغاها، وكلما مرت الأيام جرف التفكير بنفرو رع كل أفكاره الأخرى، وحتى مخاوفه من المستقبل القريب، إن أخبره أحد بأنه سيقع في حبها منذ عدة أيام لاتهمه بالخرف، ما زال قوامها مسيطرًا على فكره. عيناها العبقريتان، وجهها المنير، ثمارها الناضجة، خصرها المنحني، ساقاها الرشيقتان، ومشيتها الراقصة السعيدة احتلوا قلبه، لكن لم الآن؟ ليس هذا وقت لوعة الحب، بل يجب عليه الاهتمام بما ينتظره.

عصر اليوم الرابع والثلاثين من انطلاق الحملة رأى الجميع أسوار المدينة العظيمة مِنيفر، تملكت الحماسة الجميع، وصاح آمون محاب: "هذه المدينة التي شيدها جلالة الملك نعرمر المبرر".

سارع الفتية لمقدمة السفينة للتمتع بمنظر المدينة العظيمة، التي تأسست عندما اتحدت الأرضان المقدستان منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا، يبعث قِدَم المدينة على تقديسها، فقد وطئت تلك الأرض أقدام ملوك عظماء، دقوا أوتاد الحضارة بثبات، وأنشئوا أعظم مملكة حقيقية.

هناك حكم الملوك الأوائل الأرضين، هناك حكم بناة الأهرام العظماء، هناك عاش المبجل ايمحتب، هناك سيبني الفتى مستقبله المبهر. لكنه أحس بشعور مختلف تجاه المدينة، ليس كالحماسة التي تملكت أقرانه.

وصلت السفينة لبوابة الميناء الرئيسي حيث تنتظر التشريفة، همس صوتٌ بقلبه: "ورثت مجد الملوك المؤسسين للحضارة، أنت نسل العظماء ووريث النترو". غمر الملك الصغير شعور بالعظمة، وأقسم أنه لن يبرح أسوار تلك المدينة، إلا وهو جدير بحكم المملكة الضخمة ذات الجذور فائقة القدم.

كان الميناء الرئيسي للمدينة عبارة عن إطار ضخم، مزين بكوبرا الواجيت المقدسة حامية الشمال، يقع بمنتصفه سلم طويل الدرجات، غُمِرَ أكثرها بالماء بفعل الفيضان، وقف على ما تبقى من درجاته فوق الماء الجنود حاملين الحراب. وبالأعلى وقف حاكم المدينة، وكبير كهنة بتاح، وبعض الموظفين والكثير من أبناء المدينة، انفجرت الأبواق العسكرية تعلن الترحيب لابن الشمس تحتمس ملك الشمال والجنوب منخبر رع سيد الأرضين، شعر الفتى فجأة بأنفه يعلو للسماء، تقدم بعض الجنود موكب جلالته، فلما أقبل استعدادًا للنزول للميناء سجد الجمع خضوعًا، شعر بشيء مختلف يتحرك في أعماقه، مارد ينفث النار بقلبه، لتمتلكه طاقة عظيمة. لِمننفر حالة مختلفة، لكن لم يشعر الفتى بأي غربة، تصرف كأنه حاكم البلاد الفعلي.

ألا يعرفون أن حتشبسوت هي الملك الحقيقي؟

لم تكن هنا أي ملكة ليستظل بأمرها، بل هو الملك الأوحد، أو هكذا على الأقل بدا له منذ اللحظة الأولى، استقبله الشماليون بمهابة، تفوق حتى ما يقام له بالعاصمة واست مسقط رأسه، لم يعتد قوم الشمال رؤية الملك منذ زمن، لذا أصابهم حضور جلالته للإقامة بمدينتهم بالفخر والسعادة، سليل عظماء واست، حفيد المعظم أحمس طارد العامو. ظل تحتمس في أثناء تقدمه الموكب على وجوه الشعب السعيدة المتحمسة، فأضافت إلى قلبه سعادة أنسته مؤقتًا أهله وبلده.

بلغ حاكم مننفر عقده الخامس، تبدو عليه سمات العظمة والنبل، مد يده لأعلى ما يستطيع فتوقفت الضجة فجأة، ليصيح قائلًا: "اليوم قُدِّست أرض عاصمة الشمال المجيدة، بقدمي جلالة الملك تحتمس ملك الشمال والجنوب منخبررع، أنا عبدك المخلص نِيكا بتاح حاكم عاصمة الشمال مدينة الملوك الأوائل، مدينة بتاح نتر العلوم والصناعات والفن، وكل أهل مننفر تحت أمر جلالتك، نتمنى لك دوام الصحة والسعادة لملايين السنين". أنهى الحاكم نيكا بتاح كلمته، فتفجرت صيحات الجميع وتهليلاتهم، وأرسل النبلاء وعائلاتهم ورد اللوتس المقدس في الهواء، احتفالًا بوصول الملك الذي اكتفى برفع يديه بفخر لرد التحية.

وكما ينص الواجب، زار الملك معبد بتاح الكبير، الذي أسسه الجد الأعظم نعرمر، فركب عربة الحاكم، وتبعه رفاقه في عربات أخرى خلال الشارع الرئيسي الموازي للنهر، وصل الجمع للمعبد الواقع بشمال المدينة. ذهش الملك الصغير لضخامة المعبد، أضخم حتى من معبد آمون الرئيسي بإيبت سوت بعاصمته، لكن عند دخوله المعبد لاحظ أن عدد العاملين به -رغم ضخامته- لا يؤخذ بالاعتبار، إذا تمت مقارنتهم بعدد نظائرهم بمعبد إيبت سوت من كهنة وموظفين.

تقدم الملك الصغير وفي أثره نيكا بتاح، يليه الكاهن الأعظم عنخ كاو بتاح، يبدو أن كل سكان المدينة حصلوا على أسمائهم تيمنًا بالنتر بتاح! أمر نيكا بتاح حاكم المدينة بذبح ثور، احتفالًا بوصول الملك لأرض الملوك الأولين، تطهر الملك مع الكهنة وتقدموا لعبادة النتر بتاح العظيم بقدس أقداسه، لم يكن باب قدس

الأقداس من الذهب كالمعتاد بالعاصمة، لكنه صنع من نحاس مطعم بالأحجار الكريمة، داخل قدس الأقداس، أقام الملك الابتهالات، حيث وقف التمثال مهيبًا، حاملًا عصاه بكلتا يديه، على يمينه وقف تمثال زوجته سخمت، بجسد امرأة ورأس لبؤة شرسة، وعلى يساره تمثال ابنهم نفرتم.

أنهى الملك طقوس خدمة التماثيل، ثم توجه الجميع إلى منزل الحاكم، الذي أقام بفنائه وليمة تليق بالملك ورفاقه، مكتوا في ظل الكروم التي تسلقت فروعها الصواري الخشبية الرشيقة، خفرت كسيقان البردي متفتحة البراعم، رمز الشمال العتيق، اختفت الشمس عندما انتهى الجميع من طعامهم، فتقدم الخدم بخفة لحمل الأطباق، وتقديم الفاكهة وأواني الجعة والنبيذ الشمالي الحلو من العنب والبلح، وكعادة الجنوبيين أيضًا، قدم الخدم مخاريط من دهن عطري توضع على رؤوس الحضور، أنهت الفرقة الموسيقية مجموعتها الأولى من الأغاني بحلول الليل، فطرب لها الجمع، وأثنوا خاصة على صوت المغني الكفيف، الذي عوضه النترو عن عينيه بصوته القوي العذب وأذنيه الحساستين.

أمر الملك أخيرًا بإنهاء الحفل ليحظى الحضور ببعض الراحة. بقصر الحاكم، أعدت غرفة فسيحة، ذات أثاث راقٍ لاستقبال الملك، الذي لم يلحظ أيًا من ذلك، فقد تسلل النوم إلى وعيه فورًا.

***

هزت يد خادمة رقيقة قبيل الفجر كتف الملك برفق، قائلة بصوتها الجميل: "جلالة الملك". استيقظ الفتى المنهك بسرعة واغتسل في لحظات، ثم نزل للفناء الذي وقف به شخص ضخم الجثة بدت على جسده القوة، وقف في معيته كل رفاق تحتمس، سجد الجميع أمام الملك ثم تقدم الرجل الضخم وصاح بصوت كانهيار الجبال: "صباح الخير جلالتك، أنا عبدك مرين رع، أنا إمير مشع(25) اليوم يبدأ تدريب جلالتك". لم يتوقع أن يبدأ تدريبه فورًا، بعد وصوله ببضع ساعات، بالإضافة إلى أن خطاب ذلك القائد قد أثار بعض الرهبة داخله على الرغم من قصره، أجاب الملك بكلمة واحدة: "جاهز". حاول أن ينطقها بقوة، إلا أن ما تبقى بحلقه من النعاس لم يُمكِنه من ذلك.

تحرك الجميع للقاعدة العسكرية بالعربات المنتظرة بالفناء، وما زال رع مشغولًا بحرب ساعته الأخيرة من الليل، نخرت نخزة من البرد أجساد الفتية، فالجو بالشمال بارد إذا ما قورن بواست. القاعدة العسكرية تشبه حصنًا ضخمًا بنيت أسواره من الطين، سارت العربات بجوار السور في شريط ضيق طويل، وصولًا للبوابة الرئيسية التي فُتحت فورًا، انبهر الملك عند دخوله للمكان، فوقف بالفناء عدد ضخم من الجنود، أكثرهم صغار السن، بعمر تحتمس تقريبًا أو أقل، انتظر الفتى ورفاقه مع مجموعة بمثل عمرهم تقريبًا تكونت من مئة نفر(26).

أشرق رع فرأى الفتى النفرو مقسمين إلى مجموعات، ضمت كل واحدة مئة فرد كمجموعتهم، عندما غمر النور الأرض نُفخت الأبواق مثيرة للحماس، وصاح الجميع معًا:

المجد لكمت

المجد لجلالة الملك منخبر رع

المجد لجلالة الملك ماعت كارع

شارف التل المحيط بالثكنة على الانهيار من قوة صياحهم، والعجيب أن صوتهم بدا كصوت رجل واحد، أثار تنظيم صياحهم بذلك التزامن الرهيب دهشته، في غضون ثوان صاح أفراد رؤوس المجموعات بالترتيب من الأبعد للأقرب، ومع صياحهم تحركت كل مجموعة ركضًا مع الحفاظ على ترتيبهم وترابطهم. وما إن تحركت المجموعة الأخيرة بالقرب من تحتمس إلا وحضر مرين رع وصاح "سيتسلم كل نفر منكم الآن حاجياته، ضياعها أو سرقتها ممنوع..".

أوقف الضابط حديثه فجأة بعد أن انتبه لوجود الملك الصغير كأنه نسي شيئًا، فنادى الرجل على الملك الصغير بصوت عظيم قائلًا: "تحتمس!"، انتشرت الهمهمة بين بعض النفرو، كيف لذلك الرجل أن ينطق اسم الملك مجردًا! تقدم الفتى رغم دهشته للضابط، وضع الأخير يده على كتفه وقال موجهًا إليه كلامه، بصوت يبدو أن حتى الملك زوسر سمعه تحت هرمه: "ورثت جلالتك لقب ملك خارج أسوار هذه القاعدة، لكن هنا ستتدرب إلى أن تستحقه فعلًا، وإلى أن يتحقق ذلك، اسمك تحتمس، ولا يميزك عن باقي النفرو شيء، مفهوم؟" صاح بشدة أكبر مع سؤاله الأخير هذا.

أجابه الملك بالإيجاب بينما قبعت نفسه في قرار بئر مظلم من الصدمة، ملأ ملق رجال العاصمة الجنوبية نفسه، جاعلًا من تنازله فجأة عن الملكية شيئًا مستحيلًا، من ناحية شعر الملك بالضيق لأنه فقد مكانته التي ادعى بداخله دائما أنه لا يريدها، ومن ناحية أخرى فهو متأكد أنه لن يبرح تلك الأسوار إلا بعد إثبات حقه الملكي أمام أقوى مؤسسة بكمت؛ جيش جلالة الملك!

تسلم النفرو مجموعة من اللوازم المتشابهة: حصيرة، عصا طويلة، سيف خشبي، كيس من القماش وآنية فخارية لملئها بالماء، عندما انتهى مرين رع من الإشراف على توزيع لوازم النفرو، عادت مجموعات النفرو الأخرى من ركضها الصباحي، مثيرة ضجة وعاصفة من التراب، ومع أنغام البوق رتب الجميع وقفتهم بنظام في لحظة.

ومع دق الطبول تحرك الجميع في مجموعات لفناء آخر حيث أعدت طاولات الطعام، إفطار ذلك اليوم كان بسيطًا، بصارة(27) وفطائر الفول(28) مع خبز ومشروب قرفة، في صفوف لا نهائية، وقف الجميع ليحصلوا على طعامهم، إلى أن جاء أخيرًا دور تحتمس وأقرانه، انتهى الجميع من طعامهم خلال بضع دقائق، ومع عزف البوق عادوا إلى الفناء الأول، اليوم على حسب الترتيب هو يوم التدريب على الأسلحة.

جذب انتباهه بعض الجنود في أثناء تدريبهم، يمكنه رؤية رابط شديد القوة بين كل النفرو، بدت حركاتهم أحيانًا ممزوجة في تناغم شديد، وكأن كلًا منهم يشعر مسبقًا بحركات الآخرين، فتخرج رقصاتهم جميعًا متكاملة كفقرة استعراضية، قامت بها فرقة راقصات مدربات.

التقط من بين الجلبة بعض دعاباتهم العبقرية، والقليل من السخرية، الأمر ساحر إلى حد كبير، لدقائق ظل تحتمس مشدوهًا، وطغى حب استطلاعه على شعور الرهبة الذي صاحبه منذ بداية اليوم، أراد بشدة الاندماج بذلك المجتمع الغريب، رغم الشدة الواضحة في طريقة عيشهم وتدريبهم، إلا أن الفخر في عيونهم لا يقدر بثمن، وعلاقتهم القوية فاتنة بحق.

لاحظ تدريب الجنود على مختلف الأسلحة، فقد قُسموا إلى مجموعات حملت كل منها نوعًا واحد من الأسلحة، يلوحون بالسنون الحادة بمنتهى الخفة والمهارة، رأى الفتى كيف تلوح مجموعة منهم بالرمح الطويل، ابتلعوا كل أبعاده وسيطروا على كل حركاته وكأنه جزء من جسدهم، تطلب التدريب في بعض الأحيان أن يقف الجنود في أوضاع بغاية الصعوبة والثبات حاملين رماحهم، ثباتهم شبه مستحيل. نما بداخله شعور غريب بالحماس وشعر بالانفعال يجري في جسده، أراد أن يركض إليهم فورًا ليلتقط أحد تلك الرماح ويندمج مع تلك السرية في تدريبهم.

بالجوار مارست سرية أخرى التحطيب، تميزت رقصاتهم بخفة ومهارة، فتعلق نظره بهم لفترة مشدوهًا بروعة أدائهم، مع مبارزاتهم المثيرة، ود كذلك الاندماج معهم وممارسة سحرهم. لكنه بعد ذلك لاحظ سرية أخرى، تتدرب بسلاح بدا في غاية الروعة، قادم مباشرة من عالم النترو، وكأن بتاح رب الفنون صاغ بنفسه كل نسخة منه، سيف يظهر تحت لونه الداكن بضع لمحات من البرونز اللامع، ملتوي القوام، تحبس رؤيته الأنفاس، كآلة قتال فتاكة، سيف الخوبيش ذائع الصيت، فخر صناعة الأسلحة الكمتية، أفادت نسخته الأولى الرجال في أثناء حرب التحرير من العامو، ولكن النسخة الحالية أكثر رشاقةً وأروع تصميمًا، وكأن كل فن الدنيا تجسد في صنع هذا السلاح، إذا انتقل من الكهنوت للجندية، سيكون ذلك الخوبيش هو سلاحه المفضل بلا شك.

حضر مرين رع أخيرًا وصاح: "اليوم هو يوم التدريب على الأسلحة، لكل يوم من أيام العاشور تدريب محدد، أمسكوا السيف الخشبي"، لقد انقسم الشهر لثلاثة أقسام، احتوى كل منهم على عشرة أيام.

غمر الحماس النفرو بينما لوح كل منهم بسيفه الخشبي بحركات مرحة خرقاء، صاح مرين رع "انتباه"، فعم الصمت والرهبة، خلال ساعات لم يحصها تحتمس، كان كل ما فعلوه هو توجيه سيوفهم الخشبية بيد ممدودة للأمام وللجنب حتى تهاوت أذرعهم. إنه تدريب بغاية الخطورة، فبعدما أمرهم مرين رع بذلك مباشرة وقع سيف تنتيو مما أثار ضحك الجميع، لكن مرين رع أمره فورًا بالتقاطه بفمه، وأن يتمدد على الأرض موجهًا ظهره للسماء، بينما يرفع يديه وقدميه ورأسه، ثم أمر المجموعة كلها بالمرور على ظهره!

أمر مرعب، فلم يتوقع أيهم أن يتعرض لعقاب كهذا في اليوم الأول، إلا أن العقاب أعطى الطباعًا قاسيًا عما ستسير عليه الأحداث فيما يلي. شعر الملك بالغضب والضيق من ذلك المخبول، فعلى الرغم من شعوره بالارتياب من القائد أحمس بن نخبت سابقًا، إلا أن ذلك الأخير سيطر على قرينه الشرير، بينما قرين مرين رع أعظم شرًا، وترك الرجل لجامه.

صاح القائد بعنف: "سلاحك جزء من جسدك، لا تضعه أو تسقطه حتى بعد موتك، لو لم تحترم سلاحك لن يحترمك، مفهوم؟" صاح الجميع فورًا: "مفهوم".

خلال ساعات لاحقة بأمر من الإمير، بدل كل النفرو السيف بين أيديهم كلما احتاج الأمر لذلك، إلا أنه بعد وقت ليس بالكثير، شعر جميع النفرو بحريق يلتهم كل عضلة بأذرعهم وظهورهم، ولم يقدر أيهم من حمل السيف بيد واحدة لأكثر من لحظات قليلة، ظن الفتى أن الأمر سيمر تدريجيًا من الأسهل للأصعب، لكن ما حدث رفع من سقف توقعاتهم لمعنى كلمة صعب حتى القبة السماوية، فبمرور الوقت فتك بهم الألم، لكن لم يجرؤ أيهم على الاعتراض، حتى الملك!

عندما انتصف رع السماء وتساءل الفتية بداخلهم: ألن يلوحوا بالسيف ويتعلموا المبارزة؟ أم سيمر كل تدريبهم بتلك الحركة الخرقاء؟ أمر مرين رع النفرو بخفض يديهم، فانفلتت منهم تأوهات مكتومة، أمرهم القائد بالراحة قليلًا والاستعداد لوجبة الغداء، انهار جميع النفرو على الأرض بينما ابتعد الإمير، نظر تحتمس إلى الخلف لباقي المجموعة، تصبب الجميع عرقًا، وكسى التراب أجسادهم، وبدا الإرهاق واضحًا على ملامحهم، توقع أن يتقلد وجه تنتيو غضبًا شديدًا أو حزنًا، إلا أن كل ما بدا عليه كان الإنهاك والاحمرار، هل يود ذلك المخبول تدريبنا أم قتلنا؟

خلال لحظات حضر أحد الضباط وصرخ للجميع: "انتباه"، فانتفض النفرو. ألقى ذلك الضابط الشاب بعض التعليمات عن تحرك المجموعة في صفوف ليتوجهوا إلى المطعم، وكيف يجب ضبط حركة أقدامهم. نفذت المسيرة أسوأ ما يكون، لكن لم يتعرض أيهم للعقاب على ذلك، رغم عدم امتلاك تحتمس لشهية قوية عادة، إلا أنه بوقت الغداء كان مستعدًا لأكل غزال كامل، لكن الإحباط بدا على وجوههم عندما اكتشفوا أن الغداء قطع من سمك ولبن متخثر وخبز، بكميات لا تكاد تسد رمقهم، بالتأكيد يرغبون في قتلنا!

بسرعة شديدة التهم النفرو طعامهم وانتظروا الأوامر الأخرى. "تحتمس!" انتبه النفر لمصدر الصوت فوجد الضابط الشاب بانتظاره، لكن رغم إنهاكه لبى النداء، قال الضابط: "أنا أنبو حتب، صاحبت عمك صادق الصوت آمون مس في أثناء فترة تجنيده هنا، أنت تشبهه كثيرًا".

"أعرفت عمي آمون مس جيدًا؟".

"كنا أصدقاء، لم أر أي شخص مثله".

"أود أن أعرف عنه كل شيء".

"ستعرف مع الوقت، أنا رئيس النفرو وسأكون مسؤولًا عن تدريبكم مع القائد مرين رع".

رغم قوة ذلك الضابط البادية على جسده، لكن كاه بلغ تحتمس رسالة سلام التمس الأخير دفنها، مما ذكره بوجوه أصدقائه بالمعبد، "ألا يمكن أن تتولى حضرتك تدريبنا، بدلًا من حضرة الإمير مرين رع؟"

ابتسم أنبو حتب وقال: "مؤكد أن وجودك هنا صعب، لكن لو تحملت للنهاية، ستتمكن من أن تتحدى العالم كله، وأن تحافظ على إرث أجدادك، إن تراب الأرض التي تقف عليها مقدس، أسسها الملك العظيم مينا بنفسه، والآن دورك لتشغل مكانه، يجب عليك أن تستعد. تذكرا لن يمنعك أحد إذا قررت المغادرة، وجودك داخل هذه الأسوار هو قرارك، لكن لو نجحت باختبارات القيادة قبل خروجك من هنا، ستكون من أعظم الملوك الذين داسوا هذه الأرض بقدمهم".

بهدوء فكر الفتى، ثم أجاب الضابط: "شكرًا على نصيحتك، أعرف أن وجودي هنا لن يكون سهلًا، لكني لم أتخيل أنه بتلك الصعوبة، لكن معك حق".

"هذا ليس كلامي، بل كلام آمون مس، قاله لي سابقًا"، قالها وربت الضابط على كتفه.

حضر الإمير مرين رع، فعم الرعب وجوه النفرو، إلا أنه صاح: "كفاكم تدريبًا اليوم، هيا لتعرفوا أين سكنكم". وقعت جملته تلك عليهم كأول قطرات الغيث، توجه تحتمس إلى سريره تصارعه الأفكار، بعد عدة دقائق غط الجميع في النوم، فيومهم الأول كان مُجهدًا جدًا، وما هي إلا دقائق حتى كان عليهم الاستيقاظ لحضور بعض الدروس النظرية.

خلال الأيام التالية فهم النفرو جدول التدريب اليومي، تبدأ كل أيامهم بالركض الصباحي والفطور، بعدها على حسب يوم العاشور يتدربون على الأسلحة أو السير بمجموعات منتظمة، أو تدريبات المصارعة والمبارزة أو التدريبات البدنية، بالإضافة ليوم التجديف الذي قضاه عادةً تحتمس ومجموعته في العناية بنظافة القاعدة، ولم يسمح لهم بالانضمام لذلك التدريب.

بعد مرور الشهر الأول أتيحت لهم ساحة تدريب جديدة، ميدان للرماية بالإضافة لساحة الحواجز، التي احتوت على فخاخ وحوائط وحواجز خشبية وتلال من الرمل وبرك من الطين، قسمت مجموعتهم إلى عشر سرايا صغيرة، تكونت كل واحدة من عشرة نفرو، وأقيمت المسابقات في عبور الحواجز، كما هو متوقع اجتاز سننفري أكثرهم بسهولة شديدة، حتى تحتمس أمكنه عبور أكثرها. لكن كمنت الكارثة في التدريبات الرياضية، فالأقل شأنًا ضمن مجموعتهم أربعة، هو أسوؤهم. لم يتمكن من تأدية أي من تلك التمارين، عندما اكتشف الضابط أنبو حتب أن الملك بذلك الضعف بدت عليه بعض الشفقة، فلم يتمكن من تأدية تمرين الضغط، أو العقلة، أو أي تمرين آخر، باغته مرين رع سائلًا: "ألم يطعموك في البرعا أم ماذا؟"

فأجابه: "تعلمت في المعبد السيطرة على شهواتي، لأن النترو لا يحبون الشخص الشره".

"لا، هذا في المعبد، إنما هنا ستأكل بقدر اثنين من زملائك، التربية في المعبد هدفها أن تصبح كاهنًا وليس ضابطًا، هنا ستتدرب على الأسلحة والقتل، فالكاهن لا يمسك سيفًا".

أوصي مرين رع بتقديم المزيد من الطعام لتحتمس، حتى يتمكن من اكتساب بعض العضلات، لكن لم يفلح الأمر، فبعد تكرار الأيام دون أي تقدم تحول وجهه للتجهم، وشمله الإحباط، وغابت ابتسامته المعهودة ليصبح كتلة من الصمت الكئيب.

بنهاية الشهر الثاني لم يتغير من أمره شيء، إلا في الرماية، فتحسن مستواه بسرعة شديدة، حتى إنه غالبًا ما حصل على تسع ضربات ناجحة على الأقل من عشرة، متفوقًا بذلك على جميع أقرانه عدا مين الذي لم يخطئ سهمه قط، وخلق ذلك مجالًا للمنافسة والتفاخر. في البداية تدرب النفرو على القوس العادي، الذي تكون من قطعة واحدة لينة من البوص، شد وثاق طرفيها بخيط مطاط من أمعاء حيوان مجففة، شد القوس الخفيف لآخر مداه، أمر بسيط مع بعض المجهود، في المرة الأولى وقف الفتية صفًا يبعد عن الأهداف بضعة مترات. قاعدة الرمي بسيطة؛ تُفرد اليد اليسرى لآخرها ومن ثم يُشد الخيط والسهم باليمنى، حتى تصل اليد

للأذن مع تنظيم النفس، ثم يُطلق السهم من خلال فرد أصابع اليد اليمنى ببطء، خلال بضع مرات أصاب الفتى هدفه الأول.

عند رمي السهم الأول صرخ الفتية كلهم، بعد ارتداد الخيط المطاطي ليصيب أياديهم بقوة، ما عرضهم لتلقي السخرية من النفرو الأكبر سنًا، حذرهم أنبو حتب من التساهل في التعامل مع الأسلحة، ونبههم أن يتخذوا إجراءات الأمان اللازمة، فحصل الفتية على قطع من القماش والجلد التي لفوها على أذرعهم اليسرى لمنع الإصابة. وبمرور الوقت، تحسن النفرو حتى تخلوا عن قطعة الحماية. شرعوا بعد ذلك في التدرب على القوس المركب ذي التركيب المعقد، فشد خيطه يحتاج إلى قوة أكبر، لذا كان مدى أسهمه أطول مرة ونصف من القوس العادي.

تحسن أيضًا مستوى المجموعة العام في السير العسكري، فأتقن النفرو ضبط السير بصفوف منتظمة، يتحرك تحتمس بالمجموعة بجوار تنتيو الذي بدأ مستواه البدني بالتحسن الملحوظ خلال فترة قصيرة، مما دفع الأول للإحباط أكثر في أثناء السير، وجب على كل فرد ملاحظة وقع أقدام الجميع، لتأدية الخطوة نفسها بالوقت نفسه، ساعدهم بالطبع قرع الطبول على التنظيم، وهو ما وفر غطاءً مناسبًا للصوت، سمح بإلقاء بعض الدعابات دون اكتشاف، قال تنتيو لتحتمس: "أتمنى أن يبدأ تدريبنا على السيوف الحقيقية".

فرد الأخير: "أريد سيف خوبيش، لا سيفًا مستويًا".

"سيف الخوبيش للنفرو المتمكنين من التمارين البدنية فقط"، قالها تنتيو ساخرًا. تلقى تحتمس دعابته بصدر رحب واكتفى بالابتسام، ثم تحين لحظة مناسبة وضرب قدم تنتيو بخفة فاختلت حركته، فتعثر النفر الضخم وسقط بشدة، مما أدى إلى تعثر ربع المجموعة تقريبًا، أشار مرين رع إلى فرقة الطبول فتوقفت بالحال، وصاح الرجل بالمجموعة المتعثرة لتخرج من التدريب. علم تنتيو أن هناك عقابًا شديدًا بالانتظار فصاح: "ليس ذنبي، تحتمس هو السبب"، فأمرهما القائد بالتقدم، وترك أمر عقاب باقي المجموعة لأنبو حتب، أمر مرين رع الصبيين بالتوجه إلى الضابط رع مسي، فنفذا الأمر بالخطوة السريعة، كان ذلك الضابط موجودًا بجوار سكن النفرو، مع مجموعة صغيرة من الجنود، توجه إليه الصبيان وأخبراه بالأمر، فقهقه الضابط وأجابهم: "سأسعدكم، تعالوا".

اقتادهم الأخير إلى صبية آخرين معهم بعض الأواني، وأمرهم باصطحاب الصبيين، خلال دقائق من السير لم ينطق أيهم بأي كلمة، إلى أن وصلا لمكان نفذت منه رائحة كريهة كألف كلب ميت، لم يسبق له أن شعر بذلك الاشمئزاز من قبل، فهناك مشكلة في صرف مخلفات النفرو ومن الواجب حلها، عن طريق إزالة كمية كبيرة من الخراء بالأواني يدويًا!

ضعق الفتيان لذلك العقاب المهين، خاصة تحتمس الذي اسثنى دائمًا من أي عقاب بالعاصمة، فاعتاد تلقي الملق من الجميع حتى أكبر الموظفين، أما الآن فيأمره صبيان بإزالة عشرات الأواني من الخراء!

فكر تحتمس فيما يجب أن يفعل، يمكنه ببساطة أن يرفض، إنه الملك! كيف يجرؤ ذلك الرجل المخبول على مثل هذا الفعل؟ يمكنه فورًا العودة إلى العاصمة والأمر بسجن ذلك الأحمق، تذكر الفتى لحظة ختانه عندما اختار بنفسه الأصعب، إلا أن ذلك كان من باب الشجاعة، لكن ماذا يمكنه أن يجني من حمل الخراء؟ كيف يكون ذلك تدريبًا، أو مفيدًا للملكية على أي حال! تقدم منه أحد الصبيين الآخرين وقال: "دقيقة واحدة وتعتاد الرائحة، خذ نفسك وابدأ، لا تحزن يجعلك كل هذا أشد".

دار صراع عنيف بقلبه، ماذا عليه أن يفعل؟ أيرضخ لذلك الأمر المهين؟

أم يعود إلى ذلك الإمير ليصرخ بوجهه أمام الجميع ثم يعود إلى واست؟

أعليه العودة ليأمر مرين رع بإزالة الخراء بنفسه؟

خلال لحظات اتخذ الفتى قراره، والتقط إناءين من الأرض وضع أحدهما بيد تنتيو وقال: "هيا بنا". فمن المتوقع أن فتى البرعا المدلل لن يقوم بذلك الأمر أبدًا، لذا خالف تحتمس توقعاتهم جميعًا والهمس بالأمر!

خلال ساعات أزال الصبية كمية ضخمة، بعدما كاد يغشى عليهم في بداية الأمر من الرائحة التي ازدادت سوءًا مع كل حركة، لكنهم أنجزوا المطلوب، بعد نقل الإناء الرابع نزل تحتمس بقدميه في بركة الخراء، وتذكر كيف اهتم دائمًا بنظافته بشدة إلى حد الهوس، فالنترو يكرهون أي شيء نجس كريه الرائحة، اكتسى وجهه بنظرة مختلفة؛ نظرة تصميم. اعتذر تنتيو لصديقه متعللًا بأنه لم يدرك عاقبة ذلك، لكن الفتى غفر له، عند انتهائهم من عملهم غرق الملك بغضب شديد تجاه ذلك القائد المخبول.

بعد اغتسالهم -الذي استغرق وقتًا كبيرًا- شم تحتمس يديه كل ثلاث لحظات، تأخرا على موعد الغداء وانصرف أغلب النفرو، بكل حال عانى تحتمس اضطرابًا شديدًا بمعدته أدى إلى فقدانه شهيته الضعيفة أصلًا، لكن إنبو حتب انتظرهم، وأمر للصبيين بحصة أكبر من الطعام، في أثناء تناوله الطعام قال له الضابط: "أعرف أنك تشعر بالضيق، لكن يجب أن تعرف أن كل شيء هنا سيشدد من قلبك، حتى إن ظننت أنه بلا فائدة"، رد الصبي بالإيجاب بهزة رأسه، بينما حاول أن يبدو عليه الانشغال بالطعام. وعندما انتهى الفتى من طعامه قال للضابط: "أشعر أني سأعيش هنا طوال حياتي، دون أي فائدة، فلا يمكنني ممارسة التمارين كبقية النفرو، أكثر من شهر بالفعل ولا جديد".

ابتسم الضابط وأجاب: "صحيح أن بعض النفرو يبدأون التدريب في مستوى أفضل من غيرهم، لكن تفكيرك خاطئ، الشخص الوحيد الذي يجب أن تقارن نفسك به هو نفسك، لا توجد وصفة سحرية تنبت لك العضلات بعد شهر لتصير أقوى، كل شيء تحصل عليه فقط من خلال العمل المستمر، مهما كان تطورك بطيئًا. أليديك استعداد أن تظل ضعيفًا ما حييت؟ فيخرج الجيش للحملات من غيرك؟"

"لا"، قالها تحتمس بصرامة.

"حسنا، اسأل نفسك هذا السؤال كلما شعرت بالكسل أو الإحباط، وطالما أن الإجابة "لا" عليك أن تستمر، هذا هو الحل الوحيد، حتى في أثناء إرهاقك تمرن، حتى دون أمل تمرن، حتى لو من دون نتيجة بعد ألف تمرين تمرن، حتى لو غضبت أو حزنت تمرن، إذا استمررت أعدك أني سأدربك بنفسي على العجلة الحربية أسرع مما تظن".

لم يحتو عقل تحتمس على أي رد، إلا أنه وافق على فعل كل ما قاله الضابط، فعندما يرتاح الجميع بعد الغداء لا يرتاح، بل يستمر بممارسة التمارين، كل يوم دون انقطاع، شعر بجذوة من النار تنمو بقلبه، واقتنع أن يأكل أكثر حتى تنمو عضلاته، لذا، وعلى الرغم من كرهه الشديد للبيض واللحوم، إلا أنه طلب من مرين رع إضافتهم على كل وجباته، وافق الإمير على الفور نظرًا لحالة الفتى الجسدية الهزيلة، خاصة مع ما لاحظه بعينيه من تصميم.

كان الأمر بغاية الصعوبة عندما أرغم الفتى نفسه على أكل ثلاث بيضات وقطعة كبيرة من اللحم مع كل وجبة، في المرة الأولى بالكاد استطاع إنهاء بيضة واحدة، بينما في اليوم نفسه قررت معدته معاقبته بشدة بإفراغ كل شيء كنوع من الاحتجاج، إلا أن ذلك لم يثبط من عزيمته شيئًا، فخلال عدة أيام اعتاد البيض واللحم، وبعد عدة أسابيع انتبه لمفاجأة، لقد أحب البيض واللحم! رغم كرهه لهم طوال حياته، لكنه الآن يفضلهم، ويستمتع بطعمهم، ويتلذذ بأكلهم.

***

في واست، بعد انتهاء النظام اليومي، اصطحب سنموت الأميرتين للميناء الرئيسي للمدينة، فاليوم هو موعد الجزية الجنوبية، قال سنموت: "اليوم نستقبل الجزية الجنوبية، هذا العمل في غاية الأهمية، حيث يجب مراجعة كل شيء".

حمل سنموت شقافة كتب عليها جدول، أراها للفتاتين وقال: "مكتوب هنا اسم كل بلدة أو قبيلة، والجزية المقررة عليها، يجب مراجعة كل شيء مع الكتبة، والتأكد من دقة الأرقام، وسير لظام التسليم والتسلم".

"لم إذن أرسلت الحملة لبونت؟" سألت مريت رع، فأجاب سنموت: "كما تبعد السماء عن الأرض، هكذا يرتفع طموح الملكة ماعت كا رع، لا تكتفي جلالتها بتلك الهبات الضئيلة، بل ستفتح الحملة في حال نجاحها بابًا ضخمًا للتجارة الجنوبية، فتتضاعف البضائع الثمينة والهبات الملكية للمعبد".

سألت نفرو رع: "وهل تأكدت من كل شيء بخصوص الحملة؟"

أجابها: "نعم يا صغيرتي، لقد أشرفت بنفسي على التقارير كلها، وجمعت كل ما يمكن من معلومات حتى نتأكد من نجاحها".

وصل ثلاثتهم للميناء، حيث وقفت بعض المراكب، التي اختلف شكلها وحجمها عن مراكب كمت كثيرًا، فسفينة واحدة من أولئك الذين أرسلتهم الملكة إلى الجنوب، قد تحمل بضائع تكفي لملء خمسة مراكب من تلك الجنوبية. وقف الرجال الجنوبيون ببشرتهم الداكنة يفرغون مراكبهم من حمولتها، وجلس سنموت مع الفتاتين بالمقصورة العليا، التي تشرف على الميناء، لملاحظة كل شيء من الأعلى.

"هنا يجب أن نتسلم تقارير كل بلدة، ونتأكد من جلبهم لجزيتهم كاملة"، قالها سنموت ونظر حيث جلست الفتاتان، ليجد نفرو رع وحدها، سألها: "أين مريت رع؟".

أجابت: "لا أعرف، هذه عادتها".

على عكس نفرو رع، لم تهتم الأميرة الصغيرة مريت قط بأمور الحكم تلك، بل كل ما أحبته هو الزرع والحيوانات والطيور، المعتادة منها والغريبة، أحبت مريت رع متابعة نباتات حدائق البرعا، خاصةً الريحان الذي أسرها بعطره الجذاب، أحبت الفتاة دائما قطع أحد البراعم وفركه، أو رش النبات بالماء وتمرير يديها بين أغصانه وأوراقه الخضراء ذكية الرائحة، واهتمت بغرس بذوره في عشرات الأواني الفخارية الصغيرة، التي زينت مسكنها. نادرًا ما شوهدت الأميرة الصغيرة دون نبتة ما، أو فرع صغير من شجرة تحاول غرسه، لذا فغالبًا ما وسم الطين علاماته السوداء على أرديتها البيضاء، مما أشعل غضب أختها نفرو رع بشدة، فكثيرًا ما مثلت لتلك الأخيرة مصدر إزعاج شديد، قوبل بلا مبالاة من جانب مريت رع.

وأما عن الحيوانات والطيور فهي قصة أخرى، فعادة ما تفقد مريت رع تركيزها في أي شيء في الدنيا لمشاهدة طائر ما، حتى إن استمر الأمر لساعات طويلة، تربع الهدهد على عرش نجومها، أحبت الفتاة تاجه الجميل وشكل جسمه الرشيق، واختلاف درجات لوني البني والأسود على ريشه الأخاذ، كل ذلك بالإضافة لقطها الأرقط السمين الكسول، فملأت الفتاة دائما أرجاء القصر باسمه، دائمًا ما تناديه ولا يهتم، تبحث عنه تارة وتطارده أخرى، وتحتفل به من حين لآخر إذا أحضر لها فأرًا ميتًا صاده كهدية، كل ما تفعله مريت رع من أنشطة في يومها المعتاد يثير غضب نفرو رع إلى حد الجنون، لذا أضحت مريت رع بغاية السعادة عندما انتهى بناء قصر خاص لأختها الكبرى، مما أعطى لها مساحة ضخمة من الحرية، فبانتقال الأميرة الكبرى تحول مسكنها فجأة لحديقة نباتات وحيوانات ضخمة، فدخلت الكلاب العادية لأول مرة البرعا، عندما أمرت الفتاة أحد الخدام بإحضار كلبة مع جرائها في سلة، وسمحت لهم بالعيش في الحديقة، بل وأمرت ببناء بيت صغير من الطين لعائلة الكلاب التي تكونت من تسعة جراء مع أمهم، من اليوم الأول رأي الجميع الحب الجم والثقة البادیین بعيون الكلبة الأم للأميرة، فهي الوحيدة التي سمحت لها الكلبة باللعب مع جرائها.

لم تقنع الفتاة الصغيرة بالجلوس في تلك المقصورة السخيفة لمتابعة الأرقام المملة، بل انطلقت فورًا بين الرجال في الميناء، تشاهد كل شيء عن كثب، وتلمس كل الجلود والمعادن والعظام والعاج بيدها، أحبت عيش التجربة الحقيقية، فتسمع اللغات الغريبة، وترى الوجوه المختلفة، فتشعر بنبض كل شيء، وتركت المهمة المملة للفتاة المثالية كالعادة، فلتراجع هي التفاصيل وتعد الأخشاب والجلود.

عاشت مريت رع لحظات ممتعة وهي تمر بين الناس والحيوانات حتى وصلت لضفة النهر، فجلست تشاهد المراكب تتراقص على صفحته، يملأ الفراغ الكون من حولها منذ سفر تحتمس للشمال، فهو الوحيد الذي تمكنت من الحديث معه، أما الآن فهي وحيدة، تشعر بقبضة البرعا تزداد سوءًا، وكأن ما تبقى من الهواء في العالم لا يكفي رئتاها بعد رحيله، لذلك كانت فرصة ذهبية أن تشاهد ذلك المهرجان اليوم، فرصة لتهرب من البرعا.

تابعت نفرو رع كل شيء من أعلى بجدية تامة، فهذه ستكون إحدى مهامها بعد توسيع تحتمس لحدود مملكتهم، ستجلب البلاد المجاورة الجزية السنوية بكميات ضخمة، وسيكون على نفرو رع القيام بهذه المهمة. انقضى اليوم المتعب بسرعة بالغة، وسافر قرص الشمس للبر الغربي، حيث سيسطع في عالم الأموات. عاد الجميع إلى البر عا بعد قضاء بعض الوقت في البحث عن مريت رع، اغتسلت نفرو رع فور عودتها، وتوجهت إلى مسكن والدتها حيث وجد سنموت، بدت على ملامح حتشبسوت الجدية، فتساءلت نفرو رع: "ما الأمر؟"

أجاب سنموت: "وصلت رسالة من نحسي، لقد بلغت الحملة الجندل الرابع".

قالت نفرو رع بلهجة متشككة: "حسنًا، أظن أن هذا خبر جيد".

قالت الملكة: "حتى الآن هو خبر جيد، وصلت الحملة بالفعل لأبعد نقطة يمكن الوصول إليها، أما القادم فيعلمه آمون رع، أتمنى ألا يسخر منا كعادته".

أضاف سنموت: "صحيح أن هذا أبعد مكان وصلته حملاتنا من قبل، لكن يا سيدتي هذا أمر جيد، فات الجزء الأكبر من الحملة، وقريبًا سأحضر لجلالتك خبر نجاحها وتوجهها إلى طريق العودة".

"تعلمت ألا أثق بالأقدار يا سنموت، إن لم تنجح الحملة سيعلم الجميع، وستنتشر الأخبار أن النترو لا يؤيدون حكم حتشبسوت".

أجابها: "لكن هذا لن يحدث يا مولاتي، ستعود الحملة بخيرات البلاد الجنوبية، وسأشرف بنفسي على عمل الرسامين بتوثيق تفاصيلها بمعبد إيبت سوت".

قالت نفرو رع: "أنا أثق بتدبيرك، وفي كفاءة السيد سنموت، سنحتفل معًا قريبًا بعودة الحملة، وسأسير خلفك وأنت تحرقين بخور الأشجار العطرية المغروسة بحديقة المعبد".

"فعلنا كل ما بوسعنا، وما علينا الآن إلا الدعوة لآمون رع، أن يكف عن سخريته"، قال حتشبسوت في حذر.

***

خلال أربعة شهور أخرى لم يحدث أي تغيير يذكر بمستواه البدني، حتى مع نهمه المتزايد، لكن بدأ الجميع يلاحظ زيادة وزنه، وبعض الثقة التي تسللت إلى قرينه المحبط، بالإضافة إلى عظم ذراعيه الضعيفين اللذين بدءا يكتسيان باللحم، وبدأت بعض الأعصاب القوية أيضًا بالظهور. تطور مستواه في التعامل مع الأسلحة وحملها، السيف والفأس والرمح والقوس، واظب تحتمس على التدريبات كل يوم بصفة فردية، بالإضافة إلى التدريبات المجمعة للمجموعة، في أعماقه تصميم صلد، فحتى وإن كان مجهدًا أو حزينًا، أو حتى إن مرت الشهور دون أن يرى أي جدوى من التدريبات، استمر ولم يتوقف.

أصبح التدريب جزءًا من حياته حتى من دون أي تحسن، ولم يسمح لسخرية أي شخص بالتسلل إلى قلبه، ولم يفكر في النتائج، لكن كل ما شغل تفكيره هو محاولة أداء تمرينات الضغط أو العقلة، حتى لو لمرة واحدة، وبدا ذلك دومًا مستحيلًا.

بعد انتهاء أحد تدريبات النفرو، جلس تنتيو مع تحتمس على سريره وقال: "أشعر أن مستوانا يتحسن، يمكنني الآن لعب الضغط، لم أتخيل أني سأتمكن من ذلك، أنا متأكد أنك أيضًا ستتمكن من أداء التمرين، خصوصًا مع تلك العضلات"، وأشار إلى ذراع تحتمس.

"ما زالت ضئيلة"، بإحباط أجابه.

أضاف تنتيو: "أتذكر أول يوم لنا هنا؟ عندما وقع سيفي ببداية التدريب، وأمر الإمير مرين رع المجموعة أن تمر على ظهري، تضايقت كثيرًا، تعلم أنني أخاف، ومنحوس، كنت أكثر من اختبر المشاكل من أول يوم في دراستنا، لكني فكرت أني، حتى لو كنت منحوسًا، فسأغير حظي، لذلك بدأت أتحدى نفسي في التمارين، ضغطت على نفسي أكثر، رغم محاولاتي للهرب من المهمات والعقاب، لكن الوضع تغير، أعاقب أقل كثيرًا عن السابق، أصبحت أقوى، ومتأكد أنك أيضًا ستكون أقوى، أتعلم لم؟"

"لم؟"

"لأنك أنت السبب في تصميمي على النجاح، عندما حضرنا إلى هنا، كنا أضعف اثنين في المجموعة، لكنك الوحيد الذي ضغط على نفسه بحق في كل تمرين وكل حركة، رأيت النفرو الآخرين يستسلمون للتعب، لكنك لم تستسلم، وأنا أعلم أنك ستخرج من هنا قائدًا عظيمًا، وقررت أن أكون معك، لخرج معًا للحرب، فتتمكن من الاعتماد علي".

اشترك آمون محاب الراقد على سرير بجوارهما في الحوار: "لكنك فعلًا منحوس يا تنتيو، أنت أكثر من عوقب بيننا كلنا"، أثارت جملة الأخير ضحك الكثير من الصبية الذين اتضح أنهم لم يغطوا في النوم، بحركة سريعة قفز تنتيو على سرير آمون محاب فكتفه وأسقطه أرضًا وسط دهشة وصياح الجميع، فلم يجرؤ تنتيو سابقًا أن يتحدى صديقهم الضخم، ويبدأ معه العراك، في لحظة اشتبك معهم مين ضاحكًا، لحقه سننفري، ثم تحتمس الذي شعر بالحماس واشتبك مع جميعهم، وهي السابقة الأولى له في الاشتباك مع أي شخص، ارتفع صوت النفرو فورًا وانقلب حال المجموعة الساكنة، وتعالت الصيحات والضربات والضحكات، حتى من تحتمس ذاته الذي فارقته الابتسامة منذ جاء لهذا المكان، انفض الأمر في ساعة متأخرة وغط الفتية في النوم بسعادة، بعد أن استراحت أنفاسهم من اضطرابها واكتست أجسادهم بالعرق.

ملّى الفتى نفسه بفكرة الملك القوي المحارب الذي سيكونه، رأى نفسه دائمًا شابًا قويًا يعتلي عجلته الحربية، ويقود الجيش لفتح البلاد الأجنبية وإخضاع الأعداء، شعر بطاقة غريبة تشعل النار بقلبه، نار مختلفة عن نار العشق، نار التصميم مهما كان محبطًا، فحصر تفكيره فيما يخص حياته بسؤال واحد: هل يمكنه أن يظل ملكًا هزيلًا لا يقوى على مجابهة الحروب والمعارك؟ هل سيكون مستقبله تكرارًا لحملته الجنوبية التي لم يشعر بوجوده بها أحد؟

كانت إجابته الدائمة "لا"، فاستفتى تحتمس قلبه الذي قدم له الخيارات الصعبة بكل ثقة، وبذل بها كل الجهد لينجح، وما زال الفتى يحاول، دون نجاح، أداء أي تمرين من تلك المستحيلة، لكنه استمر على أي حال، فإن كان الاستمرار هو مفتاح النجاح فسيستمر حتى يوم وفاته، ولن يقبل أبدًا أن يكون ملكًا ضعيفًا..كأبيه!

لن تنتهي سيرته أبدًا كهذا، بل سيكون مثالًا على أن كل فرد يصنع مجده أو خيبته بنفسه، وإن صنع والده خيبته، فسيحلق منخبرع بمجده فوق السحاب.

***

العام التاسع من الحكم المشترك للملكين حتشبسوت ماعت كارع وتحتمس منخبرع، مر عام على انطلاق حملة بونت، لكن الرسائل تصل من قادة الحملة للعاصمة بصفة دورية، فطمئنة البرعا بأن الأمور بخير، إلى أن وصلت رسالة حملت السعادة للبرعا وللعاصمة كلها، فقد وصلت الحملة بأمان والتقى أعضاء الحملة من كمت مع حاكم بونت وزوجته بكل ود، وتبادلوا الهدايا، ستمكث الحملة بالبلاد الجنوبية المقدسة لفترة في استضافة الحاكم الطيب، لدراسة الطبيعة وتبادل الثقافات والبحث عن كل ما هو غريب ونادر، لتفتح آفاق جديدة للعلاقة بين البلدين، هذا تتويج لمساعي الملكة لبناء هرم بين جبال عظمة الأجداد، فليس من اليسير التفوق على إنجازات الأسلاف العظماء، الذين أرسوا نظامًا بعد الفوضى، وأنجزوا المعجزات المعمارية والهندسية،

وأنشأوا أعظم حضارة عرفها التاريخ، خاصة وإن كان الملك امرأة!

خلال تلك الفترة غاص قلب نفرو رع في الشوق إلى رفيق طفولتها الغائب بالشمال، بالعام التاسع أصبحت نفرو رع بعمر الرابعة عشر، فتاة شديدة الجمال، ممشوقة القوام، يشرف على قصرها جيش من الموظفين. لم تمر لحظة منذ سفر تحتمس إلا واحتل الفتى كل فكرها، نامت بسعادة كل ليلة لأنها تراه في أحلامها، يقترب لقاؤهما أكثر بمرور الوقت، قريبًا سيُضحي حبيبها ملكًا قويًا، سيتمكنان معًا من تحقيق طفرة عظيمة، كما فعلت والدتها. لقد أحبت نفرو رع والدتها حتى العبادة، ليس فقط لأنها خرجت من رحمها، لكن لأنه لم يوجد أي شخص في كل أنحاء الأرض يمكنه أن يحلم بالحصول على أم بعظمة جلالة الملكة ماعت كارع.

علمت نفرو رع سابقًا أن آمون مس كان الوريث الحقيقي لعرش كمت، ولم تمهله الأقدار، حاصرت الأميرة والدتها بالأسئلة حول ذلك الفتى الفقيد الغامض بلا جدوى، لكن بعد سفر تحتمس للشمال فتحت حتشبسوت قلبها الرقيق لأميرتها نفرو رع، وحكت لها عن علاقة غرام جمعتهما، لم يحل حتى والدها محل بطل الملكة الراحل، بشغف ألقت الأميرة نظرة على ذلك الجانب من الملكة، جانب خفي لم تظن الفتاة أن بإمكانها اكتشافه.

التهمت نفرو رع حكايات والدتها عن آمون مس ورحلته للشمال، كان الأمير الراحل أفضل ما يمكن لأي فتاة أن تأمل، فبرغم قوته الشديدة وفخره، كان طيبًا رقيق القلب، يمكن لقلبه احتواء العالم بكل مخلوقاته، ليست الفتاة فقط من أحبته، لكنه حصد حب كل ما دب فيه الروح طول أعوامه السبعة عشر، في سفره الأخير إلى الشمال وعد حتشبسوت بالزواج عند العودة، وتقرر بعد عقد قرانهما أن يصطحبها الملك في إحدى أقوى الحملات للجنوب، لكنه عاد من الشمال مومياء.

اخترق سهم قلب نفرو رع من القلق على حبيبها، رجت الفتاة النترو كل يوم أن يرعوا الملك الصغير، كي لا يلاقي القدر المشؤوم نفسه الذي قنص روح عمه من قبل، قدمت الفتاة ما استطاعت من النذور والقرابين والأضاحي، ليحفظ النترو حياة زوجها المستقبلي. تسلل شعور مظلم لقلب الأميرة بكتف المعبد، فلديها يقين بعودة ملكها لشغل عرشه لعشرات السنوات، وظفر العديد من الحروب، لكنها شعرت بالقلق من أن يكون اطمئنانها مجرد انعكاس لرغبتها، بينما ستعبث الأقدار بحياتها كما حدث مع والدتها. ومن شدة حبها له ترجت نفرو رع النترو بجعل أي شر بانتظار الملك من نصيبها، حتى ينعم تحتمس بالعمر المديد على عرش أجدادهما، كثيرًا ما طلبت نفرو رع من الكاهن الأعظم حابو سنب أن يطلب في كل صلاة من النترو الحفاظ على حبيبها ودعمه وتوفيقه، ولبى الرجل طلبها بكل حماس وخشوع، فقد وقع رهانه الشخصي على الملك الصغير، مع وجود سنموت ومؤيديه فقد الرجل مكانة وجب أن يحتلها، لكنه أقسم أن يصلح ذلك الخطأ، فأصبحت علاقة أبوته الدينية للملك الصغير أمرًا خلابًا، ضمن به الكاهن نفوذًا مستقبليًا مع الملك القادم.

في الليلة السابقة رأت نفرو رع ملكها في الحلم رجلًا بالغًا، يطير بعجلته الحربية عائدًا من الحرب ظافرًا، عالج ملكته بقبلة وسجدا معًا في حضرة ملك النترو آمون رع بمعبد إيبت سوت، وأمرا بتقديم الأضاحي حمدًا على النصر، كثيرًا ما رأت الفتاة مستقبلها حيث حباها النترو ولدًا، أعطاه أبواه اسم أمنمحات، تيمنًا بأسلافه العظماء ملوك واست السابقين، مرت الليالي والولع بتحتمس في قلب الأميرة يغتال روحها، حبه كالهواء الذي تتنفس، ملأت نفسها بيوم اللقاء، كيف ستغمر المدينة السعادة بعودة ملكها الشاب.

في اليوم التالي بالبرعا قدم الوزير تقارير عدة بالإضافة إلى تقاريره اليومية، تحوي كل أنواع الهبات، التي أهداها النتر آمون رع لكمت من الجنوب كجزية سنوية وكيفية توزيعها، فتح سنموت رئيس الخزانة والوزير وسر الخزانة الملكية، وأشرفا على إيداع الدفعة الجديدة من الذهب في الخزانة الضخمة، بينما تواجدت مريت رع للمرة الأولى بالقاعة العظمى.

عاشت الفتاة بعالم خاص، أحاطته مخلوقات لا تتحدث بلغة البشر، عادة ما فهمتهم الفتاة بسهولة، لم يدخل إلى تلك الدائرة إلا شخص واحد وهو تحتمس، لذا اختلفت الحياة كثيرًا منذ فارق العاصمة، فقدت الفتاة رفيقها الوحيد، خاصة وهو أحد أفراد العائلة الملكية، وهي معجزة أن يتمتع فرد ما بتلك العائلة بذلك

القدر من اللطف والتواضع، لكن في بعض لحظات الصدق اخترق قلب مريت رع شعورٌ غريبٌ، عندما تذكرت آخر لقاء جمعهما قبل رحيله، تغير شيء ما، زاد إحساسها بذلك التغيير من ناحية تحتمس مع زيادة أعداد الرسائل من العاصمة الشمالية والجنوبية بينه وبين البرعا، توجه الجزء الأضخم منها إلى نفرو رع، ومع مرور الوقت اكتفت الرسائل ببضع كلمات مقتضبة خصت مريت رع حتشبسوت، يبدو أن الفتاة المثالية انتزعت كل شيء من يدي الأميرة الصغيرة، التي لم تبالِ بأي شيء فيما عدا تحتمس المقرب إليها، هو رفيقها الوحيد وشريك عالمها المميز، أحبته حتى العبادة وانصاعت بطيب خاطر لكل طلباته، لذا عندما فقدته، أو انتزعت من قلبه واهتمامه، اشتعلت النار بقلبها كرهًا للجميع، خاصة نفرو رع معبودة كمت وأهلها.. وملكها الصغير أيضًا.

في القاعة الكبرى بذلك اليوم تواجدت مريت رع على غير العادة، وعدها سنموت سابقًا، باصطحابها اليوم إلى ساحة ماعت، فلطالما أرادت الفتاة التوجه إلى تلك المدينة الغريبة، التي لم يُسمح لعموم البشر بزيارتها، وبما أن الممنوع مرغوب، فدائمًا ما رغبت الفتاة -وكل شخص آخر- بزيارة تلك المدينة الساحرة، فهناك اجتمع نخبة المهندسين والفنانين والحرفيين، أقاموا مع عائلتهم فتكونت قرية خاصة، احتوت المدينة على كل ما يمكن أن يحتاجه المجتمع المتحضر، من شرطة ومستشفى وبيوت، بالإضافة إلى عدد ضخم من المكاتب والمصانع والورش، مكان مدهش بحق، لذا لم تطق مريت رع الانتظار حتى انتهاء البروتوكول اليومي، بل انتظرت منذ الصباح بالقاعة، ببطء شديد مر كل شيء، من تسليم التقارير من المسؤولين للوزير ثم منه لسنموت، ثم منهما للملكة، ثم مراجعة الخزانة الملكية، والتأكد من سلامة كل شيء، عبرت الشمس أكثر من نصف رحلتها النهارية حينما بدأ سنموت رحلته مع مريت رع للمدينة، انهالت الأسئلة من مريت رع لسنموت، أظهرت الفتاة ذات الاثني عشر ربيعًا نبوغًا لا تظهره عادة في دراستها، أو بدروس العزف على القيثارة.

تساءلت الطفلة: "لما أمر الملك أمنحتب ببناء هذه المدينة؟"

"ليعيش بها الفنانون والمهندسون والحرفيون، القائمون على تنفيذ مشاريع المملكة في البر الغربي".

"أعرف ذلك، أقصد لما يسكنون في مدينة خاصة، ولا يسكنون في بيوت عادية في المدينة كبقية الناس".

"لأن وجودهم في مكان مخصص لهم، يسهّل تنظيم العمل ومتابعتهم والإشراف عليهم، وتنفيذ أعمال أكثر بمجهود أقل".

انبهرت الفتاة بعبقرية الجد أمنحتب، فقالت بحماس: "فكرة رائعة". بات من الواضح تأثيرها، بطفرة قوية في الأعمال الإنشائية والفنية، خاصة بعد ما عانته البلاد تحت وطء الحقاو خاسوت الأخساء.

أضاف سنموت: "صحيح أمر الملك أمنحتب ببناء المدينة، لكن وضع المدينة الحالي هو عمل جلالة الملك المبرر تحتمس جدك صادق الصوت".

وصلا مقا للميناء، وهناك استقلا قاربًا صغيرًا، مر بهما من الضفة الشرقية للنهر إلى الضفة الغربية، لموقع قريب لمناطق عمل الحرفيين بالجبانات بالبر الغربي، احتل الانبهار قلبها عند وصولهم للبوابة، فهناك سور متعرج يبلغ ارتفاعه طول الفتاة، يحيط بالمدينة كلها ويحتوي على مجموعة من البوابات، أوضح سنموت: "هذا السور المتعرج يرمز للمياه الأزلية المقدسة نون، التي خرج منها التل الأزلي وبدأت عليه الحياة، بالإضافة إلى أنه لن يحتاج إلى أعمدة مثل السور المستقيم".

قفزت الفتاة بغبطة من شدة الحماس عندما دخلا المدينة، كان على سنموت أن ينهي مهمة في أثناء الزيارة، ولم يكن من اللائق اصطحاب الأميرة، لذا أمر سنموت رئيس عمال الشمال نفريب باصطحاب الفتاة بأرجاء المدينة، وشرح كل شيء يخص المؤسسات العمالية حتى ينتهي من مهمته.

بسعادة اصطحب نفريب الفتاة على عربة كبيرة، مرّا في البداية بالمنطقة السكنية التي احتوت شوارعها الضيقة على عدة منازل متواضعة، إذا ما قورنت بمكان سكنى الأميرة، ثم إلى مصنع الجعة، فقال نفريب: "يصنع هذا المصنع الجعة لكل قاطني المدينة، في الغالب ما توزع أقداحها كجزء من التعيين اليومي للعمال،

يمكن أيضا شراء كميات أكبر للراغبين، يدخر الكثيرون من رواتبهم لعمل بعض الحفلات الليلية في أيام راحتهم، ولكل عامل يومان راحة في العاشور، بالإضافة للعطلات الرسمية والإجازات العارضة بسبب المرض أو ما شابه، لذا من الطبيعي أن يبحث السكان عن وسائل للترفيه بأيام راحتهم".

موضع صناعة الجعة هو الأقرب للمنازل، انتشرت بعده المنطقة الصناعية؛ ورشة صناعة الأواني الفخارية اللازمة لاحتياجات المدينة، ورشة أحذية لصناعة الصنادل، ثم مرا بورشة معدنية لصناعة أدوات المحاجر، من فؤوس ومطارق وأزاميل وغيرها، ثم مدبغة ومصنع المشغولات الزجاجية، حتى وصلا للورشة الأضخم للنجارين، احتوت على عدة أقسام، أهمهم على الإطلاق ما يخص صناعة الأثاث -اليومي والجنائزي- انهمك فيها الصناع والفنانون والعمال والمساعدون بحماس، باعثين رائحة الخشب التي أسرت الفتاة.

سألت عن كيفية اختيار الرجال للعمل بتلك المدينة، فأجابها نفريب: "على حسب مهارتهم وتعليمهم، تقام اختبارات لكل مهنة، وإذا أثبت ابن أحد العمال أو رؤساء الحرفيين مهارته، يمكنه وراثة مهنة أبيه. أنا مثلًا بدأت من الصفر، والدي مزارع لكني عشقت النجارة من صغري، عملت بها وترقيت، حتى صرت رئيس عمال شمال المدينة. على عكس مولتي رئيس عمال الجنوب، الذي ورث عمل أبيه، لكن مهارته ليست مصقولة بالقدر الكافي، لذلك تربح مجموعة شمال المدينة كل المسابقات، فدائمًا نسبق مجموعة الجنوب في العمل، كما أننا أفضل منهم في المهارة".

أثارت مقارنته بين عمال الشمال والجنوب تساؤلات الطفلة، فأسهب الرجل في الشرح قائلًا: "ينقسم العمال في المدينة إلى مجموعتين، اليمين واليسار أو الشمال والجنوب، لكل مجموعة رئيس مسؤول عن العمل وتنظيمه وأداء رجاله، يشرف على طلباتهم ومرتباتهم وإجازتهم وثوابهم وعقابهم، ودائمًا ما يكون هناك منافسات في الإنجازات التي تحققها كل مجموعة، عند تحقيق إنجاز ضخم تحصل المجموعة الرابحة على مكافآت وهدايا، ومجموعتنا متقدمة عن مجموعة الجنوب بفرق كبير، لذلك لا يوجد أحد من مجموعة الشمال بالمحكمة في... آه... في أي مشكلة".

مرا بعد ذلك بالمستشفى، ملحق بها مكتب مخصص لتحضير مختلف العقاقير والأدوية، بالإضافة لغرفة فسيحة خاصة بإجراء العمليات الجراحية، فكثيرًا ما وقعت الحوادث المؤدية لكسر العظام في أثناء العمل، لذا جهزت المستشفى لاستقبال الحالات المحتاجة لرعاية خاصة.

حل المغيب عندما وصلا للمحكمة التي بدا أن بها حدثًا جللًا، فاشتعلت حولها المشاعل، وانتشر رجال المدجاي ورئيسهم حول الحضور، مع بعض قرود البابون المدربة التي استخدمها رجال المدجاي لشراستها وقوتها وذكائها.

المحكمة عبارة عن فناء واسع، تحده منصة بديعة الزخرفة، بها مكتب ضخم جلس خلفه عدة أفراد، بدا الوقار باعثًا للرهبة بوجوههم، التي ازدادت قوةً وغموضًا مع اختفاء ضوء رع، وتراقص أشعة اللهب على قسماتهم القاسية الثابتة، خلف المنصة أقيم حائط ضخم من الطين، رُسمت عليه ماعت ربة العدالة والمسؤولة عن المدينة، معتمرة ريشة نعامة طويلة، تمسك بإحدى يديها عنخ رمز الحياة وباليد الأخرى تعضد يد جلالة الملك تحتمس الأول، وقعت تلك الساحة خارج المعبد الصغير بالمدينة مباشرة، بين رجال المنصة جلس سنموت، بدت على ملامحه القسوة بصورة غير معتادة من الوجه دائم الابتسام.

قال نفريب للأميرة الصغيرة: "لم ينته جناب رئيس الخزانة من عمله، تعالي نذهب للاستراحة فالفرقة الموسيقية بدأت العزف". إلا أنه التفت للفتاة فلم يجدها، انزعج الرجل بشدة وانطلق يبحث عن الأميرة مريت رع، التي مكنها الظلام من الاختباء، فاندست وسط الحضور وأنصتت للرجل الذي بدأ بالاعتراف قائلًا: "اسمي آموني، أحد فناني المجموعة الجنوبية، المسؤولين عن رسم معبد چسر چسرو، سمعت أكثر من مرة العمال يرددون ك ... كلام ... غير ل ... لائق عن جلالة الملكة حتشبسوت، لها دوام الصحة والعافية والكرامة، مع حضرة رئيس الخزانة المحترم سنموت، حاولت معرفة مصدر الكلام، فكما تعرفون حضراتكم تنتشر الإشاعات

بسهولة، ويصعب معرفة مصدرها، خلال فترة كبيرة تأكدت إن باسن هو مصدر الإشاعات، وبلغت رئيس مجموعة الجنوب"، كانت تلك صدمة مهولة لمريت رع، فبدت مشكلاتها السابقة في تلك اللحظة لا شيء، مقارنة بما يجري.

استجوب سنموت رئيس عمال الجنوب فقال: "حضر أموني فعلًا، وأبلغني بكل ما يحدث، لذلك توجهت إلى جناب رئيس شرطة المدجاي خعو، وساعدت جنابه في التحقيق، وتوجهنا مع حملة من رجال المدجاي إلى مكان عملهم، وجدنا تلك الشقافات الصغيرة مع بعض العمال، عليها الرسومات.. التي ترونها".

جريمة شنيعة! على تلك الشقافات رسم واحد متكرر، يمثل امرأة بزي ملكي وتاج منهمكة في علاقة جنسية مع رجل، لا يصعب تخمين المقصودين بذلك الرسم، سنموت وجلالة الملكة، في الغالب وبما أن الأمر يخص صاحبة الجلالة، وجب تولي الوزير وسر أمر القضاء في تلك القضية، لكن سيستدعي ذلك توثيق الأمر في التقارير الرسمية، لذا قرر سنموت الإشراف على تلك القضية الخطيرة، ومن ناحية أخرى سيكون تحذيرًا قويًا، لعدم الوقوع في مثل ذلك الخطأ مجددًا.

تحدث الرجل الموجود أمام الأميرة الصغيرة لزميله، قائلًا بصوت خفيض، بالكاد فسرت الفتاة كلماته: "لو لم أحذرك للتخلص من شقافتك، لكنت بينهم الآن". زجر المنصت زميله برعب، ونكزه آمرًا إياه بالصمت، وبعينين مرتابتين جال بنظره سريعًا للتأكد من أن أحدًا لم يسمعهم، أشاحت الأميرة بوجهها حتى لا يُكتشف أمرها، أول ما جال بخاطرها أن تصرخ لتبلغ عن هذين الرجلين، إلا أن الرجل الأول عاد ليقول: "يعرف كل الناس الحقيقة، أن الأميرة الكبيرة ابنته". لكن الرعب أمسك لسان رفيقه عن الحديث، عجزت حينها الفتاة حتى عن الحركة، ظنت أن كل هواء الكون نفد، فخنقتها الصدمة.

بالقرب من المنصة زبط بعض الرجال عراة، لم يقل عددهم عن عشرة، بدا واضحًا ما تعرضوا له من تعذيب، استمر تبادل الأسئلة والإجابات والاتهامات، اعترف الرجال كلهم بنشرهم لتلك الشائعات، دنا منهم الموت حتى شعروا بأنفاسه الكريهة، وزاغت عيونهم المنهكة أثر التعذيب، فلم يعد أي جزء من جسدهم سليمًا، بدأ رمي العقوبات على المجموعة واحدًا تلو الآخر، اشتمل أكثرها على الإعدام وأخفها جدع الأنف والعمل بالمناجم. انصرفت الفتاة في أثناء توزيع العقوبات، اختلف العالم بإدراكها، مشت بغير هدى، زاغت نظرة عينيها، وهرمت روحها، كأنها عاشت عددًا لا يحصى من السنين. شعرت الفتاة فجأة بيد تنتشلها من الازدحام، فالتفتت لتكتشف أنها يد نفريب الذي تنفس الصعداء وسأل الأميرة عن اختفائها، فتصنعت عدم الاكتراث مجيبة أنها ضلت الطريق بسبب الظلام، قادها الرجل لمكان حفل العمال، حيث انتشرت الموسيقى والشراب والروح المبتهجة، حياه رجاله بحرارة بمجرد أن وقع نظرهم عليه، فكلهم من رجال شمال المدينة، الذين احتفلوا -بفضل إشرافه الحازم وعدله- بما أنجزوه، بينما يقضي رجال الجنوب ليلة مروعة بالمحكمة، ويعاني بعضهم من عقاب شديد، لعدم قدرة رئيسهم على تطويعهم، فمثلت قيادتهم عبئًا عليه أكثر مما مثلت من شرف، لكن الليلة غالبًا ستكون الأخيرة له كرئيس..

خلال وقت حضر سنموت، واعتذر للفتاة عن تأخره وعدم مرافقتها بالجولة، سألها الرجل إن أعجبتها المدينة، وتود زيارتها ثانية، فأجابت: "لا". لم يتوقع الرجل إجابتها، ولاحظ تبدل فرحتها في بداية الزيارة لعبوس، وأيقن أنها سمعت ما لا يجب، زعمت الفتاة أنها متعبة حتى لا تُلقى عليها أي أسئلة، ظلت برحلة عودتهم صامتة كئيبة، عكس ما كان من رحلة الذهاب.

بمسكتها بالبر عا قامت برأس الأميرة حرب تتزاحم بها الأفكار والذكريات، واختلفت نظرتها إلى الرجل إلى الأبد، رحلت الفتاة صباحًا وأسوأ مشكلاتها هي الغيرة من أختها -المزعومة- نفرو رع، ليت الأمور ظلت كما كانت، ليتها لم تذهب لتلك الرحلة التي غيرت حياتها كلها، لم يستغرق الأمر طويلًا حتى غطت الأميرة بالنوم بينما ترقرقت بعينيها الدموع، وغلف روحها رداء حزين قاتم، ونخز الألم قلبها، الذي لم يعد قط كما كان.

***

انتهت الخدمة الصباحية للتو بمعبد إيبت سوت، حضر بومرع للمعبد لمقابلة كبير الكهنة، بينما أنهى رخمي رع خدمته بسلام عندما وقعت عيناه على الأول، فسارع لمقابلته بسعادة شديدة، بمحبة سلم كلا الرجلين على بعضهما، انتهت الخدمة الصباحية للتو بمعبد إيبت سوت، حضر بومرع للمعبد لمقابلة كبير الكهنة، بينما أنهى رخمي رع خدمته بسلام عندما وقعت عيناه على الأول، فسارع إلى مقابلته بسعادة شديدة، بمحبة سلم كلا الرجلين على بعضهما، وتبادلا عبارات التحية المعتادة، ثم قال بومرع: "مبارك رتبتك الجديدة يا كاهن آمون عالم الأسرار، مع أني سعيد أنك كاهن، لكني وددت لو كنت معنا في ساحة ماعت، أن تعمل مهندسا لنظل معًا".

أجابه رخمي رع: "للنترو أسلوبهم الخاص لتحديد طرقنا، يشغل كل شخص مكانه المناسب"، قاطعه بومرع "لا.. ما زلت في غير مكانك المناسب، أنت أعظم كثيرًا من مجرد كاهن".

"مجرد كاهن هي منحة عظيمة من آمون رع، يستحق عليها المدح طوال حياتي، ليس من مكان في الدنيا أحب أن أقضي فيه حياتي أكثر من حوائط هذا المعبد".

"النتر آمون رع يحضر لك مستقبل أعظم كثيرًا، وأنا متأكد".

اقترب منهم حابو سنب فقال: "أنهيت تجهيزات العرس؟"، أجاب بومرع: "نعم، كل شيء جاهز".

اجتهد بومرع في كل نواحي الحياة، لكن أحد أهم إنجازاته كان الحصول على ثقة أكبر سلطة دينية في كمت، وعلى ابنته أيضًا، فسيشهد اليوم التالي عقد قران بومرع، على ابنة حابو سنب الجميلة سني سنب ذات النسب الرفيع، قال الكاهن الأكبر: "حصلت لك على تصريح من جلالة الملكة بإجازة كبيرة، رغم تعطيل ذلك للعمل في معبد جسر جسرو، لكن جلالتها وافقت".

أضاف رخمي رع: "لن تجد جلالة الملكة أفضل من بومرع، ليكون البناء الأول للملكة، لذلك سمحت له بإجازة جيدة، لن يتوقف العمل أبدًا بعد الآن، ولن نتمكن من رؤيته مجددًا". ضحك الرجال بسعادة، وانصرف رخمي رع، ليخبر بومرع حماه بآخر تفاصيل العرس والطعام والشراب الخاصين بالاحتفال.

في اليوم التالي قبل المغيب، أعدت ساحة واسعة للعرس، واستقرت المقاعد والمناضد على صفين، أحدهما للرجال والآخر للنساء، وصل أغلب الحضور عند الغروب، شمل الحفل الضخم أهم رجال المملكة، فلن يمر عقد قران أخي الملك في الرضاعة على ابنة الكاهن الأكبر مرور الكرام. قدم أحد الكتبة عقد الزواج ليوقع عليه الزوجان المستقبليان، ثم وقع حابو سنب على الوثائق، ثم القاضي بويا والد بومرع، ثم وقع جميعهم على نسخة دار الوثائق الرسمية بالمحكمة.

قدم أهم الحضور مباركتهم وهداياهم للزوجين، بعد تهنئة الملكة ومباركتها، فتقدم سنموت أولًا كأهم من بالحفل، مخضبة عينيه بالدمع ليبارك لبومرع، بكلمات طيبة تمنى له السعادة والحياة والنجاح والرزق الوفير، أهدى سنموت الزوج الشاب صندوقًا صغيرًا من الأرز، احتوى على قلادة من العقيق على شكل تميمة القلب، هدية قيمة جدًا ومن غير المعتاد تقديمها من رئيس عمل لمساعده، شكره بومرع بشدة، وربت على كتفه حابو سنب، للحظة ظن الجميع أن عداوة لم تجمع الرجلين قط، وانهال بعدها سيل المباركات والتهاني من الحضور كل حسب مقامه. بقت مأدبة العشاء الحافلة بكل ما لذ لفترة طويلة، حافلة بما يكفي من الطعام لكل سكان المدينة تقريبًا؛ عجل وخروفين وغزال، وانتشر البط والوز المشوي، تراصت بجانبهم ثمار الرمان والعنب مع التين والجميز، أما عن المشروبات، فهناك ما يكفي لاستهلاك كل شخص بالمدينة لعشرة أيام، فانتشرت أنواع الجعة الكثيرة، والخبز الذي يصنع منها، مع نبيذ العنب والتمر، وأصبح أثر ذلك واضحًا بعدما بدأ بعض الحضور في إظهار آثار ثمالتهم. تدفقت دقات الطبول السريعة السعيدة وطرب المغنيين طويلًا، وانطلقت نغمات المزامير، فطارت أرواح الحضور بسعادة، حتى إن مريت رع التي حضرت للحفل نست قليلًا ما غطى قرينها بالكآبة، وطربت للحفل حتى وقعت عيناها على معلمها سنموت، فأصيبت بعبوس شديد، لمح رئيس الخزانة إشارة كا الأميرة الصغيرة بسهولة، خليط من غضب واحتقار وحزن، لم يقدر سنموت أن يتحدث للأميرة، لم

يقدر أن يبرر لها جريمته التي لم يقترفها.

كان الرجل أول من غادر الحفل، عاد سنموت إلى قصره بقرين غارق في بركة من الوحل، كيف له أن يعاني هذين التناقضين؟ كيف للميت جوعًا أن يُتهم بالتخمة؟ أو لمن يعاني الجفاف أن يبرر تبذيره للماء؟

لن يكون هناك فرصة للنوم، فلجأ سنموت لحيلة، أمر بإشعال الشموع بغرفة مكتبه بالطابق الثاني، وهم في إخراج البرديات الثمينة التي يجمع منها ما ستكون لوحة فنية تغطي مقبرته، أعد اللازم لمقبرته الخاصة، فهو يعلم أي تهديد ينتظره بعد موته، لذا بمساعدة بومرع عمل الرجل بجد لتحصين مقبرته. أحب سنموت بومرع مساعده بشدة كابن لم ينجبه، وأنى له أن ينجب أو يتزوج، فعِلّته تمنعه، اكتشف سنموت أن هناك خطبًا ما في عمر مبكر مع أقرانه بالجيش، بعد أن ضُم للجندية كنفر في سن مبكرة بأيام الملك المبرر تحتمس الأول، حينما بدأ الفتية بالبلوغ وشرعت أجسامهم بالتغيير، ولم تخلُ أحاديثهم من أمنيات الزواج وامتلاك المحظيات، لكنه لم يشاركهم تجربته، فعلم لاحقًا أن طول انتظاره لن يثمر أبدًا، ومنعه عجزه عن العيش كأي فرد من أقرانه، بعد أن ظن سابقًا أن دمامته هي كل ما يعيق زواجه، فنال السخرية دائمًا من إخوته وأصدقائهم. غاص حلقه في المر عندما فهم ما يعانيه، فلن يتسنى له الزواج وإقامة أسرة بعدما خانه رفيق افتخر أقرانه بقوته، سعت والدته بكل ما أمكنها من تحضير المستحضرات وجلب التعاويذ، وإقامة الصلوات وتقديم القرابين ونذر النذور، وتقديم كمية ضخمة من الخس والجرجير وزيوتهما، لكن بلا طائل، ألحّت عليه بالزواج، فربما تحل عروس جميلة عقدته، لكنه قرر مصارحة نفسه، حتى لا يعيش على أمل هزيل يعزله عن الواقع ويعثر طريقه بالحياة، إن لم يرغب النترو في أن يصير سنموت رجلًا كامل الفحولة، فهذا يعني أن له دورًا آخر.

استغل الفتى نقصانه كدافعٍ ليتقدم الفتية بالذكاء والشجاعة، كأنه يعوض فقدان عزيز لم يمتلكه، ونجح الدافع، وانطلق نجمه يحلق بشجاعة وذكاء وإقدام، حتى اختير للتواجد بجوار أعظم من داست قدماها الأرض بكل تاريخها، فتاة ولدت لتُعبد، اتقد كاها بذكاء فذ وشخصية آسرة، فهم سنموت حينها ما الغرض من نقصانه، سيكون له دور عظيم، لن يتاح لأي رجل تأديته تحت ضغط شهواته، لذا وجب أن يكون ذهنه صافيًا تمامًا، وقد كان.

رغم تقدمه بصفوف الجيش، لكن ذلك لا يقارن بما أنجزه لاحقًا بالبر عا، في انطلاقه بسرعة البرق وقوة رعده، احتل مكانة العابد الأول لجلالة الملكة، التي قُدّر لها النترو تحكم أعظم مملكة على الأرض. خيم حزن شديد على روحه قبل بداية خدمته لحتشبسوت المعبودة، ونغص عليه لقصه حياته، تذكر في تلك الليلة حينما كانت أعظم أمنياته أن يشاهد جنازته الشخصية، فبعد أن علم سنموت بدائه وعند عودته من الجيش في إجازة صغيرة لقريته، شيع أحد الجيران الذي ترك في الدنيا زوجة وطفلين، تزامنت عودته إلى القرية مع إقامة جنازة الجار، شيع كل أهل القرية فقيدهم ببالغ الأسى، رافقهم هو بحزن شديد، ومنذ ذلك اليوم كانت أمنيته الوحيدة حضور جنازته الشخصية، وكأنه أراد معاقبة الدنيا على ما أفقدته، أراد أن ينعى الجميع رجولته وشبابه الذين فقدهما، لكن كل شيء تغير حينما رأى الأميرة، كأجمل نترت تواضعت حتى أنعمت على الأنام برؤياها، سحرته الفتاة وسرقت ذهنه، غيرت هدف حياته وكل ما تمناه، فبعد رؤيتها أصبح كل ما يرجوه أن يحيا قدر ما يمكن بين يديها، وكل ما سعى إليه أن يعشقها، كأن روحه المنهكة منذ الصغر غمرتها الحياة بمرأى جلالتها، أقسم سنموت من حينها أن يستحق مكانة الناسك الأول، الذي تطوف روحه عبادة لملكةٍ ترفعت أن تطأ بقدميها الرقيقتين قمم أمجاد البشر.

لكن في ليلة عرس بومرع بكى سنموت فجأة، وأيقظ العرس بداخله عاطفة ظن أنه اكتفى من إشباعها خلال الأميرة نفرو رع؛ وهي الأبوة، لكن فكرة خطرت بباله يوم زفاف مساعده، الذي اعتبره أيضا كابن له، ففكر أن عرس اليوم كان ليكون زفاف ابنه أو ابنته إن كان قادرًا على الزواج والإنجاب، فاخترق قلبه سهم كُتب عليه لعنة الوحدة. لم يكفه عشرات التماثيل التي سمحت الملكة بنحتها له وهو يحمل نفرو رع على قدميه، باعتباره أب آخر، فهو القائم على تعليمها، لكنه أيقن كيف حاول مرارًا خداع نفسه.

توهم سابقًا أن طواف روحه بمعبد عظمة جلالتها غرض كافٍ لحياته، لكنه انتبه لنير الظلم الواقع على عاتقه اليوم، هل كانت علته تمييزًا أم لعنة؟ أليس مجرد عيب قاتل تحايل على تفسيره؟

هاج بركان الأفكار بقلبه، واخترق سهم نظرة مريت رع درع هبته المزعومة، الذي طالما ارتداه ليحمي روحه من الانكسار، كيف يمكنه النظر إليها مع معرفة كل ما يدور بقلبها عن خيانته. هل يخبر الجميع بعلته حتى يبرئ ذمته؟ أم يبتلع حنظل الصبر مع نظرات الجميع واتهاماتهم المستترة، انتهى الأمر أمام المحكمة بمعاقبة بعض من رددوا الإشاعات وروجوا لها، لكن ذلك لن ينهي ما يكنه الناس بصدورهم. الأمر قابل للتصديق، فلا زوجة للرجل ولا أسرة، وليس من يشغل مكان الملك بجوار جلالتها على العرش، تشير كل الأصابع إلى تهمة محددة، أي عبء قرر النترو أن يُحمِلوه، أحقا يحبونه لتلك الدرجة أم يبغضونه، حتى يكون أكثر من كرّم بالحياة وأكثر من ازدرى!

لهث سنموت هاربًا من أفكاره الشعواء بالقراءة، والتحضير لمقبرته، انتهى من تجهيز لوحة عجيبة رسمها على لفافة ضخمة من البردي، فلم يخضع للوحات الفنانين التقليدية عن المشاهد اليومية وبعض التعاويذ كالمعتاد بالمقابر، لكنه صمم بنفسه كل شكل وحرف وكلمة ستنقش بجدران بيته الأبدي، حتى إنه ابتكر نوعًا من الكتابة المشفرة ليستنسخ قوى الطبيعة، وشفر اسم الملكة حتشبسوت لينعم بعبادتها داخل مقبرته للأبد، فهو واثق أن يد الانتقام ستتبعه حتى العالم الآخر، سيتكالب الكثير من أعدائه على النيل منه والعبث بمقبرته، لذا اهتم بتحصينها أشد الاهتمام، بالإضافة لرغبته في الحد من الشائعات، فلم يرغب أن يعرف كل فرد بكمت أن سنموت كتب اسم الملكة بمقبرته، كان ذلك ليزيد الطين بلًة.

عمل على إعداد لوحة مبهرة للأجرام السماوية لسقيفة مقبرته، استهلكت الجهد والوقت والبحث والمراجعة، أراد أن ينفذ معجزة علمية وروحية، حتى لا يستر سقف مقبرته مانع لروحه من التحليق للسماء، لذا قرر سنموت رسم السماء بأجرامها على سقف المقبرة، لم يرسم نوت ربة السماء وجسدها مغطى برداء النجوم كما فعل الكثير بتوابيتهم، لكنه قرر تجسيد السماء بمنظور آخر؛ بعلم الفلك.

دبر سنموت عدة لقاءات مع الرائين من كهنة رع، واطلع على المصادر الحديثة والعتيقة لحصر الأجرام والأبراج السماوية، حتى أنجز بفخرٍ ذلك العمل الإعجازي، ونفذ خريطة لم يجمعها غيره، لكن الأمر جدير بالجهد المبذول، فأبدع في لوحته تلك مع الكثير من التكتم.

خلال بعض الوقت ارتاح قلبه من شياطينه ورقد للنوم، وفي اليوم التالي كان على غير العادة كسولًا كئيبًا، واكتملت كآبته بالمساء، عندما عاد إلى قصره فوجد خبرًا حزينًا بانتظاره، ماتت خادمته العجوز، تلك التي رافقت أسرته منذ كانوا من النبلاء، أحبها الرجل كأمه، شعر بنفحة من الوطن محفورة في ملامحها الجنوبية، لذا أمر بتحنيط السيدة تحنيطًا جيدًا. ولما انقضت أيام تحنيطها أمر بدفنها في فناء مقبرته الخاصة، كان ذلك أمرًا جللًا، فعلى خطى بناة الأهرام العظماء، خوفو وخعفرع، ومنكاورع الذين أقاموا مدنًا كاملة لمشيدي المجموعات الجنائزية، وسمحوا للعمال ببناء مقابر بالقرب من أهراماتهم المقدسة، ليتحدوا مع ملوكهم بالحياة الأخرى ويرافقونهم، كما شيدوا لهم المقابر العظيمة في الحياة الدنيا.

قرر سنموت أيضًا دفن خادمته العجوز بمدفنه الخاص للاستفادة من الشعائر والقرابين والتعاويذ التي صممها لآخرته، لم تكن هي الضيفة الأولى بمقبرته، فدفن الرجل أيضا مغنيًا أحب صوته وشخصيته الطيبة، لم يكن للرجل من أهل ليرعوا جثته، فما كان من سنموت إلا جبر خاطر المتوفى إكرامًا لحياته الطيبة وخدمته، وحنطه سنموت على نفقته الخاصة ودفنه بمقبرته الشخصية، حتى مهرته الصغيرة التي ولدت بقصره، ولم تسعفها الحياة طويلًا، أمر بدفنها معه، كان له قلب طيب رقيق، يمكنه أن يسع العالم كله، وحظ عاثر ومأساة، وكرامة كبيرة وعظمة، اكتنفت الرجل تناقضات الدنيا كلها..

***

مرت الأيام حتى أكمل تحتمس عامًا ونيفًا بالشمال، والأمر ذاته، ما زالت ترهقه محاولاته المضنية للقيام بتمريناتهم البدنية بغير جدوى، بل واجه الفتى تحديًا آخر عندما اكتشف نقطة ضعف جديدة، وهي رهاب المرتفعات! فعندما حاول تسلق الحائط الطيني، الذي تسلقه جميع النفرو إلا ثلاثة -هو أحدهم- لم يتمكن من السيطرة على عينيه اللتين نظرتا إلى الأسفل، فخفق قلبه بشدة، واجتاحت رعشة كل أطرافه، لكنه رفض الاستسلام، نظر إلى الأعلى وضغط على كل أعصابه حتى تحرك مجددًا، فاكتسب بعض الشجاعة، وثابر حتى تخطى رأسه السور، لكن ما لبث أن التهم الرعب قلبه عندما نظر إلى الأرض بالجهة المقابلة، هدف التدريب العبور من فوق السور والقفز على الرمل بالجهة الأخرى، فشلت كل محاولاته الأخيرة للسيطرة على نفسه، واشتدت الرعشة بقدمه حتى بات سقوطه وشيكًا، توجب أخيرًا إنزاله على سلم بخيبة أمل، دون العبور للجهة الأخرى، وحتى نزوله على السلم كان مأساة، فبصعوبة شديدة وضع قدمه على أعلى درجة في السلم، ونزل جارًا ذيول خيبته.

تذكر تحتمس بعدها تحديه لنفسه لحظة قطع لحمه يوم ختانه، وكيف وقف ثابتًا أمام الجميع، ظن حينها أنه لن يخشى شيئًا أبدًا فيما بعد، لكنه جانب الصواب.

استمر الحال على ذلك لعدة مرات، مما أفقده ما تبقى من ثقته بنفسه، مع مشاهدة الجميع لإخفاقه بذلك التدريب الساذج، الذي استغرق من بعض الفتية فقط عدة ثوانٍ، خاصة سننفري الذي تسلق الجدار بكل سهولة، أسرع تقريبًا من كل من بالمعسكر.

بليلة ما نظر إلى السماء المظلمة بلا قمر، نظر إلى النجوم الشمالية التي لا تموت، حيث تسكن كل أرواح الملوك السابقين، تردد صوت بقلبه قائلًا: تذكر مجد الأجداد!

في ذات الليلة اصطحب سننفري، وبحرص شديد تمكنا من الهرب من مسكنهم، توجها بكل حذر إلى منطقة التدريبات الخاوية، التي لم تكن تحت حراسة شديدة نظرًا لوقوعها داخل المعسكر، لذا تسلل الفتية بصعوبة تحت ستار ليل لم يظهر له قمر، وصل تحتمس لهدفه تحت لوحة حية رائعة من النجوم، تأمل رداء نوت نترت السماء برهبة وإعجاب شديدين. اتجها إلى الجدار الطيني العنيد، الخصم الذي أفقده كل احترامه وثقته بنفسه، شعر الفتى بالرعب ذاته الذي ظلل قلبه يوم ختانه، لكنه قرر الظفر بالنصر على ذلك الجدار، في ظلام تلك الليلة الباردة من ليالي الشتاء عوت الرياح مثيرة رعدة ببدنه، أمر صديقه ألا يتجاوزه صعودًا، وضعا قدميهما وهمسا بينما تسلقا الجدار، أضافت الرياح الباردة صعوبة جديدة على صعوبات التسلق، فارتعش جسده من البرد، لكن بدهشة شديدة وصل بسرعة لِقِمَّةِ الجدار، أسرع كثيرًا من المرات السابقة، ساعد ستر الليل بتهدئة أنفاسه المتهدجة، ويسر المهمة قليلًا. توجب الجزء التالي جلوسه على الجدار ثم القفز بالجهة التالية، لكن تحتمس قرر رفع صعوبة الأمر، فأمر سننفري خفيف الجسد الجالس على السور بمد يده والتشبث جيدًا، مسك الفتى يد صديقه وشد عليها ليقف على السورا بصعوبة بالغة وضع قدميه على الجدار وحاول النهوض بمواجهة الرياح، انتفض قلبه بعنف حتى كاد ينخلع، لكنه لم يستسلم، جز الفتى على أسنانه وضغط بشدة على عضلات قدميه، فوقف ببطء شديد ومن ثم ترك يد سننفري، ضربت الرياح جسد الفتى الذي رفع يديه ببطء فشعر بالسمو على مخاوفه، رفع رأسه أيضًا فلاحظ النجوم تزين رداء نوت رية السماء في روعة منقطعة النظير، لكنه فقد توازنه واختلت قدمه، سقط الفتى على الجهة الرملية من الجدار، شعر بالرعب الذي لم يدم طويلًا، ارتطم جسده بالرمال وشعر أنه بخير، سأله سننفري برعب هامس: "أأنت بخير؟".

أجاب تحتمس: "نعم".

وبسرعة خاطفة تسلق الأخير الجدار مرة أخرى، أخذ بيد سننفري المتجمد بمكانه، وقف مرة أخرى، أسرع من المرة الأولى، شعر بتخطي الصعوبات، بلحظة أخذ القرار، ودون تفكير قفز على الرمال التي غرست بها قدماه، لم يشعر بأي ألم، كرر الأمر لعشرات المرات المتتالية في سعادة جمة وشجاعة جديدة العهد، انتصر على ضعفه والرعب المتملك قلبه، حتى عاد إلى مسكنه شخص آخر، أضاف نصرًا صغيرًا لجعبة إنجازاته،

ولاحقًا أصبحت إحدى هواياته التسلق لأعلى النقاط الممكنة، من أي مبنى، والوقوف أو الجلوس على طرفها ليشاهد القاع، فشعر في ذلك بمتعة شديدة.

بعد ما يزيد عن عام من المحاولة، تمكن تحتمس أخيرًا من القيام بتمرين الضغط لأول ثلاث مرات بحياته، حاول بشدة في المرة الرابعة لكنه سقط، إلا أنه شعر بسعادة شديدة لما أنجزه، وهو ما يعد بسيطًا بالنسبة للنفرو الآخرين، فبينهم من يقوم بالتمرين لأربعين وخمسين مرة، لكن بالنظر لما ظنه مستحيلًا فهو إنجاز عظيم، كهد جبل ضخم بمعول واحد، ظهرت ابتسامة واثقة على فاه وغمرت كاه السعادة، كأن روحه عادت إليه بعد موته وبُعثت من جديد، بعد ذلك اليوم تضاعفت شهيته، تشرس قرينه المسالم، وتضاعف عدد تكراره للتدريبات أيضًا بسرعة شديدة، فخلال شهر واحد آخر تمكن الفتى من أداء خمس وعشرين مرة في تمرين الضغط، وتسع مرات في العقلة، وتحسن مستواه بشدة في المصارعة، من أسوأ النفرو بمجموعته إلى أحد أفضل عشرة بكل الكتيبة، وللمفاجأة احتوت المجموعة الأفضل على تنتيو أيضًا، فبشكل ما أعطاه تحتمس دافعًا قويًا لاختراق مستويات أعلى في تدريبه عندما أنجز المستحيل، اختلف كل شيء تقريبًا للملك الصغير حتى نظرة الإمير مرين رع، سمح الأخير له بقيادة مجموعته، واختيار التدريبات كل يوم وأعداد تكرارها. قال له القائد ذات يوم: "أنت أول كاهن يمسك السيف بتلك المهارة، أصبحت كاهن الخوبيش!"، راقه ذلك اللقب كثيرًا، وترددت بأصداء قلبه جملة واحدة كثيرًا ما انتظرها: جاري إعداد الملك، كاهن الخوبيش.

بعد مرور عام ونصف، بدأ إشراك مجموعة تحتمس بتدريب التجديف، في صباح يوم التجديف بعد الانتهاء من الركض الصباحي والإفطار، تحركت مجموعتهم مع باقي النفرو للمرة الأولى، طغى شعور الحماس المنبثق بالهواء على التعب والملل خلال الطريق الطويل، يشبه الأمر الاحتفال أكثر منه كتدريب، سار النفرو بفخر بحركة عسكرية منظمة في شارع منتفر الرئيسي، الذي تناثرت حوله البيوت وصولًا للميناء، حاز الفتية نظرات الإعجاب من سكان المدينة، وحاولوا سرقة بعض النظرات لفتيات المدينة الجميلات.

قُسّم النفرو لمجموعات تعلمت إحداها السباحة، وثانية تتعلم التجديف، ثالثة تتدرب على الرماية والمصارعة من المياه، ومن ثم تتبدل المجموعات، اكتسى يومهم الأول بالتجديف -رغم صعوبته- بالسعادة والضحكات وعم المرح التدريب، وكأن ماء النهر المقدس يغسل كل ضيقهم، ويعيد أرواحهم ناصعة البياض، عمل الفتية بجِد حتى أنهكهم التعب، في ذلك اليوم لا يأكل النفرو بالمعسكر، بل يحمل كل منهم في كيسه سمكًا مملحًا وخبزًا وقوارير المياه، لذا عانى الفتية عادة الجوع الشديد بيوم التجديف، بعد ساعات طويلة من التدريب ومسافات كبيرة لقطعها بالقوارب المصنوعة من البردي، لكن الأمر استحق كل قطرة عرق، فعند الغروب يتم تقييم المجموعات وتكريم المجموعة الرابحة، لذا أشعلت روح المنافسة من جهد الفتية، حتى أفنوا كل طاقتهم برضا وسعادة في التدريبات القاسية، وجعلت المنافسة أكثرهم يقسو على نفسه حتى يتميز بالنجاح ويتشرف بالتكريم، لذا صعب على أيهم التحرك عند العودة للمعسكر من الإرهاق، بينما في اليوم التالي عانت كل مجموعتهم من الألم الشديد بأكتافهم، لم يشفع لهم ذلك في أثناء تأدية تدريبات العوائق، فوقع جميعهم تحت وطء المنافسة الشرسة المعتادة، خلال قفز الحواجز وعبور الحوائط والركض والتسلق وغيرها.

في أحد أيام الرماية المعتادة بعد انتهاء النفرو من ركضهم الصباحي وفولهم، وفلافلهم، وخبزهم، وفجلهم، تجهزت المجموعة للاستعداد للرماية، لكن قبل تحركهم للتدريب صاح بهم الضابط أنبو حتب: "اليوم يبدأ أول تدريب لكم في مجموعة النخبة، سنبدأ تدريب العجلة الحربية، بالحركة السريعة، تحرك". فور جملته الأخيرة تحركت المجموعة ركضًا وارتسمت على وجوههم سعادة عظيمة، وصلت المجموعة للمرة الأولى لمنطقة التدريب على العجلة الحربية، قطعة شاسعة خارج المعسكر من الأرض الصلبة، صمم بوسطها مضمار ضخم، بجواره شيد الإسطبل المحتوي على أفضل أنواع الخيول، الآتية من مدينة بر باستت(29) مدينة النترت باستت ذات رمز القط.

بالإسطبل قبع بعض النفرو المسؤولين عن الخيول، يفهمون حالاتهم ورغباتهم وطرق تدريبهم، غمر الفتية

شعور ممزوج من الفخر والسعادة، بدأ التدريب فوزا بالجزء النظري فصاح أنبو حتب: "سنبدأ التدريب على العجلة العادية، العجلة يركبها اثنان، واحد مسؤول عن القيادة والآخر للقتال، ستتدربون كلكم على القيادة والرماية، لو حصل وأصيب أحدكم أو مات، يمكن للثاني التصرف. . والآن، قفوا أزواجا في صف واحد". بسرعة تحركت المجموعة واتخذ تحتمس من سننفري رفيقًا، وتقدما أولًا ومن بعدهم وقف الجميع بصف طويل، قال الضابط: "أولًا نبدأ التدريب على العربة العادية".

أحضر فتية الإسطبل بوقت سابق مجموعة من عربات ضخمة، وقف بها النفرو المتدربون في مجموعات من ستة أفراد، تحركت العربات ببطء شديد مع صرصرة عجلاتها الكبيرة بينما مسك كل منهم قوسه، رصت مجموعات من الأهداف على جانبي المضمار، الهدف هو رمي أكبر عدد من الأسهم بأقصى سرعة ممكنة خلال سير العربة، لم يكن الأمر شديد الصعوبة، فسرعة تحركهم لا تكاد تتعدى سرعة المشي العادية، ولذلك تمكن النفرو من إرسال مجموعة ليست بقليلة للأهداف المطلوبة بدقة مناسبة. تطورت الخطوة التالية للتدريب على عربة العامو، النسخة القتالية الحقيقة الأولى، سرعة تلك العربة أكبر كثيرًا من نظيرتها السابقة، لذا عانى الفتية للحفاظ على ثباتهم بالعربة، مما أدى إلى انخفاض شديد في عدد الأسهم الفصيبة لأهدافها. انقسم التدريب لمرحلتين، فعلى كل نفر قيادة العربة مرة بينما يقوم رفيقه برمي الأسهم، ثم تبديل الأدوار في المرحلة التالية، بالكاد رُمي سهم أو اثنان على الأهداف، بينما زاغت كل الأسهم الأخرى، فمن الصعب استيعاب السرعة الجديدة والتأقلم معها، ومن ثم تثبيت الرامي لنفسه، خاصة مع انعدام الاتزان عند رفع السرعة، لم تتعد سرعة العجلة الهرولة، لكن الأمر بدا خيالًا أن يحقق الفتية نسبة معقولة لإصابة الأهداف، مر اليوم الأول بسرعة وأصيب النفرو ببعض الإحباط، فالنسخة الآسيوية الخرقاء تلك لا تقارن سرعتها بالنسخة الكمتية الخارقة، كيف يتسنى لهم إذن التدريب لاحقًا طالما شكلت لهم عربة الحقاو خاسوت تلك الصعوبة.

قسم أنبو حتب النفرو لمجموعات على عدد العربات ثم بدلوها فيما بينهم، حصل النفرو على وجبة مجففة لعدم تعطيل التدريب، لذا في أثناء الانتظار وتناول الطعام، شاهد الفتية تدريب أقرانهم، فساعدهم ذلك على ملاحظة الأخطاء وتصحيحها لبعضهم البعض، قال مين الذي تمكن من إصابة أكبر عدد من الأهداف: "أهم شيء للتثبيت على العربة هو الضغط بركبكم جانبًا وتثبيت أنفسكم، ليتركز كل تفكيركم برمي الأسهم، فتصيبوا أكبر كمية من الأهداف".

حاول الفتية العمل بنصيحة صديقهم، ونجح أكثرهم بتحقيق أداء أفضل بدورتهم التالية، فتدريب كل مجموعة عبارة عن دورة كاملة بالعربة في المضمار شبه الدائري، ثم الانتهاء بنفس نقطة البداية حيث ينتظر آخرون. تمكن النفرو من تسريع إيقاع حياتهم بصورة كبيرة بعد بداية تدريبهم على العجلات، فلحظة واحدة تفرق بين الحياة أو الموت، النجاح أو الفشل، لذا حافظوا على أداء جيد بسرعة مناسبة، حينما جاء دور تحتمس وسننفري التالي نفّذا نصيحة مين، لكن النتيجة لم تُشكِل فارقًا كبيرًا، وظل التثبيت هو التحدي الأكبر في أثناء التدريب، كل ذلك ولم يركب الفتية على العجلة الكمتية السريعة بعد.

بنهاية اليوم حصل النفرو على بعض الدروس النظرية عن العجلة الحربية، فشرح أنبو حتب الفرق بين العجلة الكمتية والآسيوية، ولم امتازت الأولى بسرعة تفوق الأخيرة كثيرًا، فجسم عربة العامو يتكون من الخشب الثقيل، ومثّل حجمها الضخم عائقًا أمام سرعة انطلاقها، أما النسخة الكمتية فإطارها فقط من الخشب، وتبدل كل ما يمكن تبديله بالجلد أو بطبقة رقيقة من خشب خفيف الكتلة، بالإضافة إلى حجمها الصغير الذي أعطى سرعةً أعلى وثباتًا أفضل في أثناء المناورة من عربة العامو، انتهى الدرس وانصرف النفرو لمسكنهم. بدأ اليوم تدريبهم الرسمي على القيادة، فقائدو العجلات هم نخبة ضباط كمت، الذين يترشح من حالفهم الحظ منهم، وساندتهم قوتهم وشجاعتهم وذكاؤهم ومهارتهم للقيام بما يتطلبه الأمر لمناصب القيادة.

مع بداية تدريب الفتى على العجلة الحربية، كان قد تغير بالفعل، تحول ذلك الفتى الهادئ ضعيف الجسد لوحش في أشد مراحل قوته، شعر بطاقة ضخمة تشتعل بقلبه وجسده، تحفزه لكل شيء، أحب التحدي كما

لم يفعل من قبل، حتى إنه تخلص من خوفه الذي عادة ما واجهه عند تسلق الحائط، بل صمم على الوقوف أعلى الحائط غير السميك وسط دهشة الجميع، وتحرك ذهابًا وإيابًا عدة مرات، حتى أتقن ذلك بسرعة كبيرة، كأنه يستمتع بالتنزه، ومن ثم قفز بقوة على التل الرملي، فتمكن من وضع تحدٍ جديد للنفرو، فلا يكفي تسلق الحائط والنزول من الناحية الأخرى كالمعتاد، بل بات على من أراد إثبات شجاعته السير على السور مثلما فعل تحتمس.

في أحد الأيام بعد التدريب، تحدث أنبو حتب مع تحتمس قائلًا: "عندما حضر عمك آمون مس إلى هنا، بدأ بمستوى أفضل منك، لم يكن في المعسكر من بشجاعته وتواضعه، رغم تحسن مستواه بسرعة، لكنه لم يتكبر على نفر أضعف منه قط، كما يفعل باقي النفرو، حاول مساعدة كل واحد وتشجيع الجميع، لم يكن في كل المعسكر من لم يحبه. سألته لم تفعل ذلك، أجاب هذا جيش جلالتي، وخلال فترة قصيرة سأقودهم إلى الحرب، ولا أود خسارة أي منهم.

كأنه قائد من صغره، تعلمت منه كثيرًا رغم تقارب عمرنا، لكن دائمًا ما امتلك آمون مس ثقة غريبة، يعرف الصحيح والخاطئ، ظهرت شخصيته فورًا وسط المعسكر، كان نموذجًا للقائد الحقيقي، ينفذ الجميع أوامره لأنهم يحبونه ويحترمونه، أكثر مما يخافونه، إنك تشبهه في الكثير، لكنك تفوقت عليه في شيء!".

"ما هو؟".

"عندما حضر آمون مس إلى هنا، كان مستواه أحسن من مستواك عندما بدأت، لكن مستواك الآن أفضل منه".

فكر تحتمس قليلا ثم سأل: "كيف مات؟".

تحدث انبو حتب بضيق، واستعاد ذكرى شديدة الكآبة: "كان آمون مس جريئًا وشجاعًا أكثر من اللازم، أحب التدرب على العجلة الحربية جدًا، طار بها أسرع من الجميع، خصوصًا بعد ما عاد من رحلته للجنوب، وأمر جلالة الملك تحتمس الأول صادق الصوت بكتابة اسمه في الشنو الملكي، أشعل ذلك بداخله طاقة أكبر، تحمس أكثر، ولم يعرف لجموحه حدود، في يوم مشؤوم ركبنا العربة معًا، أنا قدت وهو رمي الأسهم، أمر بزيادة سرعة العجلة، وحقق نتائج لم تحقق من قبل، لدرجة أنه أصاب الأهداف كلها، وأحيانًا الهدف نفسه بأكثر من سهم، وهذا مستحيل بهذه السرعة. حينها كان الإمير عنخي مسؤولاً عن تدريبنا، وأمرنا بخفض السرعة، لم نسمعه بسبب الحماس وتشجيع باقي النفرو وصياحهم، وجب تبديل الأدوار، ليقود هو العجلة، وأنا أرمي الأسهم، لكنه صمم على إكمال الدورة التالية، كان مدمنًا للقوة، وجبارًا في قدرته على رمي الأسهم، في تلك المرة زدنا السرعة أكثر، مالت العربة على جنبها في أثناء الدوران، للأسف اختل اتزانه، ووقع من على العجلة، وسمعت صوت كسر، ارتعبت وقفزت من العجلة، عدت إليه لأجد بركة من الدم تحت رقبته. أمر الإمير عنخي ألا يحركه أحد من مكانه، وطلب السونو بسرعة، فحضروا وحملوه، ظل يتألم ليومين ثم توفي، حملت ذنبه لفترة طويلة، وعنخي أيضا، لذا شددت الأوامر بعدم تخطي السرعة القياسية للعربة، يصعب السيطرة على الحماس عندما تقودها. توقظ السرعة الجنون، تشعر بخروجك من جسدك وتتحول لنتر، ترفرف روحك فوقك من السعادة، تحس بقرينك يتضخم من الشجاعة، خصوصًا مع قدرة آمون مس الغريبة على رمي الأسهم بتلك السرعة والدقة، شعرنا أنه لا يمكن منافستنا، لكن في لحظة خسرنا ولي العهد، وخسرت أقرب صاحب لي. كان المستقبل في انتظارنا، لكن خاننا القدر. سأخبرك سرًا، أشعر أن قرينه حل عليك، ويساعدك لدرجة أنك تتطور أسرع منه، وسنرى قدرتك في ركوب العجلة الحربية، لكن إياك وتكرار غلطته، لا نهاية للغرور، مهما أغرتك السرعة لا تستسلم لها".

أثارت حكاية الضابط حزنًا دفينًا بقلب تحتمس، كل ما فكر فيه الفتى هو: ماذا لو لم يمت آمون مس وتزوج بحتشبسوت وأنجباه، كيف كانت لتصبح الحياة حينها؟

فكر الفتى لاحقًا بخطورة السرعة في كل مرة امتطى فيها عجلته الحربية، كيف يمكن ضبط ميزان الشجاعة مع الحرص، لم يغفل لحظة واحدة في أوقات انتظاره عن مشاهدة حركة العجلة، خاصة حينما بدأ تدريبهم على النسخة القتالية فائقة السرعة من العجلة الكمتية، أفضل النسخ وأسرعها وأكثرها تطورًا، بعد عدة محاولات وصل تحتمس ورفيقه سننفري للسرعة المناسبة للعجلة الحربية، لكن لم يصلا بعد للنسبة المرجوة من إطلاق الأسهم بالسرعة والدقة المناسبين.

عندما بدأ تدريب تحتمس على العجلة الكمتية، أدرك قرينه ما مر به عمه الراحل آمون مس، فغذت سرعة العجلة بداخله وحشًا قويًا، شعر بإمكانية الطيران، وأنه أسمى من البشر كلهم، كأنه امتلك حاسة جديدة، لكنه حافظ على السير داخل إطار تحذيرات انبو حتب، لازمته المشاعر الجديدة التي اكتشفها على العجلة، لكنها استمرت معه حتى بعد نزوله للأرض، شعور مختلف بالحياة، كجثة عادت للتو من البر الغربي وبدأت بالتنفس، قوة غريبة تغشى قرينه، وقسوة شديدة تغشو قلبه، كأن العجلات والسيوف والحراب والفؤوس التزعته، لتزرع بدلًا منه حجرًا كبيرًا، لكن.. ظل كاهن صغير بمكان ما بأعماقه، يسيطر على لجام وحوشه، وُجد منذ نشأ بالمعبد، ولم يفارقه قط.

بنهاية عامه الثاني بمننفر أصبح الملك آلة حرب فتاكة، يمكنه التعامل مع الأسلحة كلها، غير أنه فضل الخوبيش السحري الذي يوقظ بداخله العفاريت، بقوامه الراقص وانحناءاته المصاغة بخفة ومهارة ورشاقة ولونه البرونزي الأخاذ، كثيرًا ما أمسك تحتمس سيفه مقلوبًا، وتخيل في الحنائه خصر نفرو رع الرشيق. بعمر الخامسة عشر، فكر الملك الصغير بها كزوجة وامرأة يافعة، يقتل الوقت ملوحًا بسيفه حتى يراها. استمتع بقوته حديثة العهد، فأول ما يفعله قبل تلاوة ورد الصباح هو القفز من سريره لممارسة تمرين الضغط، ينتهز كل فرصة لإظهار قوته البدنية المكتسبة حديثًا، يتحدى الجميع في المصارعة حتى من هم أقوى وأضخم منه، لا يمكن السيطرة عليه، إلا من ذلك الكاهن الصغير بأعماقه.

اشتمل إعداده للقيادة على التدريب البدني والعضلي، بالإضافة للدراسة النظرية، فيدرس الخطط العسكرية، أنواع الحصون وكيفية حصارها وتدميرها، أنواع الإمدادات اللازمة وكميتها من الطعام والشراب والعربات والحيوانات لكل مئة جندي، سرعة انطلاق الحملات وأسماء المدن التابعة لكمت بالحرب أو السلم.

على ذكر البلاد التابعة لكمت بالسلم، في أحد أيام العام العاشر من حكم الملكين وصلت مننفر مجموعة من تجار كريت، والذين تجمعهم بمشر علاقة سلمية طيبة منذ قديم الأزل، فقد تداولوا البضائع منذ قرون. كانت فرصة مناسبة لمجموعة الأصدقاء الجنوبيين لمشاهدة القافلة، سُمح للمجموعة منذ بداية تدريبهم كقادة بيومين كل عاشور للراحة، بإمكانهم الخروج للتنزه بالمدينة، أو زيارة المعبد، أو القيام برحلات نهرية على متن قارب الحاكم. لكن يومها، توجه تحتمس مع رفاقه إلى الميناء لمشاهدة سفينة ترسو على الشاطئ، تميزت أزياء رجالها بألوانها المزركشة، وطول لحاهم وبياض بشرتهم. من السهل ملاحظة قادة المجموعة، رجلان يسمح فرق السن بينهما ليكون أحدهما أبًا للآخر، تميز الأكبر سنًا بابتسامة لم يمتلكها الشاب، تحدث الرجلان بطريقة معقولة بلسان كمت، فسنوات العمل بالتجارة أكسبتهم المهارات اللازمة للتواصل مع البلاد المحيطة. رافق تحتمس ومجموعته رؤساء التجار كوفد مصاحب لقصر الحاكم، ملأت ابتسامات الرجل الودود الهواء، بينما اكتفى الشاب بالصمت والضجر. بعد وصولهم للقصر وتبادل الملق والتحيات لملكة الأرضين وحاكم العاصمة الشمالية، دعي الرجال للمأدبة، فتبادلوا الهدايا قبل تناول الطعام.

بعد انتهاء المأدبة قدمت الفرقة الموسيقية أعذب الألحان التي اندمجت مع أصوات المغنيين، وداعبت حركات الراقصات أرواح الحضور، فحلت الغبطة على الجميع، عدا تحتمس، الذي خرج للفناء في إثر التاجر الشاب بعدما غادر القاعة منذ قليل، وجده يستنشق بعض الهواء، وبدا عليه القليل من آثار السُكر، فتقدم وسأله: "متعب؟"، نظر إليه الشاب شذرًا، ثم أجابه باقتضاب: "لا".

فقال له تحتمس: "أستتوجهون إلى واست مباشرة، أم هناك محطات أخرى قبلها؟".

"سأوفر إجابتي للملك".

"الملك ولد صغير، يتعلم في المعبد، لم يخرج منه وليس له أي علاقة بالحكم، والملكة حتشبسوت هي من تحرك كل شيء".

"أنا أيضا سمعت ذلك، لكن يبدو أنها إشاعة".

"..."

"فقد خرج الملك الصغير من المعبد، وأصبح ضابطًا، مضبوط جلالتك؟".

يا له من حذق! علم التاجر الشاب أنه يتحدث بالفعل مع الملك الصغير، الذي لم تجدِ محاولته للاستجواب، أجابه تحتمس بعد وهلة من أثر الدهشة: "لديك موهبة قراءة القرائن، وخلال وقت بعيد أو قريب سيكون تعاملنا معًا مباشراً، يمكنني الاستفادة منك، قل لي الحقيقة؟"

"أي حقيقة؟".

"ظننتنا سنتعاون".

"أقصد حقيقة الإجابة عن أي سؤال.. جلالتك".

"لماذا توقفت المدن الآسيوية عن إرسال الجزية؟."

تمهل التاجر الشاب بالإجابة، ثم قال: "يُحل ملك قادش السلام بكل بلاد ميتاني والحيثيين وفينيقيا وكنعان، واستطاع السيطرة على جزء كبير جدًا منهم، فكفوا عن محاربة بعضهم، وهو ما جعل طريقنا آمنًا وتجارتنا أفضل".

قال الملك للشاب: "طريقك الوحيد للنجاح في التجارة بين الدول هو نقل المعلومات، ليعتبرك حاكم كل مدينة صديق، ويسمح لك بالتجارة، أتمنى دوام نجاح تجارتك، وأود منك نقل معلومات لآسيا تكسب بها تصريح الدخول لمدنهم، لكنك ستنقل المعلومات التي أخبرك إياها، وفي المقابل عند عودة كنعان تحت سيطرة مِتِر لن أنسى أصدقائي."

أجابه الشاب: "اعذرني جلالتك، لكن لم أراهن عليك؟ ملك قادش قائد كبير ومحارب عظيم، جمع تحت إمرته إلى الآن الكثير من المدن القوية والغنية، غير أن بلادهم غنية بالموارد والسهول المزروعة والأشجار، ولا يسهل مواجهتهم بعد اتحادهم، فما يغيدني بالمراهنة على الجانب الخاسر؟."

بثقة أجاب تحتمس: "لن تخسر، ستنقل المعلومات كما تفعل، وما يهمك مصلحتك وتجارتك، لم تحتل كمت قط شعب كريت، وأود أن تظل علاقتنا في سلام. مؤكدٌ أن وضعك سيتحسن بصداقتك للرابح، سواء كان مِتِر أو ميتاني وأعوانهم، سأمدك بالمعلومات اللازمة لكسب صداقتهم، وفي المقابل تنفذ ما أقول لك".

فكر الشاب لبرهة ثم هز رأسه إيجابًا، قال الملك: "ستؤكد ضعف الملك الصغير، وتنقل الصورة الحقيقة التي تراها في العاصمة، تعلمهم عن البعثة التجارية التي أمرت الملكة بإرسالها للجنوب، فتوضح لهم اهتمامها بالتجارة والتعدين عن الحرب، وبالجنوب أكثر من الشمال، وأنها لم ترسل أي حملات رغم سيطرتها على الجيش، وأن أفضل فرصة للانقضاض على مِتِر ستحين مع وصول الملك الشاب للحكم، لأنه ليس ابن الملكة، وهي تعد ابنتها نفرو رع لتكمل المسيرة، بينما يقضي الملك حياته في المعبد، لذا لن يكون له أي رأي في إدارة البلاد."

ذهش الشاب بشدة من كلام الملك الصغير، فتلك معلومات خطرة بالفعل، لكن ماذا سيستفيد الملك إذا تحفزت ضده كل تلك الجيوش؟ إنه أمر بغاية الخطورة، لكن عرضه أفضل من جيد، فإن نقل الشاب تلك المعلومات لممالك كنعان وميتاني سيكسب حظوة كبيرة، وإن احتل ذلك التحالف فيما بعد مِتِر ستكون

للشاب صلاحيات كبرى، بينما إذا انتصر الملك الصغير، فستكون جائزته بالانتظار، لذا بعد قليل من التفكير أجاب: "تحت أمر جلالتك."

"هناك خدمة أخرى..".

***

عند فجر اليوم التالي تحركت سفينة كريت للجنوب، بينما عاد الفتية إلى معسكرهم، قضى تحتمس أكثر أوقاته طائرًا بعجلته الحربية أو مراقبًا لها، أو راقصًا بسيفه الخوبيش الذي اندمج مع جسده، وأتقن الملك الصغير التلويح به، حتى تمكن مرة من تحدى أكثر من منافس في معركة واحدة، بدأ الأمر بتحديه لاثنين، ثم ثلاثة مبارزين ضده، بيده خوبيش وبالأخرى درع خشبي، وعلى جسده درع برونزي يتكون من قطع صغيرة تغطي جسده كله، تمتص تردد الصدمات من على جسده لتبددها بالفراغ. أثبت الملك الصغير كل يوم لنفسه ولمن حوله أنه مقاتل أسطوري، بعمر الخامسة عشر يمكنه بالفعل هزيمة من هم بعمر الثامنة عشر، استعرت بقلبه طاقة زكتها ذكرى عمه الراحل آمون مس وشجاعته.

بخلاف ما سبق، أمر تحتمس باستخدام الطبول في أثناء التدريب على نطاق واسع، بعد أن اقتصر استخدامها سابقًا على تنظيم بعض الحركات الجماعية، كالتجديف، أو الخطوة العسكرية، أما الآن فلا يكاد ينقطع عن المعسكر، رغم حبه من قبل لألحان المعبد الهادئة التي تثير في النفس الخشوع، إلا أنه أدمن سماع طبول الحرب، وبات أثر دقها واضحًا على كل النفرو، فأصاب الجنون جماعتهم مع دقات الطبول السريعة الغاضبة، وصعدوا بسقف التدريب أكثر حتى مما يأمر مرين رع، في عدد تكرارات التدريبات البدنية، أو في سرعة تأديتهم للتجديف، أو سرعتهم ودقتهم في رمي الأسهم، حتى إن تحتمس أصاب بسهمين كل هدف في أثناء الزمح بعجلته بالسرعة القصوى دون إهدار أيهم، بينما تمكن مين فقط من منافسته، فأصاب بعض الأهداف بثلاثة أسهم بنفس سرعة عجلة الملك.

مع تطورهم المطرد اقترب موعد اختبارات القيادة، التي اشتملت على اختبارات بدنية وشفوية وتحريرية، في كثير من المجالات، فأقيمت ساحة قتال شبهت بالأهداف، وعلى القادة المختبرين وضع خطة هجومية، وتجهيز المناورات، وتنفيذها بدقة ودون أي خسائر، انتهت الاختبارات بنتائج مبهرة كما هو متوقع، وخطى تحتمس أخيرًا خطوته الأخيرة للظفر بالملكية.

بعد الانتهاء من الاختبارات أقيم حفل ضخم حضره الحاكم، بدأ فجرًا بمعبد بتاح العظيم بالتطهير والقيام بالخدمة اليومية ثم تقديم القرابين، توجه الجميع إلى المعسكر للقيام بالاستعراضات العسكرية، وتسليم القادة شاراتهم وقلائدهم، وزيهم الحربي الكامل. يوم مجيد في العاصمة الشمالية، انتشى جميع الضباط الصغار، واستحق أخيرًا جلالة الملك تحتمس منخبر رع تلقي التحية من الجميع كملك للأرضين، أولهم حاكم منفر وإمير مشع مرين رع، تحقق الحلم ووطئ تحتمس المجد بقدميه.

بالمساء اختلى الملك بسننفري وقال له: "أتعرف أنك أكثر من أثق به؟".

أجابه الصديق فورًا: "هذه هبة عظيمة جلالتك، وأنا لا أستحقها".

بتمهل قال تحتمس: "تستحقها يا سننفري، لذلك سأقدمك لمهمة، اخترتك خصيصًا، لأني قررت تنشيط مخابراتنا، الوضع في الشمال الشرقي خطير، ولن أسمح بعودة أحفاد الحقاو خاسوت، مدنهم تتحد والحرب بيننا أمر واقع، لذا علينا الاستعداد، لكن حتى مع كل المعلومات الحالية ينقصنا الكثير، نحتاج إلى معرفة الخريطة على نحو أفضل، الطرق كلها بين الجبال والسهول، التحالفات بين المدن والممالك، من منهم يزرع ومن يشتري، ما أقوى المدن حيث المحاربون الأقوياء، ولأي مدى تصل قوتهم. يختلف العدو الآسيوي عن الجنوبي، الجنوب ضعيف وفقير ومتأخر، إنما الآسيويون أمراء حرب، ولو لم تستعد كمت ستقع في كارثة، ويستحيل أن أسمح بذلك، ستكون مستشاري الخاص، وستقوم بأول مهمة لك خلال أسبوع".

شعر سنتفري بحماس وسعادة شديدين وقال في ثورة، ولا يكاد يخفي ابتسامته: "أنا تحت أمر جلالتك، ما أوامرك؟".

"سأخبرك..".

***

وقفت الملكة في غاية الحماس، تجتاح كل نقطة بدمها سعادة وإثارة، فقد لاحت بالأفق السفينة الأولى نازلة من الجنوب مع تدفق النهر، خلفها السفن الأربع الأخريات، خمسة توائم أرسلتهم الملكة للمجهول مع أمنياتها بالعودة، وها قد عادت السفن من الأراضي الجنوبية سالمة محملة بالهدايا، وقف نحسي بفخر بمقصورة القيادة بجوار ربان السفينة الأولى، أشارت إليه حتشبسوت بحماس قد لا يليق بملك بالغ متوج.

وصلت السفينة الأولى للميناء بعد بضع دقائق، نزل منها نحسي يملأه الفخر والسعادة، سجد لجلالة الملكة التي وقفت في ذلك اليوم بزي ملكة أنثى، مع كامل زينتها وأناقتها، دون الذقن المركبة الملكية، فتلك الحملة حلم للأنثى حتشبسوت، التي ظنت الملكة سابقًا أنها دفنتها بالتابوت القديم، إلا أنها ما إن تخبو، إلا وتعود لتطفو على السطح مجددًا. سجد نحسي للملكة، ثم وقف وقال: "لجحت الحملة يا مولاتي في مسعاها وتؤج سيد النترو آمون رع مسعانا بأمر جلالتك". بينما نزل خلف نحسي بعض الرجال من البلاد الجنوبية، الذين صاحبوا رجال كمت كوفد دبلوماسي، فسجد الرجال لحتشبسوت، تميزوا ببشرتهم السمراء، ونحافتهم، وريشة نعام مثبتة في وضع رأسي بشريط حول الجبهة تدلى من الخلف. أجابت الملكة في سعادة بالغة: "لحمد آمون رع على عودتكم سالمين، فر الرجال بتفريغ البضائع فورًا".

نفذ نحسي الأمر، فتسرب خط من الرجال حاملين على أكتافهم مختلف البضائع، وإلى جوار الملكة جلس الكتبة والفنانون لإحصاء لهدايا كلها التي أهداها إليهم آمون رع، وثبّت الرسامون لحظات من الزمن، يحمل بها الرجال الكنوز الجنوبية للأرض المقدسة. حمل الرجال معهم عددًا ضخمًا من عاج الأفيال الجنوبية الضخمة، وكمية كبيرة من خشب الأبنوس، وعددًا لا نهائي من الزكائب المحملة بالتوابل الجنوبية، فأفعمت الرائحة الميناء. انتبهت حينها حتشبسوت لنفرو رع الواقفة إلى جوارها في كامل زينتها، سألتها: "أين مريت رع؟"، أجابت الأميرة: "تسللت كالعادة". لم تلقِ حتشبسوت بالًا لابنتها غريبة الأطوار، بل راحت ترمي نظرها بين هذا وذاك من حملة البضائع.

حمل الرجال في المراكب الأخرى الكثير من جلد النعام وبيضه وريشه، وبدأت السلال المحملة بالأشجار في النزول، أشرف على عملية نقلها خير خبراء الزراعة الكمتيين، حيث غُلّفت جذور أشجار عنتي العطرية حتى تصل بأمان. إلا أن الملكة فتحت فاها عن آخره عندما رأت أجمل ما أحضره الرجال من الجنوب، نزل الرجال موثقين فهدين رشيقين، أحياء مدربين على الصيد، تخلت حتشبسوت الأنثى حينها عن كل البروتوكول الملكي والقواعد الذكورية الجامدة، وانطلقت كفتاة صغيرة بين البضائع حتى وصلت للفهدين، أخفضت يدها لتربت عليهما، وتتحسس فراءها الناعمة الجميلة، الذي تدرجت ألوانها الرائعة بين الأصفر والأسود، صاحت الملكة من الإثارة عندما لمستهما بيدها، وقفت وصفقت بيديها تعبيرًا عن الفرحة، التفتت لتجد سنموت خلفها، فما كان منها إلا أن احتضنته أمام الجميع بسعادة جمة، فهو المسؤول الأول عن نجاح الحملة، بعد تتبعه للمصادر حتى عصر ما قبل الملك نعرمر.

أثار فعلها ذلك دهشة الجميع، بمن فيهم سنموت ذاته، حتى احمر وجهه الأسمر، فأمر لاحقًا بعدم توثيق تلك اللحظة، التي تخلت فيها حتشبسوت عن كل وقارها الملكي، ونست أنها ماعت كا رع المنتمي للربتين، وكل ما شعرت به أنها فتاة صغيرة تسحرها البضائع المجلوبة من البلاد الأجنبية، تمسك بيد سات رع مربيتها، وتسير معها بسعادة لتسأل عشرات الأسئلة عن كل شيء.

عدت حتشبسوت بنفسها إحدى وثلاثين سلة محملة بالأشجار العطرية، واقتربت من عدد لا نهائي من

الأكوام الضخمة من الرانجات العطرية الثمينة، لمستها واشتمت رائحتها، وصلت لحلقات كثيرة متراصة من الذهب، تحسستها بيديها وحملت إحداها عاليًا، ونظرت إلى قرص الشمس من خلالها.

وصلت لأواني ضخمة من الفخار تحمل بداخلها بلسمًا عطريًا رائع الرائحة، فراحت تأخذ بيدها، وتدهن ذراعيها وكتفها وجذعها، حتى فاحت منها الرائحة الجميلة، وفعلت المثل لابنتها نفرو رع التي رافقت والدتها بسعادة، فراحت تدهنها بالبلسم، فترقرقت الملكتان تحت أشعة الشمس، وبات جمالهما الأخاذ قريبًا من جمال حتحور، نترت الجمال، والموسيقى، والحب، والزينة.

أفعم هذا المشهد الفريد الشعب الذي حضر لمشاهدة عودة الحملة، واستقبال ذويهم، والشهادة على عظمة ماعت كا رع، فراح الحضور يهتفون للملكة، وأفعمت الجو نغمات الاحتفال، أمرت الملكة على الفور بنقل الفهدين لقصرها، وعينت لهما ثلاثة من الموظفين، يشرفون على تربيتهما وصحتهما وتدريبهما.

بقصرها كانت الفرقة الموسيقية مستعدة، فما إن دخلت حتشبسوت للقصر إلا وبدأ سحر الموسيقى يكمل المشهد الرائع، فزاد الجو سحرًا بنغمات الموسيقى السعيدة وعطر الرانجات والبلاسم، وتلألأت حتشبسوت بجمال، حتى ظن كل من شهد ذلك أنه مر لحقول الأيارو بغير محاكمة.

في اليوم التالي وصلت سفينة كريت للعاصمة، وكان على نفرو رع الإشراف على استقبال البضائع، فتلك إحدى أهم المهام بالمملكة، تأكدت الفتاة بمهارة وسلاسة من كل شيء، وحمل الغرباء البضائع الكمتية مقابل بضائعهم، وغادروا في اليوم التالي عائدين إلى الشمال.

***

عادت سفينة كريت من الجنوب، استقرت لليلة في العاصمة الشمالية، وغادرت عند فجر اليوم التالي مع اختلاف بسيط، حملت السفينة لأول مرة فتى مِشري على متنها، فقد رافق سننفري المجموعة، ليقع على عاتقه إحضار ما يلزم من معلومات عن الطبيعة والجغرافيا والطرق والسياسة والعلاقات بين مدن الأعداء، فمهما وثق الملك بذلك التاجر الشاب، لن يكون ذلك كافيًا، لذا غادر سننفري كأحد الخدم الخاصين بالقافلة التجارية، فمع تخفيه وسط المجموعة سيكون من الصعب اكتشاف أمره. وعلى تجار كريت حمايته ليسمح لهم بوطء أرض مشر مجددًا، فلا يجلبون لأنفسهم حربًا لا طاقة لهم بها. صفقة مضمونة، لكن القلق التهم قلب الملك بعد مغادرة السفينة.

اتخذ جلالته قرار العودة بعد أن أصبح مستعدًا، بعد أكثر من ثلاث سنوات قضاهم بالشمال، أمر تحتمس مجموعته الجنوبية بالاستعداد للرحيل، فتساءل تنتيو بدهشة وسعادة: "وصل الأمر من البرعا بعودتنا؟".

نظر وحش من خلال عيني تحتمس للفتى بغضب، وقال ببطء: "أنا البرعا!".

لم يسأل أيهم بعد ذلك أي سؤال، وشرع الجميع في الاستعداد، أبلغ تحتمس القائد مرين رع بأمر الرحيل، فسجد الأخير للملك الصغير، وتمنى من النترو أن تصحبهم السلامة في رحلة عودتهم، كما ودعه أنبو حتب بحرارة شديدة، وبعدها ودع الملك كل من بالمعسكر، واستغرق ذلك بضع ساعات. في اليوم التالي أبحرت السفينة الملكية للجنوب، وظوي الفصل الأخير من برديات إعداد الملك.

خلال بضعة أيام مرت كدهرٍ وصلت السفينة لواست، التي استعدت لوصول الملك، فزينت كأنها باستقبال ملك ظافر، عاد لتوه من معركة طاحنة بعد حصاد النصر المبين. بحثت عيناه عن أميرته الرقيقة، تساءل كيف يبدو الآن جمالها، لكن أول من رأى من أهله كانت والدته إيست، وبدا أنها كبرت عشرين عامًا بانتظاره، لدرجة أنه أصيب بالدهشة جراء لقائها، ما إن نزل جلالته من السفينة إلا وضمته والدته بحضنها، كان لينهرها سابقًا ويشعر بالضيق، لكن تهمة الضعف والخنوع لم تعد تهدده، فتقبل تحتمس حبها بسعادة، وانهالت عليه بالقبلات والدموع، انتظر الجميع في وقار حتى أفلت الملك من قبلاتها مؤقتًا، خلفها وقفت الأميرتان بالانتظار، احتضنته نفرو رع أولًا بشدة حتى غاص قلبه في ليونة حضنها الدافئ، اختلفت الأميرة كثيرًا منذ أن فارق هو

العاصمة، قبل الملك جبينها بوقار، ثم احتضن مريت رع التي بدا سلامها فاترًا، كانت لتتعلق بعنقه، ولا تفلته أبدًا. ثم جاء دور جلالة الملكة، التي ارتسمت على شفتيها بسمة، احتوت على فخر أكثر مما عبرت عن سعادة، فكلل ملك النترو آمون رع لتوه كل خططها بالنجاح، عادت حملة بونت بنجاح منذ بضعة أشهر، والآن بعد عودته لاح الفخر بعيون الجمع، فلاحظوا عينيه الممتلئتين بالشراسة، وهو بالضبط ما تمناه الجميع؛ ملك قوي!

انتظر جمع غفير من الرجال جلالته: حابو سنب وسنموت وبومرع ونحسي ورخمي رع وغيرهم، قضى الملك وقتًا كبيرًا في تحية الجميع بصفة شخصية، وخالجه شعور جميل بالحنين إلى بلده، قاوم تحتمس دموع فرحه بسهولة، بعدما أقسم ألا تفلت منه أي دموع منذ يوم ختانه. وصلت السفينة الملكية للعاصمة، بعد أن عبر قرص الشمس أكثر من نصف رحلته النهارية، وانتهى النظام اليومي بالبرعا، أول ما فعله الملك بعد تحية أهل واست، أن توجه إلى معبد إيبت سوت، الذي ارتدى حلة جديدة من المنشآت بأمر الملكة، والمسلات المفروسة أمام الصرح الجديد الذي شيدته جلالتها، قدم الملك القرابين بعد تطهره على يد نفرو بين كبير مطهري المعبد، وغمر روحه شعورٌ بالسكينةِ، افتقده جلالته بشدة، عندما اقتحمت رائحة البخور ذاكرته، رغم تردده على معبد بتاح بالشمال، إلا أن لإيبت سوت الذي تربى به الملك مكانة أخرى، رأى نفسه طفلا بزي كاهن يسرع في مشيته لإتمام الواجب اليومي المقدس، فسكب ذلك الشعور ببدنه إحساسًا بالطمأنينة.

للحظة تذكر تحتمس شعور السلام الكامن بجدران ذلك المحفل المقدس، استيقظ بداخله الكاهن الصغير وملأ صدره من هواء المعبد الطاهر، كم اشتاق لحضوره الخدمة اليومية ودخوله لقدس الأقداس، استراح بالمعبد بعد انتهاء الخدمة الأخيرة، حتى رُفعت القرابين من على مائدة النترو، ووزعت على الكهنة والموظفين بالمعبد، اجتمعت زمرة الأصدقاء للمرة الأولى، دون سنفري، الذي غادر في مهمة لبلاد آسيا، تبادل الفتية الحكايات والضحكات والذكريات المشتركة.

أقبل حابو سنب بسعادة وسجد للملك القوي، فأخذه الملك بيده، وضمه بين ذراعيه القويين بارزي العضلات، قال الكاهن الأكبر: "صليت كل يوم لملك النترو آمون رع ليرعاك ويعيدك إلى بلدك وشعبك وملكك بالسلامة، ويعطيك من قوته وعظمته كل ما تحتاج إليه لتقود الأرضين خلال الانتصارات، ونحمده على عودتك بخير بعد ما حققت المستحيل". وقع كلام الكاهن على سمع تحتمس بأثر جميل، فهو حقق بالفعل المستحيل، أجاب الملك: "لن أنسى فضل آمون رع علي طول عمري، الفترة القادمة ستزيد ثروة المعبد أضعافًا". لقد اتخذ حابو سنب الرهان الأصعب، شلب منه حاضره، لكنه راهن على المستقبل، وها هي ثماره قد أينعت، وقريبًا سيحين وقت حصادها، فلن ينسى الملك الصغير فضل آمون رع وكهنته عليه، اختاره النتر منذ صغره وأيده ودعمه، ولبى له كل اللازم حتى يتحقق حلم الملك الصغير، والآن حان موعد رد الجميل.

بعد فترة مرت كدهر اجتمع الصديقان مجددًا، تمشيا وحدهما بين جدران المعبد كسابق عهدهما، سأل تحتمس "لا أشعر أن شيئًا تغير غير تقدمكم قليلًا بالعمر".

"لكنك تغيرت، بغض النظر عن العمر بالتأكيد".

"نعم، لم يكن الأمر سهلًا، لكنه تحقق".

"كأنك تخبئ صديقي الكاهن بمكان ما، هل أنت متأكد أنك تحتمس".

"بلحمه ودمه".

نظر تحتمس إلى صديقه مليًا، ليرى نسخة مختلفة من نفسه، نسخةً لم تنم بقلبها الوحوش والعفاريت، نسخة لم تحمل السلاح عوضًا عن المبخرة، ولن تقدم الذبائح البشرية بالمعركة عوضًا عن الذبائح الحيوانية بالمعبد، هذا هو ما كان سيصبحه تحتمس لو لم يغادر واست، كان قرارًا صائبًا.

"بم تفكر؟"، سأل رخمي رع، فأجاب تحتمس: "لا شيء، فقط سعيد برؤيتك مجددًا".

أنهى جولته بالمعبد وعاد إلى البرعا، ما إن رآه الحارس مونتمس إلا وسجد على الأرض، ولم يتمكن من إخفاء دموعه. فرح الملك للقائه، وأمره بالنهوض فقام الأخير حامدًا للنتر آمون رع على عودة الملك، ضمه تحتمس بين يديه، وقال: "قصة تحوتي كانت معي في المعسكر دائمًا، آمنت بتحقيق ما حققه". أجابه مونتمس: "أعذرني جلالتك، لكن قصة تحوتي ليست حقيقة، حكيتها لجلالتك لتحفيزك، الحقيقة أن تحوتي، طرد خلال أول أسبوع، وبعدها لم نعرف عنه شيئًا، لكن لم يكن مكننا إخبار جلالتك بذلك حينها". ابتسم تحتمس رغم دهشته، ثم ضحك، وشكر مونتمس على كل حال.

دخل الملك للبرعا بالمغيب وكانت نفرو رع بانتظاره بالحديقة، ضمها الملك لحضنه لفترة طويلة، مبتهجة روحه للقائهما مجددًا، قالت: "من اليوم لن يفرقنا شيء حتى الموت". أجابها: "ولا حتى الموت سيفرقنا". من شرفة قصرها المطلة على الحديقة استعادت حتشبسوت ذكرى مماثلة، عندما لاقت حبيبها الراحل آمون مس عائدًا من الشمال، لكنها ترجت من النترو حماية هذا الشاب، ومد عمره لعشرات السنوات، فلن تحتمل كمت فقدانه.

حل المساء عندما دخل جلالته لمسكنه، فوجد إيست بانتظاره، انهالت عليه مجددًا بوابل من القبل والأحضان التي استقبلها تحتمس بكل حب، فقد اشتاق إلى حنان أمه وحضنها ورائحتها، توسد رأسه رجل والدته، وراح يحكي لها عن حياة العسكرية القاسية التي عاشها، وكان لها الفضل في تحوله لملك، وعدها بألا يصيبها أو يصيبه مكروه أبدًا، وأمرها ألا تقلق مجدداً، فقد انتهى كل ما يدعو للقلق. قريبًا سيمد الملك يده لعنان السماء ينتزع النجوم بيديه العاريتين، فينثرهم على أرض كمت المقدسة، ليطأ شعبها الكريم السماء بقدميه.

أمرت إيست بتحضير مائدة جلالته، أعدت ألوان اللحوم والطيور والفطائر والفواكه والجعة والنبيذ، أكل الملك بشراهة، بعدما أصابته أحداث اليوم بالجوع الشديد، لاحظت والدته في بهجة لا توصف نهمه الجديد، أطعمته بيدها بسعادة، سهرا طويلًا وتسامرا، حكى لها تحتمس عن الكثير مما حدث خلال سنوات غربته حتى غلبهما النعاس، وعندما استيقظ الملك قرب الفجر وجد أيست جالسة تشاهده!

"ألم تنامي؟"، أجابته: "أراح رجوعك قلبي، لن أتعب أو أشعر بالضيق في وجودك، لا أحتاج راحة ولا نوماً". ابتسم تحتمس ونزل من على سريره لممارسة تمارينه المعتادة، قبل يديها ثم وقف بقامته العالية وكتفيه المكورين كمحارب عظيم، تناول فطوره بعد الاغتسال، وتقدم للقاعة الكبرى، حيث كان النظام اليومي على وشك البدء. بالقاعة حضرت حتشبسوت ونفرو رع، جلس الملك على عرشه بجوار حتشبسوت، وبينهما وقفت نفرو رع بجمال ممشوق، لم يفوّت جلالته ملاحظة التحول الذي بلغه جسد عروسه الجميل، فلفت عباءة الأميرة خصرها اللين برقة، وانساب على قدميها الرشيقتين بسلاسة، وكأن حتحور ربة الجمال تجسدت بالأميرة، أهدت نفرو رع الملك ابتسامة ما أعذبها، تقدم الوزير وسر ورئيس الخزانة سنموت لإتمام النظام اليومي، تساءل جلالته عن نتائج حملة بونت التي أتمت حوالي ثلاث سنوات، قدم سنموت التقارير لجلالته، مع كل الخرائط واللوحات الخاصة بتلك البلاد البعيدة، وأخبره كيف تمكن الرجال من جلب الأشجار العطرية التي غُرست بساحة معبد جسر جسرو، وكيف حصلوا على العديد من الحيوانات الحية والطيور والجلود وغيرها، لكن ما لفت انتباه تحتمس حقًا الفهدان، اللذان رافقا الملكة بتحركاتها.

اهتم تحتمس بوجه خاص بتقارير قائد المدجاي وقائد كتيبة واست، سأل جلالته: "أين تقارير الأسلحة والعجلات؟" فأحضرت، تصفحها ثم سأل: "خلال ستة أشهر لم تصنع أي أسلحة؟" فأجابه سنموت: "السلام الذي عم البلاد بفضل إدارة جلالة الملكة حتشبسوت الحكيمة، قلل احتياج الجيش لتصنيع الأسلحة، نكتفي فقط بعمل الصيانة، أو أحيانًا قليلة نستبدل المستهلك منها، توجه الجهد كله نحو السلام والبناء والتعمير، فشيدت جلالتها حتى الآن، أكثر من كل ما شيده ملوك ما بعد التحرير".

"وما يحمي السلام؟"، سأل تحتمس، فأجابه سنموت: "آمون رع".

اللعنة على رسائل النترو التي تستقبلها وحدك يا سنموت!

توجه تحتمس في اليوم التالي إلى البر الغربي، بساحة ماعت التقى رئيس الأعمال الخشبية نفريب، ناهز عمر الرجل الخمسين عامًا. تقدم الملك للمصنع مع مونتمس مرتديين فقط للتنورة العادية وغطاء الرأس المخطط يمس، فبديا كأنهما من الضباط لأولئك الذين لم يعرفوا جلالته، عمل الرجل -رغم عمره- بيديه، ينحت التفاصيل الدقيقة لتمثال بالحجم البشري من خشب الأرز كاد ينتهي منه، وقف نفريب باحترام عندما أقبلا عليه، "أهلًا، تحت أمركم". سأل تحتمس: "من مسؤول عن صناعة العجل الحربي؟"

أجابه الرجل: "عبدك مسؤول عن كل الأعمال الخشبية للمملكة الجنوبية".

نظر الملك إلى الورشة مليًا، لم يعجبه منظر بعض قطع غيار العجلات التي غطاها التراب، فقال: "ستعود للتصنيع".

"أنا تحت أمر مولاي لكن، ليس لدينا خشب لصنع عجلات، كما أن التصنيع يكون بوثيقة مختومة من جلالة الملكة نفسها، لا يمكنني تنفيذ القرار بغير الوثيقة".

بهدوء أجابه مونتمس: "جلالته أمرك، نفذ الأمر". ما إن سمع الرجل كلمات الحارس حتى وسقط أرضًا متمتمًا بعبارات الاحترام والخضوع، فأمره جلالته بالنهوض، وسأله: "لم لا يوجد خشب للتصنيع؟".

أجاب نفريب: "اعذرني جلالتك، لصناعة العجل الحربي نستخدم ثلاثة أنواع مختلفة من الخشب، وكلهم من آسيا، ليس لدينا خشب كفاية لتصنيع أي عجل، الخشب الموجود بالكاد يكفي الصيانة".

فكر جلالته قليلا ثم قال: "سأتصرف في الخشب، كن جاهزًا".

"جلالتك اعتبر كل شيء جاهزًا، فبمجرد وصول الخشب بإمكاننا البدء فورًا". همّ الملك بالرحيل، ثم قال كأنه تذكر شيئا: "أيمكننا جعل العجلة أسرع؟"، صمت الرجل واستغرق بالتفكير للحظات، فصاح مونتمس: "جلالته يسألك". أشار إليه تحتمس بيده: "فكر مليًا". أجابه نفريب: "بعد إذن جلالتك، أحتاج إلى رؤية العجلة في أثناء الحركة".

"غدا تعال إلى كتيبة واست".

"تحت أمر جلالتك".

فكر تحتمس، ماذا كان سنموت ليفعل إن كان عليه تطوير الجيش؟ بالطبع أهم سلاح هو العجلة الحربية، إلا أنه قرر استدعاء قرين سنموت في تطويره لكل شيء، وجموح تفكيره، سيفعل تحتمس بالجيش أفضل وأعجب مما فعل سنموت بالمملكة.

عاد الملك وحارسه إلى مكان عجلته فأمر بالتوجه إلى معبد چسر چسرو، الذي لا يبعد كثيرًا عن قرية الحرفيين، قاد الحارس حتى حديقة المعبد، المكتمل أغلبه، حيث يجري حاليًا نقش الحوائط، لذا بينما طارت عجلته على الطريق مقتربة من المعبد، أخذ جلالته أسيرَ عظمة ذلك البناء الجميل، يشهد تصميمه الرائع بعظمة وإتقان، حقًا يستحق معبد ملايين السنين ذلك اسمه ولقبه، فإن اسمه قدس الأقداس وهذا جلي للناظرين، ولقبه ملايين السنين وهو قطعًا ما سيكون، فسيصمد المعبد بروائعه أمام عجلة الزمن المدمرة، فيتذكر الأحفاد القاطنين بكمت بعد ملايين السنين عظمة أجدادهم، وتتناقل الألسن ذكرى حتشبسوت حتى نهاية الزمان.

المعبد عبارة عن ثلاثة طوابق كل منها أصغر مما تحته، زينت أشجار ونباتات عطرية حديقته الجميلة، كما زينت تماثيل أوزيرية لحتشبسوت أعمدة دوره الثاني، ذكرته بتلك التي أقامها جده جلالة الملك تحتمس الأول بقاعة الواجيت المقدسة بمعبد إيبت سوت.

ما إن وصل الملك إلا وأقبل كل العاملين بالمعبد، يسبقهم بومرع رئيس العمل، سجد الجميع بين يدي الملك

الذي حياهم ثم سلم على بومرع، قال الأخير: "تحمد آمون رع على عودة جلالتك بالسلامة، تفضل". يقف المعبد يقف شامخًا بكتف الجبل من بعيد يخطف الألباب، لكن تفاصيله من الداخل قصة أخرى، جرى بناء كل عناصره بدقة متناهية، وأمرت جلالتها بإعداد أهم موضوعين يخصانها لرسمهما على جدران المعبد، بالإضافة إلى المناظر التقليدية، فعالج المعبد موضوع ولادة الملكة من صلب النتر آمون رع!

ذهش تحتمس عندما رأى تفاصيل قصة ولادة الملكة، تقول المشاهد أن جلالة ملك النترو آمون رع أراد أن يجد لنفسه زوجة بشرية، لذا سأل باقي النترو ليرشحوا له إحداهن، فوقع اختيارهم على أحمس تاشري زوجة تحتمس الأول، وافق آمون رع على الاختيار، فتزوجها ووضع برحمها طفلًا هو حتشبسوت!

لم يعلم من قبل بأمر تلك الرواية، لكنه يفهم جيدًا لم كان عليها إنتاج أسطورتها هذه، لكن لم يا ترى تمادت حتشبسوت في الأمر؟ فإن كان كل ما فعلته فقط بغرض تأمين الحكم، لانتهى الآن كل شيء، فهو عاد من الشمال قويًا، قادرًا على قيادة المعارك، ويخضع كل الجيش لأمره.

لم يرد تحتمس أن يخونه قرينه، فيقرأ الرجال ما يدور بقلبه، فرسم على ملامحه وجهًا جامدًا لا يعبر عن شيء، أما الموضوع الثاني والذي حصل على اهتمام شديد منه هو الرحلة لبونت، الذي احتوى على الكثير من التفاصيل المميزة، فوثق الفنانون كل شيء، بأمر الملكة، بداية من السفن في أثناء تحركها ووصولها محملة مختلف أنواع الأشجار والنباتات والحيوانات والطيور الموجودة بتلك البلاد البعيدة، وما أهدته الملكة لحاكم بونت وزوجته، وكل ما وصل لكمت من مختلف الهدايا والبضائع، كما شد انتباهه مقصورة حتحور البديعة التي وقعت على الجانب الأيسر من المعبد، بما فيها من الأعمدة الحتحورية المنتهية بتاج مثل أربعة أوجه للربة الجميلة، تمثيلا للقب ربة الجمال "ذات الوجوه الأربعة"، إنه تنفيذ عبقري، كما مثلت الملكة نفسها ترضع اللبن من البقرة المقدسة، شعر تحتمس ببعض الغيرة، فتلك المقصورة تعد أروع ما شيد بكل كمت حتى الآن، كأن بتاح صممها ونفذها بيديه، لكنها من تصميم المبدع اللعين سنموت.

صعد للطابق الأخير من المعبد مع بومرع، ووقف على حافة البناء وتطلع لواست من الأعلى، بسهلها الخصيب والشمس تلقي عليها بضيائها الأخير قبل الغروب، سمح لنفسه باستنشاق هوائها النقي والاستمتاع بعودته لبلدته وأهله، أشاد جلالته بالعمل العظيم القائم بالمعبد بعد زيارته، وعند الوداع قال الملك لبومرع: "كنت متأكدًا من تنفيذك لعظيم الأعمال، لكن لم أتخيل أنه سيشيد بتلك العظمة، تستحق لقب البناء العظيم للمملكة".

أجابه بومرع: "أنا محظوظ بالعيش في عصر جلالتك، سأكون دائمًا في خدمة النترو، وتحت أمر جلالتك في كل الأعمال العظيمة التي ستشيدها".

"مبارك الزواج، أدعو النتر آمون رع ليشمل أسرتك بالرزق والصحة والسعادة".

"نحيا في أفضل حال في شرف خدمة جلالتك"، قالها الأخير بفخر عناه حقًا لأخيه بالرضاعة.

ودع الملك أخاه وانطلق مع آخر ضوء عائدًا مع حارسه للبرعا، هناك أمر آخر يؤرق فكره؛ مريت رع!

ماذا حل بتلك الفتاة؟ لم يتوقع تحتمس أن بُعده سيفرق بينهما، فهي أهم أصدقائه من الأسرة الملكية، لكن يبدو أن ذلك تغير منذ زمن طويل. لم ينتظر الملك كثيرًا وقرر زيارتها، وصل لمسكنها الذي عج بكل أنواع النباتات والطيور والحيوانات تقريبًا، بعضها في أقفاص وبعضها أحرار، لاحظ قطها الأرقط بسلسلته الذهبية، تضخم حجمه حتى ظن أنه وشق! بحديقتها جلست مريت رع بانتظار لا شيء، تزرع كعادتها بعض البذور، رأته فحاولت التعلق برقبته كالعادة، لكنه نهرها قائلًا: "يداك متسختان".

فكرت أهذا كل ما بالأمر؟

قال: "ظننتك ستفرحين لرجوعي".

"فرحت".

"لا يبدو عليك ذلك".

"ليس مهمًا أن يبدو علي، المهم أن يحيطك كل محبينك ليفرحوا بعودتك".

"أأنت غاضبة لانشغالي منذ عودتي؟ أنسيت أني الملك؟ أم ترغبين أن نظل أطفالًا؟ كبرنا يا مريت".

"ليتنا ما كبرنا".

تحدثت الفتاة بجفاء وببطء شديد ناظرة إلى السراب كأنها تحدث شخصًا آخر. ماذا بها؟ أما زالت تظننا أطفالًا نلعب بالطين؟ ألن تنضج تلك الفتاة أبدًا؟

بضيق قال تحتمس: "لا أفهمك، أتظنينا نظل أطفالًا طول العمر نلعب مع قطك؟ أنا الملك لو لم تلاحظي، وعندي الكثير من المسؤوليات، أم تريدين أن تحكم نفرو رع لألعب أنا معك"، أجابته الفتاة ببرود: "لا، أجلس معها على العرش"، لم يعرف تحتمس بم يرد عليها.

أضافت الفتاة بحسرة: "لقد صرت مثلهم".

ليس هذا تحتمس الذي تعبده، هو كنفرو رع تمامًا، ينهرها لأنها مختلفة، يتعامل معها كالجميع، أضافت: "وددت لو تحدثنا كالسابق".

أجابها: "لم تظنين أني هنا؟".

قالت: "تغير كل شيء منذ غادرت".

قال: "هذه هي الحياة يا مريت، سافرت خصيصًا لأتمكن من التغيير".

نظرت إليه بخيبة أمل، والتفتت لبذورها، أرادت أن تحكي له كل ما حدث، وكل ما عرفته، لكنها لم تستطع، فهو لم يعد تحتمس صديقها وحبيبها.

التقط هو رسالة جفاء من قرينها أصابته بالغضب، لم يقبل الملك سلوكها هذا قط، صحيح أنه أحبها، لكن يبدو أنها ما زالت طفلة لا تستوعب ما هو الآن، خلال دقيقة من الصمت لم ينبس أيهما بكلمة، انصرف تحتمس واتسعت الفجوة بينهما، وبدأ من ذلك اليوم التغير بكل شيء، فلم يسمح غرور جلالته بملاحقة الأميرة الصغيرة حتى ترضى، أما هي فأيقظ حبه المفاجئ لنفرو رع غيرة لم تعلم بوجودها، بل لم تعلم أنها تراه زوجًا، فكان سابقًا مجرد رفيقها في اللعب، يمكنهما مشاركة أفكارهما وسخريتهما من الملكة وابنتها المثالية، لكن اتضح لها أنها أرادته كل شيء، أرادته مركزًا لكونها، رفيقًا وصاحبًا وحبيبًا وزوجًا، لكنه الآن بات يشبههم، أصبح ملكًا!

***

عاد سننفري من رحلته التي استغرقت أكثر من عام، غمرت الملك السعادة بعودة صديقه، وأمر بحضور كبار الضباط لاجتماع فوري، لتحديث المعلومات والحصول على التقارير الجديدة، أحضر سننفري بحماس العديد من أوراق البردي، المحتوية على خرائط وتقارير وأرقام وأسماء، بدأ بشرح الواقع الحالي بالجيرة الآسيوية للأرضين: "المدن في شمال شرق كمت غنية بالموارد والمحاصيل، خصوصًا بعد حالة السلام الحالية، لقد قويت مملكة ميتاني جدًا، وبسطت نفوذها على كل كنعان، وهي السبب الرئيسي في انقلاب ممالك كنعان ضدنا، موقعها في الشمال من فينيقيا حتى أشور، حتى إنهم سيطروا على أشور تمامًا، يعتمد نظامهم في الأساس على الإقطاعيين من محاربي الماريانو، هم ضباط كل منهم مسؤول عن منطقة كبيرة، يديرها ويشرف على إنتاج محاصيلها وثرواتها، ويقود مجموعته الخاصة من جنود المشاة، ومحاربي الماريانو الآخرين من قادة العجلات الحربية الأقل منه في المقام. خلال عشرات السنين، ومع غياب نفوذ كمت مرة أخرى، بسبب

حالة السلام اللي أنعم بها النترو علينا، وعشرات المعارك بين تلك المدن، حشد محاربو الماريانو قوة عظيمة وخبرة كبيرة في إدارة المعارك، ومع تنظيم الاتفاقات والسلام بينهم، بجهود ملك قادش صاحب النفوذ الأقوى، فليس بعيدًا أن يجمعوا جيشًا ضخمًا يضم آلاف المحاربين، هم يتذكرون كيف طرد المبرر أحمس الحقاو خاسوت الأخساء، الذين نقلوا كل خبراتهم العسكرية لميتاني وكنعان وفينيقيا والحيثيين. الوضع حاليًا معقد جدًا بالنسبة إلينا، فلو تجمع هذا الجيش الضخم، سيستحيل علينا مواجهته، الحل الوحيد، هو محاربة كل مجموعة منهم وحدها، لأننا مهما جمعنا من الجنود، ومهما زاد عدد الجيش وأسلحته، يستحيل أن نصل حتى لنصف الجيش الذي يمكنهم جمعه".

لاح أثر الصدمة على أوجه الجميع، فلم يتوقع أيهم أن تتطور الأحداث بتلك الطريقة بين المدن المتناحرة بالجوار الآسيوي، لكن ما زالت فكرة تجميع جيش ضخم متحد شديدة التعقيد وصعبة التنفيذ، فليس من الممكن السيطرة على كل أولئك الملوك بجيوشهم من قائد واحد، لكن يجب وضع الأمر بالاعتبار في كل الأحوال.

أكمل سننفري شرحه قائلًا: "هناك مدن قوية تسيطر على مناطق السهول، وبها تقاطع الطرق التي توصل ممالكهم ببعضها، أهم مدينة منهم بالنسبة لنا الآن، والتي يمكن استخدامها كمحطة تجميع الجيوش للهجوم على كمت هي مجدو، وهي كارثة كبيرة".

بحث سننفري بين برديائه بينما تابعه الجميع بتركيز شديد، وارتسمت ملامح غاضبة على محيا تحتمس، حتى فتح سننفري بردية احتوت على خريطة، وبدأ بالشرح: "مجدو عبارة عن قلعة قوية جدًا من الحجر تختلف عن قلاع الطين التي يتعامل معها الجيش بالجنوب، مستحيل اقتحامها، لأنها مبنية من الحجر على تل شديد الانحدار يصعب تسلقه. حتى لو حاولنا الهجوم، سيمطرون علينا الأسهم بسهولة من فوق الأسوار، فنفقد عددًا ضخمًا من الجنود لمجرد الوصول لقمة السور، وسيكون الوضع أسوأ كثيرًا لو حاولنا فتح ثغرة في السور الحجري، فلا يوجد غير مكان واحد يسمح للجيش بالصعود على التل للوصول إليه، وهو من جهة الجنوب، وهناك ساحة واحدة فقط موجودة بين الجبال تناسب تجميع المشاة.

حاكم مجدو شخص قوي ذو نفوذ، تتبعه مدن كثيرة، لأنه يسيطر على المنطقة والسهول المزروعة بحبوب تكفي المنطقة كلها، لذلك فكلمته سيف على كل المدن المحيطة. هناك طريقان لمجدو؛ طريق شمالي وطريق جنوبي، لكنهم يحتاجون إلى دراسة لأني لم أمر منهم".

"كيف وصلت إلى هناك؟"، سأله تحتمس، فأجاب: "تحركنا خلال الطريق التجاري، جزء كبير منه عبارة عن مدق جبلي، لا يمكن عبور الجيش خلاله بالعجلات الحربية وتشكيلات المشاة. المحطتان التاليتان في الطريق إلينا هم سدوم وعمورة، باتا مناطق نفوذ حضاري، يحافظان على موقفهما حتى الآن، يصعب أن يتحركوا وحدهم ضد كمت، إلا إن اشتركوا مع جيش ضخم. كالعادة لا يوجد ملك موحد لمنطقة كنعان كلها، لكن لكل مدينة صغيرة ملك، لديه قوته الخاصة، وهناك تنسيق قوي بينهم، فيمكن جمعهم بسهولة ليشاركوا في الحرب كدولة واحدة.

لم يتوقع أي من الحضور تطور الأمر لتلك المرحلة، فقد تواجه البلاد خطرًا محققًا، ككارثة الحقاو خاسوت السابقة، فتقع كمت تحت احتلال أحفادهم، لذا لم يعد هناك متسع من الوقت للألاعيب السياسية التي تقوم بها جلالة الملكة، يجب تجهيز الجيش، وتحضير كل ما يمكن من النسخة الجديدة من العربات الحربية وتطوير القديم منها.

استمر سيل المعلومات الهادر من الشمال الشرقي، بقيادة سننفري الذي أثبت كفاءة غير عادية، وأصبح مستشار جلالته وحامل أسراره، فأعيد تشكيل جهاز مخابرات متكامل، عكف خلال السنوات اللاحقة على تجميع المعلومات بطريقة أفضل وأكثر حرفية مما سبق، فيجب الاستعداد للهول القادم..

***

العام الثالث عشر من حكم الملكين حتشبسوت ماعت كارع وتحتمس منخبر رع، كان الثاني بقاعة الحكم، رغم قضائه أغلب أوقاته بكتيبة واست، يتابع التدريبات ويشارك بها، يمد جذوره القوية بأعماق الأرض. قدم الوزير وسر آمون تقاريره للخادم الأول لآمون ورئيس الخزانة سنموت، الذي رفعها بدوره للملكين الشريكين. لا يشغل قلب تحتمس كل هذا الهراء اللعين، وممارسة بروتوكولات النظام العتيق، ولم يطلب منه أي شخص الحضور إلى بالقاعة الكبرى، لكن يجب عليه إثبات وجوده، على الملك ممارسة السياسة أيضًا كما يمارس الحرب، لكنه يجد نفسه كليث حبس بقفص من الذهب، تتصارع بوجدانه الوحوش للانقضاض على ذلك السجن الذهبي، وامتطاء عجلة حربية، قوس باليد وأسهم بالجعبة ولا شيء آخر، سيطير بعجلته حتى يصطدم بشمس المشرق في الأفق، حتى يكاد رع يسقط من مركبه المقدس، سيطأ النجوم بقدميه المهرولتين للمعارك، وسيتحدث العالم عن الأسد الرابض بالأراضي المقدسة.

قرأ سنموت التقارير المقدمة من الوزير على مسامع الملكين، حتى وصل لشيء أثار اهتمام الملك، فقد ورد تقرير من حاكم الإقليم التاسع عشر من أقاليم الشمال، يقول فيه إن هجمات القبائل المغيرة قد امتدت حتى وصلت لحدود المقاطعة، وأصبح الأمر أخطر من ذي قبل، فقد أبلغ قائد قلعة سيلا أكثر من مرة عن بعض الاضطرابات، وعن هجمات يقوم بها جنود جلالته على المغيرين، إلا أنهم وجدوا دروبا بالصحراء امتدت بهم حتى حدود الأراضي المزروعة، وتكررت حتى طلب سا ست حاكم العاصمة دجعنت -صان الحجر- التدخل من المرعا.

أضاف سنموت: "يمكن لجلالتكم أن تعطوا الأمر لقاعدة سيلا بالتقدم أكثر في مطاردة الهمج، وبالإضافة إلى الدوريات العادية، يجب أن تتمركز مجموعة على الفرع البو باسطي للنهر المؤدي إلى الإقليم التاسع عشر، حينها لن يقترب أحد منه".

أجابت الملكة: "أبلغ قائد سيلا بمتابعة الأمر والسيطرة على المنطقة بصورة أفضل، إن أراد الحفاظ على رتبته ومنصبه".

"لا يكفي جنود قاعدة سيلا للحفاظ على النظام، التقارير السلبية تتكرر منذ شهور، والآن امتدت الهجمات لقلب الشمال، وهذا يعني خطورة التهديد أكثر مما نوليه من اهتمام"، أجاب تحتمس.

جادلت الملكة: "حماية الحدود مهمة القلاع الحدودية، وهؤلاء مجرد قبائل رحالة من الهمج، ليس جيشًا منظمًا، ويجب أن يثبت قائد قاعدة سيلا جدارته".

"كان الحقا خاسوت أيضًا قبائل رحالة، استقروا في الشمال حتى سيطروا على كمت كلها، لا يجب التهاون مع تهديد كهذا".

"نحن لا نتهاون مع أمن المنطقة، لكن الموضوع يتبع سلطة القائد الذي وثقنا به وأمناه على الحدود".

"وهو بنفسه أبلغ عن خطر أكبر من حدود إمكانياته، والآن يزداد الخطر ويمتد ونفوذهم".

"لو تطور الأمر سنرسل إلى قائد منتفر، ليخرج بحملة للسيطرة على أمن المنطقة، لا تعط الأمر أكبر من حجمه".

عم الصمت للحظات حاول بها تحتمس السيطرة على وحوشه، والفليان بدمائه، والبركة المشتعلة برأسه. وقف الملك وقال بهدوء وتصميم: "سأتحرك بحملة من هنا، وأتأكد بنفسي من استتاب الأمن"، قالها وانصرف، لم يعط أمرًا بتجهيز التقارير، ولم ينتظر انتهاء البروتوكول اليومي، لم يحترم التقاليد، بدأ الصراع على النفوذ. لم يكن صراعه على الجلوس على العرش اللعين، أو الاهتمام بترتيب اسمي الملكين في الوثائق الرسمية، يرى أن لهذا الأمر يوجد آلاف الموظفين الجديرين، بينما على الملك المحارب الاهتمام بإقرار السلام والأمن

بالبلاد، ستقوم نفرو رع بدورها الممل ذلك لاحقًا على أكمل وجه، فقد أحسن سنموت تعليمها، بينما يستمر الملك بحملاته، لن يقلقه أي شيء بالداخل، طالما سينجبان وريثًا يقوم هو على تربيته العسكرية وهي على تربيته السياسية، لكن الآن لن يهدأ له بال وهو يتابع تقارير سخيفة تخبرهم أن الهمج الأنجاس يعيثون بالأرض المقدسة فسادًا.

***

في اليوم التالي بحديقة البرعا تمشت مريت رع، تشاهد الزروع وتتابع الطيور، وقف الهدهد يتأمل قليلًا، ثم عاد يلتقط من الأرض رزقه، كأمير صنع له الخالق تاجًا جميلًا من الريش، كم تمنت أن ينمو لها جناحان، فتهرب من هذا السجن الذهبي. انتهى البروتوكول اليومي، وخرج الموظفون من قاعة الحكم، بما فيهم الشاب النبيل أمنحتب، الذي لاحظ وجود الأميرة بجوار الزرع فدنا منها وقال: "غريب أمر زهرة لوتس تنمو بحديقة البرعا وليس على صفحة النهر"، نظرت إليه الفتاة بابتسامة، سألت: "ماذا يجعلك سعيدًا اليوم أكثر من العادة يا أمنحتب؟".

"حسنًا يبدو أنك تهتمين لأمري إذًا، لدرجة أنك لاحظت سعادتي اليوم أكثر من المعتاد."

"بغض النظر عن خفة دمك، أليس هناك سبب للسعادة الإضافية".

"بالطبع هناك سبب". هندم ملابسه بفخر، وأضاف: "حصلت على لقب مدير البرعا اليوم".

"ممم، مبارك، أنا سعيدة من أجلك".

"أتعلمين ما كل ألقابي حتى الآن؟".

"لا أهتم"، أجابته بابتسامة ساخرة.

"الأمير الوراثي، والسمير الملكي، ورئيس كل البلاد، والمقرب العظيم لدى رب الأرضين، ومدير البرعا، وعظيم العظماء في كل الأرض جميعًا، و..".

"حسنًا يا عظيم العظماء في كل الأرض جميعًا، بم يفيدك إخباري بذلك".

"أن أنال إعجابك أكثر".

"لم تنل منه أي شيء سابقًا حتى تأمل بالأكثر".

"أرى الكذب في عيونك، فقرينك يفضحك، يقول هيا يا أمنحتب، اهدني بعض الزهور، وأطلب يدي للزواج".

"إنك تتجرأ كثيرًا".

لم تعِ مريت رع ما يعنيه أمنحتب حقًا، اعتادت أن يمازحها من حين لآخر، إلا أنه قطع وردة من الحديقة، وقال لها: "أرجو يا مريت رع أن توافقي أن تكوني شمسي، التي تنير ابتسامتها حياتي، أن تكوني حتحوري، تنسمين السعادة ببيتي، أرجو أن أحيا عمري إلى جوارك، حتى نعبر للعالم الآخر معًا، أرجو أن تقبلي الزواج بي".

أصابت الأميرة دهشة كبيرة، ولم تعرف بم تجيبه: "هل... هل أنت جاد؟".

"أيمزح من بموقفي هذا؟ أتظنين أن لدي أمنية أعظم من تلك؟ أن تضمك ذراعاي حتى يفنى جسدي بحبك".

تلك جرعة ضخمة من الحب، لم تعتد الحصول على قطرة منها، قالت: "لا أعرف".

أجابها: "لا أحلم إلا بك منذ الطفولة، ولا أرجو من النترو إلا سعادتك، وكل ما حصلت عليه من ألقاب، درجات أرتقي بها لقلبك".

"غدًا تعرف الجواب".

"ظننت أنك ستندفعين إلى حضني بمجرد سؤالي و..".

قاطعته قائلة: "انصرف"، ومسكت كتفيه القويين بابتسامة، وأدارتهما للجهة الأخرى ودفعته برفق، سألها: "أيمكنني الاطمئنان؟"

أجابته والأحمر يغطي وجهها: "لا أعرف، انصرف حتى غد".

انتشر الدم بجسدها، وراحت تقطع الحديقة ذهابًا وإيابًا، لم تعرف ما عليها فعله، دق قلبها بعنف ولم تفهم ما يريد، الحياة بجوار من يعبدها أم من تعبد؟

ما فرصة زواجها بتحتمس؟

في كل الأحوال ستذبّر زيجة لائقة بالأميرة، لكنها ارتعبت حالًا من فكرة ضياع أمنحتب من يديها، سيحاول كل فرد التودد للملكة وابنتها، حتى ينال ذاك الشرف العظيم، لكنها تعرف أمنحتب منذ الصغر، هو شاب طيب، ويبدو أنها لم تنتبه لحبه هذا سابقًا، لكنها شعرت الصدق بعينيه.

أتترك فرصة الحياة مع من يحبها لشخصها، لتتزوج بمن تختاره حتشبسوت؟

أتحاول جذب انتباه تحتمس؟

لا فائدة من ذلك، فإن ود لاختارها، هو الآن ملك يفعل ما يريد!

أتظلم أمنحتب إن وافقت على الزواج به، أم تظلم نفسها؟

أيمكن لقلبها اختيار غير تحتمس؟

شعرت أن دماغها سيخرج من جسدها من عصف الأسئلة، يتنافس كاها معها ولا يمكنها الوصول لإجابة، كيف يمكنها اتخاذ قرار غدًا؟

حل موعد الغداء بعد انتهاء البروتوكول، اتجهت مريت رع مرغمة كالعادة، جلست بصمت غارقة في التفكير. شغلت حتشبسوت بحوار مع نفرو رع، لم تنجذب له مريت، سرحت بأفكارها، لأمكنها مشاركة أفكارها إن كانت حتشبسوت أمها فعلًا، كما هو الحال مع نفرو رع، أو مع سنموت، إن لم تعرف الحقيقة، نظرت الفتاة بالمرآة كثيرًا بعد ليلة المحكمة، حاولت إيجاد الشبه بينها وبين سنموت، لكنها لم تجد، هي تشبه نفرو رع، رغم الفرق الواضح في الجمال لصالح الأخرى.

قطع أفكارها دخول تحتمس، دق قلبها بعنف وارتبكت، نظرت إليه بحب فانتبه، سألها: "لم لا تأكلين؟" نظرت إلى طبقها، وأعادت النظر إليه ولم تجب.

قالت نفرو رع: "لا أظن أن شهرًا يكفي لتنظيم الزفاف".

أجابها تحتمس: "لديك جيش كامل من الموظفين والوصيفات والفنانين، يمكنهم مساعدتك في كل شيء".

ردت: "أتظن أن جيشًا من الموظفين سيهتمون بتفاصيل الزفاف أفضل مني؟".

"زفاف من؟"، قاطعتهم مريت. فأجابت نفرو رع: "زفافي على تحتمس، ألم تنتبهي لحوارنا في تفاصيل العرس؟".

نظرت مريت رع بصمت والدموع تترقرق بعينيها، زاد الانفعال فجأة فانصرفت مسرعة. تساءلت حتشبسوت: "ما بها؟".

أجابت نفرو رع: "تعميها الغيرة". ثم أضافت: "أود أن أعرف رأيك في بعض تفاصيل العرس يا عزيزي".

أجابها: "أنا أستعد للحملة الآن يا عزيزتي، وأثق برأيك بالتفاصيل كلها".

سألته: "لديك جيش كامل من الموظفين والضباط والجنود، يمكنهم مساعدتك في كل شيء، ألا يكفيك هذا؟".

ضحك تحتمس وقال: "حسنا، تعرفين الإجابة".

أكل تحتمس على عجل بنهم، وعاد إلى كتيبة واست لمراجعة كل شيء، لم يحتج الأمر لأكثر من يومين لإعداد كل شيء، فالحملة صغيرة وكل احتياجاتها مؤمنة، لم ينتظر جلالته ورود التقارير كالعادة، بل أشرف على كل تفاصيلها، من إعداد المؤن والطعام والشراب الكافيين للذهاب والعودة.

في إحدى الصوامع الملكية وقف تحتمس مع كتبة الجيش، يتابع كمية الغلال اللازمة للحملة، سأل: "كم جهزتم حتى الآن من الزكائب؟".

أجابه: "ست وسبعون زكيبة جلالتك، وتبقى فقط أربعة عشر".

فكر تحتمس قليلًا، وحسب عدد الزكائب على عدد الأيام والجنود، ثم قال: "اجعل العدد النهائي مئة وعشرين زكيبة، وأنا سأبلغ كاتب الفرقة بتحديث تقاريره". توجه بعدها إلى الحظائر الملكية، وراجع عدد الأبقار المسمنة، وحسب عدد الفائض منها، وأضاف ثلاث بقرات للمجموعة، وفعل المثل تقريبًا بالإمدادات كلها.

سأل نحسي: "معذرة جلالتك، لكن ألن يؤثر عدد الإمدادات الكبير على سرعة التحرك يا مولاي".

أجابه تحتمس: "بالطبع سيؤثر، سيجعل التحرك أسرع".

توجه إلى الكتيبة، وتابع تجهيز الجنود المختارين للمعركة، وقف مع مجموعة في أثناء استلامهم الأسلحة الشخصية، قال موجها كلامه لأحد الجنود: "تعال هنا، ما اسمك؟".

أجابه: "اسمي باك جلالتك".

"كم عمرك يا باك؟".

"عشرون عامًا جلالتك".

"وكم كان عمرك عندما وقفت عن النمو إذا؟".

انفجر باك وكل من حوله ضاحكين، فهو أقصر الجميع بفرق واضح، لم يظن قط أن الملك بذاته قد يمزح مع أحد جنوده. اقترب الجنود من الملك الصغير بابتسامة بلهاء على وجوههم، تجرأ أحدهم ليقول: "بإذن سيد النترو آمون رع، سنقضي على الهمج، ونخضع الأرض تحت قدمي جلالتك". صاح باقي الجنود تأكيدًا على كلام زميلهم. أجابهم تحتمس: "أنا أثق بكم جميعًا، أنتم جنود آمون رع، جيش جلالتي، سنخوض الأراضي الأجنبية لنخضعها باسم آمون رع، بوقت أقرب مما تظنون"، صاح الجميع تأكيدًا لكلام جلالته.

***

انصرفت مريت رع لمسكنها فوزا والدموع تنهمر من عينيها، لم يا ترى وضع النترو بحياتها كل هذا التعقيد؟ تحسدها بنات كمت على أنها الأميرة ابنة حتشبسوت، بينما هذا هو سبب اللعنة، كم كانت حياتها لتصبح أسهل إن كانت ابنة لأحد الفلاحين، أحبها ابن فلاح آخر وأحبته فتزوجا، لصارت الحياة أجمل كثيرًا، لم تهتم يومًا بلباس الأميرات وزينتهم وحياتهم المتصنعة، ودروس القيثارة اللعينة، بل جذبتها الطبيعة والزرع والورد والطيور والحيوانات، تحب كل ما يمكن إيجاده بسهولة، ويتمتع به كل فقير أو غني، فلم لا يمكنها العيش كأحد البسطاء؟

بم يفيدها أن حتشبسوت أمها وهي لا ترى منها أي حب أو عطف؟

بم يفدها كونها أميرة، وهي تبغض كل تفاصيل الأميرات؟

بم يفدها قربها من تحتمس وهو لا يحبها؟

بم يفدها أنها ابنة الملك المزعومة وهي ابنة سنموت؟

قطع دخول نفرو رع أفكارها وأصابها بالدهشة، فعادة لا تزور أيهما الأخرى، خاصة بعد حادثة اليوم، حاولت مريت رع تجفيف دموعها بعصبية، قالت لها نفرو رع: "عندما ولدت فرحت بك كثيرًا، حصلت على أخت صغيرة، سأعلمها كل شيء لنصبح أصدقاء، لكنك أثبت كل يوم أنك وحش صغير، تتلذذين بإفساد كل مناسبة جميلة، تعيشين كحيوان بري، لا يمكنك الحفاظ على مظهرك لعدة دقائق، كنت دائمًا عبئًا على الجميع، لا أعلم لما تجعلين من كل شيء أصعب، ألا يمكنك فقط أن تعتادي النظام من أجل أسرتك الملكية؟ ألا يمكنك أن تكوني أختًا؟

لكن حتى اليوم لم أعلم كم تكرهينني وتكرهين سعادتي، رغم كل عيوبك إلا أن غيرتك العمياء تفضح قرينك الهمجي، لم تتمكني حتى من تصنع الفرحة والمباركة على الزواج؟ لماذا أنت مختلفة هكذا؟"

"ربما لأني الابنة غير الشرعية لسنموت".

"ماذا تقولين أيتها المجنونة؟"

"ألم تصل إليك الحقيقة قط؟ ألا تعرفين لما لم تتزوج الملكة بعد وفاة والدنا؟ أو ما سبب قرب سنموت منها؟ أم أنه تمكن من ترويضك حتى الخنوع؟"

"أنت أقذر وأغبى إنسان على وجه الأرض، لأمرت بجدع أنفك وقتلك فورًا إن كنت إحدى بنات العامة، لا أعلم كيف حملت بك أمي، أتروجين إشاعات المجرمين الملاعين الذين أغبضوا، أنا لا أكره في هذه الدنيا أكثر منك، إن كان قرارك العيش في الحياة بغرض الكره والحقد والغيرة فهذا خيارك، من اليوم أنت لست أختي، سأتزوج بتحتمس قريبًا، ولنجب ولي العهد، وتموتين أنت بحقدك".

قالتها نفرو رع وانصرفت، وما هي إلا لحظات وانفجرت مريت رع بنوبة غضب، راحت تصرخ وتكسر كل شيء من حولها حتى أغشي عليها، وسقطت بعض قطرات من عينيها على الأرض.

***

في اليوم السابق للانطلاق توجه جلالته إلى نفريب رئيس الأعمال الخشبية، قضى الرجل وقتًا كبيرًا في دراسة حركة العربة الحربية العملية، وأقام بعض التعديلات على التصميم. أمر جلالته نفريب بتنفيذ واحدة طبقًا للتعديلات الجديدة، إنتاج عربة واحدة يتطلب عدة أيام للتصنيع، فالعملية معقدة وتتكون من عدة مراحل من القطع والنشر والنحت وتسخين بعض الأخشاب بالفرن، انصاع نفريب وصارع الوقت، عمل بيده بجهد أكبر من المعتاد حتى ينتهي خلال الفترة المحددة.

أقبل الملك على نفريب، الذي يشرف على تركيب آخر قطع النسخة التجريبية الجديدة. عند رؤيتها للمرة الأولى لاحظ تحتمس بعيني خبير بعض الاختلافات، من شأنها تحسين ثبات الراكب وبالتالي سرعته، حرك الفنان محور العجلات للخلف، لآخر جزء بمنصة الرامي بعدما كان يقع بمنتصفها، مما عرضها لهزة شديدة في حالة التعثر بأي حجر -خاصة مع السرعة الكبيرة- نظرًا لوقوع العجلات تحتها مباشرة. أما مع وجود المحور بآخر المنصة، سيجعل ذلك من أثر العطبات المحتملة أقل تأثيرًا -بفارق كبير- على ثبات الراكبين، لتبديد حركتها قبل الوصول لقدمي الراكب، خاصة بعد تغيير مادة قاعدة منصة الركوب من الخشب لشبكة من الجلد، مما يجعل الأمر أكثر مرونة، ويسهل امتصاص الصدمات، تغيير ثوري رغم بساطته، فتصميم العربة الحربية الكمتية أخف كثيرًا من نظيرتها الآسيوية بالفعل، حتى بعد تطوير العجلة الآسيوية لدى محاربي ميتاني والحيثيين وكنعان، ما زالت النسخة الكمتية أخف مرة ونصف من قرينتها، فلا يمكن تخفيف الوزن أكثر، وإلا

أثر ذلك على المتانة كما حدث بمحاولات سابقة، لذا أقر نفريب بأن حركة العربة لن تكون أسرع إلا بإضافة مرونة وانسيابية أكثر.

أعجبت تلك الأفكار جلالة الملك تحتمس بشدة، لكن المفاجأة الحقيقية بالانتظار، فهناك أمر آخر لم يلحظ جلالته تطوره، عندما انتهى الملك من الملاحظة بدت علامات السعادة على وجهه انعكاسًا للفخر على وجه نفريب الذي قال: "بعد إذن جلالتك هناك تعديل آخر، هو أهم تطوير في تنفيذ العجلة، أهم من كل التعديلات الأخرى، إذا سمحت جلالتك ونظرت هنا"، أشار الرجل بيده نحو مكان تركيب المحور الأساسي للعربة، والذي يثبت أحد طرفيه على كتفي الحصانين والآخر بالمنصة، فلم يلحظ أي تغيير، نظر الملك باستنكار لنفريب، الذي نطق قائلًا: "بعد إذن جلالتك، لقد ثُبت المحور سابقًا بجسم المنصة، مما قلل الثبات مع حركة الأحصنة، لذلك حررت حركة العمود المستقيم، داخل إطار من الخشب بمرونة، بدلًا من تثبيته، ليمتص الصدمات الناتجة عن حركة الأحصنة فلا تؤثر على ثبات المنصة!".

بنهاية كلامه فُتحت عينا جلالته إلى أخرهما انبهارًا، هذا الرجل عبقري! "عندما يكتب لنا آمون رع السلامة ونرجع من الحملة، سأكافئك مكافأة مناسبة". سجد الرجل لفوره وصاح: "لا أعظم من رضا جلالتك، ليجعل آمون رع لجلالتك الخير ودوام الصحة والسعادة، ولتعش لملايين السنين". ربت الملك على كتف الرجل وانصرف.

مساءً بحديقة البرعا انتظرت نفرو رع تحتمس، الذي قبل جبينها برفق، ثم تمشيا تحت رداء السماء الأزرق ذو اللآلئ المضيئة، اعتصر القلق قلب نفرو رع الذي لاحظه جلالته، لذا بادرها بالسؤال: "أقلقة أنت؟"، لا يخفى أن جزءًا منه أراد سماع إجابتها، فردت: "كيف لا أقلق لخروجك للحرب، أخاف عليك من المستقبل، أخاف على تهديد حياتنا المثالية؟".

فكر تحتمس "مثالية!"، لهما وجهتا نظر بغاية الاختلاف، فيرى تحتمس كل شيء بالحياة بعيدًا عن المثالية، يهدد الهمج مدن كمت، ويهدد الأخساء مستقبلها، ويهدد وجود حتشبسوت عرشه، أين المثالية في ذلك؟! لكنه لم يشارك أفكاره تلك معها.

"غريبة، اقترحت بنفسك خروجي مع حملة الجنوب عندما كنت طفلًا، ألم تقلقي حينها؟ أم لم يكن حبي قد ثبت بقلبك؟".

"تعرف كم أحبك، لكني تأكدت من عدم تعرضك لأي أذى، ظننت أن الفخر هو كل ما يمكنني الشعور به وأنت خارج على رأس الحملات، لكن اكتشفت خوفي من الأقدار، لا يتمنى لنا الجميع السعادة كما ظننت، فمريت رع تتمنى لنا كل شر".

"لم تظنين ذلك؟".

"أنا لا أظن، بل أعرف، ألم تزّ ما فعلته عندما علمت بأمر زواجنا، تكلمت معها حينها، وأبدت هي كرهها، وباحت بالكثير من الجنون، حتى إنها شككت بسمعة الملكة".

"لا تهتمي لأمرها، ولا تقلقي بشأني، تعلمين أني محارب".

"أخاف أن تتعرض للخطر، عرفت كيف مات عمنا آمون مس، بسبب تهوره، وأخاف أن يصيبك التهور مثلما أصابه. عيناك مختلفتان، أرى كل مرة أنظر إليهما، رغم حبك البادي عليهما، وحشًا يدفعك للخطر".

"ليست الشجاعة السبب الوحيد للموت، مات أبونا على سريره دون أي حروب، والعم المبارك واجمس أيضًا، لكن القائد أحمس بن لخبت رغم قوته ومخاطراته، عاش سنين طويلة إلى أن رأى أحفاده، مسنودًا على الأمجاد التي حققها، أتعرفين أنه أسر جنودًا من الأعداء وعام بهم مربوطين لليم الآخر من النهر، بعدما تخطى الأربعين؟ ثم لا تقلقي هكذا، هذه ليست حربًا، بل حملة تأديبية، ما زال هناك وقت إلى أن تبدأ الحروب".

"عدني ألا تخاطر".

"لا أخاطر غير مخاطرة محسوبة".

لم تنفذ كلمات تحتمس لروح أميرته، كوي القلق قلبها رغم ثقته، بل أن ثقته هي ما غرس قلقها!

قال تحتمس: "ستكون هدية زواجنا رؤوس الهمج، صحيح هي حملة صغيرة لكني سأصنع منها ملحمة، استعدي يا أميرتي، عند عودتي نتم فرحتنا بالزواج".

تحركت الحملة فجرًا، صحيح أنها لم تكن حربًا بالمعنى المفهوم، لكنه اعتبرها بداية جيدة لبث قوة وحوشه، سهل عدد الجنود على الملك مهمة تواصله معهم مباشرة، منذ البداية صاحبهم نحسي كقائد، وآمون محاب مع عشرة ضباط آخرين من قادة العجلات، طلب آمون محاب من جلالته في أثناء وجودهما في معسكر الشمال، أن يتشرف بمرافقته بكل حملاته، واليوم يرافقه بأول حملة حقيقية.

عندما رافق تحتمس نحسي في حملة الجنوب، لم يتفاعل مع أي شيء، اكتفى حينها بدور المشاهد بينما يلقي الأخير الأوامر، أحيانًا قاد نحسي العجلة مع تحتمس ذاته، بعدما طلبَ من الأخير عدم القيام بأي حركة والتمسك جيدًا، ولم يكتفِ نحسي بذلك، بل أمر بحزام من جلد لتثبيته بالعربة، حتى لا يؤدي أي خطأ لأذيته، مما أهانه بشدة، لكنه لم يتمكن من الاعتراض، فتلك أوامر الملكة، خلال تلك الحملة كره نحسي، الرجل الضخم الذي لم يتوان عن الصياح بالجنود والضباط وإلقاء الأوامر، أما الآن كان دور نحسي استشاريًا فقط، فكل شيء بأمر جلالته.

قبل التحرك فجرًا، توجه تحتمس إلى المعبد لتقديم قرابين لآمون رع، وقف الجيش بالانتظار أمام الساحة الكبرى للمعبد، لم يغب الملك طويلًا، فصاح نحسي عند إشراق جلالته بصوت كهدير الفيضان: "انتباه". وقف الجميع كأصنام لا تدب فيها حياة، صاح جلالته: "اليوم نتحرك باسم آمون رع، من أجل قبائل الهمج الخسيسة المغيرين على سني، مهددين سيادة آمون على أرضه، لحن رجاله ونعلي اسمه فوق الجميع، نخرج لتأديب المعتدين.

نعيد النظام.

ليعرف كل الأعداء أن لآمون رع جيش عظيم يحمي أرضه".

صاح جميع الرجال في إثر ذلك بالهتاف لآمون رع ولتحتمس منخبر رع، ثم لحتشبسوت ماعت كارع، أضاف جلالته: "عندما يكتب لنا آمون رع السلامة، ستكون بانتظاركم مكافآت سخية لكل واحد". صاح الجميع مرة أخرى، بسعادة أكبر ودبت فيهم روح لم يشاهدها الملك في حملته السابقة، حتى انعكس عليه أثر الحماس، ركب عجلته التي قادها مونتمس، أعطى جلالة الملك أمره لنحسي الذي صاح بقوة "تحرك".

بدأت كل العجلات بالحركة البطيئة حتى يتمكن المشاة من مجاراتهم، إلا أن تلك السرعة -رغم منطقيتها ومناسبتها للتحرك العام- لم ترق لجلالته، عند حلول مساء اليوم الأول، صاح تحتمس بينما شرع الجنود بإقامة المعسكر "لأول مجموعتين تنتهيان من شد خيامهم بيرة أكثر"، وفجأة ضرب الجنون المعسكر، فحلت عليهم قوة شيطانية، وبسرعة تكاد تكون خارقة انتهى الجنود من كل شيء، أسرع ثلاث مرات من المعتاد، ما أثار دهشة الملك نفسه، لذا أمر جلالته بتوزيع الجعة الإضافية على كل الجنود، فصاح الجميع فرحًا وطربت قلوبهم، ثم أمر الملك بامتثال الفائزين بإقامة أول خيمتين، فسألهم عن أسمائهم أمام الجميع ثم صاح: "اللية نتعشى مفا".

عصف الجنون بعقل الكل وصاح الجنود الفائزون بالهدية الضخمة فرحًا، فمجرد تكريم جلالته لهم أمر جلل، أما جلوسهم معه على مائدة عشائه فذلك شرف عظيم، أكبر مما يحلم أيهم به كجائزة سخية على هذا العمل البسيط. بعد العشاء حل موعد الراحة، لكن تحتمس قال لآمون محاب: "ماحوا! تعال لنتدرب". سأله الأخير

فورًا: "بالخوبيش؟" فهز جلالته رأسه إيجابًا، وأمر بتجهيز ساحة للتدريب ليست بعيدة عن مكان استراحة الجنود، أشعلت نيرانها بدائرة حول الصديقين. تحت ضوء البدر تراقصا بسيفيهما في قوة ومهارة، خلال بضع دقائق تخلى أكثر الجنود عن فكرة الراحة، وانتشروا حول الدائرة النارية وقاموا بالتشجيع بكل قوة، استمرت المنافسة لبضع ساعات حتى أنهك جلالته وصديقه تمامًا وانصرف نصف المشجعين، فعمد الجميع للنوم ما عدا الحراسة التي طوقت المعسكر.

في خيمته راقدًا على فراشه مغطى بالعرق والرمال فكر تحتمس، وتأملها بفخر، ملأه إحساس الراحة الذي شعر به سابقًا بالمعبد، أضاءت قلبه فكرة، يؤدي كهنة آمون رع ملك النترو طقوس خدمته اليومية بالمعبد، فيتلقى العبادة حتى يرضى، بينما هو سيد الحرب، فتلك الخيمة الملكية هي أيضًا معبد لآمون رع، وتحركهم للحرب هو طقس عبادة وعيد، استبدلت فيه ألحان المعبد بدقات الطبول الهائجة، لم يرتح سابقًا لشعور التراب على جسده، فأحب الطهارة كما يحبونها النترو، لكنه يتحمس كالأسد خلال مسيرة عسكرية تغمره بالرمال، فهذا هو تطهير أرض المعركة، بدلًا من التطهير بالماء في المعبد، حقًا لا يمكن لخيمته إلا أن تكون معبدًا، فكاد يشعر بوجود آمون رع معه، حتى دون تمثاله المقدس، سينشر إذًا خيام الحرب بكل أنحاء الدنيا، حتى تقع كل البلاد تحت حكم ملك النترو آمون رع، قرر عند عودته أن يأمر بتشييد صالة للاحتفالات بمعبد إيبت سوت، تكاد تكون معبدًا مستقلًا من ضخامتها، على شكل خيمة، تمجيدًا لرب الحرب آمون رع.

بفجر اليوم التالي أقبل تحتمس على عجلته أمام الجنود، ثم نزل منها، وترك قيادتها لمونتمس وحده، وصاح بالجنود: "لتحرك اليوم أسرع؟". صاح جميع الجنود إيجابًا، فضم الملك نفسه لمجموعة المشاة وسط دهشة الجميع، وأعطى أمره للتحرك تحت قيادته سيرًا! فتحركت المجموعة بنظام دقيق، وقوة عظيمة، وسرعة كبيرة، على وقع دقات الطبول الغاضبة المحفزة، اشترك جلالته مع جنوده في إنشاد أغاني الجيش، بات لوجوده وسط جنوده، وطاقته غير المحدودة، وحماسه الشديد وتشجيعه، أثر السحر على المعسكر.

ظل الحال على ما هو عليه كل يوم، وبالمساء تقام المسابقات، في الليلة الثالثة قال جلالته لنحسي: "اسأل من يود المنافسة اليوم بمسابقة الملك، واختر عددًا زوجيًا".

أجاب الرجل: "حسنًا سأختار".

قاطعه الملك: "اسأل الجنود، واختر فقط ممن يود المنافسة".

"أمر جلالتك".

أحضر الرجل ستة وعشرين نفرًا، متحمسين للمبارزة، أمر تحتمس بجولة لمدة معينة، ولعب بعدها الفائزون من كل جولة، حتى وصل للتصفية النهائية اثنان، كاد قلبهما ينخلع من الإرهاق والتعب، ولم تزل الابتسامة عن وجههم، بدأت المبارزة الأخيرة وانتهت سريعًا، فقد نافس كل من النفرين لخمس جولات تقريبًا. سأل تحتمس الفائز: "ما اسمك؟".

أجاب: "اسمي توري جلالتك".

أشار تحتمس إلى مونتمس فأحضر له صندوقًا صغيرًا من الخشب، قدمه لتوري، ففتحه الأخير ودقت الدهشة قلوب كل من بالمعسكر، فقد احتوى الصندوق على تميمة جعران بحجم عقلة الأصبع من الفيروز، عادة لا تقدم تلك الهدايا القيمة لهذه الأهداف البسيطة.

جن جنون توري من السعادة فصاح: "لجلالتك دوام السعادة والحياة والقوة". ورفع القلادة عاليًا فصاح كل من بالمعسكر، رفع الملك يده فصمت الجميع، قال: "لن يكون هناك أي عمل دون مكافأة، أنتم جيش جلالتي، أهدوني النصر، وسأغرقكم بالخيرات".

صاح الجميع فرحًا جراء ذلك، وأمر لهم بتوزيع حصة مناسبة من البيرة، أصبح كل يوم بالمعسكر مهرجانًا

احتفل به الرجال، لذا عبد الجنود وضباطهم ملكهم الصغير، الذي خاطب قرائن الأقوياء آسرًا قلوبهم، وكأنه خُلق لذلك، فلرؤية جلالته يشارك جنوده أحيانًا، ويخترق الأفق بسرعة رهيبة بعجلته الخارقة أحيانًا أخرى، مفعول السحر، أراد كل منهم أن يحظى بفرصة مقابلة ذلك الشاب، الملك القوي الذي يبتسم لجنوده، يعرف أسماءهم ويلاطفهم ويمزح معهم رغم قوته وصرامته، أشعل تحتمس روحًا جديدة وسط جنوده للمرة الأولى منذ عصر محرري البلاد، فعندما يقود الملك الجيش تُلقى على الجنود أوامره خلال سلسلة طويلة من المرؤوسين، لكن الآن يشعر الجنود بقرب قائدهم الأعظم، سيكون لذلك الملك تاريخ طويل من الحروب، لذا فالفرصة سانحة لأي جندي أن يبدأ بتحقيق مسيرة ناجحة، فيستمر بالصعود على سلم المجد طول حياته.

عند وصول الجيش لقناة سنوسرت، التي تربط النهر العظيم بالبحر الشرقي، وفر تحتمس خمسة أيام كاملة من الشهر المقرر لوصولهم، لم يكن العثور على القبائل المغيرة صعبًا، فخلال اليوم الأول أطلق جلالته عساسيه للوقوف على مناطق تواجدهم، وانطلق جيش جلالته بقوة كسرت غدر المغيرين بكل بساطة، اعتبر الملك تلك الحملة تدريبًا عمليًا لقوته وقيادته للجيش، وللمناورات التي يجب على عجلاتهم تنفيذها، فنفّذت على خير وجه، لم يكتفِ الملك بقتال وأسر المغيرين، بل تتبع أثر من تشتت منهم بالجبال ولم يتخاذل عن مطاردتهم، حتى طهر جبال سني من نجاستهم. لم ينس جلالته أمر خطر الشمال الشرقي خلال حملته تلك، لكنه لم يرد أيضًا الخروج عن حدود كمت حتى لا تنتقل عنه الأخبار، إن كان الخطر قادمًا لا محالة، فليظل الأعداء غافلين عن قوة كمت وقدرة ملكها الحقيقية.

في أثناء الليلة الأخيرة قبل رحلة العودة، ارتفع القمر بدرًا في الصحراء، وألقى بضيائه الأبيض الخجول على الجرانيت الوردي بالجبال، ليخلق مع ألسنة النار التي لعقت ما تيسر للجنود من صيد مخدرًا، داعب قلوب الرجال وبطونهم، أمر جلالته بصرف كمية كبيرة من الجعة للمعسكر، للاحتفال بنجاح الحملة وتحقيق هدفها، فأكل الرجال على أنغام أغانيهم الحماسية، شربوا وضحكوا وغمرتهم السعادة، لم يرغب تحتمس في التدريب اليوم لكنه أراد التمشي بين الجبال النارية، في الوديان القاسية، لذا اصطحب مونتمس وسارا بين أحجار الجرانيت، استأذن الأخير للحديث وقال: "عندما سافرت جلالتك لمنتفر تأكدت أنك ستعود أقوى وأعظم، وتتمكن من قيادة الجيش وتنفيذ حملات ناجحة، لكن ما رأيته بعد رجوعك مختلفًا، جلالتك تفوقت على نفسك، حتى في تلك الحملة التأديبية البسيطة، خلقت روحًا جديدة وسط الجنود، لم أرها من قبل، أصبحت نتر للحرب، من علم جلالتك القيادة؟".

أجابه تحتمس ببساطة: "عمي آمون مس". لم يفهم الحارس كيف لرجل ميت أن يعلم جلالته، لكنه تقبل الإجابة على كل حال، داعبت فكرة ما قلب جلالته منذ فترة طويلة، لذا أمر حارسه: "أشهر سيفك". فأذعن مونتمس للأمر، باغته تحتمس بسيفه محذرًا: "إن ربحت، سأسجنك". تجاوز الحارس ضربة سيف الملك القوية، ابتسم الرجلان تحت ضوء القمر وانهال السيفان يضربان ويصدان، ليس للدرع الجلدي أن يقي أيهم من ضربات السيف، لذا شغل السيف فقط يديهما وبالهما، سدد تحتمس ضربات متلاحقة سريعة بمهارة، لكن مونتمس صدها كلها بكفاءة، استغل الأخير تأخر ضربات الملك للحظة واحدة، حتى راح يكيل الضربة تلو الأخرى بسرعة وقوة، صد جلالته جميعها، ما زال الرجلان يرقصان رقصة الموت، حتى لاحق الملك حارسه بقوة بعدة ضربات، ثم تمكن منه ودفعه، تعثر الأخير إثر الدفعة وسقط أرضًا، لكنه لم يفلت سيفه، وبسرعة صد ضربة تحتمس وانقلب بقوة وقام بلمح البصر، فضحك الملك بقوة، ثم انهال بالضربات على نده، الذي صدها بسيفه البرونزي. استغل الحارس ثغرة أثناء ضربات خصمه والتف على عقبيه، ثم وجه ضربة قوية بكوعه لصدر جلالته، ودفعه بظهره بقوة، وقع الأخير على إثرها، تخاذل مونتمس عن توجيه الضربات حتى ينهض الملك، الذي علم أن قواه بدأت تخذله، فوجب عليه الإسراع في الإجهاز على خصمه، وإلا سينهك وحينها تسهل هزيمته، تنفس تحتمس بعمق ثم قفز على الأرض بقدميه قفزتين صغيرتن وبدأ بالرقص، وجه الملك الصغير ضربات أكثر مهارة لحارسه الذي صدهم، ثم بحركات سريعة دفع الحارس وبسرعة خاطفة حين تعثر الأخير، لف الملك خلفه، وفهم ما يرنو إليه خصمه الشاب، فأخرج خنجره بسرعة ووجهه للخلف، بينما وجه تحتمس

سيفه إلى رقبة الحارس كان خنجر الأخير على جنب الملك، ضحك الملك بقوة وقال مرحًا: "أفلت من السجن". فسجد الرجل لملكه وبصعوبة التقطا أنفاسهما في أثناء عودتهما إلى المعسكر.

عاد تحتمس لخيمته الملكية، لم يخالجه النوم رغم إجهاده، فبعد النصر تحول تفكيره للمعركة القادمة، معركة من الحب الدافئ، بعدما أشعلت نيران الشوق قلبه وكيانه، بدأ العد التنازلي لاجتماعه بعروسه، ستثمر معاركهما معًا بالكثير من الأطفال، يكون منهم ولي عهد قوي، ينشئه الملك تنشئة عسكرية، فيصبح ربًا للحرب، يرعاه آمون رع ومونتو وسخمت.

***

كاد أمنحتب رئيس البر عا يجن، وعدته مريت رع بالرد على طلبه غدًا، ومر أربعون يومًا، ومن ذلك الحين يسأل كل يوم عنها، والإجابة واحدة، مريت رع مريضة ولا تخرج من مسكنها. إجابات مقتضبة غامضة، حاول تقصي الحقائق من السونو الملكي، لكن لم يصل لأي شيء، ومع مرور كل يوم يبعد عنه الحلم أكثر، ويظلم العالم بوجهه. لكم افتخر الفتى بدمائه النبيلة، فلا يمكن لأي شخص حمل لقب الأمير الوراثي، بل وحصل أيضا على لقب شجاع الملك، من خلال إثبات مهارته الحربية والعسكرية أيضًا، لكنه لم يتقدم أكثر بالمجال العسكري، وتدرج السلم السياسي، ظن أنه يستطيع الزواج بأميرة أحلامه، لكن الصمت اللعين وعجلة الزمن لا يرحمان، لا يعرف ما حدث.

هل ترفضه؟ حتى لو رفضته لأخبرته بذلك بكل سهولة، هل رفضت الملكة طلبه؟ هل رفضه الملك؟ لماذا لم يتلق أي جواب؟

عند خروجه من القاعة الكبرى ذلك اليوم لاحظ خروج سنموت أيضًا، فتحين اللحظة المناسبة وسأله: "لم لا تخرج مريت رع من مسكنها؟".

أجابه سنموت "إنها مريضة".

"ولم لا يمكن زيارتها؟".

"لأنه لا يمكن إلا للمعالجين فقط زيارتها حتى تُشفى"، قالها سنموت ناهيًا حواره، فلم يتمكن الشاب أن يسأل أكثر، وما زادته أسئلته إلا قلقًا.

بعد انتهاء البروتوكول توجهت حتشبسوت إلى مسكن مريت رع، رقدت الأخيرة منذ اليوم المشؤوم، طلب شاب طيب لا تحبه يدها للزواج، وتحدد موعد زواج معبودها بأكثر من تكره، وبالأخير ترى نفرو رع المثالية أنها مظلومة بوجود أختها في تلك الحياة، كيف يمكن لكل الأرض أن تضيق بهما، كيف يمكن لمريت رع أن تسيء إليهم وهي لا تفعل أي مكروه لأي شخص، ولا تشغل بالها بهراء سياستهم اللعينة، يقع عليها ظلم بمقدار جبل، أفقدها النطق من ذلك الحين.

زارت حتشبسوت مسكنها أكثر من مرة، لا تتحدث المسكينة، حسنا ربما هي مجرد إخفاق، لكنها بالأخير ابنتها، قطعة من لحمها، حتى لو لم تشاركها نفس الصفات. رأت حتشبسوت غيرة الأنثى عند علم مريت رع بزواج تحتمس من أختها، هذا أمر لا جدال فيه، لكن بكل الأحوال لا تحب حتشبسوت أن ترى ابنتها الصغيرة تعاني كل ذلك الألم. قد تكون موجة الحنان الجديدة تلك مجرد شعور بالذنب، فلا تحصل الفتاة الصغيرة على اهتمامها كنفرو رع، لذلك فكرت حتشبسوت كيف يمكنها إصلاح ذلك.

بغرفتها استلقت الفتاة كجثة هامدة، هربت الحياة من عينيها، تنظر إلى اللاشيء، انتزعت منها قوتها، حتى بهتت كأنها مومياء مرت قرون على تحنيطها، لم يفلح حتى الآن علاجها الجسدي والروحي، أعد لها السونو الملكي عقاقير لإعادة الشهية والتقوية العامة، وعزم لها الكهنة السحرة على تميمة على شكل عين حور، تحميها من التترو الأشرار، وتبعد عنها المخلوقات الظلامية المؤذية، الذين يسحبون منها الحياة كل يوم أكثر من قبل.

يقفز قطها تيتي من حين لآخر لسريرها، يتمسح بجسدها الهزيل ويموء بحزن، كأنه يرى مصاب صديقته، كأنه يكترث لأمرها.

نظرت حتشبسوت بضيق للفتاة، جلست إلى جوارها، ربتت على رأسها، وراحت تدهن وجه الفتاة ببلسم عطري برفق، انسابت من عين مريت قطرة صامتة، اخترقت قلب حتشبسوت، همست الأخيرة قائلة: "أود يا صغيرتي أن أفعل أي شيء لتحيي مجددًا، وتملأ بهجتك الأرجاء، تعودين للحديقة تزرعين البذور وتلعبين مع قطك تحت نور رع مرة أخرى".

أجابتها الفتاة بنظرة حزينة وصمت أبدي، خطرت لحتشبسوت فكرة جهنمية، قد تحل عدة مشاكل في آن واحد، قالت حتشبسوت: "يجب عليك يا عزيزتي أن تستعيدي قواك سريعًا، فبعد أن يتم زواج تحتمس من نفرو رع، سأرتب الأمر معه للزواج بك".

نظرت مريت رع إلى حتشبسوت بدهشة، فأضافت الأخيرة: "لم أنجب ولدًا للعرش، لكن أنجبت ابنتين، لذلك من واجبي كملكة، ومن واجب كل أسرتنا الملكية أن تسعى دائمًا لتأمين كل احتمالات الممكنة ليبقى الحكم بدمائنا، لذلك لا يكفي العرش أن يتزوج تحتمس بأميرة واحدة، لكنه لن يتزوجك وأنت بهذه الحالة، فعليك يا عزيزتي استرداد صحتك، لتستعدي للعرس".

قالتها وقبلت جبين الفتاة وربتت على كتفها ثم خرجت، لكنها ألقت نظرة في أثناء خروجها، فلمحت أطراف الحياة تزحف إلى الجسد الهزيل لتدب به من جديد.

***

خلال عودة الجيش زار معبد حتحور القائم منذ عصر الدولة الوسطى، جدد المعبد ورمم بأمر من حتشبسوت، خاصة بعد ما أصابه من تدمير إبان عصر العامو الأخساء، لكن حتى بعد ترميمه لم يعجب حاله تحتمس، أمر بتقديم القرابين في تلك البقعة المقدسة من أرض دشرت -الحمراء- كناية عن الصحراء، وأمر بإقامة لوحة، سجل بها نجاح حملتهم في تطهير سني ومطاردة الأعداء داخل كنعان، قسمت بأمر جلالته لقسمين متساويين، زينَ على أحدهما، وعلى النصف الآخر نقشت الملكة شريكته حتشبسوت ماعت كارع.

استقبل الجيش عند عودتهم واست بالأفراح والاحتفالات، وضع تحتمس نظامًا جديدًا، وأنشأ نموذجًا لما ستكون عليه الحملات فيما بعد. بعد تقديم القرابين بمعبد إيبت سوت شكرًا وعرفانًا لملك النترو آمون رع، وفّى الملك وعده لجنوده، وسلمهم الكثير من المكافآت والمواد القيمة، نشر الجنود خبر الملك الشاب القوي، الذي لم يهدأ له بال حتى طارد المعتدين داخل كنعان، وشارك جنوده حياتهم وطعامهم، حتى تغير شعور الجنود الذين لم يشاركوا بالحملة بالحسد، بعد أن ظنوا أن الحظ حالفهم ببقائهم بالمدينة، وترددت أصداء انتصارهم المجيد داخل كل بيوت العاصمة، وامتدت حتى القرى والمدن المجاورة، انتشرت الأساطير حول تحتمس منخبر رع، ودعا الجنود بكل قلوبهم بالحياة والصحة لذلك الملك العظيم، الذي سيحفر اسمه بأعالي جبال فخر كمت، فقط كل ما تمناه الجميع هو مد حياة هذا الملك طويلًا، حتى يحصل على فرصة مناسبة لنقش ختمه في التاريخ، فأثبت في أثناء تلك الحملة الصغيرة قوته، وغيّر الروح العامة للجيش، فكيف سيكون الأمر عند قيامه بحملات ضخمة بالجنوب المتمرد، أو بقلب آسيا كما فعل جده العظيم صادق الصوت تحتمس الأول!

مرت الأيام على مهل حتى اليوم المرتقب، يوم زفاف الملكين الصغيرين، استعدت المملكة لذلك اليوم جيدًا، قدمت الذبائح باسم الملكين في الشمال والجنوب، علقت الرايات بكل الأقاليم، تزينت واست كما لم تتزين من قبل، أنبتت الورود بكل شوارع العاصمة، تلونت الجدران ورسمت اللوحات، لم ينشغل أي شخص بالعاصمة بغير العرس، أعدت ساحة ضخمة بجوار معبد إيبت سوت، زينت بها مقصورة من الأبنوس وطعمت تفاصيلها بالعاج، نسقت الزهور بكل مكان، غلب اللوتس الأزرق على أغلبها، جلبت أواني النبيذ من كل الأرجاء،

وحضر حكام الأقاليم حاملين هداياهم، وحليًا رائعة للعروسين، انتشر كذلك الجنود بأرديتهم الجميلة وأسلحتهم البرونزية اللامعة المسنونة، مر كل عدة لحظات أحد الضباط للتأكد من تمام كل شيء، عاد إلى بعض الناس ذكرى زواج الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثاني، لكن على ما يبدو سيتخطى هذا الحفل سلفه.

عد العروسان اللحظات حتى العرس، أقيمت الطقوس بالمعبد، وكتبت الوثائق الملكية، وأعدت اللوحات الحجرية احتفالًا، تقدم الملك لابسًا تاجه الأزرق خبرش، وبيده عروسه تكاد تظهر حتحور بجسدها الفض، وينمو لها قرنا بقرة مقدسة، مرتدية فستان من الكتان الأبيض، يحتضنه رداء شفاف.

استمر الحفل باليوم الأول لعدة ساعات، انساب فيها سحر الموسيقى العذبة، ورقصات الفرق الفنية، والأقزام الجنوبية، مثيرة للمرح في النفوس، انهمرت السعادة بالعاصمة كما لم يحدث من قبل، غمر الجميع النبيذ الذي فُتحت منه عشرات الجرار، كتب على كل منها اسم المزارع واسم الحقل ونوع الكرمة وتاريخ الحفظ، بالإضافة للجعة والطعام والفاكهة والفطائر المحلاة، تقدم صف طويل من عظماء المملكة لتقديم هداياهم، التي شملت أواني من المرمر بغاية الإبداع والرشاقة، مرايات وعطور وأمشاط من العاج، صناديق صغيرة من الخشب والقيشاني الكمتي الأزرق الجميل لمساحيق التجميل، مجموعة ضخمة من الملابس المطرزة بحلي ملونة، مجموعة خاصة من الحلي المصنوع من مرجان وعقيق وفيروز وذهب.

نظرت حتشبسوت إلى كل حكام الأقاليم، ترى لمن منهم كانت لتتزوج، لو لم تكن هي حتشبسوت العظيمة، ها هي يا ماعت كا رع جعبة من عدة مشاكل كان عليها مواجهتها، فأخضعتها جميعًا.

زُف العروسان لمسكنهما الجميل الجديد، الذي عد لهم من أروع الفنانين، انتشرت على حوائطه لوحات تنبض بالجمال، حيث الزهور والطيور والزخارف والقيشاني الملون الجميل، وكادت الطبيعة تنطق من لوحاتها، ورسمت لوحات ضخمة للعروسين، تحتضن بها الملكة الصغيرة زوجها القوي، بينما يقف الأخير مفتول العضلات، طبقًا لمدرسة الفن الكلاسيكي -رغم أنه لم يختلف عن الواقع- بالإضافة إلى تمثال نحت لهما من الجرانيت الوردي، وضع بمعبد أبيت سوت احتفالا بالزواج. كما لم يغفل الفنانون رسم الأعداء موثقين على الأرض حيث موطئ قدمي الشابين، كرمز لإخضاع كل الشعوب لرب الأرضين، تحتمس من خبر رع.

بغرفتهما احتضن تحتمس زوجته طويلًا وصمتا، كأنهما ولدا لتلك اللحظة، قدمت للملك سابقًا بعض المحظيات كهدية، لذا فهو يعلم ما عليه فعله، لكن لا شيء يقارن بوجوده مع حبيبته نفرو رع.

مرت ليلتها سريعًا وغطا في النوم بساعة متأخرة، استيقظ العاشق قبل شروق الشمس بساعات، ظانًا أنه حلم، فمنذ بضعة أيام بات المحارب ليلته بخيمته مفطى بالرمال في الصحراء القاسية، أما الآن ترقد حبيبته إلى جواره، بجسدها الفض المفروك بالبلسم العطري اللامع، في قصرها الجميل بالأرض المقدسة، أراد لمسها برفق لكن منعه قلقه على راحتها، لم يتمكن من مقاومة جسدها اللين أكثر من بعض دقائق، طبع قبلة رقيقة على كتفها، تبعها عشرات القبلات التي غمرت جسدها، حتى أشرق وجهها الجميل من نعاسه، احتضنا بعضهما بساعات لم يتكلم فيها أيهما، ارتاحا من كل شيء، وصل كل منهما لمبتغاه، فلم يريدا إلا هذا؛ حضن يجمعهما.

لم يتمكن تحتمس في أيامه الأولى من التفكير بأي شيء، ولم يخرج لقاعة الحكم، مكثا بقصرهما الجميل لفترة كبيرة، ينهلان من الحب ما استطاعا، وينثرانه بكل أركان قصرهما، يتنزهان بين نباتاته العطرية، يسبحان في بركته العذبة، يشاهدون مجموعة الوز التي تقطن معهما بالقصر، كرمز لأمون رع، أفرغ تحتمس قوته كما لم يحدث من قبل، صحيح أنه أحب المعارك والتدريبات، لكن هذا مستوى آخر من النشوة، عرف أن الرجل ينقسم لثلاث، أسرته، معاركه، ومعبده.

ما أروع الحياة التي أنعم بها النترو عليهما، وما أكثر من ذلك قد يبغي أي فرد، عاد تحتمس إلى وطن لم يلقه منذ ولد، يعرف الآن شعور الاطمئنان، بين يدي حبيبته التي يفرغ نفسه بمعيتها، حتى تندمج روحاهما،

ويختلطا حتى لا يتمكن تفريقهما، يحتفظ كل منهما بجزء من الآخر، حتى إن فرقت بينهما المسافات، تعلقت دائما عيناهما ببعضهما، أصبحا كيانًا واحدًا بعد سنين من القلق، لقد أرضاهما النترو حتى الثمالة.

***

بعد بضعة أيام من زواجه، طلبت حتشبسوت لقاءه، بإحدى الغرف المغلقة اجتمعا، قالت حتشبسوت: "لا شيء أحب لي من رؤيتكما سعداء، إلا حمل طفلكما وريث العرش بيدي".

أجاب تحتمس: "قريبًا ستحملين العديد من الأحفاد".

قالت: "تعلم كم يجب على الأسرة المالكة أن تضع أمر العرش والمملكة فوق مطالبنا الشخصية، سبق ترتيب زواجكما حتى وعيكما لذاتكما، وهو أمر واجب التنفيذ بكل الأحوال، لكن في حالتكما فقد تحركت الأقدار بمثالية مفرطة، لتحبا بعضكما، ويجمعكما البر عا كزوجين وملكين، ما فرصة حدوث ذلك؟ يمكنك اعتبار نفسك محظوظًا يا تحتمس، أهدتك الحياة الكثير، وأنت أثبت جدارتك باستحقاق كل شيء، إني متأكدة يا بني بتوفيقكم فيما بعد".

يا بني! ما الأمر يا حتشبسوت؟ فكر تحتمس.

أضافت حتشبسوت: "لكن عليك واجب يا تحتمس من الأفضل تنفيذه، حتى تضمن الاحتمالات كلها بجعبتك، جمعتك الحياة بنفرو رع، لكن لا يجب عليك الوثوق بالقدر أبدًا، أحيانًا ترسم لك الأقدار خطة جميلة، وتسير كل الخطوات في اتجاه التنفيذ، ثم تسخر منك الحياة تمامًا بهدم كل شيء، لذا يجب عليك الاستعداد، ويجب حفظ كل قطرة من الدم الملكي".

"ماذا تقصدين؟"، سأل تحتمس.

أجابته: "يجب أن تتزوج أيضًا من مريت رع". صمت تحتمس ولم يجب، استغرق بالتفكير، تقول حتشبسوت الحقيقة، رغم عدم قبوله لذلك. أضافت: "بغض النظر عن أهوائنا الشخصية يجب علينا دائمًا اختيار المناسب للعرش".

"لا يتوقف الأمر على رأيي الشخصي فقط، هل تعرفين ما رأي نفرو رع ومريت رع في ذلك؟".

"يمكنك ترك ذلك لي، واعتبرهما موافقتين، لديك بالفعل زوجات أخريات بخلاف نفرو رع، فما قد يعوق إضافة مريت رع لهم".

"إنها ليست مجرد زوجة ثانوية، بل أميرة، لكنها غير مناسبة لذلك الدور، ولن تحكم الأرضين إلى جواري".

"ليس هذا دورها، بل دور نفرو رع".

"لم أتزوجها إذًا؟".

"للاطمئنان لكل الاحتمالات، يمكنك التفكير بالأمر وحدك، ثم تخبرني عن رأيك لاحقًا، لكن لا تنس أن كل ما نفعله، يكون من أجل المملكة ومن أجل حق أسرتنا الملكية".

تركت حتشبسوت الملك الشاب مستغرقًا في تفكيره، هذا أمر لا بد منه، فهو بالفعل واجب من أجل المملكة، كما أنه لازم من أجل الفتاة الصغيرة، تعلم حتشبسوت كم تعشق هي تحتمس، لذلك بمجرد إخبارها بأمر الزواج به دبت بها الحياة، وتحسنت حالتها جدًا خلال بضعة أيام، حتى عادت لها روحها مرة أخرى وأشرق وجهها من ذلك الحين، تفعل حتشبسوت دائمًا اللازم من أجل المملكة، وهذا الأمر لازم.

تردد تحتمس كل يوم على معبد إيبت سوت، ومع اقتراب الموعد، أراد مشاركة بعض أفكاره، فهناك ما يزعجه. بعد انتهاء خدمة الصباح، خرج من قدس الأقداس، ليجد صديقه بانتظاره، باديًا على ملامحه الاهتمام، فما قد يشغل بال الملك لهذا الحد بعد شهر من زواجه!

باغته تحتمس: "لن أستطع الزواج بمريت رع".

دهش رخمي رع من حديث صديقه: "عندك بالفعل محظيات من قبل نفرو رع، هذا من أجل المملكة، كلنا واثقون بأن النترو سينعمون عليكما بعمر طويل، وأولاد كثر أقوياء، يكون منهم ولي عهد جلالتك، يتربى تربية مناسبة ليصبح ملكًا عظيمًا، لكن ليست المخاطرة في صالح المملكة، لأن عادة الأقدار السخرية من البشر، وجلالتك تقوم بواجبك كملك، ومهمتك توفير كل الفرص الممكنة للعرش، وريث بدم ملكي يسمو إلى العرش دون مشاكل، المؤامرات حول العرش لا تنتهي، ثم إنكم كنتم أصدقاء مقربين".

"لكنها تغيرت كثيرًا، أصبحت غريبة، كنا أصحابًا بطفولتنا، لكن الآن يجب أن نكون زوجين، الفرق كبير، وأرى أنها غير مناسبة لتلك المكانة".

"لكن دماءها مناسبة تمامًا، لديك بالفعل امرأتك المحبوبة نفرو رع، لكن لو لم ينعم النترو عليها بأولاد، فرصة وصول ابنك من إحدى المحظيات للعرش ستكون محفوفة بالمخاطر".

"ساتي عا هي الثانية في الترتيب، هي بنت المربية الملكية وسيكون لها مكانة أميرة، لو لم نحصل على ولي العهد أنا ونفرو رع، ستكون هناك فرصة مع ساتي عا".

"صحيح، لكن مكانة مريت رع، ودمها الملكي أفضل كثيرًا لوريثها من ساتي عا، نحن نحسب الفرص والاحتمالات بطريقة رياضية بحتة، بعيدًا عن المشاعر والرغبات الشخصية".

"المشكلة أن زواجي بمريت رع ليس مجرد واجب، وهي ليست مجرد محظية، نحن نناقش هذا الأمر الآن لاحتمال أن تصير هي الملكة، هي غير مناسبة لذلك، كيف يمكن أن يصير ابنها ولي العرش؟".

"جلالتك لا تلجأ أبدًا للحلول السهلة، كلنا نثق بصنعك سيرة عظيمة يتحاكى بها الناس لملايين السنين، لكن وريثك سيتعرض لمؤامرات وتحديات يجب أن تحسب حسابها، هذا أمر مفروغ منه".

فكر تحتمس مليًا بينما خرجا من المعبد، وصلا بحديثهما خارج الصرح الذي تمكنت حتشبسوت من وضع مسلتين شاهقتين أمامه، أعلى مما تمكن والدها العظيم من وضعهما، وضعت الملكة العظيمة تحديًا ضخمًا لكل من يخلفها، نظر إلى قمتهما العاليتين طويلًا، هذا بالإضافة إلى أسطورة الولادة من النتر، يعقد كل ما تفعله الأمور أكثر، ربما لا يهدده الآن كونه مجرد تابع باهت للأسرة الملكية، فكل خطواته تثبت عكس ذلك، لكن ماذا قد يحل بخليفته؟

يخلق كل ملك العظائم بقدر ما تؤهله إمكانيات عصره، ليخلد اسمه بالأرضين، فيرفع من سقف التحدي لمن بعده من الملوك، كيف لحتشبسوت أن تفكر وتدبر وتبذل كل الجهد لتضمن الاستقرار للعرش، بينما تتحكم رغبات الملك القوي باختياراته، مما قد يهدد مصير خليفته.

"تكلم معها، اسألها، ربما تصل إلى نتيجة أفضل، لكن طالما هذا واجب ملكي، أنا واثق من تنفيذ جلالتك له"، قالها رخمي رع، واضعًا يده على كتف صديقه، الذي قرر الأخذ بالنصيحة.

باليوم التالي بعد الانتهاء من كل إجراءات الحكم اليومية، توجه الملك إلى قصر الأميرة الصغيرة، عج المكان كالعادة بمختلف النباتات والحيوانات، رغم منظره الشبيه بجنة من حقول الأيارو، لكن مسحة من روح الأميرة غريبة الأطوار حلت على جميعها. سجد الخدم للملك وسارعوا لإخبار مريت رع، التي حضرت في عجالة واحترام واضح، سجدت الفتاة العنيدة للملك، الذي لم يبدِ أي تعبير.

"دامت لجلالتك الصحة والسعادة يا رب الأرضين"، قالتها كأنها تخاطب شخصًا غير موجود.

أشار الملك بيده فخرج الجميع، "سنتزوج".

لم تفهم الأميرة من تبراته الثابتة ووجهه الجامد أي شيء: "اعذرني جلالتك، أهو أمر أم سؤال؟".

"سؤال يا مريت رع، يحتم الواجب علينا الزواج، من أجل المملكة. لو لا رغبة لديك سأحترم قرارك، لو لا مانع، لننفذ واجبنا للمملكة".

غرس لتوه عشرات الأسلحة الثلمة بما تبقى من قلبها، استردت وعيها سريعا وأجابت: "أهو فقط الواجب! تحت أمر جلالتك، سأعمل كل ما بوسعي لتكمل واجبك"، قالتها وسجدت.

"استعدي، ستتزوج خلال شهر"، قالها بجمود وانصرف.

انسابت الدموع مع الدماء من عينيها وقلبها، كان ذلك ليصبح أبهج ما يحدث بحياتها الحزينة، طلب منها للتو ملك أحلامها يدها للزواج، كم كان ثقيلًا على قلبه ذلك الطلب، سيقوم حبيبها بذلك فقط بدافع الواجب، وسيكون عليها إنجاب الأولاد، أي سخرية يسخرها النترو من الفتاة، ألا يكفي كل العذاب الذي تحياه في ظل أسرتها الملكية اللعينة، إلى أي مدى كُتب لها الشقاء، كيف لها أن تحيا مع حبيبها الذي لم تتمن غيره منذ عرفت الحياة، ويكون الأمر حزينا إلى هذا الحد، كيف لفتاة بسيطة أن تحصل على كل شيء وتحرم من كل شيء، ألا يملك النترو أي رحمة بقلوبهم! يكسرونها كل يوم أكثر من ذي قبل، حتى أضحى قلبها رمادًا، وروحها ميتة، وقرينها أسود اللون.

بيوم العرس جهزت نفرو رع زوجها بنفسها، هي تعلم أنه لها، ولا ينافسها أحد، تمكنت ببراعة من إخفاء قرينها الذي أصلته الغيرة. تزينت المدينة على مضد، كأنه مجرد حفل بسيط، لم يدع أي شخص من خارج الأقليم، يعلم الجميع الأمر، لولا أن العروس أيضًا ابنة حتشبسوت، لما أقيم لها حفل من الأساس، عصفت بوجدانها العواصف، بكت طوال اليوم وأفسدت زينتها عدة مرات، بحثت بعمق عن أي لفتة سعيدة بقلبها لزفها بحبيبها، لكنها لم تجد، فكرت أن من الواجب استرداد ما سرق منها، لكن هذا مستحيل الآن، هي أقل من أن يحبها أو يكرهها، لكن لم يا ترى سألها بنفسه عن رأيها إن كان الأمر مجرد واجب، لما تحمل ذلك العناء، أم هي تبحث عن مبرر لتفرح! لقد سألها بجمود شديد كأنه لم يكترث لرأيها، أوجب عليها الرفض؟ هل عليها أن تحيا مع بقايا حبيبها! إن لم تزف الأميرة للملك، لنالت أمنحتب، يحبها ويسعد بوجودها، ويتمنى لها كل الرضا، فهي الأميرة الملكية ذات الدماء النقية، لكنها إرادته هو، من لا يراها ولا يشعر بها، من لا يبذل جهدًا حتى يعرف كم تعبده.

زعمت للحظات أن حلمها يتحقق، تعلقت بذراع حبيبها المكتسي بالعضلات القوية، سرقت النظرات الولهانة لعينيه، حاولت نسيان كل شيء، استسلمت لرغبتها فيه، ذاب قلبها تعلقًا بتمثال من الديوريت الصلد، انتهى الاحتفال بالعرس سريعًا، تقدم الموكب لقصر الأميرة المزين بالورود، قام الملك بواجباته وخرج للهواء، لم تشعر الفتاة بغربة أكثر من ذلك اليوم، لم تشعر بالنبذ والفقد أكثر من ذلك، تبددت أحلامها باسترداده، وعلمت أنها لن تكون إلا وعاء ملكيًا لعينًا.

***

العام الخامس عشر من حكم الملك حتشبسوت ماعت كارع وتحتمس منخبر رع، بعمر التاسعة عشر مر على زواج الملك تحتمس وحبيبته نفرو رع عام كامل، وأثمر زواجهما لتوه عن أمنمحات، الذي احتفلت به العاصمة كلها مع الملكة حتشبسوت والملكين الشابين. حمل أمنمحات فور ولادته بعض الألقاب الفخرية والمسؤوليات بالمملكة، كإعلان للجميع، ها هو ولي العهد العظيم أمنمحات قد وُلد، وشمي تيمنا بملوك الأسرة الثانية عشر العظماء. أخيرًا قرر آمون رع وقف عبثه المحيط بكرسي العرش، فعندما يولد الصبي للملك والملكة لا يوجد مفر لأي مدعٍ بأحقيته في الحكم، أخيرًا استقرت الأمور داخليًا.

بالإضافة لزوجتيه ابنتي حتشبسوت، مع زوجة أخرى وهي ساتي عا ابنه المربية الملكية إيبو، ومع مجموعة من المحظيات... حسنًا، كما يجب على الملك أن يفعل.

لم يسع قلب الملك لكل السعادة، التي منحها النترو له بولادة ولي العرش من رحم الملكة نفرو رع، عد

الأيام السبعة الأولى، قدم القرابين للحتحورات السبع حتى يقمن بواجبهن المقدس لحماية الرضيع. رُسمت عيناه بالكحل ليحميه حورس من الأعداء، مرت الأيام السبع بطيئة رغم حيوية الطفل، حتى جاء اليوم السابع فاحتفلت كمت احتفالًا ضخمًا، وقرر النترو الاستقرار أخيرًا بعد عقود من العبث، سيُربى الأمير التربية المناسبة ليصبح خير خلف لوالده وأجداده.

لكن ضاق صدر تحتمس مع مرور الوقت بوجود حتشبسوت على العرش، خاصة بعد تدفق المعلومات تحت إشراف سننفري من الحدود الآسيوية، والتي أشارت كلها إلى نفس الاتجاه! هناك خطب ما، يعقد ملك قادش الاجتماعات ويقيم الولائم ويوثق الاتفاقات، بعدما استمرت الرسائل من أمراء كنعان الموالين والتابعين لحكم كمت، يطلبون من ملوك كمت العظماء الدفاع عنهم ضد هجمات الجيوش الشمالية، دون تلقي أي رد، فالأمر بيد حتشبسوت لإقرار التصديق على خروج حملة كهذه خارج أرض البلاد، إلا أن الملكة كان لديها خطط أخرى.

رغم محاولات تحتمس العديدة للتملص من سلطتها للخروج على رأس حملات للمنطقة المشتعلة بآسيا، إلا أن قبضة حتشبسوت القوية على الحكم منعت ذلك، تضغطه الظروف للاختيار الصعب، الانقضاض على العرش وعزل الملكة من منصبها، لكن لن يقوم الشاب الكاهن بذلك أبدًا، لن يرضي النترو أمر كهذا.

تمكن كاهن صغير بأعماقه من السيطرة على تلك الأفكار كلما طرأت بباله، عزل الملكة أمر مرفوض. باءت كل محاولاته لإقناعها بالزئير في وجه الأعداء، الذين يعيثون بحدودنا، بالفشل. سعت حتشبسوت منذ البداية لاستقرار البلاد ودفع عجلة التقدم بيديها دفقًا، وأثمر عملها المضني خلال السنين، من السيطرة على المؤامرات والبناء والتشييد وإرسال الحملات التجارية والعلمية، فما حاجتنا -حسب ما صرحت- إلى إرسال الحملات إلى بلاد بعيدة والتضحية بأرواح أبناء كمت، لإقرار سلام لن يفيدينا بشيء؟ بل هي مجرد رغبات ذكورية فارغة لإظهار سيطرة ما أغنانا عنها.

من جهته حاول تحتمس دائمًا الإشارة إلى وجوب إظهار قوتنا العسكرية، لكن لدى حتشبسوت رد واحد على ذلك: "قد يظهر السلام والاستقرار كأمر طبيعي لا يحتاج إلى مجهود، لكنك لا تعرف بم مررنا لنحافظ على سلام الأرضين".

"بم مررتم؟!"، عادة ما سأل الملك الشاب نفسه، لكنه لم يتلق إجابة مناسبة، صحيح أن السلام غاية عظيمة، لكنها أحيانًا لا تتحقق إلا بالحرب، ومع الأحداث الجارية على الحدود الآسيوية يجب أن يكون لكمت دور في لعبتهم تلك، لكن الأمر بلا أي طائل.

بقاعة الحكم سألت حتشبسوت: "متى لنقل مومياء والدي؟"، ذهش تحتمس وسأل: "لنقلها؟".

أجاب الكاهن الأكبر حابو سنب: "عندما توفي جلالته، أقام طقوس فتح الفم الملك الراحل تحتمس الثاني، وليس جلالة الملكة، لذلك عندما نعيد دفنه في مقبرة جلالتها سنعيد طقوس فتح الفم، وهذه المرة ستقوم بها جلالتها".

أضاف سنموت: "وهو ما يُثبت أن الملكة حتشبسوت هي وريثة الملك الراحل تحتمس الأول، ومع تنفيذ طقوس عيد السد، نصل كل خطوط اللوحة الكبرى، ولثبت بكل الطرق وكل الطقوس وكل النبوءات أحقية فلك جلالتها على أرض كمت".

انبهرت نفرو رع بالخطة ظاهريًا، إلا أن قرينها أطلق رسالة واضحة بعدم الارتياح، لذا أضافت حتشبسوت: "سنخرج حتى مومياء جلالته من تابوته الخشبي القديم، لأني أمرت أن يُدفن في تابوت من حجر الكوارتز الملكي على شكل شنو"، قالتها الملكة، وعلى ما يبدو قام بقلبها صراع حول هذا الأمر، انتصر به الرأي الأكثر جرأة وإبداعًا.

قال تحتمس: "أحقًا تنوون إزعاج جلالته؟ ألا ترون هذا غير مناسب على الإطلاق؟".

أجابه حابو سنب برفق: "الأمر يا سيدي أن جلالتها خاضت ذلك الطريق بالفعل، ولا يمكن العودة للوراء".

أضاف سنموت: "يجب أن يستمر الأمر حتى..".

قاطعه تحتمس: "حتى الوقت المناسب؟ متى يحل هذا الوقت برأيك يا سيد سنموت؟ ماذا تنتظرون بعد؟ ما يقلقكم هكذا؟ ألا ترون أني تخطيت مرحلة الطفولة؟".

أجابه سنموت: "معذرة جلالتك، رغم عظمتك وقوة النترو البادية بجسدك، إلا أن جلالتك فرد من أسرة حاكمة عظيمة، قدم كل ملوكها مصلحة العرش على رغباته الشخصية، بداية بصادق الصوت جلالة الملك سقنن رع، الذي قدم حياته من أجل الأرض المقدسة، وصولًا إلى جلالتك، نرجو من النترو لك دوام الصحة والسعادة، لكن تأمين العرش وضمان حفاظ سلالتكم الملكية لا يتوقف عند جلالتك، بل هناك الآن الأمير الصغير، إن قررت الأقدار أي مكروه، يجب أن يصل الأمير أمنمحات للعرش بسلام".

لم يرد تحتمس بعدما فهم ما يعنيه سنموت، كلامه منطقي، لكنه غير صحيح، بل كل ما تفعله حتشبسوت مجرد نتيجة إلى رغبتها المحمومة بالحكم، وإن قدمت الملكة بعض التضحيات سابقًا من أجل العرش، فمهمتها قد انتهت، ولا ينبغي أن يدفع تحتمس ثمن ذلك طول حياته. ابتسمت نفرو رع بارتياح، وشى للجميع بغير اقتناعها، لكنها قالت: "واجبنا الحفاظ على العرش، وضمان استمرار سلالتنا الملكية العظيمة به".

خلال عدة أيام، تمكن الرجال من إيجاد موقع مقبرة جلالة الملك الراحل تحتمس الأول على حسب وصف أحمس بن نخبت، لذا فرضت جلالتها حراسة شديدة على المنطقة، حتى ينقل تابوت الملك لمكانه الجديد.

حل العيد الجميل للوادي، عيد رد الجميل واستعادة ذكرى الموتى، تقرر إطالة فترة الاحتفال لثلاثة أيام كاملة، بدأ الاحتفال بخدمة الصباح كالعادة، ثم قام الملكان الشريكان بركوب السفينة المقدسة. أخفت عشرات المراكب المشاركة في الاحتفال بالعيد صفحة النهر، تباينت أحجامها وأشكالها وقيمتها، بداية من قوارب البردي الخفيفة وصولًا لمركب النتر الذي خيمّ على متنه الملكان. في ذلك العيد يعبر كل الشعب مع الملك للبر الغربي محملين بمختلف ألوان القرابين، حيث يتوجه الجميع للجبانة ويحتفل الكهنة مع الملوك والشعب، في وقت لاحق يزور أفراد الشعب مقابر ذويهم لتقديم القرابين، ومشاركة الطعام والشراب والجعة مع النبيذ والأخبار والأحاديث، مع قرائن أمواتهم وأقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم، حتى ينعم الموتى بالسعادة والاطمئنان.

عبرت السفينة المقدسة أولًا، ثم استغرق الأمر ساعات حتى وصلت كل المراكب للبر الغربي، ونزل ركابها بأحمالهم حيث اتجهوا بطريقهم الطويل إلى الجبانة. وصل الموكب لمعبد جسر جسرو، وما زالت السقالات تغطيه لعدم انتهاء العمل به، فبعض المعابد الضخمة يستغرق إنشاؤها عشرات السنوات ويتعاقب عليها مختلف الملوك.

بدأت مراسم الاحتفال بالساحة أمام المعبد بخطاب ألقته الملكة، وإلى جوارها شريكها في الحكم، ولاح شعور مختلف بالرهبة في الهواء، نظرًا للاستعدادات الضخمة. بعد انتهاء الخطاب الرسمي قام الحراس والكهنة بتلقي أمر الملكة، فوقف الجميع احترامًا مع قيام الكهنة المرتلين بتلاوة تراتيل الدفن، عندها لاحظ الجمع تحرك موكب ملكي عند تقاطع الجبل مع الوادي من ناحية الجنوب، وقعت الدهشة على قلوب الجميع عندما وصل الموكب الملكي الذي احتوى على تابوت جلالة الملك الراحل تحتمس الأول!

أمام معبد جسر جسرو أعادت الملكة حتشبسوت طقوس فتح الفم، لومياء والدها العظيم الراحل تحتمس الأول، وسط صمت مطبق من جميع أفراد الشعب، الذين وشت أفواههم المفتوحة وعيونهم الزائغة عن دهشتهم الشديدة. قدمت القرابين ولُمس فم الملك بالعصا الطقسية، وخلفها الملك تحتمس ومعه حابو سنب مرتديًا جلد الفهد، ومن ثم أمرت جلالتها بإعادة دفن الملك الراحل في مقبرتها، في تابوتها الملكي السابق المصنوع من حجر الكوارتز، مع تغيير الأسماء المنقوشة عليه لأسماء جلالته -في سرعة دون إتقان- ومن ثم

رحل باقي أفراد الشعب لمقابر ذويهم بمنتصف النهار، تشارك الجميع أكلهم وشربهم وحواراتهم -التي خصت ما حدث اليوم- فلم يكن هناك حديث غير ما قامت به الملكة التي لا تعرف المستحيل، حتى إنها أزعجت والدها الراحل، فقط لتعيد إحياء مراسم فتح فمه. ولم يبد على تحتمس منخبر رع -الواقف بصمت ثابت الملامح متجهم الوجه- أي تأثر من أي نوع، فراح كل واحد يفسر صمته كما ظن.

استمر الاحتفال حتى الغروب ثم عاد الجميع بمراكبهم إلى البر الشرقي، في اليوم التالي عبر الجميع بمراكبهم منذ الصباح للبر الغربي بالكثير من المأكولات والقرابين، لكن أمام معبد جسر جسرو جهزت الساحة للاحتفال بعيد سد الملكة، عيد فائق القدم منذ الملك نعرمر، يجب على أي ملك يتم عامه الثلاثين في الحكم تجديد الثقة بقوته، فيقوم بعدة طقوس بدنية شاقة لإثبات قوته للنترو أمام البشر، فيسمح له بالحكم لثلاثين عامًا آخرين، وجدير بالذكر أنه لم يقم أي ملك منذ احتلال العامو لكمت بإحياء مراسم ذلك العيد لقصر فترة حكمهم.

للمرة الأولى يحي الطقوس ملكان معًا، فضلًا عن كون المؤدي الرئيسي لطقوس العيد امرأة. بدأت المراسم بتقديم القرابين للنتر آمون رع ملك النترو، ثم حضر الملكان للساحة الضخمة المظهرة من أجل الاحتفال بالعيد، على الملك إثبات قوته للجميع، لذا ارتدى تحتمس تاج الشمال الأحمر، وحتشبسوت تاج الجنوب الأبيض، وأحيا الملكان الطقوس العتيقة من الركض والرقص الطقسي. عند الانتهاء من كل الطقوس قام الملكان بالتطهير وإعادة تمثيل طقس سما تاوي والذي يربط فيه نبات البردي -رمز الشمال- مع زهرة اللوتس -رمز الجنوب- كرمز لتوحيد كمت العليا والسفلى، ثم وزعت كميات ضخمة من الطعام والشراب لجميع أفراد الشعب، الذين تقبلوا الهبات بغبطة.

استمر الاحتفال بالعيد ليوم آخر، إن العيد في ذلك العام كان مبهرًا بكل المقاييس، استمرت رحلات الذهاب والإياب اليومية على القوارب لمدة أربعة أيام كاملة، وهي أطول فترة أقيم بها الاحتفال بذلك العيد على لإطلاق، فأرادت جلالتها جعل ذلك العيد حدثًا لا ينسى، وقد كان.

***

أحد أيام العام الثامن عشر من حكم الملكين، في القاعة الكبرى، تقدم سنموت بالعمر، تباطأت حركته جدًا، وأصبح يئن ألمًا مكتومة مع كل لحظة، رأت حتشبسوت كيف يعاني الرجل من العمل، لذا بعد انتهاء العمل اليومي قالت :"يبدو أن قوتك لم تعد تسمح يا سنموت، بذلت كل حياتك بجوار العرش، وآن الأوان لترتاح".

أجابها من فوره: "راحتي بجوار جلالتك، ولا أبغي من الحياة إلا ذلك، لن أتحمل ألا يشرق جلالك على حياتي ولا يوم واحد".

"لا أود رؤية معاناتك تلك يا سنموت، يجب عليك أن تنعم بالراحة كمواطن صالح، أتم خدمته الشاقة، ثبت حكمي على الأرض، وتنعمت الأرضين بالاستقرار بفضل مجهودك، كنت يا سنموت نعم الناس، أهداك إلي النترو تعويضًا عن كل الإخفاقات، وقد أثبت إلى اللحظة الأخيرة".

"طالما بي نفس فرغبتي يا سيدتي أن أبذله إلى جوار جلالتك، أرجوك لا تحرميني من إشراقك، هكذا تعجلين بموتي".

"هذا أمر يا سنموت، أتظنني سأسعد بشقائك؟ ستكمل نفرو رع عملك، أما أنت فيمكنك الراحة".

قال تحتمس: "كفاك عملًا يا سنموت، يجدر بك الراحة فعلا". فكر تحتمس بالأمر، هذا الرجل لن يتكرر أبدًا، كيف يمكن لرجل أن يكون بذلك الإخلاص؟ أمكنه التلاعب لمصالحه الشخصية دائمًا، ولأمكنه السيطرة على الكثير من الخيرات، وبقي حتى بلا زوجة ولا ولد، سيضطر أحد إخوته إلى عمل طقس فتح الفم له بعد موته، لأنه لم يترك أي وريث حقيقي، غريب أمر هذا الرجل حقًا.

أضافت حتشبسوت :"اليوم يا نفرو رع تتسلمين مهام السيد سنموت، لينعم أخيرًا بالراحة، مكافأة له على ما بذله من أجل ملوكه ومن أجل العرش".

مرت تفاصيل اليوم حزينة على سنموت، سلم عمله لابنته نفرو رع، التي جد في تعليمها حتى اللحظة، ترقرقت بعيني الشابة الدموع، حزنا على فراق معلمها، أنهى سنموت تفاصيل انتقال سلطته وقال: "أنت الآن مستعدة يا ابنتي"، فما كان منها إلا أن احتضنته وبكت، فانهار هو أيضًا بين يديها، شعر بالظلام يحيط به، وشم رائحة الموت تقترب، عاد إلى بيته حزينًا بعد قضاء النهار، وغطاء السماء اللون الأحمر الفاضب، شعر بمزيج من الخوف والانقباض والكآبة، ضاق بيته فجأة، لم يتمكن من أكل أي شيء في ذلك اليوم، صعد لمكتبه وأخرج بعض البرديات للقراءة، فتلك هي وسيلته الوحيدة لمحاولة التغلب على الأرق والضيق اللذين لازماه طول حياته.

في اليوم التالي غمرت القاعة الكبرى مسحة كئيبة، وظهر التوتر والضيق واضحًا على ملامح الملكة، فكرت حتشبسوت بإعادة سنموت للعمل مرة أخرى، لكن هذا مستحيل، فجُل ما يمكنها فعله هو توكيل بعض المهام له، لكنه لن يعود إلى سابق عمله أبدًا، تسلمت نفرو رع التقارير من الوزير الذي تسلمها من كبار الموظفين، وفتحت الخزانة للتأكد من كمية الذهب المودعة بها، حينها اقتحم عليهم الخبر الحزين القاعة، لقد مات سنموت!

لم يتمكن من العيش خارج البر عا يومًا واحدًا، عجل ذلك حقًا بنهايته، انتحبت الملكتان عند معرفتهما الخبر، وأمرت حتشبسوت بتحنيطه بأفضل المواد وأثمنها.

بعد الأربعين يومًا في الملح، أخرجت جثة سنموت لتبدأ معالجتها بالراتنجات، حضرت حتشبسوت لتوديع رفيق دربها، بكت كثيرًا عند رؤية وجهه المجفف بفعل الملح، غطا الكهنة المحنطون جسده بلفافة كتان كاحترام للمتوفى، نظرت الملكة إلى وجهه مليًا، فكرت بنفسها أن قلبه سيكون قطعًا أخف من ريشة ماعت، فلم يقترف هذا الإنسان جرمًا، بل كان برغم عظمته متواضعًا، وبرغم ألقابه عمليًا، وبرغم أنه من العامة إلا أنه ملك، سمحت حتشبسوت له بعمل تابوت من الكوارتز الأحمر، الحجر الملكي، على شكل يشبه علامة شنو، أقرب ما يكون لملك حقيقي، مات وحيدًا رغم سطوته، بلا وريث رغم ثروته، هذا إنسان لم ولن يتكرر أبدًا في التاريخ.

صادق الصوت المبرر المحترم سنموت..

https://t.me/

الفصل الرابع

الشهر الثاني من فصل برت، العام الأول والعشرون من حكم الملكين حتشبسوت ماعت كارع وتحتمس منخبررع. ناهز عمر الملك ستة وعشرين عامًا، قضى أكثرها في التدريب مع جيشه، والمراقبة، وتطوير المناورات والأسلحة والتدريبات.

خلال عدة سنوات -وبصعوبة بالغة- تمكن من إقناع حتشبسوت باستيراد المواد اللازمة لصناعة العجلات الحربية، فأضاف عددًا لا بأس به من النسخة المتطورة التي عدلها نفريب الماهر، لذا اكتسبت فرقة العجلات قدرة عظيمة، وسرعة أكبر، وثبات أفضل، وتنفيذ أمهر للمناورات. إجمالًا وصل جيش جلالته لحالة لا بأس بها، خاصةً بعد فترة الركود والسلام الذي حل مع حكم حتشبسوت.

مع مرور الوقت زاد التوتر بين الملكين الشريكين، فلم يرغب جلالته بفقدان كمت لنفوذها في الحديقة الكنعانية الواقعة على حدود مملكتنا، لكن مع سياسة السلام والاهتمام بالشأن الداخلي والتشييد والتعمير فقط، تزايدت التهديدات في المنطقة المشتعلة بالأحداث. رغم عدم إمكانية إغفال ما حققته حتشبسوت من معجزات، كترميم كل ما ظل حتى عصرها مهدمًا منذ زمن الحقاو خاسوت، والسيطرة التامة على المؤامرات الداخلية كلها، وفرض سيطرة أسرتها الحاكمة، لكن التقارير المتدفقة من الشمال الشرقي أثارت قلق تحتمس، تفرض الظروف الحالية إرسال سننفري مرة أخرى لآسيا، قال تحتمس: "يجب إعادة تقييم الأمور يا سننفري، لا بد أن نتأكد مما يجري فعلًا فيما بعد الحدود".

أذعن سننفري للأمر وتحرك مجددًا للحدود الشمالية الشرقية، لكنه عاد والرعب مسيطر على قلبه، فما أثار خوفهم بات قاب قوسين، فتقول الإشاعات إن ملك قادش يحصد الآن ما زرعه لسنوات، فقد تمكن القائد الداهية من السيطرة على أكثر من ثلاثين مدينة ودويلة، وبات من الممكن سماع دقات طبول الحرب من العاصمة الجنوبية، استعد تحتمس طول حياته لتلك اللحظة، ومع اقترابها تأكد مع كل تقرير من جاهزيته.

باجتماع القادة وفدت تقارير سننفري الموثقة، فراح يشرح الأحداث: "المعلومات ليست في صالحنا، لقد وصلت جيوش الآسيويين لاتفاق، بعد سعي ملك قادش للسلام مع الكل لعشرات السنين، حتى مملكة ميتاني القوية، وهذا أمر شديد الخطورة، لأن قدرات جيوشهم المجتمعة قد تصل إلى خمسين ألف جندي".

كسا الوجوم وجوه كل من بالقاعة، قال تحتمس: "هذا عدد ضخم جدًا، فلا يتعدى جنود الأرضين خمسة عشر ألفًا، ومنهم حوالي ثلاثة آلاف على الحدود للسيطرة على القلاع، ويستحيل أن نسحبهم من مواقعهم". بالمقارنة العددية لن يكون هناك فرصة لصد اعتداء أحفاد العامو الأنجاس!

أضاف سننفري: "تؤكد المعلومات أن قاعدة تجميع الجيوش ستكون في مجدو، للتحرك من هناك لطريق حور الحربي، ومنه لكمت".

قال أنبو حتب الذي حضر عن قاعدة منتفر العسكرية: "على كل الأحوال، عليهم انتظار الحصاد، لتوفير المؤن اللازمة للحملة، وهذا يعني أنهم سيصلون بحد أدنى بحلول الفيضان، لذلك لنا أفضلية، يمكننا التحرك قبل الحصاد وتحديد موقع المعركة المناسب، فنجهز المعسكر ونضع الخطة، وبعد الحصاد نحرك الكمية المطلوبة للشمال بالنهر ثم إلى موقع المعسكر، فنوفر وقتًا ثمينًا".

"هناك أمر لم يلاحظه حضرة القائد أنبو حتب"، أضاف سننفري فانتبه الجميع: "المناخ في كنعان أبرد من كمت، لذلك يتأخر حصادهم شهرًا كاملًا عن موعد حصادنا". ارتاحت أسارير الجميع عدا الملك، فقال أنبو حتب: "لسنا مضطرين إذًا أن نتحرك مبكرًا، نعد الجيش، ونحصل على الحصاد ونتحرك في الموعد المناسب، نختار مكانًا على الحدود نعده للمعركة، مساحة ضيقة بين الجبال، لمواجهة أعدادهم، وطبعًا سيكون تحرك ذلك الجيش الضخم أبطأ كثيرًا من تحركنا، وعندما نصل لبداية طريق حور الحربي، نستعد ونحتل مواقعنا، ونستغل الوقت الفائض في إعادة التدرب على الخطط والمناورات".

أبدى الجميع اتفاقهم على حديث أنبو حتب، تكلم القائد الأربعيني بحكمة بالغة، وتمكن من وضع خطة مبدئية قوية، لكن غرق تحتمس في التفكير اضطرهم إلى الانتظار. قام الملك فجأة ثم صاح بقوة: "كونوا مستعدين لاجتماع آخر"، قالها فسجد الجميع وانصرفوا.

إن ذلك لأمر يستحق التمهل بالقرار، فعادة الملوك التريث، إلا هذا الملك! عادة ما تكون قراراته صارمة وقوية وسريعة، لكن الحرب المنتظرة أقوى وأصعب حرب تمر بها كمت منذ بداية تاريخها، فالبلاد بانتظار تحرٍ أشد من الحقاو خاسوت، لذا من المستحب الانتظار ريثما يصل الملك للقرار المناسب.

فكر تحتمس بضيق في الوضع الحالي، كيف يمكنه تأمين مستقبل واعد لولده أمنمحات، إذا كان عليهم مواجهة ذلك الجيش الضخم، صحيح أن كل شيء لا يعتمد على العدد، لكن هذا العدد لا يستهان به. هذه أول معركة حقيقية في تاريخه، لكنها أشد من كل المعارك التي قادها السابقون، أكان مخطئًا بخطته المخابراتية حين حفز كل جيوش المنطقة ضدهم؟ لقد راهن الرهان، وقريبًا تظهر النتيجة، سيدوّن التاريخ خسارته أو مكسبه، ستكون تلك المعركة إحدى أعظم ملاحم تاريخ كمت، إن لم تكن أعظمها.

توجه تحتمس إلى البرعا عاقدًا العزم على القرار النهائي، بالحديقة كانت مريت رع مع ابنتيهما نبت إيونيت ومريت آمون، مع مجموعة من الهررة داعبتها الفتاتان، رغم قلقه الشديد ابتسم تحتمس لمرأى بناته، فأسرعت الابنة الكبرى لأبيها بينما لحقتها الصغرى، حمل الأب بناته وسمح لنفسه بسنة من الراحة تغمر ابنتيه المحببتين، من بعيد تعلقت عينا مريت رع وقلبها بثلاثتهم، عادة ما وجهت مشاعرها أفعالها بطريقة غبية، أوحت لتحتمس بكرهها له، بينما بقلبها عبدته كواحد من النترو المقدسين، ذابت تحت هجماته التي أثمرت عن ابنتين، لكنه لم يعِ حبها المستتر، فقام بمهمته الزوجية فقط بدافع الواجب، من جهته علاقتهما فاترة، فلم يرقه قط أن تكرهه الفتاة التي أحبته سابقًا حبًا جمًا، أما هي فكلما حاولت التقرب منه بعدت أكثر، وكلما حاولت التعبير عن حبها خانتها ألفاظها ولغة جسدها، لقد عبّر قرينها عن غضب وكبرياء قرأهما تحتمس بسهولة، بينما أرادت هي التعبير عن حب لا يوصف.

اقتربت منه السيدة وسجدت، بينما سيطر قرينها الأحمق على ملامحها التي أصيبت بالجمود، قرأ تحتمس رسالتها المعتادة فأعطاها البنتين، وعاد فورًا إلى حالته الكئيبة بسبب المستقبل المظلم، نظر إلى عينيها قليلًا ثم انصرف دون أي كلمة.

توجه تحتمس إلى مقابلة حتشبسوت بقصرها في البرعا، يكتنفه الغضب، مفكرًا أن تخاذلها عن الحروب أدى إلى تلك النتيجة الكارثية، فكر بالجيش الجرار الذي ينتظر الحصاد لينقض علينا بعقر دارنا، هل من المعقول أن يظل الملك بكل طاقته وخبرته العسكرية تحت عباءة عمته الوصية، وهو بعمر الستة وعشرين عامًا! خاصة مع تردي حالة الملكة الصحية بشدة، فإن كان مبررها لاعتلائها السلطة منذ طفولته هو أن تقود هي البلاد حتى يصبح مستعدًا، فلا هي الآن قادرة على الحكم، ولا هو بعمر أو خبرة أقل من أن ينفرد به، أيعقل أن تقع كمت تحت الاحتلال مجددًا؟ سيقوم جلالته بالحملة حتى دون موافقتها، فهو ابن الشمس، الثور القوي، ملك الشمال والجنوب، ولا يحتاج إلى موافقتها، ستكون محادثة اليوم هي الأخيرة بخصوص الحملة.

خرجت نفرو رع لزوجها الملك بيدها ابنهما أمنمحات ذي الأعوام الست، حمل الملك الطفل برفق وقبله، هو ولي عهد كمت، ومن أجله يمكن لتحتمس قتال الخمسين ألف جندي أسيوي بمفرده إن اضطر إلى ذلك، حتى يرث ذلك الصغير مملكة قوية مترامية الأطراف، يوسع هو حدودها أكثر. لأجل ابنه، ولأجل أبناء كمت أجمعين، لن يتخاذل جلالته في اتخاذ القرار المناسب أبدًا.

قالت نفرو رع: "تطلب منك الملكة مقابلتها في غرفتها، لأن حالتها الصحية سيئة". بدا الوجوم على وجه تحتمس واضحًا، لم يكن حزنًا على حتشبسوت كما بدا لنفرو رع، بل على كمت. مسك الملك بيد ولده واتجه إلى غرفتها، لكن زوجته مسكت يد الطفل وأضافت: "تريدك وحدك". أثارت عبارتها بعض الدهشة، توجه جلالته

إلى غرفة الملكة الجالسة على كرسي بدا مريحًا للغاية، ابتسمت حتشبسوت له وأمرت بخروج الخادمة التي أغلقت الباب، صمت الرجل احترامًا وانتظرها لتبدأ الحديث فقالت: "متى تتحرك للحرب؟".

أثار سؤالها دهشته، فجل خلافهما سابقًا بسبب رفضها التام للحروب والمعارك، أضافت: "يجب مواجهة الجيش الذي يتجمع الآن لاحتلال كمت بقوة كبيرة، وأرى أنك مستعد بالفعل".

باغته رد فعل حتشبسوت على الأحداث، أجاب تحتمس: "سأجهز الجيش فورًا ولتحرك بعد الحصاد، الوقت غير مناسب للتخاذل، أنا.. لم أتوقع موافقتك". ابتسمت حتشبسوت وتحدثت ببطء نظرًا لحالتها الصحية السيئة وما اكتسبته من بدانة: "بعد ولادة نفرو رع، حلمت أنني حامل مجددًا، وبعد إجراء الاختبار تبين أن الجنين ولد، قررت تسميته تحتمس، لكني استيقظت لأعرف أنه حلم، وأن أيست أمك تحمل ولدًا، ؤلدت أنت من رحمها لكني طالما اعتبرتك ابني، ربما لم تسنح الفرصة لأبوح لك بذلك، لكني أحببتك كأني ولدتك. تعرف أن الأقدار تستمتع بالسخرية من حياتنا، كثيرًا ما تساءلت، لم تكون الأمور بكل هذا التعقيد؟ لم يتعقد النترو خلق معضلة لتلازمنا طوال حياتنا، تخيل كم كان الأمر ليصبح مثاليًا بظروف أخرى. لكنني أعود إلى التفكير أن هذا لصالحنا، فكل التهديدات والصعوبات تجعلنا أعظم، وتهبنا دافعًا جنونيًا للنجاح، فلم نكن قط أسرة ملكية مستقرة مملة، لا تكاد حياتهم الرتيبة تنأى بما يستحق التأمل، مات الملك وحكم ابنه كما حكم أبوه ومات وتولى ابنه، لا شيء يستحق الذكر. بينما أنظر إلى حياتنا، فكما يتعرض الذهب لحرارة عالية ليصنع منه التاج، يتعرض الملك لظروف قاسية ليستحق تاجه. لذلك دبرت مع والدك وحابو سنب نبوءة وحي آمون، عندما اختارك في عيد الأوبت، لتدعيم وراثتك للعرش من النتر. في كل الأحوال أنت الوريث المختار، ولا مانع في إثبات ذلك باسم آمون رع، عندما توفي والدك، حرصت على أمنك وسلامتك وتعليمك، وقررت أن تتدرب على العسكرية في واست، تحت إشرافي بسبب خوفي، لكن أقنعني أحمس بن نخبت بإرسالك للشمال، لذلك سألتك بنفسي. ما كنت لأتركك تبعد عن واست قط إن لم ترغب أنت في ذلك، لكنك تحمست للسفر، دعوت كل يوم لآمون رع ليرعاك، ورئت نفرو رع حبك واحترامك مني، أسعد أيام حياتي كان يوم عودتك من الشمال قائدًا عظيمًا، سعدت عندما قررت تنفيذ حملتك الأولى دون تردد، رأيت فيك عمك القوي آمون مس، أنك نسخة منه، تكمل طريقه".

دمعت عينا الملكة في أثناء حديثها وتهدج صوتها، ربت تحتمس برفق على كتفها فقلبت يده، تذكر حينها حضنها الدافئ عندما ضمته قبل سفره لمننفر، ظن قبلًا أن احتجازها له بواست رفضًا منها لتقلده قيادة الجيش، حتى لا يهدد حكمها، كنّ لها دائمًا مختلف المشاعر، لكن الغضب غلب عليها أخيرًا، بسبب التراخي الذي وقعت به كمت، مما عرضنا لخطر الغزو، لكنه يشعر الآن بالشفقة.

رأى الرجل انعكاس عمه الراحل في عيني حتشبسوت، وشعر بحسرة تكوي قلبها، قرأ رسالة قرين الملكة جيدًا، لأصبحت الحياة مثالية إن أنجبت حتشبسوت تحتمس من آمون مس، قالت: "يمكنني الاطمئنان على عرش كمت، لقد قدمتْ مصلحة أسرتنا ورغبة الأجداد على رغباتي الشخصية، أتممت مهمتي على خير وجه وحافظت على العرش، لم أسمح بأن تكون فترة حكمي هي فترة انتقال مؤقتة بين أسرة وأخرى، الحكم بعد اليوم لك ولنفرو رع، هذا يومي الأخير كماعت كا رع، ستعينك نفرو رع على حكم كمت خلال حروبك، فقد تأكدت ما حييت من ذلك، دربتها بنفسي لتحكم مملكة واسعة الأرجاء، أكبر من تلك التي سلمتها لكما، رغم كرهي للحروب والمعارك، إلا أنها ضرورة وعليك خوضها، وأنا سأقضي الوقت القليل الباقي من حياتي أمتع نظري بأمنمحات، وهو ينمو في حماية آمون رع، إلى أن يصير مثلك في يوم من الأيام".

قال تحتمس فورًا: "سيكتب لك آمون رع العمر ودوام الصحة والسعادة، إلى أن يبلغ أمنمحات ويتزوج، وتربين أحفادك". غريب هو أمرهما، كان على وشك خلعها من على العرش قبل بضع لحظات، لكن ها هو يتمنى لها عشرات السنين على العرش.

ما أعجب البشرا

ابتسمت الملكة قائلة: "أديت رسالتي بصدق ويمكنني الموت برضا الآن، حان الوقت لأرتاح، المهمة الآن لكما، أعطاني ملك النترو آمون رع الحكمة والصحة والقوة إلى أن أتممت دوري، أوصيك أن تقوم بطقس فتح الفم لي". اعتصر تحتمس قلبه حتى يقول شيئًا ما، لكن لم يتمكن إلا من احتضانها برفق، استعد بالأصل لمعركة كلامية معها لكنها قلبت كل شيء رأسًا على عقب. انتظرته نفرو رع مع ابنهما بالأسفل، احتضن زوجته فبكت، تسرب شعورهما للطفل الذي كسا الحزن قسماته البريئة.

اختلف العالم كثيرًا بالنسبة لحتشبسوت في السنوات الأخيرة، منذ رحيل سنموت، لم تكف بدانتها الحديثة لملء كرسي العرش، الذي اتسع فجأة بعد رحيله، انطفأت جذوة النار التي طالما ما أضاءت دربها، ظنت دائما أنها خلقت للجلوس على العرش، لكن الواقع أن سنموت كان ملكًا غير متوج. بات واضحًا لها، أن حتشبسوت لم تكن لتصبح ماعت كا رع دون جهوده، إنه مواطن كمتي صالح، وموظف كفؤ دؤوب، ورجل شهم جليل، وعالم عظيم، ومهندس راقي الذوق، أفنى حياته من أجل وطنه، وملكته.

سمحت له أن يُصوِّر في العديد من مناظرها على جدران معبد جسر جسرو، وسمحت له كذلك بحفر مقبرة ثانية، أشبه ما تكون بمعبد جنائزي، متصلة بمعبدها حتى ينال معها القرابين والتقديس، وسمحت له بعشرات التماثيل الشخصية، أغلبها لدوره الأبوي مع نفرو رع، التي أهدته العديد من الهدايا ليحملها موكبه الجنائزي للعالم الآخر، فهو الأب الوحيد الذي عرفته، وقد أفنى كل ما يمكنه وأكثر لخدمتها وخدمة الملكة.

لقد اختلفت أدوار الرجال بحياتها، بدءًا من والدها العظيم تحتمس الأكبر، الذي أعدها للحكم، ثم أمون مس الذي لم تربط أقداره حياتهما، وأحمس بن نخبت المحارب مربي الملكة، تحتمس الثاني الزوج والملك المزعوم، سنموت الملك الذي لم يكن، ثم تحتمس الأصغر، الذي نما نفوذه وقوته حين خبا نور الملكة.

تدهورت صحتها سريعًا بعد وفاة الحاكم الجدير سنموت، وعانت ألمًا ينشر عظامها ويقطع لحمها، بالإضافة إلى زيادة مطردة بوزنها، أخبرها السونو الملكي بعد فحصها والتأكد من علامات ما تعانيه، أن ذلك يفوق عمله كطبيب، نصحها باللجوء إلى الكهنة حتى تصنع لها التمائم، لذا امتلأت غرفتها بتمائم لايمحتب العظيم ابن بتاح، فله كرامات عديدة تساعد المرضى، لعله يرأف بحالتها.

إلا أن وفاة سنموت قد سرّعت من وتيرة تدهورها بشدة. يكتب التاريخ الآن صفحة جديدة لملك شاب، ويطوي برديتها العتيقة.

***

في اليوم التالي جلس الملكان الشريكان على العرش وحدهما للمرة الأولى، تركت حتشبسوت فراغًا ضخمًا، حاول تحتمس السيطرة على قرينه بشدة لعدم تسريب إحساسه بالوحشة، أشرف على عمل نفرو رع في التقارير اليومية، بينما ناقش بهدوء وقوة الإعداد للحصاد، والتجهيز للكميات المطلوبة للحرب مع الوزير وسر آمون. بعد نهاية العمل الملكي اليومي، توجه إلى قاعدة واست العسكرية وأقام اجتماعه مع قادة الجيش. خلال ساعات طويلة راجع مع قادته كل التقارير الحديثة، بالأعداد والجاهزية القتالية والأسلحة، حسب كل ما تحتاج إليه القوات للوصول إلى غزة لملاقاة أحفاد الحقاو خاسوت، والوقت المطلوب للوصول، لكن تلك الحسبة لم تناسب خطته، فبالكاد يكفي الوقت للتحضير.

طرح أنبو حتب سؤالًا هامًا لم يفكر به أحدهم: "ماذا لو خرجنا بالجيش لنجد أن الجيش الآسيوي أجّل خطته للغزو؟".

فكر الجميع قليلًا حتى أجاب سننفري: "ستكون فرصة عظيمة نؤكد بها على سيطرة نفوذ كمت وقوة جيشها، وهو ما يسهّل المهمة ويقلل المخاطر، حينها يمكننا التحرك في العمق الكنعاني، وعمل مظاهرة عسكرية تمنع وصول التحالف الآسيوي لكمت".

أجاب آمون محاب: "أو تكشف تجهيزات الجيش ونستهلك مواردنا، وتنتقل الأخبار للتحالف فيستغلها،

خصوصًا مع ميزتهم العددية، جيشهم المجمع يكبر جيشنا حوالي خمس مرات، ستنعدم فرصتنا حينها في صد الهجوم".

جادل سننفري قائلًا: "أشرف بنفسي على إرسال المعلومات للتحالف، وكل ما يعرفونه -كما أمرت جلالتك- إن كمت تحت حكم ملكة مسنة، ولم يخرج الوريث من المعبد طوال حياته، والجيش في حالة خمول وفوضى وغير مستعد للمعارك".

لذا رد أنبو حتب: "وهذا سبب أدعى للتحرك في سرية تامة، فنحقق لهم خسائر ضخمة تقف دون تخطيطهم لمواجهتنا".

رد سننفري: "لكن...".

قاطعه تحتمس بيده وسأل: "متى تصل معلومة لمررها من البرعا لقادش؟".

أجاب سننفري: "إن كان الأمر عاجلًا فيمكن وصولها خلال شهرين أو ثلاثة".

"شهرين"، أمر جلالته.

فرد سننفري: "تحت أمر جلالتك، ما الذي ترغب في تمريره للأخساء؟".

فكر تحتمس بالأمر مليًا، واتخذ القرار الأصعب كالعادة، إن كان عليه القتال فلن يخرج تحتمس لملاقاة بعض الشرائم، بل يجب مجابهة ذلك الجيش الضخم الذي يرتعب منه القادة الآن، أم أن عليه الخروج بكل قواته لإظهار عظمته وقوة جيشه لتلك البلاد، فقط ليعرف الجميع أن عصر الخنوع الذي غرفت به كمت في عهد حتشبسوت قد انتهى، ما المثير للدهشة في ذلك إذا؟ كيف يمكن أن يختلف ذلك الفعل عما فعله أي من أجداده؟ فما إن رجع تحتمس الأعظم أدراجه بعد انتهاء حملته على آسيا إلا وعاد الأمر كما لم يكن، لذلك يجب على تحتمس ألا يفوّت الفرصة، يجب أن يعرف الجميع أن البرعا أقوى من كل الحكام مجتمعين، سيطرق تحتمس بضربة واحدة قاضية لينتصر على كل الجيوش المتحفزة، لكن يجب التأكد من تواجدهم بأرض المعركة.

قال تحتمس: "بلغهم أن ولي العهد في كمت انقلب على الملكة بمساعدة الكهنة، واستطاع السيطرة على الحكم، وسيكون عيد تتويجه في شهر الحصاد، وستستعد البلاد لاحتفال ضخم جدًا، لتأكيد حكمه!".

***

الشهر الأخير من العام الثاني والعشرين من حكم الملك تحتمس منخبر رع بقاعدة سيلا(30) العسكرية، سميت المنطقة تيمنًا بحصولها جدار الأمراء، اجتمع تحتمس بالجيش وتجمعت القوات للمعركة، فجر أحد أيام الشهر الرابع من فصل برت، فكر تحتمس دائما أن عليه بناء جدار ضخم من الثقة والتآلف مع رجاله، لذلك شاركهم يوميًا في الركض الصباحي فأفعمت الجميع طاقة شديدة، ركض الرجال حول أحد الحصون، التي أنشأها ملوك الدولة الوسطى. لف تحتمس مع رجاله حول الحصن عدة مرات، حتى انتهى الركض الصباحي، تصبب الجميع عرقًا وخفت أجسادهم، دب النشاط بعيونهم الناعسة، وجري الدم بعضلاتهم القوية، انصرف الرجال لتدريباتهم بعد وجبة الإفطار، وانصرف تحتمس مع قادته لاجتماعاتهم اليومية، فيتابع في الفترة الأخيرة -باهتمام شديد- سيل المعلومات والتقارير التي أعدت من كافة الأنحاء، حتى يمكنهم النجاح بحملتهم المستحيلة.

قال انبو حتب: " ستكون مواردنا جاهزة خلال وقت قليل للوصول إلى غزة، مع تجهيز ثمانية آلاف جندي، وألف ستمائة حيوان نقل من حمير وبغال، بالإضافة لخمسمائة مركبة، لكل مركبة حصانان بإجمالي ألف حصان وثلاثمائة حصان احتياطي، تستغرق المسيرة عشرين يومًا، بالوصول ستكون المحاصيل هناك شبه جاهزة للحصاد، ويمكننا توفير مخزون استراتيجي للجيش، بحيث نقلل الحمل على المسيرة، وخلال موسم الأمطار

الفائت امتلأت صهاريج المياه هناك، يمكننا استخدامها ببساطة، سيتبقى فقط كمية المياه التي نحملها خلال المسيرة لغزة، لأن الطريق صحراوي والتقارير عن الآبار تؤكد عدم كفايتها للمسيرة".

نظر تحتمس لسننفري نظرة ذات مغزى، ثم قال الأول: "سنسير بخطة مختلفة"، وأشار إلى سننفري الذي فتح بردية لخريطة كُتب تحتها تقرير. فأشار جلالته إلى الخريطة قائلًا: "سنتحرك لمجدو، وهناك تقوم المعركة". حل الاضطراب محل الصمت القاتم على صدورهم بسبب المفاجأة، فتحزك الجيش حتى مجدو سيعرض الحملة لخطر الهزيمة، التي تهلك كل الجيش، فيصبح مستحيلًا تعويض الخسائر في الأعداد والعدة والعتاد، فقال تحتمس: "أهم عنصرين نعتمد عليهم في خطتنا هما السرعة والضربة المفاجئة القوية، سنعتمد على أكبر قدر من التكتم على المسيرة، ونتحرك بسرعة كبيرة، ونفاجئ العدو في مجدو، تؤكد التقارير أن ملك قادش اجتمع مع باقي الأمراء الأسيويين بالفعل في مجدو، مع العدد الأكبر من عجلاتهم، أما باقي قواتهم ستصل بعد موسم الحصاد، لذا لنا أفضلية في التقدم، لأن معلومة انتظارهم للحصاد أكيدة، ستكون معركة مجدو التحدي الأهم والأضخم".

ارتفعت الهمهمة بعد انتهاء حديث تحتمس، الذي أشار إلى سننفري، فقال الأخير: "مدينة مجدو هي أهم مدن الرتنو، لأنها تسيطر على سهل ضخم، يسمح لحاكمها بمساحة شاسعة من الأراضي الخصبة المستغلة في الزراعة، لذلك تدين له كل المدن والقرى المحيطة بالولاء، كما أنه سيوفر العدد الأكبر من المشاة خلال المعركة لأنه الأقرب، والأكثر نفوذًا بعد ملك قادش رئيس التحالف، المدينة محصنة جدًا، ويستحيل اختراق أسوارها، لأنها مبنية من الحجارة، يصل ارتفاعها لعشرة أمتار، كما أنها مبنية فوق تل منحدر، لذلك لا يمكن اقتحام حصنها، وهو سبب مهم لالتزامنا بالسرعة الكبيرة، والتكتم الشديد، كما أمر جلالة الملك. بمدينة مجدو بئر مياه داخلي، موصل بصهريج تحت الأرض، يكفي احتياج السكان، عددهم حوالي ثلاثة آلاف إنسان، بعد موسم الأمطار تتحول المنطقة كلها لأرض طينية ومستنقعات، إن لم نصل للمدينة قبل الحصاد، سنواجه مشكلة ضخمة في المعركة، وحتى إن وصلنا بالموعد سيكون هناك صعوبة كبيرة في التحرك بسبب المستنقعات".

علق تنتيو الذي لم يبدُ أنه وافق على الخطة المجنونة: "بعد إذن جلالتك، ستضع تلك السرعة الجيش في ضغط شديد جدًا، فالمسيرة بالسرعة المعتادة كارثة، صحيح أن الصنادل الجلدية الجديدة رفعت من كفاءة المسيرة، لكن من الصعب الضغط على الجنود للتحرك أسرع من المعتاد، فنسبة حوادث التصادم والكسور الناتجة عن السرعة العادية لا يستهان بها، والتراب المثار من المجموعة يؤثر على صحتهم، ولا يمكن الدخول في معركة مفاجئة، مع جيش يفوقنا بضعفي العدد، إن وصل الجنود منهكين من المسيرة. هذه الخطة مستحيلة".

اتفق أكثر القادة على ما يبدو مع رأي تنتيو، عدا آمون محاب الذي قال: "جلالتك رفعت سرعة المسيرة بالحملة السابقة، ووصلت القوات للموقع بسرعة أكبر وكفاءة أفضل من المعتاد، فمع وجود جلالتك في المقدمة تكون السيطرة على الحركة أفضل، ويصل الجنود بحالة قتالية ممتازة، لقد نجحت جلالتك في تلك التجربة من قبل".

جادل تنتيو قائلًا: "الحملة السابقة كانت مجرد حملة تأديبية لمجموعة من الهمج، ولم تكن معركة ضخمة مع جيش أكبر وكفاءات قتالية عالية، بالإضافة إلى محاربي الماريانو ذوي الخبرة الكبيرة في الحروب".

قال سننفري: "لذلك ستكون هذه الحملة معجزة، تختلف عن الحملات السابقة كلها، أعظم حتى من حرب التحرير، التي قادها ملوك واست ضد الحقاو خاسوت".

أضاف تحتمس: "نتحرك اليوم الخامس والعشرين من الشهر، نصل لغزة وبعدها نتحرك إلى يحيم، وهناك نعسكر، ثم تُرسل الاستطلاعات، وبعدها التحرك لمجدو".

أشار تحتمس إلى سننفري الذي فتح خريطة مكبرة لمجدو، وبدأ في الشرح قائلًا: "تشرف مجدو على

مساحة معقولة تكفي لتجميع الجيوش، موجودة على ضفة نهر قنا، الجزء الأقرب منه للمدينة مفتوح على السهل. من مدينة يحيم سيكون أمامنا طريقان، الطريق الأقرب هو الطريق الجنوبي، وهو الطريق الموصل لمدينة تنعاك، والطريق الشمالي هو الطريق المؤدي إلى مدينة زفتى، كل طريق منهم له مميزاته وعيوبه، طريق تنعاك الجنوبي متعرج ويصعب كشفه، لذا عند الوصول ليحيم، وحسب الاستطلاعات يمكننا اتخاذ القرار. لو لم يكتشف الآسيويون وجودنا، تسير القوات من خلاله، ولو اكتشفنا سيكون هناك مجموعة مراقبة على أول الطريق، وهكذا نضطر إلى سلوك الطريق الشمالي الأطول لزفتى، وبعدها نتحدر لمجدو، يتميز الطريق الأطول بسعته التي تسهّل حركة التشكيلات العسكرية، لكن يعيبه أنه مكشوف لمسافة بعيدة، لذلك سيتحدد خط السير حينها بناء على الاستطلاعات".

سأل تنتيو قبل أن يزيل سننفري خريطته: "وما هذا الطريق الأوسط؟".

أجاب سننفري: "طريق عرونا التجاري، يمر من خلال جبال الكرمل، مهم جداً للاستطلاع، لكن لا يمكن استخدامه عسكريًا، لأنه ضيق جدًا في أكثر مناطقه ومتعرج، ويصعب مرور العجلات منه في تشكيل عسكري، بالكاد يسمح عرضه بمرور عجلة واحدة، لكن أرضه وعرة جدًا، غير أن مخرجه ضيق ويقع أمام مجدو تمامًا. فلو اكتشفنا الرتنو عند خروج مقدمة الجيش، ستكون المؤخرة عند الناحية الأخرى من الجبل، وهذا يعني تدمير الجيش كله، وبالتالي خسارة المعركة قبل بدايتها".

وضع تحتمس خطة الحرب المبدئية بناء على معلومات سننفري، لكنه قلق دائمًا من التقدم بغير الكفاءة العالية، لذا واظب على تنفيذ مناورات العجلات الحربية، واختبر سرعة النسخة الجديدة من تصميم نفريب، فبعد تجربة النسخة الأولى من ذلك التصميم، أمر جلالته بعمل أكبر ورشة لتصنيع عجلات أكثر تعقيدًا من المصانع الأخرى، لاختلاف أنواع الخشب وطرق التصنيع، لكن خلال بضع سنوات تغير نظام تصنيع العجلات تمامًا، حتى امتلك جيش كمت خمسمائة نسخة متطورة، أدرجت كلها للخدمة. إذا لم يقدّر النترو النجاح لتلك الحملة، لن يمكن تعويض ما سيفقده بالمعركة، مصير كمت الآن على المحك، فالمخاطرة كبيرة، مكسبها عظيم وخسارتها أعظم، لذا لم يترك تحتمس أي شيء للصدفة، فعضد جهاز الاستخبارات، ليحصل على أدق التفاصيل لتعينه على النصر.

تذكر تحتمس بطفولته عندما طالع بردية حكت عن مجلس حرب الملك المبرر كامس، عندما عارض جلالته كل رجاله وقرر التوجه إلى الحرب، على القائد أن يحتفظ بالمعلومات لنفسه، فيشارك بعض المعلومات مع بعض القادة، لكنه هو الوحيد الذي يعرف كل شيء عن كل شيء، وهو الوحيد الذي يرى ما لا يراه الآخرون، وهو الوحيد الذي يتخذ القرارات الصحيحة، حتى إن لم يتفق معه رجاله، فهناك فرق واضح بينه وبينهم، هو مندوب النترو على الأرض وسيلتحق بهم بعد موته، بينما هم بشر عاديون، أعادت تلك الفكرة سنموت إلى ذهنه، لم يكن ذلك الرجل قط من البشر، بل قطعًا كان ممثلا للنترو على الأرض، رغم أنه لم يكن ملكًا وكان فقط بشرًا عاديًا، إلا أنه استطاع قراءة رسائل النترو، كان يجدر به فعلًا أن يكون ملكًا.

وقف تحتمس أعلى أحد أبراج القلعة العتيدة، يراقب حركة العجلات، تابع تدريباتهم بفبطة، بعدما ارتفعت كفاءتهم بشدة خلال السنوات الأخيرة، التي أشرف فيها جلالته بنفسه على تدريباتهم القاسية. حط صقر شاهين على السور إلى جواره، وصاح صيحة قوية، ظن تحتمس أن الرجال بالأسفل سمعوه، لكنه لم يجد من يلتفت إلى الصقر، لا يعير أحد رسائل النترو اهتمامًا، رغم إحاطتها بكل شيء، لكن لفت ذلك انتباهه لشيء آخر، فكما يمثل الملك النترو على الأرض، يفصل بينه وبين باقي البشر مسافة ضخمة، لن يتمكن الجنود من سماع كلماته وتوجيهه في أثناء المعركة، كما لم يتمكنوا من سماع الصقر، لذا وجب عليه فهم رسالة النترو تلك، وإيجاد حل لمشكلة تخبط الأمور في أثناء المعركة.

في اليوم العاشر من الشهر تبقى على التحرك تسعة أيام، وكان بانتظار الجيش أحد أفكار تحتمس العبقرية الجريئة، اجتمع تحتمس مع أنبو حتب وكاف، القائدين الأهم بجيش جلالته.

قال تحتمس: "عندما بدأت التدريب بالجيش كجندي، لاحظت صعوبة تمرير أوامر القيادة، وهو ما قد يضيع الوقت الثمين بالمعركة، ويصعب هذا من تنفيذ مناورات سريعة وجريئة، لذلك سيكون كل منكم قائدًا للجيش".

"ألن تخرج جلالتك للحرب؟"، سأل كاف، رد الملك: "سيكون كل واحد منا على رأس جيش". بدت علامات الجهل بفكرة الملك على وجوههم، فقرر شرح الأمر.

"سينقسم الجيش لثلاثة جيوش صغيرة، لكل واحد فيكم خطة متماشية ومتزامنة مع الآخرين، سيكون الجيش كالصقر حور، وسط وجناحين، سأقود أنا جيش الوسط، بأربعمائة عربة حربية، ويقود كاف الجناح الأيمن، وأنبو حتب الجناح الأيسر، الجناحين لنفس التقسيم، كل جناح خمسين عربة حربية وأربعة آلاف مقاتل، هم المشاة والرماة وقارعي الطبول".

بدا على القادة الانبهار: "لأول مرة يقسم الجيش المحارب لجيوش أصغر، فكرة عظيمة جلالتك، بقدر ما هي خطيرة"، بثبات قال كاف.

أضاف أنبو حتب: "جلالتك تشرفنا بثقتك، لدينا وقت كاف للتدريب على الخطة الجديدة للمعركة، للوصول للكفاءة القتالية اللازمة".

قال جلالته: "سيكون القلب جيش آمون رع، الجناح الأيمن بقيادة كاف جيش بتاح، والأيسر بقيادة أنبو حتب جيش أنبو".

انقضى أغلب اليوم بتوزيع الفرق وتنظيم الجيوش الثلاث الصغيرة، اجتمع القادة بصغار ضباطهم لتنظيم تمرير الأوامر، حتى بدأت المناورات في اليوم التالي، نفذت المناورة الأولى بأداء لا بأس به، تأقلم القادة على تمرير أوامرهم بسهولة، اشتمل تدريبهم بالأساس على القيادة، ومن ضمن مهامهم قيادة حملة صغيرة للقضاء على تمرد ما، أما الجزء الأصعب فهو انسجام واندماج الجيوش الصغيرة مع بعضها في أثناء المناورات.

بنهاية اليوم الأول تدربت فقط فرقتا عربات الجناحين، وقوامهم مئة عربة، بينما تابع الضباط الصغار تنظيم تحرك فرق الجناحين الأخرى. باليوم التالي أمر تحتمس: "اليوم ننفذ المناورة بالجناحين معًا". بأعلى سور القلعة الضخم وقف مع الصقر يتابعان سير المناورة، تحرك الرجال مع قرع طبول المعركة، وشاهدهم هو بعين الصقر التي ترى كل شيء، تفجرت قوة الرجال لتقديم أفضل أداء يرضي جلالته، لكن لم يرَ أيهم القلق الذي ينهش قلبه، لذا وجب التأكد من كل شيء.

استغل الأيام الباقية للتدريب على مناورات ضخمة، لتسعة أيام كاملة نُفذت المناورات بدقة شديدة، لعدة مرات في اليوم الواحد، لاختبار مدى جاهزية القادة للتعامل مع قيادة الجيوش، وتناقل الأوامر فيما بينهم، حتى تأكد تحتمس من جاهزيتهم بصورة مثالية. لقد تعامل القادة مع الأوامر بمرونة، وكأنهم شبوا على ذلك النظام الجديد، فلن يسمح تحتمس بوضع مسيرته العسكرية تحت الاختبار بقصور من أي نوع.

كوى القلق قلبه رغم ثباته الواضح للجميع، وسيطرته على كاه بسهولة، فلم ير أي شخص إلا الملك الشاب الباسم ذا الملامح النبيلة، مهما كان الأمر، لكنه فكر مليًا كيف يواجه جيش صغير، مهما كان مستوى تدريبه جيشًا آخر ثلاثة أضعافه بالعدد، هذا أمر لا يستهان به، لا يمكنه التضحية بأي من رجاله، فهو يعرفهم ويحبهم ويقدرهم، ويطلب منهم المستحيل، فيقوم كل منهم بمقام ثلاثة رجال على الأقل، لذا أمر باستنساخ الدروع البرونزية المصممة من قطع صغيرة متشابكة، والتي ارتداها فقط القادة الكبار سابقًا، لتتاح لكل قائدي العجلات الحربية، خلال سنوات قيادته العسكرية طور كل شيء بالجيش تقريبًا، تابع بنفسه كل الخطوات والتفاصيل، لم يترك قط أي شيء للصدفة، لذا وثق من نجاحه، رغم رهبة الجميع وتوجسهم خيفة من المستقبل، وثق بقوته وجيشه، وثق برعاية آمون رع الذي أشرف على تنشئته، تذكر من وقت لآخر لقاءه مع الملكة، تذكر في لياليه طفولته بالمعبد، وعناءه في منتفر، التي أرسل إليها كاهنًا وعاد محاربًا، فكر كثيرًا كيف

كان ليصبح الأمر إن لم يمت آمون مس، ماذا كان ليحدث لو تشاركا تلك الحملة، كان عمه ليفخر به كثيرًا، فقد أصبح ملكًا عظيمًا تفجرت بقلبه القوة حتى تناثرت على كل من حوله، وانقدت روحه بنار مولتو وآمون رع وسخمت أسياد المعارك.

تساءل تحتمس كثيرًا كيف سيعود لواست؟

أمنتصرًا يحمل الغنائم والأسرى؟

أم جثة سيئة التحنيط كجده الأكبر سقنن رع، ليلقي على عاتق أمنمحات ولده أكثر مما يحتمل؟

واثق هو من تدبير نفرو رع لأمور المملكة، أما إن طال غيابه، وانتهى الأمر بجيش ضخم يصل لأبواب واست، لن يكون للفتاة أي حول لصدهم، ليس هناك خيار إلا الانتصار، لقد وضع حاكم قادش ذلك كليهما في معركة شرسة ستبقي فقط على أحدهما، وقريبًا سنلعن النتيجة، إما أن يرتبط اسم منخبر رع بأعظم الانتصارات أو أسوأ الخسارات.

لقد قرأ مصادر حملة جده تحتمس الأول الموسعة بآسيا كلها، لكن الأمور مختلفة الآن، فالرتنو بكنعان وميتاني والحيثيون والأشوريون عبارة عن عدة مدن وممالك صغيرة متناحرة، ورغم وطء تحتمس الأول أرض غريبة بجيشه، وإرسائه قواعد مملكة كمت بقوة، إلا أن فترة سلام حتشبسوت ذرّت ما قام به والدها هباءً، وشجع تخاذلها الأخساء على التخطيط لاحتلال كمت الطاهرة.

سنُخلّد معركة مجدو أي كانت نتيجتها، لذا أقسم تحتمس ألا يترك أي شيء للصدفة، تسير التقارير -حتى الآن- لصالحه وفقًا للخطة. تأكد جلالته من تمرير معلومات عن مدى ضعف كمت، وحاكمها صغير السن عديم الخبرة، الذي قضى عمره بالمعبد، ولم يعرف عن الحروب والمعارك والعجلات وقرع السيوف شيئًا، حتى وقع الخبير في الشرك، وأعلنها لكل التحالف: "إن كان لنا أن نحتل كمت فلن يحدث ذلك إلا في عهد هذا الملك الشاب". كوى القلق قلب جلالته كل ليلة، مما دفعه لبذل أكبر مجهود ممكن مع رجاله خلال التدريبات كل يوم، حتى يطمئن لقوة جيشه، إن كان عليهم خوض التحدي، فليستعدوا لذلك أفضل استعداد.

تأكد تحتمس بعمق قلبه من نصر آمون رع بالمعركة، التي لن تكون الأخيرة، فلن يكتفي الأخساء بهزيمة واحدة لإثنائهم عن حلم العودة لكمت، فحتى بعد طرد أحمس العظيم أجدادهم، واتباع فلولهم وتنقية الأرضين من قذارتهم، لم تنتهِ معاركهم.

إن الاستيلاء على مجدو في تلك المعركة سيكون كالاستيلاء على ألف مدينة، حتى إن لزم القيام بعدة حملات لتوطيد أقدام مملكة آمون رع في آسيا، إلا أن المعركة القادمة ستضمن له نصف النجاح في كل المعارك القادمة.

اليوم الرابع والعشرين من الشهر الرابع والأخير(31) من فصل برت، أعدت العدة لتحرك الجيش في اليوم التالي، أراد التأكد أكثر من كل التفاصيل، لذلك أصدر تحتمس أمره بالليلة السابقة: "ضعوا نماذج التدريب خارج القلعة، غدا التدريب على الهجوم". كل المناورات السابقة هي تدريب للتحرك وتمرير الأوامر، واختبار جاهزية الجميع لتنفيذ خطة التقسيم الجديدة، لكن الوحوش بداخله لم ترضَ عن التدريب، فلم يكن عنيفًا بما يكفي، لم يحرر شياطين الرجال، لذا في ذلك اليوم شاهدهم تحتمس من الأعلى يتحركون بأوامر قادتهم، تتقدم فرقتا العجلات الصغيرة لتلهب أسهمها قلوب النماذج الخشبية، ريثما يصل المشاة، فينقضون على النماذج بصياح يكاد رع يسمعه بنفسه، أرضاه تدريب اليوم أكثر من ذي قبل، وتسرب بعض الاطمئنان لقلبه.

لذا جمع تحتمس كل رجال جيشه في المساء مغتبطًا وأقام احتفالًا عظيمًا. يربطه مع رجاله رباط قوي، يشبهه الرجال بالجد الأعظم أحمس، الذي تدرب منذ صباه مع رجال الجنوب، كان ذلك العصر الذهبي للجيوش، انتابت كل الأقاليم روح مختلفة، روح التحرير، ويظن أكثرهم الآن أن روح أحمس بُعثت بجسد هذا الملك الشاب، بينما يظن من يعرفه أكثر، أن روح آمون مس هي من بعثت به.

على المائدة الملكية جلس الكثيرون، حتى صغار الضباط، غد ذلك شرفًا عظيمًا، قال تحتمس ببهاء عظيم وقد أفعمت الحماسة قلبه: "غدًا نتحرك خارج حدود الأرض السوداء، نسير في بلاد غريبة، حيث يجتمع جيش ضخم هدفه احتلال أرضنا، يود أحفاد الحقاو خاسوت إعادة نكبتهم. بأمر آمون رع، سنوقف المعتدين، ونبني أول خطوة لإمبراطورية عظيمة يحكمها سيد النترو آمون رع". صاح الرجال بحماس وأسكرتهم نشوة الشجاعة.

امتدت لهم مائدة ضخمة، كما قدم الملك أيضا للجنود، بخلاف لحم البقر المقدد والبط المدخن والفواكه والفجل، كميات صغيرة من الجعة، حتى لا يعانوا السكر فجزًا عند التحرك، أمر جلالته بعزف ألحان أغاني الجيش الحماسية مع إنشاد الجميع، عمت الرجال روح حماسية. كانت خير أمسية لآخر ليلة للجيش في هدوء واطمئنان بأراضي كمت، سيغادر الجيش غدًا للمجهول، ليبذل الجميع جهودًا خرافية في التحرك للحملة المستحيلة، لذا أراد تحتمس أن يحتفل الرجال بآخر ليلة هادئة، قبل السير والتخييم بالصحراء، حتى يحين موعد القتال.

فجر اليوم الخامس والعشرين استعد الجيش للرحيل، قدم انبو حتب تقريرًا عن الإمدادات، لكنه عقب قائلًا: "قد لا تكفي كمية المياه للمسيرة حتى غزة يا مولاي". لكن تحتمس أجابه: "لا تهتم لذلك، ستكفي المياه الجميع"، أذعن القائد للأمر، لكنه بقي متشككًا مع ذلك.

حمل كل جندي عصا ضخمة وربط فيها رمحه وعلق عليها كل حمله، بالإضافة لارتدائهم درع جلد الثور على ظهورهم، وكيس من القماش احتوى على قنينة جلدية للماء وعدة أرغفة من الخبز على أكتافهم، مع سيف قوي تحت الحزام الجلدي، الذي شد على تنورتهم القصيرة لتسهيل الحركة. تحركت التشكيلات العسكرية بنظام شديد وسرعة معقولة وتنظيم رائع، حتى أنهم قطعوا باليوم الأول حوالي واحد وعشرين كيلو مترًا، متخطيين بذلك السرعة المطلوبة.

فكر تحتمس بكل التفاصيل، وحاول بكل الطرق التغلب عليها، شغله حتى ذرات الغبار المتناثرة من وقع أقدام الجنود، لذا أمر بتوزيع كمية مناسبة من القماش لهم، لتغطية أنوفهم وأفواههم خلال التحرك، حتى لا يخنقهم التراب الثائر من تحت عجلات المركبات وأقدام الحيوانات والرجال، بالإضافة إلى كمية مناسبة من الصنادل الاحتياطية حملت في قطار الأمتعة. حافظ جلالته على السرعة المطلوبة حتى بعد أربعة أيام من السير في الصحراء، اقتربت مشكلة كبيرة، قال كاف لأنبو حتب: "لن تكفي المياه المسيرة، يجب إبلاغ جلالته".

أجابه: "أبلغت جلالته قبل التحرك، لكنه عارض رأيي، وأكد أن المياه ستكفي الجميع".

"أتظن أنه يجب علينا الصمت؟".

"إذا أردت فلتقل أنت له"، لذا توجه القائد للملك وقال: "لن تكفي المياه المسيرة لغزة"، ظن الرجل أن الأمر سيربك الملك، إلا أنه لم يبد أي انزعاج ورد بملامح ثابتة: "استمر في الحركة بالسرعة المطلوبة، ولا تحمل هم المياه".

لم يرتح كاف أو أنبو حتب لرد جلالته، كما لم يشكا كذلك بحكمته، من المؤكد أن الملك لن يخاطر بموت جيشه عطشًا بالصحراء قبل ملاقاة أعدائهم، لكن ماذا قد يفعل لحل الأزمة؟

بنهاية اليوم التالي تقدم سننفري مستشار جلالته المجموعة قليلًا، حتى إذا ما وصلت القوات لمكان انتظاره، أمر جلالته باتباع أمر الأخير، الذي حدد مكانًا ميزه بين الجبال، حفر الرجال، وإذ بكمية ضخمة من جرار المياه، حفظت تحت الرمال بأمر سابق من تحتمس ذاته، خطط جلالته لتخفيف الأحمال قدر الإمكان، ليتسنى للجيش التحرك بأقصى سرعة ممكنة بدون تهديد بالعطش أو الإعياء، انبهر القادة بفكرة جلالته، التي لم يعلمها إلاه، ومستشاره الخبير في التنقل بين جبال تلك البلاد، خلال المسيرة استغل الرجال روث

الحيوانات المجفف بدلًا من الحطب، لإشعال النيران اللازمة للطبخ والخبز والتدفئة والإنارة، لذا لم تكن هناك أي مشكلة في تدبير الوقود، فقد رافق الجيش مجموعة ضخمة من الأحصنة والبغال والحمير، كما وفر الملك مصنعًا متنقلًا للجعة، التي لم يكن هناك أي غنى عنها، خاصة مع قيمتها الغذائية، وأهميتها للتخفيف من عناء الحرب.

بظهر اليوم العاشر لبدء المسيرة، وصل الجيش لغزة كما هو مخطط، وافق ذلك يوم تتويج جلالة الملك تحتمس منخبر رع، في المعتاد كان جلالته ليقضي اليوم بالعاصمة متنعمًا باحتفالاته الكبرى وذبح الذبائح وتقديم القرابين، لكن ليس هذا الملك! فلم يملك تحتمس رفاهية الاحتفال، بل كان ليصبح ذلك احتفاله الأخير إن بقي بواست، لذلك اندفع مع رجاله بالصحراء ليصل الجيش لمبتغاه بموعده المحدد.

خيم المعسكر بغزة التابعة لنفوذ الأرضين، من هنا بدأ القلق من كشف تحركهم، إلا أن قوات الاستطلاع التي انتشرت بقيادة سننفري -سيد أسرار الملك ومستشاره- أشرفت على مداخل ومخارج الطرق المؤدية إلى غزة، ولم تتواجد أي قوات آسيوية، يبدو -حتى الآن- أن خطة التمويه قد أثمرت، فلم يتوقع قادة التحالف الخسيس تحرك ملك كمت الشاب إليهم، لذا مكث أمراء الحرب بمجدو مطمئنين، بانتظار حصادهم المرتقب لدعم التحرك، غير أن عدم وجود قوات آسيوية لا يعني بالضرورة عدم كشف الأسيويين لجيش كمت المتحرك، لكنها علامة طيبة بأي حال.

لم يسمح تحتمس بأي احتفال لعيد جلوسه على العرش، ستقام الاحتفالات فقط عند وصول جيش جلالته لمجدو بنفس القدرة والمهارة، لكنه تخيل كيف سيكون الاحتفال في ذلك اليوم إن لم يكن عليه الخروج للحرب، تخيل العاصمة كلها تتزين من أجل جلالته، وتجهز الأضاحي المسمنة بعناية، سيبدأ الاحتفال كالعادة بالمعبد، سيرشه الكاهن الأكبر حابو سنب بالماء، معتمرًا لقناع حورس الذهبي، فكل ملوك كمت هم ممثلون له على الأرض. ستتزين نفرو رع وزوجاته الأخريات بأحلى ما لديهن من زينة ولباس، ويتعطرن بأطيب العطور الجنوبية، حتى تلمع بشرتهن تحت أشعة الشمس، سيلبسه حابو سنب كل التيجان الملكية وحده، سيقف ولده أمنمحات بأفضل ما يلبس الأمير الملكي، ستعم الفرحة البلاد ويستمر الاحتفال لعدة أيام، وستوزع على الجميع كميات ضخمة من الجعة والنبيذ، فيسكر الجميع فرحًا، وتنهال الموسيقى من كل مكان، ويرتفع دخان الشواء حتى تشمه الربة نوت، لكن بدلًا من كل ذلك ها هو يجلس بخيمته الحربية، يمنع الجميع من تمني الأمنيات الجميلة لحكمه، يمنع نفسه عن الاحتفال، وينطلق كالأسد لمواجهة أعدائه، فهكذا يكون الملك.

في اليوم التالي كُسِرَ المعسكر وبدأ التحرك بالمرحلة التالية؛ التحرك ليحيم. المشرفة على مفارق الطرق المؤدية لمجدو. على عكس غزة، وجب التخييم بيحيم لعدة أيام لوضع خطة الهجوم المثالية على مجدو، لن يتنازل جلالته أبدًا عن خداعهم، فالحرب خدعة والحياة رهان.

خلال العشرة أيام الأولى من العام الثالث والعشرين من حكم الملك تحتمس منخبر رع، تمكن الجيش من الوصول ليحيم، اطمأنت فرقة الاستطلاع لخلاء المنطقة من أي قوات آسيوية خلال تحركهم، لكن لم يرتح تحتمس من قلقه، من الواجب أن يغلف الحذر كل حركاتهم التالية بصورة أكبر مما سبق، فلا يمكن التعرض لأي مخاطرة غير محسوبة، حتى لا يقع الجيش بورطة لا يمكن الخروج منها، لذا عسكر بيحيم للراحة، وأرسل الكشافة حتى يتسنى وضع خطة الهجوم، يجب ألا تتغلب شجاعته على حذره.

بسرعة البرق نُصِبَ المعسكر القتالي، مع حفر خندق حوله وتعيين حراسة قوية على حدوده، غرس الجنود المعينين للحراسة رماحهم بالأرض، موجهة للخارج كأوتاد لصد أي اعتداءات محتملة، فالجيش الآن على مسافة خطرة من معسكر الأعداء، ومن المتوقع التعرض لهجمة بأي وقت، لذا لا مجال للمخاطرة، انتظر تحتمس تقارير الكشافة المكتفة عن كل ما يمكن معرفته، لقد وضع روحه على كفه، واضطرب قرينه مع كل مرة أرسل تحتمس كشافته، إلى أن تعود فرقة الاستطلاع ويتأكد من صحة قراراته. خلال فترة وجيزة جهز المعسكر، وجب أن يسمح براحة للرجال، بعد تحرك شاق في مسيرة مُنهِكة لعشرين يومًا متتاليين، لذا سمح

بتوزيع الجعة التي أذهبت عناء الطريق، وساعدت على جلب بعض الغبطة للمعسكر شديد التوتر والجدية، لكنه أراد استمرار روح القتال بالمعسكر مع ذلك، لذا سمح بإقامة بعض المسابقات -غير الصاخبة- بالمعسكر، فلا يستسلم الرجال للراحة، أقيمت المطابخ الميدانية وأرسلت مجموعات صغيرة من الجنود للصيد، مع التنبيه بتوخي الحذر وعدم الابتعاد عن المعسكر بمسافة كبيرة، لم يصطد الرجال في اليوم الأول ما يكفي، فقط جديين بريين وغزال واحد، أمر تحتمس بتوزيع لحومهم بالتساوي على الجميع.

للمرة الأولى منذ بداية التحرك تجرع بضعة أقداح النبيذ، كاحتفال بالوصول لتلك المرحلة دون خسائر، مع اقتراب المعركة ساد التوتر روح جلالته، وبدد ما تبقى من ابتسامته الهادئة. في الخيمة الملكية عقد اجتماعًا مغلقًا لمجلس الحرب، لمراجعة مستحدث البيانات، والتأكد من خطة الإمداد، وكفاءة المعدات، وتقارير الخسائر، ففيما عدا استهلاك الجزء الأكبر من الإمداد، كل شيء على خير ما يرام.

خلال ثلاثة أيام من نصب المعسكر انتهك الانتظار ما تبقى من سلام في النفوس، فضج الجميع بالتوتر، خاصة تحتمس، ماذا إن لم يعد أحد جنود الكشافة؟

إلى متى يجب علينا الانتظار؟

ماذا إن أكتشف تحركهم؟

أو تفاجأ المعسكر بهجوم الآسيويين؟

صحيح أن حصادهم غير جاهز بعد، لكن المسافة بين الجيشين قد لا تستدعي انتظار المؤن، في حالة اكتشاف جيش كمت. وقع تحتمس بموقف لا يحسد عليه، فمع تقدم الوقت، وتطور التحرك قد يتعرض الجيش لمخاطر لا يمكن صدها. صحيح أيضًا أنه أمر بوضع حراسة مشددة، واختار موقع المعسكر ليكشف عن أي اعتداء من مسافة معقولة، كما أنه نشر المراقبين حول المعسكر، مما يؤكد أن جيش التحالف لن يتمكن أبدًا من القيام بأي هجوم مفاجئ، إلا أن المفاجأة ليست المشكلة الوحيدة، فإن قرر جيش الآسيويين التقدم لمهاجمة معسكر كمت ستكون فرصة صدهم ضئيلة للغاية، فأي تحرك آسيوي الآن يهدد بفناء جيش جلالته عن بكرة أبيه.

مر نهار اليوم الرابع بصعوبة بالغة حتى حل المساء، مما دعاه إلى قليل من الاطمئنان، يمكنه قراءة العلامات، وهذه علامة جيدة، وإذ بصباح اليوم الخامس عمت الفرحة المعسكر بعودة فرقة الاستطلاع الأولى، ظهرت ابتسامة جلالته أخيرًا، فأي خبر أحضروه سيكون جيدًا، بما أنهم تمكنوا من العودة بالأساس. سلكت تلك الفرقة طريق عرونا الأوسط مرورًا بجبال الكرمل، وهو الطريق الأقرب لذا كانت عودتهم أسرع.

أمر سننفري مسؤول الاستطلاع بامتثالهم فورًا بخيمة جلالته، كان بانتظارهم انبو حتب وآمون محاب وتنتيو وكاف طبقًا لأمر جلالته، سجد رجال الاستطلاع بين يديه فأمرهم بالحديث على عجل، قال رئيسهم: "تحركنا خلال طريق عرونا الأوسط، لم يبد على معسكر التحالف أي استعداد، ومع ذلك الحراسة وفرق المراقبة شديدة، واحتمال عدم رؤية قواتنا في أثناء التحرك تجاههم ضئيل. وأيضًا هناك فرق استطلاع عند سهل مجدو، قريبًا من مخرج عرونا، الهدف منهم ملاحظة الطريق الشمالي من مدينة زفتى، لكن يمكنهم بسهولة ملاحظة طريق عرونا كذلك. وفي ساحة مجدو تجمعت قوات التحالف، وبتقدير أولي، فهم على الأقل، ضعفان أو ثلاثة أضعاف معسكرنا".

فقال أنبو حتب: "ثلاثون ألف مقاتل تقريبًا، هذا يعني أن بقية الجيش لم تصل".

أضاف رئيس فرقة الاستطلاع: "الساحة الموجودة أمام مجدو ضيقة جدًا بالنسبة لعدد الجنود المعسكرين بها، ولاحظنا مجموعة كبيرة من العجلات الحربية، موجودة في موضع استعداد على المنحدر المبني عليه قلعة مجدو، فيفتح المشاة الطريق وقت التحرك، فتتحرك العجلات بالسرعة القصوى من البداية، وتدخل لأرض المعركة". أنهى الرجل حديثه، فأمر جلالة الملك تحتمس له بمكافأة، على التقرير المفصل، بدأ شعور

الراحة بملء قلبه، بعدما اتخذ القرارات الصحيحة حتى الآن. عادت الفرقة الأخرى فور خروج الأولى، والتي كان عليها اكتشاف طريق تنعاك الجنوبي، فأمر الملك بمثولهم فورًا، وقد غمرته السعادة بعودتهم، قدم رئيسهم تقريره: "الطريق مناسب لتحرك الجيش، لكن هناك فرقة من عجلات الآسيويين عند نهايته، لم نتمكن من معرفة عددهم دون أن نكتشف، لكن عددهم ضخم". صرف الملك الفرقة الثانية وأمر لهم بمكافأة أيضًا، خطته حتى الآن سليمة، لذا يمكنه التقدم بالخيال أكثر، ورفع سقف توقعات الجميع.

أمر تحتمس سننفري بفتح الخرائط فأذعن الرجل، بحضور الكاتب الملكي الذي سجل الجلسة، سأل تحتمس دون أن يظهر عليه أي تعبير: "ماذا تظنون؟".

أجاب أنبو حتب فورًا: "نجهز تشكيلاتنا ونتحرك بسرعة بفرق العجلات، نهجم من طريق تنعاك الجنوبي بسرعة قتالية عالية، نربك عجلات الأعداء ونضغط عليهم بقوة، سيكون من المستحيل إرسال إشارة إلى القاعدة عند مجدو، وحتى إن تمكنوا من إرسال الإشارة، ستكون فرق الرماة والمشاة قد وصلت للمعركة، ومع تنفيذ المناورات نحتل موقفًا مناسبًا، وهو ما يصعّب على جيش التحالف الحركة اللازمة، لأننا سنبدأ الهجوم ونطوره أسرع من استجابتهم، فنفقدهم جزءًا كبيرًا من سلاح عجلاتهم، خصوصًا مع سرعتنا القصوى".

إلا أن آمون محاب لم يتفق مع خطة أنبو حتب، فقال مشيرًا إلى الخريطة: "من الأفضل أن نتحرك من الطريق الشمالي لزفتي، لأنه أكبر وأوسع، ستتمكن من تجميع قواتنا عند بداية الطريق في ستر الليل، فيصعب عليهم اكتشافنا، وعند إشراق رع نتحرك بالسرعة القصوى لمجدو بالعجلات، حينها تكون عجلاتهم منقسمة لقسمين، فنتمكن من العبور والضغط على المشاة المجتمعين أمام ساحة مجدو، وهكذا نكون قد جنبنا الكثير من عجلاتهم الانخراط بالمعركة".

ظل الجدل دائرًا بين القادة، بينما صمت تحتمس مع تركيزه الشديد لفترة طويلة، ناقش الرجال مسيرة الطرق من الأسفل، بينما يرى هو كل شيء من الأعلى مع الصقر، يرى كيف تتحرك الفرق بالطريق الشرقي أو الغربي، إلا أنه فكر في فكرة مجنونة، يعتمد كل شيء على التعتيم، فما اللحظة التي يمكنهم فعلًا الإعلان عن أنفسهم بها؟

يناقش الجميع فكرة التحرك من الطريقين، ولم يخطر على بال أحدهم التحرك بوسط الجبل، تلك فكرة لا تخطر على قلب بشر، بل يمكن فقط للنتر أن يتحمل مخاطرها، بالنهاية رفع يده فصمت الجميع، قال لقادته: "ستتحرك من طريق عرونا الأوسط".

اعترض كل القادة، فقال أنبو حتب: "بعد إذن جلالتك، لا يسمح هذا الطريق بالتحرك في المسيرة العسكرية من الأساس، لأنه لو اكتشفت مقدمة الجيش، فسيمكن بسهولة محاصرتها من تلك الجهة، ومحاصرة المؤخرة من الجهة الأخرى، فيتعرض الجيش كله للخطر، ولن تكون هناك فرصة للتراجع".

اتفق كل القادة مع حديث أنبو حتب، فقال سننفري: "تحركت بهذا الطريق أكثر من مرة، وأؤكد لجلالتك أنه من المستحيل التحرك فيه بتشكيل عسكري، تُفضي نهايته مباشرة لسهل إسدراليون، لذا فاكتشاف التحرك سهل جدًا، ويعرضنا للخطر". اتفق الجميع ضده، ظل الجدل قائمًا لفترة طويلة، رد تحتمس: "بما أنكم مقتنعون باستحالة عبورنا من هذا الطريق، فهم سيكونون مقتنعين بالمثل، لذا سنتخذ هذا الطريق، لأنه أقصر كثيرًا، سيوفر الوقت، ولن يكتشفوا تحركنا إلا عند الوصول، عندما نكون مستعدين للهجوم بالفعل".

حاول الرجال إثناءه عن رأيه بغير جدوى، قال تنتمو: "لو اكتشفت مقدمة الجيش، حتى لو كانت من المشاة، ستدمرهم قدرة العجلات الحربية بسهولة، وحتى لو صدت فرقة المشاة الهجوم وتمكنت من تعطيله، يستحيل تجميع العجلات الحربية في تشكيل، من جوف الجبل للأرض المفتوحة تحت الهجوم". كلامه صحيح، لن تكون هناك أي فرصة للصمود، أمام هجوم العجلات من المشاة فقط، دحر العامو جيش كمت سابقًا واحتلوها، وفرضوا سيطرتهم على مناطق شاسعة بفضل عجلاتهم، التي لم يعتمد عليها أهل الأرضين سابقًا

كسلاح، فعانوا أشد المعاناة تحت أسهمهم النارية ومحاولتهم المضنية لمجاراة سرعتها.

خلال عدة ساعات لم يتفق القادة مع ملكهم، رأى تحتمس حينها مجلس حرب كامس، يتكرر الموقف نفسه الآن، يحاول البشر إثناء النتر عن قراره، لكنه قرار نهائي. فأنهى جلالته الحديث صائحًا: "سأتحرك على رأس جيش آمون رع من طريق عرونا، من يخش خوض هذا الطريق معي، فليختر لنفسه طريقًا". صمت الرجال، وعلموا أن الأمر انتهى، فأجاب أنبو حتب: "كلنا تحت أمر جلالتك، وما تقرره أمر لنفذه جميعًا، نطلب من آمون رع التوفيق، وتحقيق النصر تحت قيادة جلالتك". لم يكن هناك من فرصة لأيهم أن يعترض على أمر الملك النهائي، لذا انصرف القادة مهمومين، عالمين أنها النهاية.

***

في اليوم التالي كُسِر المعسكر، وتحرك الجيش باكرًا من يحيم، بعد قليل ظهرت بداية الطريق الجنوبي لنتعاك، لمح تحتمس نظرة قادة الجيش إليه بحسرة وترقب، تمنوا ألا ينتهي بهم المطاف كوجبة للجوارح على أرض غريبة، بأمره تحرك الجيش، عليهم الدخول من الطريق التالي، طريق عرونا الأوسط، وقعت قرية عرونا على بعد عشرين كيلومتراً من مدينة يحيم، بداخل المدق الجبلي تحت سلسلة جبال الكرمل، الطريق واسع مريح حتى عرونا، مما ساعد على إخفاء معسكر جيش كمت، عن قوات العجلات الحربية الموجودة بسهل إسدراليون، التي ناهز عدد عجلاتها وحدها عجلات كمت كلها. بآخر اليوم وصل الجيش لقرية عرونا، موقعها مناسب لتخييم الجيش، فضرب الرجال خيامهم ونشر تحتمس مراقبيه على بدايات الطرق، حتى يمكنهم اكتشاف أي مجموعة من المقاتلين، وتمنى أن يمر الليل في سلام، تقترب المعركة الكبرى، ورغم خطورة كل لحظة، إلا أن مرورها يثبت لتحتمس صحة قراره.

بعد عرونا تبدأ المتاعب، فالطريق أكثر ضيقًا ووعورة وارتفاعًا، قال سننفري: "من هنا نتحرك خمسة كيلومترات لقمة الجبل عند قرية ميسموس، بعدها نتحرك ستة كيلومترات للنزول من الجبل على سهل إسدراليون، الطريق بعد عرونا لا يسمح بمرور العربات الحربية".

نظر تحتمس مليًا إلى الجبل بوجه خالٍ من التعابير، وقرين لا يشي بشيء، سأل قرينه الواثق، هل يمكن اكتشافهم هنا؟ هل وصل التوتر لأقصى مداه؟ أجابه كاه بلا، بعدما نظر مليًا إلى الجبل من حوله، وشاهده بعين الصقر الذي يعرف كل شيء، ثم قال موجهًا كلامه للقادة المجتمعين حوله: "فككوا العجلات الحربية، سنتسلق بها الجبل، ونركبها مرة أخرى بعد النزول".

اعتلت عيونهم نظرات الصدمة، يقودهم الملك للجنون، لكن تأخر الوضع كثيرًا على الاعتراض، فلم يملك القادة إلا الإذعان للأمر وتمريره للجنود.

لم يمر ذلك دون إشراف جلالته، صاح تحتمس بينما تابع عمل الرجال: "باكا"، فانتبه الجندي باك -الذي يفكك عجلة الملك الذهبية- فورًا، أضاف: "أعرف وزن كل قطعة في العربة، إن نقصت بعد خروجنا سأقطع أنفك".

ضحك الجندي وزملاؤه بقوة، ثم قال باك: "كلنا تحت أمر جلالتك، وسنعود بعشرين عربة ذهبية من عجلات الأخساء"، فصاح الرجال بصوت خفيض قدر ما أمكنهم.

الأمر كانتحار جماعي، المهمة شديدة الصعوبة، ستؤدي لإنهاك الجنود قبل المعركة مباشرة، فتك القلق بقلب القادة المحاولين بصعوبة السيطرة على كاواتهم المتوترة، لن يذكر التاريخ عنهم أبدًا تخليهم عن ملكهم، لذا سار الرجال من عرونا صباح اليوم التالي حوالي الساعة التاسعة، خلال الجزء الأول، من المرحلة الأصعب، في المسيرة الحربية.

نظر تحتمس خلفه إلى أسفل الجبل، فرأى ثعبان بشري يسعى بلا نهاية، صاعدًا خلال المدق الجبلي في جلد وقوة، تنفيذًا لأمر ملكهم الشجاع، في شريط ضيق تحرك به رجلان جنبًا إلى جنب بحد أقصى، تحرك

تحتمس مع فرقة النخبة من المشاة الثقيل -شجعان الملك- الذين اختارهم جلالته شخصيًا بعناية شديدة عن طريق الكفاءة، والكفاءة فقط. خلال المسيرة أراد تحتمس تخفيف التوتر البادي على الجميع فصاح: "ترتيل يقوله سيد عروش الأرضين آمون رع...". وبلحظة اندمج الرجال معه في غناء أناشيد الجيش الحماسية، رغم صعوبة السير والصعود للقمة مع حملهم الثقيل، ودفع الحيوانات الفاضبة، التي اتفقت مع القادة في عدم ملائمة ذلك الطريق لمسيرتهم العظيمة، إرغامهم بسلوك ذلك الطريق مهمة صعبة، فلم تفلح معرفتهم بمشاركة ملكهم العظيم المسيرة بإقناعهم.

وصلت مقدمة الجيش إلى قرية ميسموس قبل انتصاف قرص الشمس للسماء بحالة جيدة، نظرًا لما كان عليهم المرور به، مجرد مشاركته للسير معهم على قدميه أشعل بقلوبهم النار، وبث بالرجال طاقة لم يعلموا بوجودها، أراد كل منهم الحصول على الثناء من جلالته بصفة شخصية، لذا بذلوا أقصى ما يمكن من المجهود المضني حتى يتسنى لهم النجاح.

نظر تحتمس إلى الأسفل فرأى ضفة النهر، تلمع أشعة الشمس على صفحته، فأعاد ذلك المنظر الجميل طاقته، صاح برجال شجعان الملك، أمرهم بالنزول، فوصل بوقت الظهر بنجاح وقوة لضفة نهر قنا، التي ناسبت مساحته تحرك الجيش بتشكيلاته العسكرية، وصل باقي الرجال بحلول الأصيل لضفة النهر في حالة جيدة، توسل إنبو حتب قائلًا: "أرجو جلالتك، فلننتظر المؤخرة إلى أن تتجمع كل الفرق في تشكيلاتها". فاتفق معه كل القادة، فكر تحتمس أنه ربما يمكن الآن الاستماع لرجاله، فيجب ألا يغفل الملك كل أراء مجلسه، رضخ لمطلبهم فمرت الدقائق التالية بصعوبة بالغة، بعدما عصف الرعب بقلوب القادة، سهّل صِغر المسافة مهمتهم رغم صعوبة الطريق، استغرق الرجال ست ساعات للعبور من قرية عرونا، صعودًا ونزولًا، حتى ضفة نهر قنا، ومنها تحركت القوات للأمام حتى أقرب منطقة ممكنة من مدينة مجدو.

فصل بين قوات الكمتيين، ومجموعة عجلات التحالف المراقبة كيلومتر ونصف الكيلومتر فقط، تحت ستر الجبال، ألقى جلالة الملك أوامره بالصمت، حتى لا يلفت الانتباه بأي طريقة، يقترب الحلم من التنفيذ، هل ينصر آمون رع رجاله أم يتخلى عنهم؟

غطت الأشجار الكثيفة المسافة بين موقع تجمع الجيش، وعجلات المراقبة الآسيوية، مما مكن الرجال من الاختباء تحت جنح الغصون الخضراء، نظر تحتمس إلى الأفق وعلم أنه تبقى فقط ثلاث ساعات من ضوء النهار، حتى يتسنى له تجهيز معسكره وترتيب هجومه، بحلول المساء أمر بعدم إشعال النار كالمعتاد، حفر الرجال خندقًا مناسبًا حول معسكرهم المستطيل، حتى لا يتمكن العدو من القيام بأي هجوم بعجلاته داخل المعسكر إن اكتشفهم.

رغم دهاء الخطة إلا أن المخاطرة الكبيرة غرست القلق بقلب المعسكر، إن كان الرتنو حذرين بما يكفي لأمكنهم اكتشاف المعسكر، لكن جلالته راهن على ما دسه بفم قادة التحالف من معلومات مغلوطة عن ملك ضعيف، عاش عمره بالمعبد كرهينة تحت كنف عمته الملكة، التي لم تحرك ساكنًا قط تجاه ضياع نفوذها في كنعان، ومن ثم انقلب الملك الصغير على العجوز بقيادة الكهنة. لذا وثق أمراء الرتنو أن مواجهتهم مع الملك الشاب -إن حدثت- لن تكون أبعد من مننفر على أفضل تقدير، لكن الخطر في كل الأحوال قائم.

وقعت خيمة جلالته بمنتصف المعسكر تمامًا، زُص حولها القسم الأكبر من العجلات، بالإضافة للحرس الملكي وشجعان الملك، وتباعًا زُصت جميع الوحدات والمعدات داخل المعسكر، فقط مجموعة واحدة خارج المعسكر للمراقبة والاستطلاع والحراسة.

حل المساء بسلام، أمر تحتمس: "اليوم يأكل الجنود من أكل الملك، فقد وضع جميعهم أرواحهم على كفهم من أجلي، لذلك سيشاركونني طعامي وشرابي، وتوزع البيرة على الجميع، والضباط كلهم سيأكلون عشاءهم الليلة معي".

اغتبط كل من بالمعسكر لأمر الملك، ربما هذا هو أكثر ملك متواضع وشجاع عرفته الأرض السوداء، وربما هو الأكثر جنونًا!

مر المساء سريعًا، وشعر الجميع بالامتنان، ما أفضل أن يشعر الرجل بتقدير عمله، يطلب منهم الملك تحتمس منخبر رع المستحيل، لكنه يكافئهم على ذلك بمكافآت مستحيلة، يتمنى كل فرد بالمعسكر الآن التضحية بحياته من أجل هذا الملك الطيب، يندمج قلبه مع قلوب رجاله، يرعاهم ويهتم بحالاتهم.

داخل خيمته المكتظة بالرجال قال الملك مغتبطًا بعد العشاء الفخم: "أنتم رجال آمون رع، تصدون المعتدين، تنشرون اسمه في الأراضي الغريبة، في حملتنا الأولى أعدنا السيطرة على أراضينا، لكن غدًا نعيد السيطرة على أرض النتر، ناموا جيدًا هذه الليلة وارتاحوا، غدًا نستولي على مجدو، الاستيلاء على مجدو كالاستيلاء على ألف مدينة، عندما يكتب لنا آمون رع النصر، يصير كل منكم أغنى عشرات المرات، ونعود إلى أهلنا بالنصر والغنائم".

صاح الرجال بحماس، يتحدث الملك معهم بصيغة الجمع، كأنه أحدهم، كأنه زميل لهم، يعرفهم ويعرف أسماءهم، غدًا سيبذل الرجال كل نفس، غدًا المعركة الحاسمة وسيتطلب الأمر القوة الضاربة القصوى لجيش جلالته.

***

اجتمعت بقلعة مجدو مجموعة صغيرة من أمراء التحالف، أهمهم على الإطلاق ملك قادش رئيس التحالف، وأمير مجدو الذي سيوفر الجزء الأكبر من الإمدادات، في أثناء عشاء شمل ما لذ وطاب مما يليق بقيمة التحالف، قال حاكم مجدو: "سننتظر أسبوعين حتى يجهز المحصول، وتصل باقي القوات، بعدها نتحرك لجائزتنا الذهبية مشر، المجد ينتظرنا، حتى نحقق كل ما حققه الحقاو خاسوت العظماء، فعلى مر التاريخ لم يستطع أحد أن يجمع كل هذه الممالك على رأي واحد، حتى يعم السلام بالمنطقة، بفضل حليفنا الأعظم طارقو ملك قادش". أشار الرجل من رأس المائدة بيده إلى الرجل المقابل له، فصاح الرجال لتحية رئيس تحالفهم.

ناهز طارقو خمسة عقود، يمتلك بعينيه القويتين ما يكفي لصهر أعدائه، عمل خلال عشرين عامًا على وقف المنازعات التي التهمت المنطقة، وحصد بفضل دبلوماسيته وشخصيته القوية وعظيم حجته الحلفاء، بالترغيب أحيانًا وبالتهديد أحيانًا، وبالمكر في أغلب الأوقات. رغب الرجل في الحصول على قلب أرملة كمت منذ عشرين عامًا ونيف، ورغب أكثر بالحصول على كرسيها، لكن اللعينة المتشبهة بالرجال رفضت طلبه بكبر، ها هو خلال عقدين من الزمان جمع المعلومات الهامة عن كل ما يحيطه، تطلبت المرحلة الأولى إقرار السلام بين إماراتهم المتنافرة كالكلاب الجائعة، ومن ثم سعى لجمع كل أمراء منطقته تحت رايته، مهمته الأصعب هي توجيه أهداف مملكة ميتاني، ذات القدرة والنفوذ المتنامين تجاه الجنوب الغربي، حيث بوابة كمت التي تشرف على كل خيرات القارة السوداء، فلا يمكن لأحد أن ينسى لكم وصل الحقاو خاسوت من نفوذ وقوة وسطوة، بتمكنهم من السيطرة على مملكة كمت، عانى الرجل بشدة ليدرج مملكة ميتاني ضمن التحالف، إلا أن الجائزة تستحق، عمل جاهدًا على إثبات جديته وقوته للسيطرة على التحالف، خلال مجهود مضنٍ، بثق فكرته في قلوب ممالك المنطقة، لتكوين جيش ضخم، لم يحدث قط بكل التاريخ أن يُجمّع ذلك العدد الهائل من المقاتلين والممالك، التي تصارعت بشدة فيما بينها، لكن رجلًا بقوة ملك قادش حقق الهدف أخيرًا.

بعد انتهاء الأمسية صعد الرجلان الأهم في التحالف لأعلى الأسوار، رغم حلول الظلام إلا أن مشهد الجنود من أعلى مبهر بحق، قريبًا سيمتلئ الوادي بجنود التحالف، ما يزيد عن ستين ألف مقاتل، تجمع بالوادي ألف عجلة حربية فقط، تمتلك قوات التحالف ما يزيد عن ذلك العدد بأكثر من خمس مرات، لكن تقرر أن ثلاث آلاف عجلة حربية منهم سيقودون الحرب ضد كمت، ستصبح معركتهم ملحمة، تتغنى بها الممالك لقرون طويلة، تساءل باحمر حاكم مجدو: "خلال ثلاثة أسابيع تصل باقي قوات ميتاني؟".

٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠

أجاب صاحب قادش: "أنسيت يا باحير قرارك؟ لولا قلقك من إطعامهم لوصلوا بالفعل، لا تقلق، سيسير كل شيء حسب الخطة".

قال باحير: "الشيء الوحيد المطمئن هو وجودك هنا، وهو ما يعطي جدية للحملة، يستحيل أن نتوقع وصول الأمراء بجيوشهم، إلا إذا صاروا متأكدين من وجودك". نظر الرجل بفخر إلى النيران التي ملأت الوادي وسهل إسدراليون على مرمى البصر وقال: "انظر يا باحير، هؤلاء الجنود والعجلات ومحاربو الماريانو هم نصف الجيش فقط، عندما يكتمل عددهم سيخلفون نهر مشر قحلًا إذا شربوا منه فقط، لن تأتي فرصة أحسن من هذه لنضع أيدينا على مشر، يمكنك أن تفهم مقدرة الجيش الكامل لقوات تحالف من خمس وثلاثين مملكة، لم أتمكن من الانتظار حتى يستعد كل جيشي لأحضر إلى مجدو، ولن يحضر الأمراء إلا تأكدوا من وجودي، لذا لم أحضر معي إلا ربع الجيش".

ما زال أمراء المدن الهامة من صير وصيدون جنوبًا، حتى حلب شمالًا في مرحلة التحضير، ورغم جهد ملك قادش -الواقعة بالمنتصف تقريبًا بين مجدو جنوبًا وحلب شمالًا- المضني، إلا أنه لن يتحرك أي أمير بجيشه ومعداته وإمداداته قبل أن يتحرك ملك قادش أولًا، رغم أن ما وصل به أقل حتى من ربع جيشه، إلا أنها علامة على انخراطه الرسمي بالحملة، فلن يجازف الرجل بإرسال جيشه كاملًا دون أي إمدادات، وبنفس الوقت لا يمكنه انتظار جاهزية جيشه. "أين تظننا نقابل جيش مشر؟"، تساءل حاكم مجدو فأجاب طارقو: "يجب أن نستعد لمقابلتهم في سيلا عند المنطقة التي يقولون عنها جدار الأمراء، وهذا إن كان لديهم من الذكاء ما يسمح لهم بمعرفة تقدمنا، سيلا قريبة من قاعدة مننفر، وهي أهم قاعدة لديهم، إن كسرناها ضمنا النصر، وكل المعارك التي تخلفها ستكون أسهل كثيرًا، صدقني يا باحير لو أردنا أن نحتل مشر، فلن يكون هذا إلا في عهد الملك الشاب، فقد قضى كل عمره بالمعبد، ولا يعرف أي شيء عن الحكم ولا الحرب".

خلال تجوالهم الليلي تقدم أحد الرجال يحمل أمرًا، أمره حاكم مجدو بالتحدث، فهمس ببضع كلمات في أذنه أثرها كالموت، شاهد ملك قادش الصدمة الدامية في عيني حليفه القوي، لكنه لم يتخيل قط ما حدث، "جيش مشر خيم على ضفة قنا!"، قالها حاكم مجدو مرتعدًا، وقع الخبر عليهم بصدمة قوية، فبينما ظن الجميع أن أول معركة تجمعهم ستكون خلال شهرين في سيلا، فوجئ الجميع بوجودهم على أعتاب مجدو.

في لحظة دب الانتباه بعقول أمراء التحالف السكارى، ساد الصياح وإلقاء الأوامر بتجميع كل العجلات بساحة مجدو، إلا أن تلك كانت كارثة بحد ذاتها، فوجود جيش مشر على ضفة قنا، يعني عدم وجود مساحة مناسبة لنشر عجلات التحالف لمواجهتهم، الساحة أمام مجدو عبارة عن مستطيل صغير بالكاد يكفي رجال المشاة مع ثلاثمائة عجلة بحد أقصى، لم تكن هناك فرصة لأن يهجم جيش مشر ليلًا، لذا كان أمام قادة التحالف مهلة حتى الصباح ليستعدوا، دب الرعب في معسكر التحالف، لم يهنأ أي شخص بنوم مناسب للمعركة.

خلال وقت طويل، شُدِّد على الحراسة، وحاول التحالف وضع خطة للدفاع، خلال الهرج حاول ملك قادش بث الطمأنينة بقلوب الأمراء المذعورين وجنودهم المرتعشين، كان الأمر بغاية الصعوبة، فنقل الأمراء اضطرابهم لجنودهم، مما دفن المعسكر في حالة كرب شديدة، بذل طارقو مجهودًا مضنيًا في محاولته للسيطرة على الأمور.

بصعوبة بالغة جُهز المعسكر، بعدد كبير من العجلات على التل الذي استقرت بقمته قلعة مجدو، لتصبح في وضع مناسب لاكتساب سرعة قتالية، ثم وُضِع كل رجال المشاة بالصندوق التكتيكي في الساحة أمام القلعة، مع ثلاثمائة عجلة حربية أمام الساحة، وبرعب انتظر الرجال قرع طبول الحرب، فرصتهم الوحيدة للنجاح تأجيل المعركة...

***

صباح اليوم الخامس من الشهر الأول من فصل شمو(32)، استيقظ تحتمس منخبر رع واستلم تقارير المعسكر. مر الليل بسلام والقادة مستعدون برجالهم للتحرك، اغتبط بالتقرير كثيرًا، هذه هي الليلة الأصعب على الإطلاق، وها قد مرت بسلام، يتوقف الباقي من المستقبل على عملهم. أمر بكسر المعسكر الأخير، وانقسم الجيش لثلاث مجموعات، مجموعة القلب التي قادها تحتمس وهي عبارة عن أربعمائة عجلة حربية، وجيش الميمنة والميسرة اللذين تكونا من أربعة آلاف مقاتل مع كتيبة من خمسين عجلة حربية.

اعتلى تحتمس منخبررع المجد على عجلته الحربية من الذهب الخالص، كحور الذهبي رب الملكية، يرفع بالفخر أنفه لعنان السماء، أعطى الأمر للجيش، فتحركت الفرق الثلاث جنبًا إلى جنب، زلزلت الأرض تحت أقدام الجنود، وصلصلة العجلات، ودق الطبول، ونفخ النفير.

لم تبعد ساحة القتال كثيرًا عن موقع المعسكر، وفي الساعة التاسعة صباحًا وقف رجال التحالف أمام قلعتهم الحجرية، بقلوب مرتعدة وأياد مرتعشة وعيون زائغة. في الأفق، رأى رجال التحالف الصفوف الأولى من جيش كمت، حاول القادة السيطرة على المعسكر، وإطلاق الصيحات ودق الطبول لمناشدة ما تبقى من شجاعة الرجال التي أنتهك أغلبها خلال الليل، وفتك غبار الجيش القادم بما تبقى منها.

بسرعة مدهشة، اندفع جيش كمت نحوهم بطريقة لم تكن العجلات الحربية الآسيوية قادرة على مجاراتها. ومع اقتراب المواجهة، انطلقت العجلات الآسيوية التي تحمل قادة التحالف، بدروعهم وخوذاتهم البرونزية، في محاولة يائسة لصد الهجوم القادم، لكنها بدت غير قادرة على كبح موجة جيش كمت المندفعة.

بترقب شديد ومحاولات مضنية، حاول الضباط السيطرة على معسكر المشاة، ثار الغبار بشدة بينما تقدمت عجلات التحالف، غاصت معركتهم في قلب العاصفة لدقائق قليلة، ثم ظهر قطار مزدوج لا نهاية له من العجلات الكمتية الشبحية، تتقدم بقوة وسرعة شديدتين.

أعطى أمراء التحالف الأمر للرماة الذين احتلوا مناطق مرتفعة من التل، فأمطروا أسهمهم باتجاه عجلات كمت، إلا أن تأثيرها كان ضعيفًا، فخلال ثوانٍ أمطرت عجلات مشر معسكر مشاة التحالف بالأسهم ليجد الرجال أنفسهم تحت سيل من النيران التي حاولوا صدها بدروعهم المنهكة، وما إن توقف وابل الأسهم، حتى اجتاحت قوات مشاة مشر ساحة القتال يحملون خوبيشهم، وهراواتهم الضخمة، ودبابيس القتال المدمرة، وأعملوا الضرب والقتل في معسكر التحالف.

تصادم الجميع في معركة طاحنة نظرًا لضيق المكان المتاح للمعركة، لم يسع المقاتلون تأدية رقصاتهم الدامية وإبراز براعتهم الحقيقية في ظروف كهذه. لقد كانت معركة شديدة الخطورة على كلا الفريقين، فقد تؤدي إلى هلاك الجيشين كليهما نتيجة التدافع. خلال ثوان من بدء المعركة تناثرت الأشلاء واندفعت الدماء من الأجساد، وانتشر الغبار والسخونة بالهواء ولم يعد هناك من متنفس بالمعركة، لقد صارع الرجال ليتمكنوا فقط من التقاط أنفاسهم.

خلال مناورة تحتمس بفرقة عجلاته، لاحظ أن فرقة من عجلات الرتنو على الجانب الآخر من ساحة القتال، في حالة ترقب ولم تشترك بالمعركة. كانت العجلات خشبية بسيطة لا يوحي منظرها بأي ترف، لذا عرف الملك أنها فرقة عادية فلم يفوت الفرصة، وانقض خلال المناورة الثانية باتجاه العجلات الآسيوية بسرعة فائقة، في مطاردة فرقة العجلات التي بدا أنهم انتظروا ذلك الفعل منه، فتحركت العجلات مع صيحات أحدهم لعمل مناورة محكمة.

انقسمت فرقتهم لقسمين، تحركا باتجاهين مختلفين في ساحة واسعة، ودارت فرقتا عجلات الرتنو في شكل نصفي دائرة متعاكسين، تاركة ممرًا في الوسط يسمح بمرور عجلات الكمتيين، أدرك تحتمس خطتهم، فانحرف لليمين قليلًا باتجاه القسم الأيمن، متجنبًا الممر المركزي الذي بدا أنه الفخ الذي أراده الآسيويون.

وخلال لحظات، بدا أن فرقة تحتمس على وشك الاصطدام بعجلات الميمنة، التي حل بتشكيلها الاضطراب،

وعندما أصبحت المسافة بينه وبين عجلات الميمنة لا تتعدى ثلاثة أمتار انحرف الملك الشاب نحو اليسار بسرعة قاتلة، جعلت الآسيويين متأكدين من سقوطه، نظرًا لضيق المساحة وسرعة العجلات، لكن بغرابة شديدة نجحت المناورة، واتجهت العجلات الكمتية للقسم الأيسر من عجلات الرتنو، وبدأ إمطار الأسهم عليهم.

وسرعان ما أدى هذا الهجوم إلى نشر الفوضى في صفوف الرتنو، فتخبطت عجلاتهم وانكسر تشكيلهم. سقط أقلهم، واندفع بقيتهم خلف عجلات الميمنة، التي اتضح أنها تغادر أرض المعركة. طارد جلالته المجموعة لفترة دون توقف، لكن الطريق المتجه إلى الجبال أثار بقلبه الريبة، فقد استحضر في ذهنه لتوان حلمه عندما رأى جده سقنن رع في أثناء سقوطه، ما جعله يتوجس من أن يكون هذا الطريق فخًا لحصار عجلات مشر، لذا لم يتمادَ بمطاردته وانطلق عائدًا إلى ساحة المعركة.

لم تساند رجال التحالف أقدامهم المنهكة، ولا قلوبهم المضطربة، ولا أيديهم المرتعشة، في صد هجوم مشر من رجال المشاة، فبخلاف قوات رتنو التي اعتمدت على العجلات الحربية، كان رجال المشاة هم ذراع جيش مشر القوي، لذا أضحت نتيجة المعركة محسومة، في ثوان لاقى جنود التحالف عقابًا صارمًا.

علم بذلك محاربو النخبة من الماريانو، الذين حجزت عجلاتهم خلف المشاة، فلم يتمكنوا من النزول لأرض المعركة، ولم يكن أكثرهم جرأة ليخاطر بالنزول دون عجلته، لقد أثبتت خطة جلالته نجاحها في تحييد قوة العجلات، بالضغط المستمر على المشاة في معسكرهم الضيق.

حاول محاربو الماريانو رمي الأسهم من الأعلى، إلا أن سحب الغبار لم تسمح لهم برؤية مناسبة، فراح مجهودهم سدى، علم النخبة أن موتهم محقق إن تمسكوا بأماكنهم، فقد فقدت قضيتهم قيمتها، لذلك بدأوا بترك العجلات الثمينة والتقهقر للقلعة للحماية من بطش القوات المهاجمة. وبصعوبة بالغة تمكن القادة من الهرب، أضحى جليًا أن الوقوف أمام خوبيش المشريين الآن يعد انتحارًا، عندما رأى جنود التحالف انسحاب الطليعة للمدينة، علموا أنهم لن يصمدوا أمام الهجوم، فبدأوا بالتراجع فورًا.

أغلق رجال مجدو القلعة في وجه باقي جنود التحالف، وقد أصاب الجميع الذعر من المذبحة القائمة، لم تجدِ نداءات الجنود المتوسلين ولا ترجيهم لفتح الأبواب نفعًا، لذا خلع الرجال ملابسهم لعمل حبل طويل، مكنهم من التسلق على الأسوار، بمساعدة أهل مجدو الذين هابهم ما يتعرض إليه الرجال من ذبح وقهر.

بدلًا من مطاردة جيش التحالف، سقط رجال جيش كمت المحترف في خطأ قاتل، لا تجدر بجيش بمثل كفاءته الوقوع به، تحت وطأة غريزة التملك، انصرف الجنود إلى نهب معسكر التحالف شديد الثراء الممتلئ بالأسلحة والذهب والقلائد والعجلات، فقد ترك رجال التحالف خلفهم ثروة عظيمة ليفروا بحياتهم.

وعندما عاد تحتمس من مطاردته، وجد أن أغلب رجال التحالف قد تمكنوا من الهرب، للمرة الأولى بات ساخطًا صارخًا، لم يره أي شخص من قبل غاضبًا كالآن، وقع الجميع في خوف شديد، بعدما أدركوا أن الضباط لم يسيطروا على الجنود، الذين لاحقوا الغنائم بدلًا من القضاء على فلول التحالف، انساب النصر من بين يدي تحتمس، ليس بسبب قوة العدو، بل لأن رجاله سقطوا أمام شهوة الغنائم، ما أفقدهم فرصة إنهاء المعركة بشكل حاسم.

أمر تحتمس بجمع رجاله فورًا، قبل حصر الغنائم أو القتلى، وعقد مجلس القادة حتى يتسنى لهم اتخاذ القرار، حصر الكتبة نتائج المعركة من قتلى ومصابين كمتيين وأسرى وقتلى من الأعداء، حصر الكتبة موتى الأعداء بطريقة صادقة، ليتأكد الملك من حقيقة التقارير، وقُطع معصم اليد اليمنى لكل القتلى وجمعت في سلال، لحساب عددهم الضئيل طبقًا لعدد الجنود المشتركين بالمعركة، فأحصى الكتبة عدد ثلاث وثمانين يد يمنى فقط، بالإضافة إلى الغنائم الأخرى، كلها للملك، يهب منها ما يشاء لمن يشاء، لذا اجتهد الرجال في جمع الغنائم، حتى يأمر لهم الملك بالمكافآت العظيمة، بناءً على ما جمعوه.

خلال ذلك أقبل أحد الرجال فرحًا، يبشر قادته بعدد كبير من العجلات الذهبية، التي وجدت بمعسكر

الأعداء، عاين سنتفري مجموعة العجلات بنفسه تحت إشراف الملك، الذي اهتم بمعرفة مالكيها، راح سنتفري يبحث بين العجلات حتى صاح فرحًا: "عجلة ملك قادش هنا!"، ففكر تحتمس أن الملك وقع في قبضته لكنه أفلت، كما يفلت الفأر من قبضة القط.

لاحقا جمع تحتمس قادته، وعلى غير العادة، بدا على قرينه الرزين الغضب، واكتست ملامحه الهادئة الباسمة بالنار: "لقد أعطيتكم ثقة وجيوشًا لتنفيذ هجمات سريعة، مررنا من قلب الجبل، وتحركنا في سرعة كبيرة بحذر، وفي النهاية لم تتمكنوا من السيطرة على جنودكم، فيترك الجيش المحترف المدرب المعركة لينشغل بجمع الغنائم، بعدما كانت المدينة في يدنا؟ تركتموها تتحصن، ويهرب إليها الجيش وتغلق أبواب قلعتها، الآن يجب علينا مهاجمة قلعة محصنة، كيف يمكن اختراقها برأيكم؟".

قال آمون محاب: "جلالتك، اختراق أسوار القلعة شبه مستحيل، المكان الوحيد الذي يمكننا الهجوم منه هو الجهة الجنوبية المقابلة لساحة المعركة، ولو هجمنا من هذه الجهة سنفقد الميزة العددية لجنودنا، وسنفقد الكثير منهم في محاولة الاختراق".

أضاف أنبو حتب: من الأفضل أن نحافظ على القيمة العسكرية والسياسية للقلعة، حتى نسيطر عليها، ونتمكن بالتالي من السيطرة على كل المناطق التابعة لها، وهذا لن يحدث لو تهدم منها أي جزء، فيُعرف أنها غير منيعة، وحينها نضطر إلى بناء غيرها".

قال كاف: "رغم أن موقع القلعة سلبية كبيرة لنا، فلا يمكننا الهجوم عليها إلا من الجهة الجنوبية، لكن هي أيضًا ميزة، لأننا لن نضطر إلى بناء سور حول المدينة كلها لنتأكد من عدم هروب أي أحد، كل ما نحتاجه هو مجموعة صغيرة من الجنود للمراقبة، وحينها يمكننا فرض حصار محكم على القلعة".

قال سنتفري: "المدينة بها بئر متصل بالصهاريج، وهو ما يمدهم بكل ما يحتاجون إليه من المياه، ودائمًا هناك مخزون من القمح منذ الشتاء السابق، لذلك يمكن أن يطول الحصار".

رد كاف: "المخزون من الشتاء السابق بالتأكيد لن يكفي سكان المدينة، بالإضافة إلى كل الجنود المحجوزين فيها لوقت طويل، الحصاد كله ما زال بالأرض، وهو ما خططوا لتخزينه، حتى يحصلوا منه على إمدادات للمعركة، وهو ما يعني أنه مهما كان المخزون لن يكفي".

فكر تحتمس قليلًا بكلام كاف الذي ناسب هواه الشخصي، لكنه قال: "يجب التأكد من عدم وصول أي دعم للقلعة، لأننا لا نعرف مَن مِنهم لم يصل بجيشه، ومن الممكن أن نتعرض لأي هجمات لمحاولة استعادة مجدو، يجب ألا نسترخي أو ننسى أننا موجودون في قلب منطقتهم".

رد كاف: "خلال فترة الحصار، يمكننا جمع كل حصاد المنطقة. وبقوة محدودة من الجيش، نخضع المدن الصغيرة المدينة بولائها لمجدو، ونسيطر على المنطقة كلها إلى أن تستسلم القلعة".

اقتنع تحتمس بفكرة كاف، فأمر بضرب الحصار حول المدينة، وبقوة صغيرة أحكمت السيطرة على القلعة. وبعد بضعة أيام بدأ جمع المحصول، خلال ذلك أراد تحتمس إبقاء الجيش على استعداد وفي حالة قتالية مناسبة، تحسبًا لتعرضهم لأي هجمات، لذا سيطر على كل المدن الصغيرة المحيطة وأخضعها، فجنودهم محتجزون بالقلعة المحاصرة، لقد فتحت المدن أبوابها لجيش مشر الظافر وصفروا للقدر الآتم، وسلمت كل المدن ثرواتها لجيش جلالته.

عند عودة تحتمس من جولاته رأى اللون الذهبي يسود الأراضي، تخيل كيف مر الحصاد على كمت، وسعد الجميع رغم المجهود الشاق، بقرب الاحتفال بالفيضان. أمر الملك بجمع المحصول، وأشرف مراقبو بيت الملك على العملية وسجلوا كل شيء. سجلت الغنائم كما يلي: ألف ومائتان وخمسون حصانًا، ألف وتسعمائة وتسعة وعشرون رأسًا من الماشية، بالإضافة لألفي ماعز صغير، وسبعة وعشرين ألفًا وخمسمائة من جوالات الحبوب.

حاول أهل مجدو والصمود بقدر ما أمكنهم، فلم يكن الاستسلام أمرًا هينًا، فالمعتاد في حالات التسليم هو نهب المدن وعقابها، وحرقها، وقتل الرجال، واغتصاب النساء، واقتياد الأطفال كعبيد، لذا صمد أهل مجدو وحاكمها، في انتظار أي بادرة لدعمهم من قادة التحالف الذين على ما يبدو آثروا السلامة، فحتى مع فرار قائد التحالف ملك قادش، ظن أهل مجدو أنه سيجمع الأمراء وينهض دفاعًا عن حليفه، لكن مرور الأيام لم يكن بصالحهم، ومع انتهاء مخزونهم، ماتت كل الآمال، ولم يبدُ أن هناك حلًا إلا الاستسلام.

لذا في اليوم السابع والثلاثين من الحصار(33)، فُتحت أبواب المدينة لخروج ضابط للتفاوض، تقدم الرجل مرتابًا، وحاول إبداء ثقة لا يملكها. وعند نهاية التل، قابل الرجل آمون محاب، فحياه الأول بكل احترام، قال له آمون محاب فورًا: "اليوم بوقت الظهر، يسلم كل الأمراء المتجمعين في المدينة أنفسهم مع أسرهم، وكذلك يسلمون المدينة دون أي شروط"، قالها الرجل وانصرف، تاركًا الآخر خلفه دون انتظار أي رد. وبحلول الظهيرة، رُفعت الرايات البيضاء على سور المدينة، ثم فُتح الباب الذي خرج منه رجال بدا عليهم الثراء والسطوة، رغم الانكسار والهزيمة، فبئس المصير مصيرهم!

صاح جنود كمت المصطفون أمام القلعة المنكوبة بمهابة كأشرس الكواسر، وساد الرعب وجوه الجميع، وتخطى النحيب أسوار المدينة مع سماع صيحات الجيش المنتصر. أعطى جلالة الملك تحتمس منخبر رع أوامر بالثبات عند فتح بوابة القلعة، ونهى عن الدخول أو نهب أي شيء، ومع مرور الوقت سقطت قلوب رجال ونساء مجدو بأرجلهم، فوقوع البلاء أفضل من انتظاره. لقد فر المقاتلون هاربين أمام اجتياح المشريين لساحة المعركة بعد دقائق معدودة من رؤية بطشهم، فماذا قد يفعل أولئك الوحوش بالنساء والرجال العُزل في القلعة؟

خرج صف طويل من علية القوم من المدينة؛ منهم رؤساء المدن المحيطة مع أسرهم، وقليل من أمراء المدن القوية المشاركة بالحرب. بحث رجال تحتمس عن ملك قادش بين الأسرى فلم يجدوه، وتبين أنه تنبأ بنتيجة المعركة، ولم يخاطر أكثر من اللازم بتوريط نخبة رجاله وعجلاته في معركة محسومة، لذا فر بلا عودة عندما طاردهم الملك الشاب.

كانت تلك ضربة قوية أخرى ضد جلالته، لحصد الظفر بملك التحالف الكثير من ثمار الكفاح، لكن رأس الأفعى فر ولن تنتهي المعارك.

سجد جميع الرجال أمام الملك المظفر، والعادة هي أن يفتك المنتصر بالمدن التي واجهته، كرسالة لجميع الأعداء، ليخضعوا لأمر الملك الذي حقق النصر، خاصة وأنهم من بدأوا بالحرب وأرادوا احتلال كمت، لكن رؤية الأمراء المهزومين أوجعت شيئًا ما بقلبه لم يدرك ماهيته حقًا، فبداخل أعماق ذلك الوحش الذي قاد جيشه في مسيرة مجنونة مستحيلة بين الجبال، يكمن كاهن صغير حاملًا لمبخرة، يسبح قلبه في بحر من ألحان معبد آمون رع ملك النترو. أمر الكاهن الصغير جلالة الملك بعدم الفتك بأهل المدينة ورحمتهم. لقد فكر تحتمس منذ علم بأمر استسلام المدينة، فيما يجب أن يكون عليه الأمر لاحقًا، يجب على القائد السماح لرجاله بإطلاق شهواتهم كلها بالمدينة المهزومة، من قتل واغتصاب وسبي وحرق، كمكافأة على ما عانوه من أجل تحقيق النصر للملك، لكن الكاهن الصغير بقلب تحتمس أمره بعدم فعل ذلك، فلا يحب النتر قساة القلوب، لكن ماذا عليه أن يفعل؟

أيسامحهم على كل ما خططوا له ويعود أدراجه؟

لم قاد حملته إذا؟

وهل كان جيش ذلك التحالف وأمراؤه سيرفقون بأهل كمت إن قُدر لهم النصر؟

كلا بالطبع، بل كانوا ليذيقوهم العذاب، ولهدموا معابد كمت، وقتلوا رجالها، وسبوا نساءها، فهذه عادة العامو، وقد اختبرها أهل كمت من قبل.

وصل جد الملك، الراحل تحتمس الأول بحملة قوية إلى قلب مملكة ميتاني المزعومة، لقد عاقب جلالته المدن ثم عاد أدراجه، لتفقد كمت سيطرتها لاحقًا على كل ما حصلت عليه، فما عليه أن يفعل؟

فكر جلالة الملك تحتمس منخبر رع سابقًا بأمر بنيا، الآسيوي الذي حضر لكمت، عاش بها وترعرع وتزوج واعتنق دين أهلها واتخذ لنفسه اسمًا كمتيًا، فكل ولائه لها. كانت تلك عادة متبعة من قبل، باتخاذ أبناء أمراء الأعداء كرهائن، ومن ثم تنشئتهم على علم ودين وثقافة كمت، فيكونون أداة للتحكم بأمراء الأعداء من قلب الوطن، لكن تحتمس طور الفكرة قليلًا!

اعتلى تحتمس عجلته الذهبية، وارتدى كامل عتاده الحربي كملك ظافر منذ الصباح، واستعد لتلك اللحظة. أمر جلالته فقام الرجال من سجودهم يتملك قلوبهم الرعب، بانتظار أمر الإعدام والتمثيل بجثثهم، بعد اغتصاب نسائهم ونهب مدينتهم أمام أعينهم، لكن أنبو حتب صاح من أمام عجلة الملك الذهبية قائلًا: "جمعتم جيشًا ضخمًا لاحتلال كمت، وتمردتم على ملك الأرضين العظيم تحتمس منخبر رع، لكن جلالته رحيم وقرر مسامحتكم، إنه يهبكم حياتكم مرة أخرى، تعودون إلى حكم أراضيكم ثانية تحت لواء جلالته، وفي المقابل تعلن كل ثرواتكم وأرضكم ملك جلالته، ويتم تعيين مندوبين من الأرضين للإشراف على جمع الجزية السنوية وإرسالها، مع سفر كل أولادكم للتنعم بجنتنا، لتعليمهم وتنشئتهم على الأرض السوداء الطاهرة".

سجد الجميع شكرًا لجلالته، مسحوا بالتراب رؤوسهم ندمًا على ما اقترفوه، أحياهم الملك بعد موتهم، لم يظن قط أي شخص أن قائد ذلك الجيش الجبار، الذي ظهر فجأة من العدم، وتحدى كل القوات المجتمعة، لين القلب رحيم.

لقد أمر تحتمس بحساب كمية مناسبة من الغلال، لإشباع المنطقة التي انضمت للتو لممتلكات كمت، وصرفها لحاكم مجدو الذي ابتهل شكرًا للنتر الطيب تحتمس منخبر رع، واعترف بحقه وأقر بخدمته لجلالته ونسله من بعده مدى الحياة.

في خيمته مساء اجتمع تحتمس برجاله، الذين أثنوا على قوته وحكمته ورحمته على العالمين، فلم يفعل ذلك أي ملك من قبل في أي حرب، وربما لن يفعل ذلك أي شخص أبدًا، فجمع جلالته قوة ورحمة بلا حدود، وضبط كفتي ميزانهما بعدل مستحيل، قال كاف: "هذه أفضل رسالة يمكن لجلالتك توجيهها للعامو، وهي أفضل طريقة تعيد بها قبضتنا على كنعان مرة أخرى".

بدوره قال أنبو حتب: "أخشر الجيش الآن في ساحة المعركة، وتمكن بفضل جلالتك، وفضل ملك النترو آمون رع، أن يمد حدود المملكة لأبعد من الحدود التي ورثتها، سنخرج تحت قيادة جلالتك بحملات أكثر، حتى نصل إلى نهارين والحيثيين، ونخضع كل الممالك تحت سطوة كمت".

قال سنفري: "بفضل التطوير الذي نفذته جلالتك في الجيش، منذ أصبحت قائدًا حتى اليوم، ومع النظام الجديد للإدارة في مجدو، سيكون تأثير كمت واضحًا، ولن تكون هناك فرصة لأي خسيس للتفكير بتهديد مناطق أمننا واستقرارنا".

أضاف آمون محاب: "أظهرت جلالتك رحمة عظيمة تليق بالنتر الطيب منخبررع، ونفذت خطط يستحيل أن يفكر بها أي قائد، وخضت مع جيشك في المجهول بشجاعة وقوة مونتو رب الحرب، ظهرت على أعدائك وانتصرت، لقد حققت مكاسب أقوى من جدك العظيم تحتمس الأول".

شكر تحتمس رجاله بعد تلقيه الملق المعتاد، لكنه فكر بخلافهم، فقال: "نحمد النتر آمون رع على رعايته لنا وتحقيقنا للنصر، لكن لجاحنا في إخضاع مجدو لا يكفي لضمان الاستقرار، ومنع العامو من التعرض لممتلكاتنا. إن عدنا الآن فسنفقد كل ما حققنا، بمجرد عودتنا سيفتعل ملك قادش المشاكل ويجمع الأمراء مرة أخرى، خاصة أن أغلبية جيشهم لم يشترك في المعركة، وحتى من اشترك تمكن من الهروب بعد رؤية خسارة حلفائهم، سيعودون لمهاجمة مجدو بمجرد عودتنا، ويتعدون على ممتلكاتنا، لن نعود! الجيش في حالة قتالية عالية، غير

منهك، واستطعنا تأمين غنائم تكفي كل احتياجاتنا لموسم معارك طويل".

أعد تحتمس خطته مسبقًا، فأشار إلى سننفري الذي فتح خريطة للمنطقة، قال الأول مشيرًا إلى الخريطة: "بالشمال من موقعنا هناك ثلاث مدن هم ينعام ونوج وهيرلكيرو(34) للثلاثة ملك واحد، وعلى الشمال منه هناك ميناء هام، هو ميناء صور، يجب تأمينه لنقل حملاتنا القادمة كلها خلال النهر، ومنه للبحر، فنتمكن من الإنزال على الميناء، ونحصل على الغنائم بسهولة على السفن في أثناء عودتنا بعد انتهاء كل حملة".

امتثل القادة فورًا لأمره، وفي اليوم التالي كُسر المعسكر واستعد الجيش للرحيل مع القليل من الغنائم، التي تُرك أكثرها تحت إشراف الموظفين الكمتيين. تحرك الجيش لمدة سبعة أيام وبسهولة انقض على المدن الثلاث الصغيرة، وأخضع مُلكهم بعد مقاومة هزيلة وحصار لم تطل مدته، بسبب سيطرة تحتمس على الحصاد. أحكم تحتمس قبضته بسهولة على مدنهم واغتنم الغنائم، وكما فعل جلالته مع أسرى مجدو فعل معهم، فاتخذ أسرى من بيت الحاكم لضمان ولائه المستقبلي.

اتجه الملك بعدها إلى ميناء صور، الحليف السابق، فقد ناسب موقع الميناء امتداد حملة جلالته، فرغم اقترابه كثيرًا من قادش، إلا أن موقعه تحت الانحناء الشديد لنهر الليطاني، الذي يصب في البحر، يصقب من مهمة ملك قادش كثيرًا، إن قرر الأخير الهجوم على أملاك كمت. لم يكن النهر كافيًا بالطبع لصد أي هجوم عن المدن التي أخضعها تحتمس أو ميناء صور، لذا قرر جلالته تشييد قلعة بالقرب من الميناء، أطلق عليها اسم منخبررع متا رتنو(35).

وضع جلالته لاحقًا نظامًا جديدًا لإدارة الأملاك، فحافظ على ألقاب حكام المدن الخاضعة، من كان ملكًا ظل ملكًا، ومن كان رئيسًا أو أميرًا كذلك، لكن في بعض الحالات أزال تحتمس الملك أو الرئيس من منصبه وعين آخرًا أكثر ولاءً وامتثالًا للأوامر، ومن ثم أرسل أبناءه للعاصمة واست للتعليم والتثقيف وتجهيزهم للحكم فيما بعد. وأصبح كل ملك تحت أمر موظف كمتي رفيع المستوى، مسؤول عن تحديد قيمة الجزية السنوية، والإشراف على جمعها وإرسالها في موعدها، بإمكان ذلك الموظف حسب رؤيته، إزالة أي رئيس أو ملك من مكانه، وحينها يطالب الموظف بإرسال أحد من نسل المعزول من كمت، مع تصريح من جلالته بتقلد الأسير لمنصب الرئاسة أو الملكية، بتلك الطريقة أحكم تحتمس قبضته تمامًا على كل أملاكه، وتأكد من عدم قيام أي تمرد داخل أراضيه.

عند العودة إلى مجدو بنهاية الحملة، اجتمع رؤساء المدن والقرى الذين خضعوا لكمت قبلًا، ثم فُقدوا بسبب ضعف قبضة حتشبسوت على أملاكها، وعدم استجابتها لتضرعهم المستمر طلبًا للحماية من أمراء الرتنو الذين هتكوا رباط الأملاك الكمتية حتى البرى. سجد الرجال لتحتمس وجددوا له الولاء، وطلبوا إقامة حامية مشرية قوية، للإشراف على أمن واستقرار المنطقة من هجمات الأمراء الشماليين. سمع جلالته لتضرعهم، وأسس أكثر من حامية قوية، من عدد مناسب من الجنود والضباط رفيعي المستوى، مع ترقية العديد منهم، كذلك وفر لهم الأسلحة والعتاد الحربي الذي لم ينقصه، فقد حصل جلالته على أكثر من تسعمائة عجلة حربية آسيوية، كغنيمة حرب من معركة مجدو، مكنته من مضاعفة سلاح عجلاته الحربي لأكثر من الضعفين.

***

بنهاية الشهر الثالث(36) من فصل آخت، من العام الثالث والعشرين من حكم الملك تحتمس منخبر رع، عاد جلالته ظافرًا لواست، وصل أولًا لقاعدة سيلا على الفرع البوباسطي للنهر، شعر بالسعادة تغمره بالعودة، لقد كتب لهم آمون رع النجاح، حققت خططه المجنونة انتصارًا ساحقًا، أثبت لنفسه وللجميع أن مكانته اتحدرت من النترو لكمت عند ميلاده، وسيلتحق بهم قطعًا بعد موته. شم رائحة الوطن برضا، وتذكر عندما خرج من تلك القاعدة منذ بضعة شهور بعد إتمامه للعديد من المناورات والمعارك الوهمية، صعد أعلى البرج ليجد الصقر بانتظاره، صاح الصقر بمجرد رؤيته صيحة قوية ثم طار للسماء، كأنها رسالة تأييد، كأنه انتظر

عودته سالمًا. عادت إليه ذكرى قلقه، عندما وقف هنا سابقًا يتابع تدريبات الجيش ويتأكد من فاعلية مناورات عجلاته الجديدة.

أمر ببعض التجديدات في الهيكل الإداري للقاعدة، ثم انتقل بالنهر لمننفر التي قدم بها القرابين للنتر بتاح، وأقام بقصر الحاكم لليلة واحدة، ومن ثم عاد رجال مننفر لأهلهم ولقاعدتهم العسكرية الشمالية، هناك حيث مكث تحتمس قبل أن يصبح ملكًا، عندما بات تحت وطأة سيطرة حتشبسوت على الحكم، لم يتمكن حينها حتى من حكم كمت، بينما أضاف الآن لتوه مساحة مماثلة لحدود بلاده، لقد أثبت تؤا جدارته.

توجه إلى الجنوب قاصدًا واست، مع النصف الجنوبي من قوة جيشه، تجمع كل الكمتيين على ضفتي النهر بكل الأقاليم صعودًا لواست، هلل أهل الأرضين واحتفلوا بملكهم وعودته ظافرًا من حملته الشمالية، مر موكب السفن الملكية مهيبًا، يقطع صفحة النهر العتيد، بكل ما حمله من غنائم وأسرى مقيدين. لقد تضاعفت ثروة كمت من الحيوانات والأسرى فوزًا كنتيجة لتلك الحملة، أما في واست فقد كان الأمر مختلفًا، زفعت الرايات بكل المدينة، وأمرت نفرو رع بصرف كميات ضخمة للشعب من الجعة والنبيذ والطحين.

وصل ملك الأرضين في موكب غير مسبوق، بعظمته وفخامته، وسطوته وجلاله، لم يسبق لأهل واست رؤية هذا الكم الضخم من الغنائم قط، منذ عصر حكم التترو لكمت، ورغم قوة ملوك الأسرات السابقة، الذين عادة ما تنزهوا مع جيوشهم في الجنوب، فمهما بلغت غنائمهم، لم تصل حتى لربع ما أحضره ابن الشمس تحتمس من إمارات آسيا وفيرة الخيرات.

وقفت كل أسرة الملك لاستقباله بفرحة عارمة في كامل زينتهم وحليهم بأبهى ما يكون، رسم الجميع لوحة بارعة الجمال تنبض منها الألوان. وقفت الملكة نفرو رع لاستقبال زوجها، حاملة باقة من أجمل الزهور، خفق قلب تحتمس وذاب بداخله من الاشتياق، زسمت على شفتيه ابتسامة لمرآها، فيمكنها أن تنتشله من أي شعور وتغمره بالسعادة، تبادلا ابتسامة سعيدة أعادت روحهما إليهما، وقف الأمير أمنمحات ماسكًا بيد أمه، اغتبط الملك لرؤية ولده وولي عهده الذي لم يتم عقدًا من العمر، ومن ثم بدأت من فترة ليست بعيدة دروسه بالبر عنخ -بيت الحياة- بمعبد إيبت سوت كوالده، ويشرف على تعليمه حابو سنب كذلك، سيصبح الفتى كاهنًا قبل أن يودع بالجيش، سيتعلم أولا كبح جماح كاه، حتى يتمكن من السيطرة بحكمة على إمبراطورية عظيمة يؤسسها أبوه الآن.

انطلقت الأبواق الفخورة منشدة النصر، معلنة لأهل واست وصول جلالته وذويهم، نظم قرع الطبول دقات قلوبهم المنهكة من الاشتياق، وأفعمتها فخامة موكب بفخر النصر، أمام ساحة المعبد تقدم الكتبة، لإعلان الغنائم التي حصل عليها جلالته. أمر الملك بنقش أسماء كل الإمارات والممالك الخاضعة لعرش كمت على جدار بمعبد إيبت سوت، سيتذكر كل زوار المعبد اسم جلالته لآلاف السنين، ويعلم الجميع حتى نهاية الكون، أي ملك عظيم تمكن من إخضاع الأراضي والسيطرة على الممالك باسم آمون رع.

بدأ تحتمس حينها تقليدًا جديدًا، فأوقف جلالته مدنًا كاملة لتصبح جزيتها راتبًا سنويًا للمعبد، الذي انتظر دائما فيما قبل عطايا ملوك كمت العينية، أما الآن فالمعبد يمتلك مدنًا كاملة بكل جزيتها، فلن تتوقف العبادة بالمعبد على عطايا الملك الشهرية مرة ثانية.

دخلت كمت من ذلك الحين في فترة جديدة من الثراء، الذي حول المملكة لإمبراطورية واسعة الأرجاء شديدة الثراء والسطوة. رغم كل ما بذله حابو سنب طوال الوقت مع الملك الصغير، لم يظن قط أن تكون جائزته الإشراف على كل تلك الثروات العظيمة، أضحى كبير كهنة آمون رع سيدًا لإمارات وممالك لم تطأها قدماه ولن تفعل أبدًا، أي جائزة أنعم بها آمون على خادمه المخلص!

تملكت النشوة قلوب أهل واست، من مشهد الغنائم التي حصل عليها جلالته، فلم يسبق لأكثرهم أن رأوا عودة الملك المنتصر من حملته بالغنائم، حتى من طال عمرهم منهم منذ عصر جلالة الملك العظيم الراحل

تحتمس الأول، وشاهدوا عودته من حملاته، لم يروا ذلك القدر من الغنائم والماشية والذهب والعتاد والعجلات من قبل. أقام تحتمس مهرجانًا من الغنائم، وأمر بتوزيع الكثير من القلائد والذهب والغنائم، لرجاله الأقوياء الشجعان الذين رافقوه لآسيا، وأخضعوا البلاد والعباد تحت أمر آمون رع وتحتمس منخبر رع، باتت المدينة في سعادة غامرة بعد عودة رجالها، بكل ثرواتهم الجديدة غير القابلة للتصديق، وأصبح أمل كل طفل بواست الخروج مع جلالته في حملة لإخضاع الأعداء.

لم تكن حتشبسوت من بين المستقبلين لذا عرف تحتمس أن أجلها بات قريبًا، بنهاية اليوم المنهك توجه إلى زيارتها، لم يتمكن الملك من رؤية حتشبسوت العظيمة الحكيمة، لكنه رأى شبحها ملقى على سرير ملكي، وقرين يربطه بجسدها رباط ضعيف، لقد علم أن النهاية قريبة.

بقصرهما أعدت نفرو رع الفرقة الموسيقية للاحتفال بعودة جلالته، لقد اشتاق إلى ليلة هادئة كتلك، يقضيها بين يدي حبيبته، على أنغام الموسيقى، بينما يحرق البخور الجميل القادم من بونت، استحق تحتمس الراحة بعد حملته تلك.

بغرفته أمرت نفرو رع بخروج الخدم بعدما تأكدت من تمام كل شيء، أثاره رداؤها الخفيف، الذي شف عن جسد غض، اشتاق تحتمس للذوبان به والدماج روحيهما معًا، كأنه لم يخرج للحرب، ولم يتعرض ورجاله للمخاطر والمتاعب. نسي بلحظة كل مشاعره الأخرى في حضنها، ولم يشعر إلا بالارتياح.

ذرفا حبهما وباتا ليلتهما متشبثين ببعضهما، مندمجة روحهما في انسجام، تآلف كا كل منهما مع الآخر، ما أسعده من إنسان، فلا يمكن أن تكون الحياة أكثر مثالية من هذا، أصبح ملكا، روض الصعاب، أخضع الممالك، تزوج بحبيبته، أمّن مستقبل عرش ولده، كل شيء أفضل من مثالي، يحمد النترو ليل نهار على رأفتهم، ويشكر آمون رع على رعايته، أخبرته حتشبسوت سابقًا أن الظروف الصعبة هي ما تصنع الأمجاد، ويجب عليهم ألا يثقوا بالقدر أبدًا، ها هو القدر استقر بعدما روضه الملك الجبار.

اليوم التالي بالبرعا، كان أشبه ما يكون بعيد، غمرت السعادة الجميع، سعد الملك لحضوره الروتين اليومي الممل لقاعة الحكم، بالقاعة حضر الأمير أمنمحات، بعدما سمح له بإجازة من البرعنخ لذلك اليوم.

قال تحتمس: "يجب أن تحضر في البرعا من الآن لتتعلم أمور الحكم، فحتى موعد التحاقك بالجيش، ستعلمك أمك كل شيء في البرعا، وأنا سأعلمك في الجيش، يجب أن تعرف يا أمنمحات أنك ورثت بلدًا عظيمًا، فاستعد لذلك جيدًا".

وقف الأمير الصغير ناظرًا لوالده الملك باحترام، وسجد بعدما أنهى تحتمس كلامه ثم وقف بين عرشي والديه. لقد أنعم النترو على الأرض السوداء بالسلام والاستقرار أخيرًا، لكن ما هي إلا بضع لحظات حتى اقتحم الخبر الحزين جلستهم، طار الصقر للسماء، سافرت الملك ماعت كا رع للغرب، حيث يحكم أوزير عالم الأموات.

عم الحزن البلاد وغطت سحابة سوداء الهواء، تحرك الجميع في سرعة كبيرة لتكريم الملك الراحل، حملت الجثة في موكب عظيم حتى النهر، ولقلت الملكة على المركب العظيم للغرب، وتقدم الموكب حتى معبد جسر جسرو، رقدت بالملح لأربعين يومًا بعدما أزيلت أعضاؤها الداخلية، ثم عوملت بالعطور والزيوت والعسل والصمغ النباتي، ليتمكن جسدها من الحياة لملايين السنين.

في يوم لفها بالكتان بعد انقضاء الأيام السبعين، وصل الملك مع زوجتيه، خرج كهنة النتر أنبو، المسؤولون عن التحنيط بمومياء الملكة، معتمرين لقناع سيدهم برأس ابن آوى، كأول محنط لأقدم مومياء، مومياء أوزير رب الغرب حاكم حقول الأيارو.

في صمت مطبق وجلل عظيم وقف المشيعون، يدور بوجدان كل منهم عواصف فكرية مختلفة، غلب على قلب نفرو رع الفخر والفقد، فلا يوجد على هذه الأرض من يمكنه حل محل تلك السيدة العظيمة، أعظم من

أنجبت كمت من السيدات، تلك التي اقتنصت الملكية، ووأدت المؤامرات، وهيأت الظروف، وأرسلت البعثات، ورممت المعابد، وأرست قواعد المجد، فضل النترو نفرو رع كثيرًا، فقد أهدوها ملكة لتعيش برحمها، وتولد بدمائها، وترث فخرها وقوتها وجمالها وقلبها الثابت، يجب عليها أن تكون خير خلف لخير سلف، فيذكر التاريخ الملكة نفرو رع كما يذكر حتشبسوت وأحمس نفرتاري وأعح حتب وتتي شري.

خليط عجيب من العطف مع الحزم، الأنوثة وقيادة الرجال، العذوبة والهيبة، قد لا تتمكن نفرو رع من حل محل والدتها على كرسي العرش، فكل ما تشعر به الآن هو الألم والحنين، إنها الآن طفلة في الخامسة من عمرها، كل ما ترغب به هو الجري لحضن والدتها، الملفوفة بالكتان منزوعة الأحشاء، فيا له من عالم قاس!

شعرت مريت رع حتشبسوت بحزن شديد، على ما فقدته من أمومة، ليس الآن بالطبع، بل هي فقدت أمها منذ لحظة ولادتها، كأن العالم اكتفى بنفرو رع، الأميرة وريثة الملك والملكة، كأن مريت رع لم تمثل لها إلا عبئًا، كأنه لم يجب عليها الحضور لتلك الدنيا، لكنه ليس خيارها، أكان الأمر ثقيلًا لتلك الدرجة أن تقوم الأم بدورها لفتاتين بدلًا من واحدة!

لم أنجبتها إذا؟

وإذا كانت إنجابها خطأ، لماذا لم تأمر الملكة فورًا بإنهاء حياتها فيرتاح الجميع!

في تلك اللحظة تذكرت مريت رع كل خذلان العالم لها، ربما لو عاش أبوها، لما شعرت بذلك النبذ، لأضحت الطفلة محبوبة تحتمس والدها الملك الطيب. مرت ذكريات أمها مع نفرو رع، رأت الفتاة وجه والدتها متسمًا بقوة شديدة، لقد انتهى هذا الأمر الآن.

حتى زوجها الذي لم ترغب من العالم في سواه، وجوده مجرد واجب وامتثال لتقاليد الملكية، تكاد تعبد هجماته وجسده القوي، لكنها تخفي أناتها، حتى لا تجرح كرامتها، دارت حبها الجم لتحتمس منخبر رع، تحت جبل من عدم الاكتراث، وعدت نفسها أنها لن تعود أبدًا إلى تلك الطفلة البسيطة التي كانتها، لن يرى منها العالم سوى الجمود حتى يومها الأخير.

وقف الملك الأوحد صامتًا، احترامًا لتلك التي حافظت على عرشه، غريب أمر تلك المرأة العنيدة، رغم مرور الكثير من الملكات العظيمات على كرسي العرش، لكن لم تكن أيهن كحتشبسوت. كم لتلك المرأة من قوة، يعرف الآن وهو وليد هذه القوة كيف شعرت تلك المرأة، وعانت حتى هذه اللحظة، عاد تحتمس طفلًا ورأى نفسه يرتمي في حضنها، قبل سفره لمنتفر، كم كان العالم مختلفًا! سيبقى اسم حتشبسوت للأبد على الأرض السوداء، لكن الأمر ليس نفسه بالنسبة لاسم الملك ماعت كا رع! فمن الآن لن يتم ذكر الملك ماعت كا رع أبدًا، بل ستستمر حتشبسوت كزوجة ملكية مقدسة.

سيتذكرها الملايين وتستمر الخدمة في معبد جسر جسرو لحتشبسوت، وآمون رع وحتحور وأنبو، سيقيم تحتمس معبده الجنائزي بجوار معبدها، ليذكرهما الناس معًا، من عالم الأحياء لملايين السنين، بينما تسبح أرواحهما مع النجوم الشمالية التي لا تفنى.

وقف كاهن الخوبيش تحتمس منخبر رع، مرتديا جلد الفهد، كرمز لانتصار حورس على ست، ونفذ طقوس فتح الفم للملكة الراحلة، لتتمكن من الحياة في بيت الأبدية، سار موكبها للمثوى الأخير، وانتهت سيرة جبارة، لملكة ليس لها مثيل، طوى التاريخ لتوه بردية حملت أمجاد المرأة الملك، الوحيدة في التاريخ التي اقتنصت الحكم لنفسها، أقامت معبدًا لملايين السنين، أرسلت أول بعثة موثقة في التاريخ، وأطلقت أول أسطورة ولادة من النتر لامرأة، حكمت لاثنين وعشرين عامًا من الاستقرار، والآن بدأ عصر القوة مجددًا، عاد إلى لعرش الملك المقاتل وريث العظماء، بعد عشرات السنين من السكينة.

ستصبح أراضي العامو والرتنو ساحة تدريب لجيش جلالته، فتح الملك باب المعارك بآسيا بمعركة مجدو، لكن النترو فقط يعلمون متى سينتهي الملك من حملاته، وكم عليه أن يخوض في الأراضي بموكبه الحربي

الذهبي المقدس، حتى تهدأ الأراضي الغريبة، وتتمجد ثروة سيد النترو آمون رع.

قلة من البشر فقط وصلوا لمقبرة الملكة، فيجب أن يحيط بمكانها الكتمان، وقف الملك يضرس الحصى والغبار المتناثر من جراء إغلاق مقبرة ماعت كا رع، يراها للمرة الأخيرة لآلاف السنين، ثرى متى يقوم مومياؤها من مرقده، لتتمجد مرة أخرى للرائين، فينظرون إلى عظمتها التي لا تقارن.

وداعًا يا أعظم ملكة وطأت الأرض بقدميها.

وداعًا يا حتشبسوت، يا مقيمة عدالة قرين الشمس.

لنلقاك أيتها الأم والملكة العظيمة بعد سنين في السماء.

سننظر كل ليلة للنجوم لنرى ابتسامتك العذبة، تطل من رداء الربة نوت، سيدة السماء، على الأرض المقدسة.

لتفتخري ببلادك ومعبدك لملايين السنين.

https://t.me/riwayat2025 عربية وعالمية روايات وكتب حصريا على

يعتبر هذا العمل محاكاة حقيقية لعصر أعظم ملوك قدماء المصريين، لذا كان من الواجب التأكد من دقة كل المعلومات المقدمة للقارئ، وهذه بعض من الكتب التي ساعدت في خروج كاهن الخوبيش بهذا الحال.

• الآثار المصرية في وادي النيل، جيمس بيكي.

• الألعاب والتسلية والترفيه عند المصري القديم، زاهي حواس.

• التحنيط، أحمد صالح.

• الجريمة والعقاب في مصر القديمة، منال محمود محمد محمود.

• الجيش في مصر القديمة عصر الدولة الحديثة، د. محمد رأفت.

• الحياة اليومية في مصر القديمة، ألن و. شورتر.

• الخروج للنهار.

• الدولة والمؤسسات في مصر، چونفييف هوسون ودومينيك فالبيل.

• الشرطة والأمن الداخلي في مصر القديمة، بهاء الدين إبراهيم.

• الطب والعلاج في مصر القديمة، لجلاء حبيب الزحلاوي.

• اللغة المصرية القديمة، لعبد الحليم نور الدين.

• المعبد في الدولة الحديثة في مصر الفرعونية، بهاء الدين نور محمود.

• المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ألفريد لوكاس.

• المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية، د. أحمد قدري.

• آلهة مصر القديمة وأساطيرها، روبرت أرامور.

• تحتمس الثالث: حياة وحروب أعظم ملوك مصر المحاربين، ريتشارد أ. جابريل.

• حتشبسوت عظمة وسحر وغموض، كريستيان ديروش نوبلكور.

• حتشبسوت المرأة الفرعون، فوزية أسعد.

• حتشبسوت من ملكة إلى فرعون مصر، تيريسا بيدمان/ فرانتيسكوخ مارتين فالنتين.

• حكام الأقاليم في مصر الفرعونية، حسن محمد محي الدين السعدي.

• دور الوزير في مصر القديمة، أحمد لفتة محسن.

• طيبة أو نشأة إمبراطورية، كلير لالويت.

• ماعت، يان اسمان.

• موسوعة سليم حسن الجزء الرابع.

• Creativity and innovation in the reign of Hatshepsut (studies in ancient oriental civilization. Number ٦٩. The oriental institute of the university of Chicago).

• Do not celebrate your feast without your neighbors (a study of reference to feasts and festivals in nonliterary documents from Ramesside period Deir el Medina) Heidi jauhianen.

- Theology priest and worship Herman Te Velde.
- Osiris.net

---

(1) النترو جمع نتر وهي كلمة قديمة تعني مقدس، أو فائق للبشر، أو خارق للطبيعة.

(2) الاسيويون/ الهكسوس، تعني بالترجمة الحرفية الحكام الأجانب/ حكام البلاد الأجنبية.

(3) مولود القمر.

(4) قرين/ طاقة الإنسان/ الهالة/ أورا.

(5) لعبة شبيهة بالشطرنج صنعها قدماء المصريين.

(6) الأقصر حاليا.

(7) أنوبيس: مثل على شكل ابن آوى، أو رجل برأس ابن آوى.

(8) كتاب ما هو موجود في العالم الآخر.

(9) الهكسوس.

(10) جرجا الآن

(11) بيت الحياة.

(12) القرين/ القوة الدورانية

(13) المجيب

(14) القوصية بأسيوط.

(15) اهناسيا بيني سويف.

(16) الشعرى اليماني

(17) مطهر

(18) قرين.

(19) جزيرة كريت.

(20) الهكسوس

(21) معبد الأقصر.

(22) أكلة من العدس والأرز، مازال موجودًا بمصر

(23) منصب القاضي ديني ومدني، حيث يعتبر كاهنا لماعت ربة العدل والنظام.

(24) حيوان بري يشبه القط من فصيلة السنوريات يعيش منعزلًا، ذكر في الأساطير القديمة.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

(25) قائد القوات.

(26) تطلق على صغار الفتية المتقدمين للجندية، معناها جميل أو صالح.

(27) أكلة مصرية مشهورة

(28) فلافل / طعمية.

(29) مدينة الزقازيق الحالية بمحافظة الشرقية.

(30) حوالي 10 كيلومتر غرب القنطرة الحالية.

(31) الموافق الثامن عشر من إبريل عام ١٤٧٩ ق.م.

(32) موافق ليوم ١٩ مايو.

(33) الموافق ٢٧ يونيو.

(34) المدن التي شكلت طرابلس.

(35) تحتمس في بلاد الرتنو.

(36) منتصف أكتوبر.

!

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.